سلسلة الفلسفة السياسية العملية في الإسلام

مرايا الأمراء

أو

الحكمة السياسية والأخلاق والتعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط

الدكتور محمد أحمد دمج

مع تحقيق كتاب

قابوس نامه (النصيحة)

بحث في الأخلاق وفلسفة السياسة عند كيكاوس بن وشمگير بن زيار

مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

دار المنال
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٩٤ م
١٤١٤ - ١٤١٥ هـ

© مؤسسة بحسون
للنشر والتوزيع
منشورات بحسون الثقافية - دار المنال
سجل تجاري ١٠٩٥٤ - بولفار سليم سلام - بناية سوق الروشة
تلفون: ٣٠٥٦٢٣-٣١٩١٤٧ - ص. ب ١١/٨٥٠٥ - بيروت - لبنان

مختصرات

ج:	جزء
د. ت:	دون تاريخ
د. م. ا:	دائرة المعارف الإسلامية
را:	راجع
ش:	شمسي
ص:	صفحة
صلعم:	صلى الله عليه وسلم
ط:	طبعة
قا:	قارن
ق. م:	قبل الميلاد
مج:	مجلد
م:	ميلادي
هـ:	هجري.
():	زيادة نقترحها.

تقـــديم

يتبادر لدارسي الفكر الفلسفي الإسلامي، أن قطاعات الفلسفة السياسية الإسلامية ـ النظري والكلامي الفقهي والعملي التطبيقي ـ متداخلة إلى حد لا يسمح بالفصل فيما بينها، لكن الحقيقة تظهر أن الاتجاه التطبيقي العملي، وإن بدا متداخلاً مع غيره ومكملاً لسواه، فإنه مستقل في ذاته ومتميز بابعاده ومفاهيمه وقضاياه، فهو القطاع الأرحب الذي تقبلته الذهنية العربية، ولجأ إليه الخطباء والواعظون على الطبيعة وفي الميدان، وهو نوع من الفلسفة راج استخدامه في المشرق العربي الإسلامي خلال العصور الوسطى، وعرف بأسماء عديدة: فسمي بالفلسفة السياسية العملية أو الحكمة العملية السياسية، وسمي بعلم تدبير المنازل، كما عرف بنصائح الملوك أو «مرايا الأمراء».

وتكشف جميع هذه الألفاظ والعناوين مضامين الحكمة السياسية، وتبين أبعادها وقضاياها ومسائلها، إنها في الحقيقة فلسفة حياة، تعلِّم الناس الفضيلة والأخلاق الفردية وتبحث في آداب السلوك والتعامل، وتتناول السياسة العملية النفعية، فترشد الحكام والأمراء والقادة وتعوِّدهم على اتباع تقاليد الحكم وقواعد السياسة، كما تساعد الحاكم المتنفِّذ في أن يقبض على السلطة بيده لأطول مدة ممكنة.

ويبحث هذا القطاع في موضوع الإمامة ويتناولها من حيث نشأتها وتطورها وأصولها وأبعادها، ويتناول قضايا الإجتماع والإقتصاد والسياسة المدنية، بما فيها تربية الولد والزوجة والخدم، وغيرها من القضايا التي كان يعبر عنها باسلوب وعظي حكمي، فيلجأ الفيلسوف إلى الإرشاد والنصيحة والموعظة، ويقدم الحكايات والمضحكات، ولا يغفل النوادر والأقوال المأثورة.

وتنحصر خصائص هذا النوع من أنواع الفلسفة، في كونه دراسات أخلاقية مصدرها الميدان والبيئة اليومية، وهو فلسفة براغماتية نفعية ترتكز أساساً على عقلية المرشد والواعظ والناصح، ناهيك عن كونه مواقف أبوية، تبحث عن أسباب نجاح الفرد وعن مصالحه الشخصية دون أدنى اعتبار لقيم إجتماعية أو أخلاقية أخرى، وهو أيضاً تصورات وآراء سهلة الإنتشار، قريبة من الأذهان والأفهام، مادية واقعية ترتكز على التجربة، وتعتمد على الوقائع، أي انه ليس دراسات نظرية ولا دراسات في المجرد.

وقد لاح أفق هذا النوع من الفلسفة بالظهور بفعل رواج حركة الترجمة والنقل، ومن جراء اتساع حدود الإمبراطورية الإسلامية، حيث اختلطت المفاهيم والعقليات وامتزجت الحضارات، الفارسية الساسانية واليونانية الهلينستية مع الإسلامية، وأثرت في العقلية العربية حتى أضحت من أهم ينابيع هذا النوع من الفكر ومن أسباب تكونه. فالمفكرون المسلمون تأثروا بالفلسفات الشرقية، الهندية والصينية والرومية والفارسية، وأخذوا بنصائح حكماء الفرس القدماء لا سيما أقوال أنوشروان العادل وأزدشير، كما تأثروا بالفكر اليوناني فنسجوا على منوال «Bryson» مفكر الفيثاغوريين المحدث، الذي كتب في سياسة القوت والزوجة والولد والخدم، كذلك فقد كان الميدان والبيئة الإسلامية، وتجارب الكتاب والفلاسفة منابع غزيرة ومصادر حية لفلسفتهم. كل ذلك انعكس على مرايا الأمراء فجاءت صورة مطابقة تعكس واقع الحياة وظروف العصر، وتصور أنظمة الحكم والسياسات وأخلاق الملوك والعامة وآداب التعامل، وتعبر باسلوب الوعظ والنصح والإرشاد عن الأخلاق الإجتماعية والإقتصادية والقيم المجتمعية السائدة.

كتب في نصائح الملوك جمع غفير من المفكرين والفلاسفة، وبدأ هذا التيار بترجمات «كليلة ودمنة» أو أساطير بيدبا، وبكتاب «التاج» المنسوب للجاحظ. وتطرق الكندي إلى موضوع السياسة العملية في رسالة أخلاقية وجهها لولده حذره فيها من البخل وعدم السؤال، وبحث إخوان الصفاء أيضاً في سياسة الزوجة والولد والخدم، وأوصوا الحكام والقواد والقضاة ببعض الوصايا الأخلاقية والزموهم ببعض قواعد السلوك وآداب السياسة. وأفرد كل من الفارابي وإبن سينا رسالة في السياسة،

تضمنت رسالة الأول جملة من الوصايا التي يعم نفعها على من يستعملها من الناس، أما الثاني فقد كشف في رسالته «السياسة المدنية» شروط سياسة الزوجة والولد والخدم والقوت، واهتم مسكويه بموضوع السياسة المدنية عبر كتابه «تهذيب الأخلاق». ومن خلال كتابي «أخلاق ناصري» «وأخلاق محتشمي» اتضح مدى اهتمام نصير الدين الطوسي بموضوع الحكمة العملية.

وكثرت المؤلفات في هذا الميدان، فقد كتب عنصر المعالي قابوس كتاباً أسماه «قابوس نامهْ»، وألف الوزير نظام الملك الطوسي «سياست نامهْ»، كما ألف الإمام الغزالي «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» عوضاً عن عدد كبير من المؤلفات ذات الطابع الحكمي الأخلاقي السياسي التي وضعها مفكرون سياسيون كابن الحداد في «الجوهر النفيس» وابن الأزرق في «بدائع السلك» وابن الداية، وابن ظفر الصقلي، وابن نباتة في كتابه « تدبير الدول»، فجميع هؤلاء كانوا أصحاب فضل في بلورة هذا التيار الفكري، وفي دفعه بالاتجاه المستقل، وبفضل جهودهم تكشفت ملامح الحكمة العملية وتحددت اطرها وينابيعها وأبعادها وخصائصها وانحصرت مفاهيمها بالعدالة والحرية والسلطة والفضيلة والضمير وغيرها. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم استقلالية القطاع العملي التطبيقي عن النظري فقذ ظل القطاعان متداخلين، فكلاهما يمزج الديني بالنظري أو الفلسفي.

ولعلي بجهدي الدؤوب المتواصل أن أكشف معالم هذا التيار الفلسفي، وألفت الإنتباه إلى عدد من الكتابات السياسية والأخلاقية التي كانت بمثابة تواريخ تسجل حياة المجتمع الإسلامي خلال القرون الهجرية الثلاثة بدءاً من القرن الخامس.

وقد خصصت هذا الجزء(*) من سلسلة الفلسفة السياسية العملية في الإسلام لدراسة الفلسفة السياسية والآدابية الاجتماعية عند قابوس بن زيار وأخرجته في كتابين: الكتاب الأول، عبارة عن دراسة تحليلية موسعة ومعمقة لكتاب قابوس

(*) الجزء الأول من السلسلة هو كتاب «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» المعروف «بنصيحة الملوك» حققته تحقيقاً علمياً وقدمت له بدراسة تحليلية معمقة. وقد نشرته المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر في بيروت عام ١٩٨٧.

نامه، ولمضامين وفلسفة كيكاوس (قابوس) السياسية والإجتماعية والأخلاقية. والكتـاب الثاني عبارة عن النص الحرفي لقـابوس نـامـهْ (التـرجمـة العـربيـة) التي قدمها في الخمسينات محمد صادق نشأت ود. أمين عبد المجيد بدوي وقد قابلت هذه الترجمة بطبعتين فارسيتين: الأولى لسعيدنفيسي والثانية، نسخة متداولة وهي طبعة «١٣١٧ ش كتابفروشي حافظ». كما قابلتها بترجمة «روبن ليفي» الإنكليزية، ومن المعروف أن هناك ترجمة روسية نجدهـا في المعهد الثقـافي الألماني في بيروت.

كل ذلك ساعدني على اخراج الترجمة العربية بلون جديد لا سيما من خلال الحواشي والتعليقات والشروحات المضافة، التي من شأنها أن تغني القارىء وتسهل عليه فهم مضامين الكتاب. ورغم أنني صححت بعض الأخطاء الواردة فإنني لم أحور في المعنى ولم أبدل بالنص، فالترجمة العربية التي بين أيدينا هي جيدة، وغير مشوبة بنقص.

وفيما يتعلق بالكتاب الأول (الدراسة) فقد وزعته في سبعة فصول:

الفصل الأول تحدثت فيه عن قابوس وظروف حياته وتجاربه وبيئته الطبيعية، والثاني خصصته للبحث في موضوع أركان الدولة لا سيما الملك والوزير وسلتطيهما، كذلك القضاة وندمان الملك وخدمه، وعرفت في هذا الفصل أيضاً بكتاب قابوس نامه وبأهم مضامينه الفكريـة. والفصل الثـالث اقتصرت البحث فيـه على نظام الجندية والاعداد العسكري بما في ذلك توزيع الجند، والتعامل مع الاعداء. اما الفصل الرابع فقد ناقشت فيه قضايا اقتصادية ومالية متفرقة مثل طرائق التدخيل والانفاق وقضايا الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري.

وتناولت في الفصل الخامس السياسة المدنية (أو الأهلية) وموضوع العائلة وتربية الأولاد والبنات وسياسة المرأة والزوجة والخدم.

واقتصر البحث في الفصل السادس، على أدب الصحبة والضيافة والحديث كذلك آداب الطعام والشراب والحب والنوم، كما دار البحث حول آداب التعامل مع الأصدقاء والأعداء.

وفي الفصل السابع دار الحديث حول أصول اكتساب العلم والفن والأدب، ناهيك عن وسائل التسلية والهوايات الخاصة.

وانتهى الكتاب بخاتمة لخصت فيها المفاهيم والمبادىء العامة، التي تمركزت حولها فلسفة قابوس السياسية، وفكره الاجتماعي والاقتصادي والاداري.

فعسى أن أكون قد حققت الغرض من عملي هذا، وأفسحت في المجال أمام القارىء ليطلع على قطاع هام من قطاعات الفلسفة العربية والإسلامية، ويعي أبعاده ودوره في الفكر والعمل السياسيين.

محمد دمج

بيروت ١٩٨٧

الكتاب الأول

الآدابية الاجتماعية
والفلسفة السياسيّة العمليّة
عند قابوس (كيكاوس)
بن وشمگير بن زيار

الفصل الأول

حياة قابوس وتجاربه وبيئته

حياة قابوس وتجاربه وبيئته

١ - البيئة الطبيعية:

يعود عنصر المعالي قابوس بن اسكندر (كيكاوس بلغة الفرس) في نسبه، إلى زيار أبي وردان شاه حاكم كيلان. وينحدر الزياريون من أسرة من أقيال السامانيين[١] حكمت ما بين ٣١٦ هـ- ٤٧٠ هـ (٩٢٨ - ١٠٧٧ م) [٢]، وبنو زيار هم من الجبل أخوة الديلم كانوا قواداً للعلوية، استتب لهم الأمر بعد القضاء على دولة الأطروش حيث توزعوا في البلاد، وملكوا الري وأصفهان وجرجان وطبرستان وفارس وكرمان، وقاشان وقم وقزوين[٣]. وسطعت شمس تلك الدولة في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله، وارتبط ظهورها بدخول القرامطة العراق [٤].

وللوقوف على آراء عنصر المعالي وتقصي أخباره وسيرته، لا بد من التفاتة إلى البيئة الطبيعية التي عاش فيها المؤلف.

طبرستان [٥]: عاشت الأسرة الزيارية في بلاد فارس، وامتد حكمها فبلغ

---

(١) السامانيون: أسرة فارسية، انحدرت من صلب رجل يدعى سامانخداه (رئيس الدولة أو الأسرة) وسلسلة نسب هذه الأسرة حتى إسماعيل أول امرائها المستلقين. را: د. م الإسلامية، مج ١٠، ص ٧٦.

(٢) را: د. م الإسلامية مج ١٠، ص ٤٧١.

(٣) قا: تاريخ ابن خلدون، مؤسسة الاعلمي، بيروت د. ت. مج ٤، ص ٤٩٤. قا. أيضاً: الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، مج ٦، ص ١٩٨.

(٤) قا: ابن الاثيرمج ٦، ص ١٨٦.

(٥) طبرستان: معناها بلاد الفأس. لأن «تبر» تعني بالفارسية الفأس، «وطبر»: تعريب تبر.. وقد جاء في د. م الإسلامية أن طبرستان هي أرض الطير بسبب الغابات الكثيفة التي تغطي أرضها، واعتماد أهلها على صناعة الأخشاب. را: د. م الإسلامية، مج ١٥، ص ٦٢ -٦٣.

مناطق عديدة أبرزها طبرستان وقوهستان أو بلاد الجبال.

وبلاد طبرستان عبارة عن أراض واسعة تشمل دهستان وجرجان واستر آباد وآمل، خرج من بين أوهادها العديد من أهل العلم والأدب والفقه (٦)، أمثال أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري القاضي الفقيه(٧)، وأبي الحسن المعروف بالكيا الهراسي(٨) العالم، وتالي أبي حامد الغزالي.

وتعرف طبرستان بمازندران (٩) التي تقع بين الري وقومس وبحر الخزر (١٠)، وأرضها خصبة كثيرة الأشجار والمياه والأنهار، إلا أن مناخها رديء جداً ومياهها آسنة (١١) وهي مناطق جبلية وعرة، ولصعوبة مسالكها أقيمت عليها عبر التاريخ الحصون والقلاع، منها حصن «الطاق» الذي استخدمه ملوك الفرس خزائن لودائعهم الثمينة النادرة، وهذا الحصن كان عبارة عن موقع أحاطت به الجبال التي لا يمكن للإنسان أن يصعد إليها لارتفاعها، ولوجود عين ماء غزيرة في وسطها تمنع الإنسان القدرة على اجتيازها (١٢). كما أن قلعة «كوَّزا» تناطح النجوم ارتفاعاً، وتحكيها امتناعاً حتى لا يعلوها الطير، ويمطر سفحها دون أعلاها (١٣).

ورغم قساوة الحياة الجبلية وصعوبة تضاريس طبرستان، فهي تشتهر

---

(٦) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، مج ٤، ص ١٣.

(٧) توفي سنة ٤٠٥ هـ عن مائة وسنتين، وليّ القضاء بالكرخ وكان فقيهاً عالماً يقضي بين الناس ويناظر الفقهاء وله مصنفات كثيرة في الفقه والاصول، وفي المذهب الشافعي.
را: القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٢١٧.

(٨) هو علي بن محمد بن علي شمس الاسلام ابو الحسن الجويني (الكيا الهراسي) الملقب عماد الدين، أحد فحول العلماء ورؤوس الائمة فقهاً وأصولاً وجدلاً. ولد سنة ٤٠٥ هـ وتفقه على إمام الحرمين الجويني وهو أجلّ تلامذته بعد الغزالي، عمل مدرساً في نظامية بغداد وكان مقرباً من الخليفة الناصر لدين الله، له مصنفات عديدة أهمها: شفاء المسترشدين وكتاب أصول الفقه.
را: السبكي، طبقات الشافعية، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ط ٢، مج ٤، ص ٢٨١-٢٨٢. را. أيضاً: القزويني، المرجع نفسه، ص ٤٠٥.

(٩) عينه، ص ٤٠٣. قا. أيضاً: د. م. أ مج ١٥، ص ٦٢.

(١٠) بحر الخزر: هو بحر قزوين.

(١١) د. م. أ، مج ١٥، ص ٦٣.

(١٢) آثار البلاد، ص ٣٥٦.

(١٣) عينه، ص ٣٥٠.

بالأخشاب ويمتهن أغلب أهلها تربية دود القز وصناعة الابريسم [١٤]، وصيد الأسماك واقتناص طيور الماء، وزراعة الأرز والقنب والكتان [١٥]، ومن أخشابها تصنع النشاشيب والأطباق والقصاع وآلات شتى [١٦]. وطبرستان بلاد كثيرة المياه متهدلة الأشجار كثيرة الفواكه، لكنها مخيفة وخمة، قبائلها نزّاعة للقتال، لم تخضع لنظام، ومفطورة على القتل والسلب [١٧].

ويشهد التاريخ لطبرستان في الحصانة والمنعة، فقد كان ملوك فارس يولّونها رجلاً يسمونه «الأصبهبذ»[١٨]فإذا عقدوه عليها لم يعزلوه حتى يموت. وكان صاحب طبرستان يصالح الأصبهبذ على اليسير لصعوبة المسلك ولعدم قدرته على التمكن منه وعزله.

قوهستان: هي مناطق تمتد في الجبال فتفصل نهاوند وهمذان وبروجرد، وهي عبارة عن جبال تقع بين هراة ونيسابور [١٩]. وتشمل قوهستان مناطق طالقان، حوار وجوين، ومناطق تعرف بالجبال وجرباذقان، فهي في مجملها تربة ديلمية تقع ضمن المنطقة غير المعتدلة* على الكرة الأرضية، وشعوب هذه المناطق لا تقبل الضيم ولا تستسلم للظلم والقهر، وهم يميلون إلى العنف والعدوان ولا يستسلمون[٢٠]. ويذكر القزويني أن جرباذقان إحدى قرى قوهستان، لها رئيس لا

---

(١٤) الابريسم: نوع من الحرير الفاخر.

(١٥) قا: اثار البلاد واخبار العباد، ص ٤٠٤. قا أيضاً: د. م. الاسلامية، ص ٦٣.

(١٦) عينه، ص ٤٠٤.

(١٧) معجم البلدان، مج ٤، ص ١٣. قا: د. م. أ. مج ١٥، ص ٦٣.

(١٨) الاصبهبذ: لقب رتبة عسكرية في إيران قبل الإسلام، والكلمة مُعَربة أصلها بالفارسية «سبهبذ» معناها: متولي الجيش أو رأس الجيش، « والاصبهبذ» في العهد الاشكاني وفي قسم من العهد الساساني لقب أطلق على قائد جيش الامبراطورية كلها، وكانت صلاحيات الاصبهبذ تفوق صلاحيات قائد الجيش في يومنا هذا، لأنها تشمل ثلاثة اعباء: وزارة الحرب، وقيادة الجيش العليا، وإجراء مفاوضات الصلح. أما عن نفوذه فكان متفاوتاً بين عهد وآخر تبعاً لشخصية الامبراطور وشخصية الوزير الكبير. انظر: معجم البلدان، مج ١، ص ١٧٢. قا. أيضاً: بحث اعده الدكتور أحمد لواساني تحت عنوانه «منصب الاصبهبذ» لدائرة المعارف البستاني في عشر صفحات، بيروت ١٩٨٣.

(١٩) معجم البلدان، مج ٤، ص ١٤ ـ ١٥ و ٤١٦.

(٢٠) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٤١.

يمشي إلى أحد من ملوك قوهستان، فهم يسامحونه لموضعه الحصين ومنعة مكانه (٢١). ويضيف الإسكندر في وصفه لأهل الجبال يقول «أرى بأرض الجبال ملوكاً حساناً لا أختار قتلهم، وإن تركتهم لا آمن عصيانهم» (٢٢).

هذه البلاد أطيب النواحي هواء وماء وتربة اتخذها الأكاسرة مصيفاً لطيب هوائها وسلامتها من سموم العراق وسخونة مائه، فيها جبال شديدة الإرتفاع وأودية سحيقة، ولا ينبت في أرضها النخيل والنارج (٢٣) والليمون، ولا يعيش عليها الجاموس والفيل (٢٤)، ومن جبالها المنيعة جبل «بيستون» الذي لا يرتقي الإنسان ذروته، وجبل «دوماند» الذي يناطح النجوم لعلوه، ولا يعلوه الطير على حد قول القزويني (٢٥).

وقد لمع في قوهستان العديد من رواد الفكر والعلم والأدب، كان أبرزهم إمام الحرمين الجويني، والإمام الواعظ الجلال الخوّاري (٢٦)، وأبو الخير أحمد بن إسماعيل، العالم الورع صاحب الكرامات (٢٧).

وهكذا فقد كان من الطبيعي أن يتمرس سكان تلك البلاد الجبلية الصلبة على الحرب والقتال واستخدام السلاح، ويأخذوا بفنون الرياضة البدنية، ويحترفوا الصيد والقنص، فالبيئة الطبيعية والإجتماعية تؤثر كما يقول إبن خلدون على الإنسان من الوجهة النفسية والعضوية (٢٨). وكان لا بد لتلك الشعوب من أن تأخذ بأسباب الترف والبذخ أيضاً، وتميل إلى الدعة وقطف ثمار استقرارها السياسي والعسكري فتزدهر فيها الفنون والعلوم على أنواعها خصوصاً في الأوساط الأرستقراطية، وبين الطبقات الإجتماعية الراقية.

---

(٢١) عينه، ص ٣٤٨.

(٢٢) عينه، ص ٣٤١.

(٢٣) عينه، ص ٣٤٢.

(٢٤) عينه، ص ٣٤٥.

(٢٥) عينه، ص ٣٤٥.

(٢٦) آثار البلاد، ص ٣٥٢.

(٢٧) عينه، ص ٤٠٢.

(٢٨) مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي بيروت، ط ٤، د. ت، ص ١٢٣- ١٢٥.

وليس غريباً أن يتأثر كاتبنا عنصر المعالي بظروف مجتمعه وبطبيعة بلاده ومناخها، وينهل من ينابيع الفكر والأدب والعلم التي نشطت في بلاطات الأسرة الحاكمة ، فيكتب لنا مؤلفاً بعنوان «قابوس نامه» من أربعة وأربعين باباً في النصح الجميل، صور فيه آدابيات مجتمعه وتقاليده وعاداته، وتحدث من خلاله عن موقفه من الحاكم وحدد مواصفاته، كما تحدث عن الحرف والأعمال المختلفة وحدد شروط تعاطيها، ولم ينس العقيدة الدينية الإسلامية، فشدد على الإيمان وصدق الإعتقاد.

٢ ـ البيئة السياسية والإجتماعية:

يعود تأسيس الدولة الزيارية إلى مرداويج بن زيار (٢٩) الذي قتل سيدة أسفار بن شيروية وملك دولته عام ٣١٥ ـ ٣١٦ هـ (٣٠)، وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه لجنده في أول أمره، فعظمت جيوشه وكثرت عساكره، وفرق نوابه في النواحي المجاورة، وسير إبن أخته إلى همذان لاحتلالها، لكنه انهزم بعد تحالف أهل همذان وعسكر الخليفة المقتدر بالله. وعاود مرداويج الكرة فانتصر على عسكر الخليفة وسيطر على بلاد الجبل وما وراء همذان وبلغت عساكره نواحي حلوان (٣١) واستولى على الأهواز وخوزستان وأصبهان، وأرسل للخليفة رسولاً يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد، بلغ مائتي ألف دينار (٣٢)، وبهذا كان ولاء الدولة الزيارية للخلافة العباسية ولاء إسمياً فقط.

وقد عصفت بالبلاد الفتن التي دبرها بنو بوية (٣٣) الذين يزعمون أنهم من ولد يزدجر بن شهريار آخر ملوك الفرس، فقام زعيمهم عماد الدين بن بويه وملك شيراز وفارس وكتب إلى الخليفة العباسي الراضي بالله يعرفه أنه على الطاعة ويطلب إليه أن

(٢٩) مرداويج: معناها معلق الرجال. قا: مروج الذهب، للمسعودي (تحقيق محي الدين عبد الحميد) المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٤، ١٩٦٤، مج ٤، ص ٣٨٣.

(٣٠) قا: المختصر في اخبار البشر لابي الفدا، دار المعرفة بيروت، د. ت مج ١، ج٢، ص ٧٣. قا. أيضاً: الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٩٨.

(٣١) الكامل، مج ٦، ص ٢١٤.

(٣٢) عينه، ص ٢١٥.

(٣٣) بنو بويه: من القواد الديلم وهم أخوة ثلاثة أكبرهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة ومعز الدولة، والدهم أبو شجاع بويه بن قناخس. قا: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص ٤٢٦.

يقره على البلاد التي بيده مقابل ألف درهم (٣٤)، ولما علم مرداويج بالأمر سار إلى أصبهان، وسيّر العساكر إلى الأهواز لتأديب عماد الدولة البويهي (٣٥).

وتذكر كتب التاريخ أن مرداويج مؤسس الدولة الزيارية كان عنيداً ظالماً، عامل خاصته الأتراك بصنوف عديدة من العتو والإذلال، فتآمروا عليه وقتلوه عام ٣٢٣ هـ (٣٦) فخلفه أخوه وشمگير (٣٧).

حظي وشمگير في بداية أمره بتأييد أصحاب الديلم والجبل حيث قدموا له الطاعة، وأطاعه أيضاً أصحابه الذين كانوا في الأهواز وأعمالها حيث أنهم كتموا بادىء الأمر مقتل مرداويج وساروا إلى الري عاصمة وشمگير وبايعوه (٣٨)، واستطاع ولي العهد أن يثبّت أقدامه في الحكم على الرغم من محاولات نصر بن أحمد الساماني اليائسة للإستيلاء على قومس وجرجان والرى(٣٩)، فكان له أن يحكم في ظل السامانيين ويثبّت أقدامه في جرجان وطبرستان شأنه شأن قابوس ومنوجهر (٤٠).

والجدير بالذكر أن النزاع بين الزياريين والبويهيين اشتد أثناء استلام وشمگير مقاليد الإمارة بعد مرداويج، فقد جهز عماد الدولة بن بويه أخاه ركن الدولة الحسن إلى بلاد أصبهان وبلاد الجبل وأزال عنها نواب وشمگير، مما اضطر الأخير إلى توجيه حملاته العسكرية للقضاء على النفوذ البويهي واسترداد أراضيه، واستعادة حكم قم وقاشان وهمذان وكنكور وأصبهان، وقزوين والري وغيرها من البلاد التي كانت هدفاً ومسرحاً للحروب بين الطرفين طوال عهد وشمگير (٤١).

---

(٣٤) الكامل، مج ٦، ص ٢٣٥.

(٣٥) عينه، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣٦) انظر: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د.ت. مج ١، ص ٨٢. قا. أيضاً: المسعودى، مروج الذهب، (تحقيق محي الدين عبد الحميد) المكتبة التجارة الكبرى، مصر، ط ٤، ١٩٦٤، مج ٤، ص ٣٨٢.

(٣٧) وشمكير: معناهاءالأخذ. را: مروج الذهب، مج ٤، ص ٣٨٣.

(٣٨) الكامل، مج ٦، ص ٢٤٦. قا. أيضاً: المختصر، مج ١، ج ٢٢، ص ٨٢.

(٣٩) عينه، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٤٠) د. م. أ، مج ١٥، ص ٦٤.

(٤١) الكامل، مج ٦، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

وفي سنة ٣٥٧ هـ مات وشمگير وهو في رحلة صيد، وقام بالأمر بعده ابنه بيستون بن وشمگير (٤٢) الذي دام حكمه تسع سنوات خلفه بعدها أخوه قابوس بن وشمگير بن زيار (شمس المعالي) عام ٣٦٦ هـ (٤٣).

ملك شمس المعالي قابوس جرجان وطبرستان بعد أن خرج الجيش إليه واجتمعوا عليه وأيدوه (٤٤)، لكن مجد الدولة عارضه، واشتد التنافس بينهما حول مناطق جرجان التي ملكها قابوس عام ٣٨٨ هـ (٤٥) والري، وتمكن من الإستيلاء على استر آباد والرويان وسالوس، وراسل يمين الدولة محموداً وهاداه وصالحه (٤٦). وعندما دانت البلاد لقابوس واستفحل ملكه، صار شديد السطو مهيباً، كثير العقاب قليل العفو، الأمر الذي دفع أتباعه للإنقلاب عليه والتخلص منه، واستبداله بابنه منوجهر بعد أن عاهدوا الأخير على الطاعة (٤٧). وقد نحّى منوجهر والده بأمر من العسكر كراهية لا طوعاً، وسجنه في قلعة أنجيا، بعد أن أذن له قابوس الملك، خشية أن ينقلب العسكر عليه هو أيضاً، وبقي قابوس سجيناً حتى وفاته عام ٤٠٣ هـ (٤٨).

ومما يذكر عن قابوس شمس المعالي أنه كثير الفضائل بارع في السياسة، غزير الأدب وافر العلم شاعر، عالم بالنجوم (٤٩). قال إبن الأثير في وصفه أنه «من محاسن الدنيا وبهجتها» (٥٠)، وهو خاتم الملوك وغرة الزمان وينبوع العدل والإحسان

---

(٤٢) المختصر، مج ١، ج ٢، ص ١٠٧.

(٤٣) عينه، ص ١١٨.

(٤٤) تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص ٤٩٨. قا: أيضاً: الكامل، مج ٧، ص ٨٧.

(٤٥) الكامل، مج ٧، ص ٢٦٦، حوادث ٤٠٣ هـ.

(٤٦) عينه، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٤٧) تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص ٤٩٨.

(٤٨) عينه، مج ٤ ص ٤٩٩. انظر أيضاً: البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤، مج ١١ -١٢، ج ١١، ص ٣٤٨. وأيضاً: المختصر، مج ١، ج ٢، ص ١٤٣.

(٤٩) قا: الكامل، مج ٧، ص ٢٦٦. قا. أيضاً: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٤٨. القزويني آثار البلاد، ص ٣٣٠.

(٥٠) حواشي، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٢٦٥.

على حد قول الثعالبي[٥١]. وقد برع قابوس بكتابة الخط،فكان يعرف من خلال كتابته وخطه، حتى قال الصاحب بن عبّاد في خط قابوس «هذا خط قابوس أم جناح طاووس» [٥٢].

وجاء منوجهر بعد قابوس فوثَّق علاقاته بالخليفة القادر بالله ، وأقام علاقات ود وصداقة مع يمين الدولة، ودخل في طاعته وخطب له على منابر بلاده ورضي منوجهر أن يكون في إمارته تابعاً للغزنويين [٥٣].

وانتهت مدة ولاية منوجهر عام ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م) فخلفه إبنه أنو شروان، واعترف هذا الأخير بسيادة الغزنويين وقدم الطاعة للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي، لكن طغر لبك السلجوقي هاجمه عام ٤٣٣ هـ (١٠٤١م) وانتزع منه جرجان، وفرَّ أنو شروان إلى قلعة حصينة عاش فيها حتى وافته المنية عام ٤٤١ هـ (١٠٤٩م) [٥٤]. وبعده حكم عنصر المعالي قابوس بن اسكندر الذي استمر حكمه من عام ٤٤١ - ٤٦٢هـ (١٠٤٩ - ١٠٦٩م).

قابوس الثاني (كيكاوس) :

عنصر المعالي قابوس هو حفيد شمس المعالي قابوس بن وشمگير، وإبن دارا (اسكندر) الذي حكم جرجان وطبرستان في ظل الدولة الغزنوية، وخلال عهد السلطان مسعود الغزنوي حوالي عام ٤٤٦هـ[٥٥]، ويعرف عن قابوس أنه رافق السلطان محمود الغزنوي في غزواته إلى الهند وكان صهراً له، وقد توفي في إحدى الحملات التي شنها الأمير فضلون أبو السوار على بلاد لانجار والتي انتهت بهزيمته هزيمة نكراء عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م).

والجدير بالذكر أن كتب التاريخ لم تعرّف بعنصر المعالي، ولم تبسط في ذكر نشأته وحياته السياسية، وكل ما وجد أثناء البحث هو تلميحات هامشية عن كتاب

---

(٥١) عينه، الحاشية، ص ٢٦٧.

(٥٢) الكامل، مج ٦، ص ١٩٨.

(٥٣) عينه، مج ٧، ص ٢٦٦. قا: د. م. أ. مج ١٥، ص ٦٤.

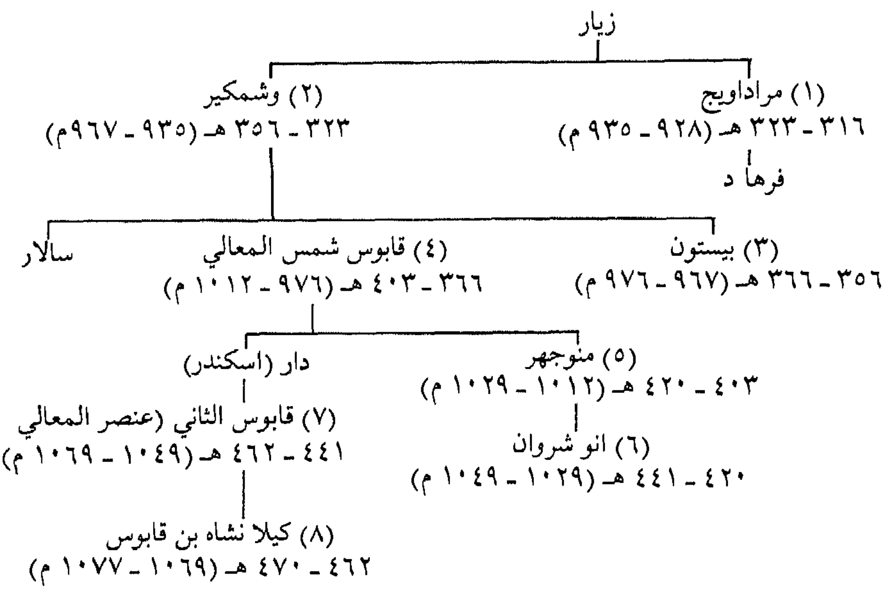
(٥٤) د. م. الإسلامية.، مج ١٠، ص ٤٧٢. قا. أيضاً: بابن الاثير، مج ٨، ص ٩.

(٥٥) عينه، ص ٤٧٢.

«قابوس نامه» المؤلف الوحيد لقابوس في مرايا الأمراء. والمعروف أن كتاب قابوس نامه هو كتاب في النصح الجميل يعرف بإسم «النصيحة» يتضمن حكماً ووصايا أخلاقية، وآراء في السياسة، وآدابيات مستوحاة من تجارب الكاتب وظروف حياته السياسية والإجتماعية، قدمها هدية لابنه ووريثه گيلانشاه حاكم طبرستان (٥٦)، لعلـه يهتدي بها ولا يضل السبيل.

وكتاب «النصيحة» هو الوحيد من بين الكتب التي استطعت من خلاله التعرف على الكاتب ، فقد يجد القارىء أثناء طيه لصفحات الكتاب تلميحات ذكرها المؤلف عن نشأته الأولى وتجاربه ومراحل حياته.

كان عنصر المعالي قابوس عاشر الأمراء الزياريين، وسابع ولاتهم، يتضح ذلك من خلال سلسلة نسب العائلة الزيارية المبينة على النحو التالي (٥٧):



(٥٦) عينه، مج ١٠، ص ٤٧٢.

(٥٧) انظر: د. م الإسلامية، مج ١٠، ص ٤٧١. قا. أيضاً: بمعجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، لزامباور (أخرجه د. زكي محمد حسن بك) مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٢٠.

وقابوس سليل عائلة عريقة في التاريخ الإسلامي، كريم الأصل والنسب، قال لابنه: «فإنك ذو أصل شريف وكريم الطرفين من كلا الجانبين» وتلك إشارات يحرك بها عنصر المعالي ضمير ابنه ويدعوه فيها للسير على خطى أجداده الأوائل الذين بفضل حنكتهم ودهائهم وذكائهم حكموا العالم وملكوا الأرض «جدك الأعلى شمس المعالي قابوس بن وشمگير حفيد أرغش بن فرهادان. . وكان له مُلك گيلان»(٥٨).

ويفاخر قابوس عنصر المعالي بحسبه ونسبه لا من جهة أجداده لأبيه فحسب، بل وأجداده لأمه أيضاً، فإن أمه حسب ما يذكره في الكتاب سليلة أسرة مالكة عريقة «وجدتك أمي كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شيروين مصنف مرزبان نامه، وجدها الثالث عشر گايوس بن ناصر الدين».

ويضيف عنصر المعالي بأن زوجته ذات حسب ونسب فهي «ابنة الملك الغازي محمود بن ناصر الدين» (٥٨)، كما أن جده هو الحسن بن فيروزان ملك الديلم. ويسلسل الكاتب شجرة عائلته ويوضح لنا بسطور قليلة قرابته لفخر الدولة بقوله: وكانت «جدتي خالة فخر الدولة. . . وكان أبي وفخر الدولة كلاهما ولدي إبنه حسن بن فيروزان» (٥٩). وارتبطت العائلة الزيارية بالغزنويين، وأقيمت بينهما علاقات زواج ومصاهرة فتناوبوا حكم بلاد فارس ردحاً من الزمن، دام ما يزيد على قرن ونصف القرن، فصاهر عنصر المعالي السلطان محمود الغزنوي وتزوج من ابنته، وقد أكد ذلك في كتابه عندما قال لإبنه: «سمعت أنه في أيام جدِّك السلطان محمود» (٦٠) وقوله: «يا بني كان خالك السلطان مسعود»(٦١).

ويذكر عن حياته الأولى، أنه بدأ تعلم الفنون والعلوم والمعارف المختلفة وهو في سن العاشرة، وأن أول ما تعلمه الفروسية على يد حاجب والده «منظر» قال: «عندما بلغت العاشرة كان لنا حاجب اسمه منظر، وكان يعرف ترويض الخيل

---

(٥٨) عنصر المعالي، قابوس بن اسكندر، قابوس نامه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٥٩) قابوس نامه، ص ٤١٦.

(٦٠) عينه، ص ٤١٢.

(٦١) عينه، ص ٤١٣.

والفروسية»[٦٢]. كما تعلَّم على «ريحان» الحبشي خادم والده أنواع الرياضة البدنية، وسائر المهارات والحرف اليدوية والمراسم الملوكية، وقد كشف ذلك عندما قال: «علماني [ريحان ومنظر] الفروسية ورمي الحربة والرماية والطعان. وضرب الصولجان والطبطاب والرمي بالقوس».

وقد استفاد كاتبنا أيضاً اثناء اقامته في بلاط جدة شمس المعالي الذي كان عامراً بالعلماء والأدباء وأهل الفن، فاكتسب من كل علم وفن[٦٣] وتعلم الفروسية والطبطاب والصولجان وسائر الفنون.

وتعلم قابوس فن السباحة كرهاً لا طوعاً بإشارة من والده الذي أمر باحضار ملاحين نشيطين، وعهد به إليهما حتى علماه السباحة واتقنها جيداً بعد حين.

ويذكر عنصر المعالي أن السباحة من الرياضات البدنية الضرورية[٦٤] للإنسان، وضرورتها تأتي من كونها فناً يتعلق بذات الإنسان نفسه، و يدخل في عداد القدرات الشخصية والفروق الفردية، وهي فن لا يقوم به شخص آخر من أجلنا و ليست كلعب الصولجان والطبطاب والصيد وغيرها من الفنون التي يمارسها الآخرون نيابة عنا.

وبعد فراغ قابوس من تعلم السباحة والوقوف على ما درسه من علوم وفنون، زار الحجاز لتأدية فريضة الحج عن طريق الشام»[٦٥]، واتفق في تلك السنة التي ذهب فيها للحج أن قام بغزوات في بلاد الروم والهند وگنجة قال: «ذهبت للغزو بگنجة في السنة التي عدت فيها من الحج»[٦٥]

وقد تمكن قابوس خلال نشاطاته السياسية وفتوحاته العسكرية من توسيع دائرة معارفه الشخصية، فصادق عدداً من الخلفاء والسلاطين والأشراف، وعاش مدة في بلاط الأمير أبو السوار شاور بن الفضل، موفور الكرامة عزيزاً لا يفارق

---

(٦٢) عينه، ص ٣٢٧.

(٦٣) عينه، ص ٣٢٧.

(٦٤) عينه، ص ٣٢٨.

(٦٥) قابوس نامه، ص٣٢٨.

مجلسه «وكنت أحضر للطعام والشراب في مجلسه» ويذكر الكاتب أن الأمير أولاه كامل اهتمامه وقدّره حق تقدير «وقد أجلني كثيراً»(٦٦). كما عاش عنصر المعالي مدة في غزنة في بلاط السلطان مودود دامت ثماني سنوات، لقي من الحفاوة والتكريم ما لقيه عند شاور بن الفضل قال: «اعلم يا بني أنه في أيام إبن خالك السلطان مودود بن مسعود جئت إلى غزنة فأعزني وأكرمني كثيراً» (٦٧).

شخصيته:

ويعرف عن قابوس أنه كان حليماً رؤوفاً، رحيماً، كريم الخُلقُ، عطوفاً، دعا إلى العفو والرحمة والصفح عندما قال: «إذا ارتكب شخص ذنباً، وصار بذلك الذنب مستوجب العقوبة فلا تعاقبه على ذلك وأعف عنه لتكون قد سلكت طريق الحلم والرحمة... ولا يليق أن يعمل الكرماء عمل غير الرحماء» (٦٨).

ومن صفاته العطف على الفقراء والضعفاء، ومن شيمه السخاء والجود ومساعدة الطالبين والمحتاجين «إذا وقعت لمحتاج إليك حاجة من الممكنات... لا ترده دون قضاء حاجته ولا تخيِّب ظنه فيك» (٦٩).

وكان عنصر المعالي قنوعاً يكره الحسد والبغضاء والشر «إذا سلكت الطريق وتعودت القناعة فإن جسدك الحر لا يصير عبداً لشخص»(٧٠)، ومن صفاته أيضاً العدل «مر بالعقوبة على قدر الذنب»(٧١).

ويُذكر عن قابوس أنه كان ولوعاً في شبابه بالخمر والشراب، لكنه تاب عنهما وهو في سن الخمسين، وانصرف إلى الزهد والتصوف بعد مجون وشرب ولذات، وكانت توبته بإرادة ذاتية وبإلهام إلهي، وليس بفعل نصح الأهل والمقربين (٧٢).

(٦٦) قابوس نامه، ص ٢٥١.
(٦٧) عينه، ص ٤١٧.
(٦٨) عينه، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.
(٦٩) عينه، ص ٣٤٤.
(٧٠) عينه، ص ٤٣٦.
(٧١) عينه، ص ٣٤٣.
(٧٢) عينه، ص ٢٧١.

وقد آمن قابوس بالقضاء والقدر، وتذكّر حساب الآخرة، وفضّل وهو في عقده الثاني أن ينصرف إلى العبادة والزهد بالدنيا خصوصاً وإنه أحس بتقدمه بالعمر فراح يهيء نفسه للقاء ربه يصلي ويتنفّل ويتضرع إلى الله وقد صور حاله بقوله: «صرت عاجزاً في كنف الشيخوخة تهيأ للرحيل، فقد أقبلت الثالثة والستون وشارف يومك صلاة العصر» (٧٣)، واستمر على ذلك النحو حتى وافته المنية عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م.) إثر الحملة العسكرية، التي انهزم فيها هو والأمير فضلون أبو السوار في بلاد لانجار (٧٤)، عن عمر ناهز الثالثة والخمسين. وبذلك انتهت حياة حاكم وسياسي ومفكر وأديب وشاعر، تاركاً لنا مؤلفه القيّم «قابوس نامه» الذي لمحَّ فيه إلى سيرة حياته وتجاربه في الميادين السياسية والإجتماعية، وأهداه كما سبق ذكره إلى إبنه ليكون له مرشداً ودليلاً في سلوكه وعمله.

(٧٣) عينه، ص ٢٦٥.

(٧٤) د.م. الإسلامية، مج ١٠، ص ٤٧٢.

الفصل الثاني

السياسيات والاجتماعيات في قابوس نامهْ

القسم الأول

الكتاب ومضامينه السياسية والأخلاقية

تمهيد

أ ـ الدولة وأسسها العامة

ب ـ السياسة الأهلية

ج ـ الآداب التعاملية

القسم الثاني

السلطة السياسية والنظام الإداري ـ أركان الدولة

تمهيد

الملك ـ صفاته، وظائفه لجهة علاقته بالرعية وبأركان الدولة

الوزير ـ صفاته وأخلاقه وسلطاته

القضاء ـ أخلاق القاضي وصفاته ودوره

الكتابة والإنشاء ـ شروط المهنة، وظائف الكاتب وصفاته

خدم الملوك والعمال والندمان

الكتاب ومضامينه السياسية والأخلاقية

تمهيد

يعتبر كتاب «قابوس نامهْ» حلقة من حلقات الحكمة العملية السياسية في الاسلام، و لون من الوان الفكر الذي ارتبط بحياة الناس اليومية، وتعلق بصلب المسائل التي تمس الفرد في سلوكه وأخلاقه وعلاقاته وتعامله مع غيره.

يتناول الكتاب آداب السلوك الفردي والتعامل الاجتماعي ويكشف النقاب عن ظروف الحياة السياسة والاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية، ويصور بدقة حياة الارستقراطين وأشكال السلطات في دويلات السامانيين والغزنويين والبويهيين وغيرهم من شعوب دولة الخلافة العباسية في بلاد فارس، ويحدد للحكام والقادة شكل السلطة وأساليب التعامل والسبل التي تمكنهم من الامساك بمقاليد الحكم لأطول مدة ممكنة، كما يعلِّم المواطن العادي قواعد الاخلاق وآداب السلوك الفردي والاجتماعي، ويعرِّفه بالمهن والصناعات وأصول امتهانها بأسلوب أخلاقي تعليمي.

وقد تعددت موضوعات الكتاب وتنوعت إلى حد جعلنا نشك في أنه من وضع قابوس، فحياة الانسان قد لا تطول ليتعرّف على جميع تلك المعارف التي وردت في قابوس نامهْ، لكن إذا عرفنا أن الكاتب كان أميراً ومن الاشراف الذين قضوا حياتهم في تعلم الفنون والعلوم والصناعات وأنواع الرياضة، ومارسوا السياسة والحكم، زال الشك من نفوسنا وقبلنا بالكتاب على أنه لقابوس سيما وإنه

يقرر ذلك بقوله «فما وجدته بطبعي جمعت منه بضع كلمات في كل باب»(١).

بلغت صفحات الكتاب (الترجمة العربية) حوالي مائتي صفحة، وزعت على أربعة وأربعين باباً، عالج كل منها موضوعاً مستقلاً عن سواه بما لا يزيد على أربع أو خمس صفحات، فالباب الاول على سبل المثال عالج موضوع «معرفة الله تبارك وتعالى» والعاشر موضوع «ترتيب تناول الطعام»، والحادي والاربعون «نظام القيادة» وهكذا. . . وافتُتح الكتاب بمقدمة جاءت في صفحتين، ذُكر فيها الاهداء وإسم المهدى إليه (كَيلا نشاه) ولائحة بعدد الموضوعات وأسمائها.

والجدير بالذكر أن الكاتب يذكرّ بأن الغرض من كتابه هو نصح ابنه وإرشاده إلى الفضيلة بقوله: «فلما وجدت يا بني اسمي في دائرة الراحلين، رأيت من المصلحة قبل أن يصل كتاب عزلي، أن أدوّن كتاباً في ذم الدنيا والاستمتاع بالذكر الجميل وأقدم منه نصيباً بموجب الحب الابوي حتى تنظر بنفسك في كلامي بعين العقل قبل أن تسحقك يد الزمان، وتنال بهذه النصائح الرفعة وطيب الذكر في الدارين»(٢).

والواقع أن تلك النصائح التي وضعها قابوس كانت عبارة عن أمثلة عملية سهلة مبسطة، ومستمدة من واقع التاريخ، ومستلهمة من مجرى البيئة اليومية، لذا جاءت سهلة التطبيق وعملية، نفعية، قريبة من الافهام، ومنسجمة مع العقلية الاسلامية.

أما المفاهيم الأساسية التي بنى الكاتب عليها نظرياته ومواقفه، فكانت عديدة متنوعة تناولت كافة جوانب الحياة الإنسانية، وأبرزها ثلاث قضايا مركزية هي: السلطة والدولة وأسسها العامة، السياسة المدنية أو (الأهلية)، وأنماط العلاقات الاجتماعية وآداب التعامل.

أ ـ الدولة وأسسها العامة في قابوس نامه:

لم يضف عنصر المعالي جديداً على مفهوم دولة المدينة اليونانية أو نشأتها،

---

(١) قابوس نامه، ص ٢٢٣.

(٢) قابوس نامه، ص ٢٢٣.

ولم يضع تعريفاً اصطلاحياً للكلمة[٣]، لكنه التزم بالخط الاسلامي في تصوره لمفهوم الدولة وقواعدها[٤].

---

(٣) يعرّف أرسطو الدولة بأنها نوع من الجماعة، وأن الجماعة أفراد مختلفون يستطيعون بحكم ما بينهم من فوارق أن يسدّوا حاجاتهم عن طريق تبادل السلع والخدمات، وفق عقود واتفاقات ويرى أن هذه الجماعة المكونة للدولة تختلف بطبيعتها عن الجماعة المكونة للعائلة، وأن الدولة تنشأ نتيجة تطور تاريخي، فهي تمر بمراحل اجتماعية حتى تصل إلى مرحلة الدولة. والواقع أن هذه المعاني التي يبرر بها ارسطو قيام دولته إنما هي تكرار لما ذهب إليه افلاطون عندما قال: أن ضرورة قيام الدولة تستند إلى حقيقة انه لا يستطيع إنسان ان يكتفي اكتفاء ذاتياً، فحاجة الإنسان إلى التعاون الإجتماعي والجهد الجماعي في مرحلة معينة من مراحل التطور إنما تعبر عن نفسها في الدولة. أفلاطون، الجمهورية (ترجمة حنا خباز) دار التراث، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٩. أرسطو، السياسة (ترجمة أوغسطين بربارة البولسي) المكتبة الشرقية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٥ وما بعدها.

وتعددت تعريفات الدولة عند المفكرين الأوروبين المحدثين والمعاصرين، واختلفت باختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم الفكرية والفلسفية، فعرفها «ماكيفر» بأنها بناء غير مماثل للمجتمع أو متساو معه في الامتداد، لكنه مشيد داخله كنظام محدد لبلوغ أهداف معينة.

ويقول «اوبنهيمر» ان الدولة هي منظمة من طبقة واحدة مسيطرة على الطبقات الأخرى ويفسر بعض الكتاب الدولة على أنها كلية بناء قانوني، أي أنها جماعة منظمة للعمل في ظل قواعد قانونية.

وجاء في كتاب مبادىء العلوم السياسية أن الدولة هي مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في اقليم معين، وتسيطر عليهم هيئة منظمة إستقر الناس على تسميتها الحكومة. را. نظريات ونظم سياسية، عبد المعز نصر، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣، ص ١٠ و ١٥ - ١٧. را. أيضاً: مبادىء العلوم السياسية، بطرس غالي مكتبة الانجلو المصرية، ط ١، ١٩٦٣ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٤) يعتقد الدكتور أدمون رباط أن الدولة الإسلامية في الشرق هي نتاج الحضارة القائمة في الإسلام، فهي تعبير شامل لحالات مختلفة في الدول من حيث واقعها وتاريخها وجغرافيتها، وأن الدولة الإسلامية لم تكن واحدة بصفاتها وأشكالها فقد مرت بعهود متنوعة، عهد التأسيس الأول في ظل الوحي الذي نزل على النبي حيث تميزت الدولة بميزات دستورية.

والعهد الثاني كان عهد الحكم الملكي المطلق المتمثل بالعهد الأموي والعباسي والفاطمي، وقد تميزت الدولة هنا لا سيما العباسية في روحيتها وشعورها نحو الإسلام والعروبة وفي نظر تها الطبقية والعنصرية، وفي تقاليدها ومراسيمها المأخوذة عن الفرس وفي مؤسساتها التي باتت إسلامية أكثر مما كانت عربية. والعهد الثالث هو العهد العسكري الذي بدأ بعد سقوط بغداد وتمكن خلاله المماليك من الوصول إلى السلطة والاستيلاء على الحكم.

ومرت الدولة الإسلامية باشكال متعددة خلال التاريخ الاسلامي وتقلبت على حد قول.رباط بشكل لا يسمح بالقول بأن ثمة دولة إسلامية واحدة في معانيها وأركانها وأنظمتها كما تخيلها فقهاء الإسلام، فقد تميزت في بادىء عهدها بالشورى والمساواة، واتجهت اتجاها مختلفا فيما بعد،

فالدولة في قابوس نامهْ هي الكيان الذي يجمع بين الأفراد الذين يقيمون في إقليم معين في ظل هيئة أو سلطة تتمثل بالملك أو السلطان، وهي على صورة دويلات العصر العباسي التي قامت على الحكم الملكي المطلق والمستبد.

والملك عند قابوس هو رأس السلطة الذي يقبض على زمام الأمور، وهو الظل الالهي الذي انتدبه الله من بين العباد ليحكم بينهم بالعدل في مقابل ولاء الجماعة وتأييدها وخضوعها لسلطانه. إذن ترتكز دولة قابوس على أساسين: القانون الالهي، والجماعة الاسلامية(٥)، فالشريعة عنده يجب أن تكون أساس الحكم ومصدر القانون، ومن الجماعة الإسلامية تتكون الطبقات الإجتماعية ويختار العمال والمستشارين والموظفين.

وليست دولة قابوس دولة مؤسسات حرة مستقلة تحفظ البلاد بمعزل عن أشخاص الحكام، بل هي دولة ملكية مطلقة تحكمها تشريعات وقوانين يفرضها الملك الذي يجمع بيده السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويهدف أولاً وأخيراً إلى تحقيق مصالحه ومنافعه الشخصية.

وبما أن وجود الدولة عند قابوس مرتهن بوجود الملك نفسه، رأى أن يؤلف كتابه ويتوجه من خلاله بصورة غير مباشرة إلى كل القوى الفاعلة والمنتجة داخل المجتمع من مختلف الفئات والطبقات، ويعلمهم أصول التعامل ويكشف لهم أسباب النجاح والاستمرار بالحياة، فيقدم نصائحه ووصاياه بأسلوب أدبي قصصي شيق يغلِّب عليه الطابع الاخلاقي الحكمي والنفعي، ومن غير أن يرسم صوراً مثالية للدولة أو يغرق في متاهات التنظير الفلسفي.

ب ـ السياسة الأهلية:

وتشعبت قضايا السياسة المدنية أو الأهلية عند قابوس فشملت العائلة وقضايا

حيث ساد الحكم المطلق والاستبداد والقهر. ادمون رباط، الوسيط في القانون الدستوري العام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨، ط ٢، مج ٢، ص ٤٦ ـ ٤٩.

(٥) قبل قابوس بوجود الغرباء في دولته الإسلامية وسمح للأجانب ومن مختلف الجنسيات ان يعيشوا مع المواطنين الأصليين بهدف الإستفادة من خبراتهم وطاقاتهم. قابوس نامه، ص ٣١١ ـ ٣١٦.

التربية والتنشئة الاجتماعية وسياسة القوت والغذاء والدخل والخرج وإعداد وتدريب الخدم والعبيد. وسار في نهجه وفق الخط اليوناني والإسلامي، ففي قضايا التربية والتعليم وإعداد النشء التقى مع أفلاطون، وفي سياسة القوت والغذاء والاقتصاد العائلي توافق رأيه مع Bryson(٦)، كما شارك فلاسفة الإسلام الرأي، كابن سينا والغزالي والطوسي وابن خلدون وسواهم حول مسائل التربية الاسلامية وسياسة الأولاد والزوجة والخدم والدخل والخرج. ويتشدد الكاتب في قضايا التربية وإعداد النشء وفق الشريعة الإسلامية بهدف بناء مجتمع فاضل تسوده الالفة والتعاون والمحبة، ويرى في مجال الاقتصاد العائلي والمنزلي، أن مصلحة الاسياد وزيادة ثرواتهم ومدخراتهم تكمن في اقتناء العبد الصالح المطيع، لذلك نجده يفصّل في أقسام مختلفة من قابوس نامهْ في موضوع أجناس العبيد وعاداتهم ومواصفاتهم الشخصية، ناهيك عن اهتمامه بالمرأة أو الزوجة التي اعتبرها عنصراً هاماً وأساسياً في بناء العائلة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أفكاره في هذا الجانب، لم تكن جديدة، وإنما كانت تكراراً لما أيده الشرع، وسار عليه الفقهاء والفلاسفة المسلمون لا سيما ما تعلق بصفات الزوجة، كالنسب والتدين والجمال، وشروط تربية البنات.

ج ـ الآداب والتعاملية:

تبرز آداب التعامل في قابوس نامهْ بوضوح عبر جميع المسائل المطروحة، وهي بمثابة قواعد وقوانين ونظم استمدها الكاتب من الدين والمجتمع والتاريخ وحاول من خلالها تنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، و ضبط الاخلاق العامة وتنظيم العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة، فتحدث عن آداب التعامل مع الاصدقاء والاعداء، وعن سلوك الانسان وتعاطيه مع العلوم والفنون، وفي التجارة والحرفة، وفي تعامل الملك والوزير مع الرعية. وإن كانت الأدابيات تدخل في ميادين علم الاخلاق والسلوك فهي في الفكر الإسلامي الوسيط كانت من

(6) plessener, Martine: Der oikonomikos des Neupy thagoreer's Bryson' und sein Enfluss auf die islamische wissens chaft, Heidelberg 1928. p. 152 S. qq.

صميم المسائل السياسية.

وقد غلّف عنصر المعالي كتاباته بمفاهيم دخيلة وأصيلة، فتأثر بالفكر الاغريقي (بأفلاطون وأرسطو وبريسون) ونسج على منوالهم في كثير من المسائل السياسية، والاخلاقيات الاقتصادية، وفي قضايا السياسة المدنية، كما تأثر بالفرس الساسانيين، ويبدو ذلك بوضوح من خلال القصص والحكايات والاخبار وأقوال الحكماء الفارسيين، التي برزت عبر أبواب الكتاب.

وتأثر عنصر المعالي بشكل رئيسي بالفكر الإسلامي الذي صبغ به أفكاره الدخيلة، يونانية وفارسية وأخرجها بطابع جديد.

السلطة السياسية والنظام الإداري
أركان الدولة

تمهيد:

لعل نظرة سريعة في تاريخ النظرية السياسية في الإسلام، تمكننا من فهم الظروف التي ساعدت الدويلات في القرن الرابع الهجري على أن تكون بدائل عن الخلافة العباسية، وتساعدنا على الوعي بطبيعة السلطة السياسية والنظم الادارية في قابوس نامهْ، فالكاتب ابن البيئة والمجتمع، وأفكاره من غير شك وليدة الواقع والتراث الإسلامي الشرقي، ونتاج الاحتكاك بين الحضارات الاغريقية والفارسية والهندية والإسلامية.

والواقع أن تجربة الرسول كانت أول تجربة سلطوية في المجتمع الإسلامي، وكانت دينية صرفة، انتهت وتبدلت أهدافها بوفاة النبي، إذ أنه ترك الأمر شورى بين المسلمين مما سبب أزمة سياسية انتهت بمبايعة أبي بكر الصديق خليفة على المسلمين(٧)، الذي اتسعت سلطاته فشملت أموراً دينية وزمنية على حد سواء.

وظل الحكم شورى في دولة الاسلام الاولى، وسلطة الخلفاء مطلقة في إطار التزامهم بالنصوص القرآنية والسيرة النبوية. وبتسلّم الأمويين السلطة تحولت الخلافة إلى حكم أوتوقراطي، ونشطت المؤسسات الإدارية والدواوين، واستحال

---

(٧) قا: النظم الإسلامية، حسن ابراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٢، ص ١ - ٢.
وقا. أيضاً:

- W. Montogomery Watt, What in Islam, Longman, 2nd édition, P. 13.

الحكم استبداداً وقهراً زمن العباسيين وجعل نظام الوراثة بديلاً عن الانتخاب، وأصبح الحكم ملكياً مطلقاً على غرار الحكم الفارسي البيزنطي، وصار الفقهاء يختلقون الاقاويل عن الرسول لتبرير تمركز السلطة السياسية في بني هاشم على حد قول «سير توماس آرنولد»، وكانوا لا يعبأون بالدين ولا بمصالح العباد(٨).

وقد تطعم المجتمع العربي الإسلامي بعناصر أجنبية فارسية هندية رومية وتركية، ومُورست أشكال مختلفة من القمع والقهر والارهاب داخل الدولة، مما حدّ من نفوذ العرب وتسلطهم لا سيما خلال القرن الرابع الهجري (التاسع الميلادي) حيث أصبح منصب الخليفة فخرياً، وصار هو نفسه العوبة بأيدي السلاطين الذين أمسكوا بالسلطة الفعلية دون سواهم، وفرضوا سلطانهم فرضاً(٩). وما كان من العلماء إلا أن يقنعوا بما هو قائم ويسعون إلى التخفيف من حدة وقع الانقلاب بتعديل تعاليمهم وفتاويهم بحسب الوضع الجديد، معتمدين على فكرة تقول: إن خلو السلطة من الحكم أشد خطراً على الأمة وجود الحاكم الظالم(١٠).

ورغم هذا التحول في طبيعة السلطة، فإن الخطر المحدق بالدولة العباسية كان من جراء تعيين الخلفاء أنفسهم جماعة من القادة العسكريين (سادة الحرب)، حكاماً مستقلين على أقاليم فارس عرفوا بالسلاطين، ومن هؤلاء السلالة السامانية في شمال شرقي بلاد فارس، والسلالة الغزنوية والبويهية والزيارية والسلجوقية وغيرها(١١).

والواقع إن هذه السلالات التي وصلت إلى الحكم، من خلال نفوذها وقوتها العسكرية وبمباركة الخلفاء العباسيين، لم تدَّعِ انها صاحبة حق ذاتي في السلطة، أو أنها وريثة الخلافة في الدولة الإسلامية أو بديلة عنها، وإنما كانت تحاول

(٨) آرنولد، توماس: تراث الإسلام (ترجمة جرجس فتح الله) دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨، ط ٣، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٩) عينه، ص ٤٢٨. قا. أيضاً: الفكر الإسلامي الوسيط، لمنتوغومري واط، (تعريب صبحي الحديدي) دار الحداثة، بيروت ط ١، ١٩٨١، ص ١٣٦.

(١٠) عينه، ص ٤٢٩.

(١١) را: حياة قابوس وظروف عصره، الفصل الأول من الكتاب.

باستمرار أن تكسب عطف الناس وتأييد المسلمين، من خلال توددها للخليفة الممثل القانوني والتاريخي للشريعة، ليكسبها طابع الشرعية.

وتدريجياً تقلص نفوذ الخلفاء واندثرت معالمهم، ولم يبق لهم سوى القيام بالواجبات الاحتفالية. وفي المقابل إستأثر حكام الدويلات بالسلطة معتمدين في ذلك على قوتهم العسكرية ونفوذهم الشخصي، وغلب طابع الاستبداد على سياسة الحكام في تلك المرحلة التاريخية، وكانت السلطة عندهم تقوم على الحكم الملكي المستبد المطلق وعلى النظام الاجتماعي الطبقي، وتحكم علاقة الحكام بالمحكومين علاقة راع برعية تنظمها قوانين وأعراف تخدم في الدرجة الأولى مصالح الحكام ومنافعهم الشخصية.

وخير ما يصور لنا معالم الدولة الإسلامية خلال تلك المرحلة التاريخية، والبنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ارتكزت عليها هو كتاب قابوس نامهْ فقد كشف عنصر المعالي من خلاله النقاب عن طبيعة السلطة والحكم، وجسّد خلاصة تجاربه السياسية، وحدد علائق السلطة بالمجتمع، وتكوين المجتمع وطبقاته وديناميته، واهتم بدراسة الانسان الفرد في إطار مهنته ومركزه الاجتماعي، كما تحدث عن آداب التعامل الاجتماعي والفردي، ورسم نهجاً واضحاً في ميدان التربية.

كيف نظر قابوس إلى الحاكم السياسي؟ وكيف تصور وظائفه وصفاته وعلاقته بالرعية؟ وما هي مقومات دولته؟ أسئلة بالاجابة عليها تتضح مفاهيم قابوس السياسة و قضايا الحكم والدولة والطبقات الاجتماعية.

الملك
صفاته، وظائفه، وعلاقته بالرعية وبأركان الدولة

أفرد قابوس فصلاً خاصاً من فصول كتابه للحديث عن الحاكم السياسي، بين فيه أصول الحكم وأسباب التعامل مع المحكومين، وحدد واجبات السلطان ومواصفاته الشخصية. ولم يهدف الكاتب من خلال دراسته إلى وضع نظرية متكاملة في الدولة والمجتمع على غرار الفلسفة اليونانية أو الإسلامية، وإنما كانت له نظرات في السياسة والاجتماع والاخلاق والتربية، قدمها في صورة وصايا ونصائح أخلاقية مجردة لابنه إذا أصبح ملكاً في يوم من الأيام.

ويعتبر قابوس الرئاسة الاولى في الدولة مهنة ووظيفة كغيرها من المهن والاعمال، فرغم فارق النوع والدرجة فإنها تتطلب مزيداً من المهارة والتدريب والمراس، وتمتاز في أنها ليست من اختصاص أي إنسان، بل هي من نصيب قلة قليلة من الناس «لا يصل إليها كل شخص»[١٢] كذلك فإنها من الاعمال الراقية والمناصب الرفيعة التي لا يفوز بها حسب تقدير الكاتب إلا الذين انتخبهم الله من بين العباد، ومنّ عليهم بنعمة المُلك[١٣] وأهلهم بمواصفات وقدرات وخصائص قلما وجدت في إنسان. وبمعنى آخر إن تولي مركز الصدارة في الدولة ليس أمراً إنسانياً صرفاً وبإرادة الأشخاص وإنما يكون بأمر إلهي وبمشيئة الله وقضائه وقدره.

ومن خلال هذا التصور يحاول الكاتب إثبات نظرية الفرس القائلة بالحكم الملكي المقدس، وتكريس الحكم المطلق، وفرض نفوذ الحكام داخل السلطة وفي المجتمع.

(١٢) قابوس نامه، ص ٤١٩.

(١٣) عينه، ص ٤٠٨.

أما الشروط والمواصفات الواجبة في زعيم الأمة أو الملك فيمكن تحديدها في ثلاثة أقسام: القسم الأول، يتناول صفات عامة تصلح لكل ملك أو حاكم. والثاني، يدور حول ما هو مرغوب في الملك من مواصفات وخصائص نـوعية. والثالث، يتعلق بالمحظورات الأخلاقية والسلوكية الواجب على الملك تجنبها.

أولاً: الصفات العامة:

١ ـ على الملك أن يكون مؤمناً بالله وبرسوله «إذا صرت ملكاً يوماً ما فكن ورعاً» فالإيمان يحرر النفس ويطهر الجسد، ويحد من نفوذ الحاكم المتسلط.

٢ ـ على الملك أن يكون عفيف اليد واللسان «كف عينك ويدك عن حرم المسلمين وكن طاهر الأزار»[١٤] فالعفة والطهارة من مستلزمات الدين الإسلامي، وهي جزء من الدين العملي ومظهر عام من مظاهر تنفيذ تعاليم الشريعة ومبادئها.

كذلك فإن الحفاظ على أموال الناس وأملاكهم، وإنصافهم والعدل فيهم من صميم المسائل التي اهتم بها الإسلام، ورعتها الشريعة وكرستها القوانين الوضعية والاعراف والعادات الاجتماعية، ولذلك كـان لزامـاً على الحاكم أن ينفـذ تلك المبادىء والشرائع، فيحمي الجماعة ويصون حقوق الناس وينصفهم من نفسه قبل أن ينصفهم من الآخرين، لأن انحراف الملك وفساده وتطاوله على القانون يفسد الرعية ويهدد وجود المملكة.

وطبيعي أن يقف الكاتب هذا الموقف، ويحذر من التعدي على الناس وهتك الحرمات، ليحقق على الأقل الانسجام داخل نفسه، فهو رجل كان في شبابه مسلماً مؤمناً وبات في كهولته وشيخوخته زاهداً صوفياً متفانياً في الله.

٣ ـ على الحاكم أن يهتدي بنور العقل «وشاور عقلك واجعل رأيك مطيعاً للعقل في كل أمر» فالعقل ملازم للحضارة وسبب في ارتقاء الإنسان وتطوره،

---

(١٤) قابوس نامه، ص ٤٠٩.

ولطالما يشترك الإنسان مع باقي الكائنات الحية في الغرائز والميول الفطرية، ويتميز عنها بنعمة العقل، كان لزاماً عليه أن يحكِّم عقله في كل تدبير، فلا يكون أسيراً لعواطفه وميوله، ولا سجيناً لغرائزه الحيوانية، وإذا كان التعقل والادراك هدفاً للناس جميعاً فهو من أهم واجبات الحاكم، ومن أسمى صفاته الشخصية لأنه يرشده إلى الحقيقة، ويسهل عليه حكم الجماعة وسياسة الأمة.

٤ ـ عليه أن يتحلى بمكارم الأخلاق، وبالقيم الفاضلة والمثل العليا التي فرضتها الشريعة وأقرتها القوانين الوضعية والفلسفات الاجتماعية، فيصدق القول، لأن الصدق يحفظ مهابة الملك ووقاره في دولته وبين أتباعه قال: «كن صادق القول». وعليه أن يرحم العباد ويرأف بهم يقول: «كن رحيماً بعباد الله تعالى»(١٥)، فالرحمة شيمة من شيم الكرام وصفة من صفات الله الحسنى، إنها تبعث على المحبة بين الناس وتولد التعاطف بين الراعي والرعية وتشد أواصر الوّد بينهم.

٥ ـ على الحاكم أن يتجمل بـ «الهيبة والعدل، والعطاء والحفاظ والوقار، والصدق». والكاتب إذ يشدد على هذه الصفات، إنما يحاول تثبيت موقع الحاكم داخل السلطة، فالبذل والعطاء يقرب الملك إلى الناس فيزداد تأييدهم له ويلتفون حوله، ويقدمون له الطاعة ويبذلون كل غال وثمين من أجل الملك والمملكة، وبالعدل ينتفي الظلم ويعم الأمن والطمأنينة والرخاء، فتسود المساواة بين الناس وتصان الحرمات، وتترفع الرعية عن الخيانة والظلم والعصيان، وبصدق الملك في قوله وعمله يثبت اقدامه في الحكم ويحظى بثقة رعاياه.

ثانياً: الاخلاقيات المرغوبة في الملك:

أشار الكاتب إلى مجموعة من المواصفات والخصائص الأخلاقية التي من شأنها أن توطد العلاقة بين الرعية والراعي، وتعمق أواصر الود والولاء بين الناس والملك هي:

---

(١٥) عينه، ص ٤٠٩.

أ ـ على الملك أن يكون كريماً سخياً في بذله وأعطياته، فالكرم محبب عند الناس بينما البخل والتقتير يقلل هيبة الملك ويحط من قدره يقول: «إذا لم تسخ يصير كل الخلق أعداءك»(١٦). ويشترط الكاتب أن يكون مقدار بذل الملك عظيماً «بولاية أو إقطاع كبير تمنحه»(١٧) لكي يليق بمقامه وموقعه داخل السلطة.

ب ـ عليه أن ينصف الناس من نفسه ومن عما له، فلا يسمح بالظلم والجور والعدوان ولا يمتنع عن لقاء الناس والمتظلمين والمحتاجين والضعفاء، ولا يسمح لأرباب دولته أن يكونوا سداً حاجزاً بينه وبين رعاياه ليصل إلى المستحقين العطاء الذي يأتي منه(١٨).

ج ـ يجب أن يكون رؤوفاً حليماً بالعباد «وكن رحيماً بعباد الحق»(١٩).

د ـ وعليه أن يسهر على راحة الرعية فيخفف من آلام العباد وأحزانهم يقول: «ولا تصبر على آلام عباد الله تعالى»(٢٠).

ثالثاً: محظورات الملك الأخلاقية:

وهي مجموعة من الأوصاف ومظاهر السلوك التي يجب على الملك أن يتحرر منها ليبقى فاضلاً وشهماً في نظر رعيته وهي:

ـ يجب أن يبقى الملك عالي الهمة موفور الكرامة، كبير النفس، عظيم الجاه، بعيداً عن الخسة والوضاعة، «فلا تكن وضيع الهمة.. ولا تظهر خستك للناس» فالخسة تسقط مهابة الإنسان وتحط من قدره، وتجعل الرعية جسوره على مخالفته.

ـ يجب أن يبقى الملك مثالاً كاملاً موفور الكرامة دمث الأخلاق «إجتهد في أن لا تكون ثملاً»(٢١).

ـ يجب أن يحكم الملك بالعدل بين الناس ويحارب الظلم والعدوان «ولا ترض بالجور».

---

(١٦) قابوس نامه، ص ٤١٥.
(١٧) عينه، ص ٤١٩.
(١٨) عينه، ص ٤٠٩.
(١٩) عينه، ص ٤٠٩.
(٢٠) قابوس نامه، ص ٤١٤.
(٢١) عينه، ص ٤١٥.

ـ عليـه أن يعـاشر الـكريم والاصيل من النـاس، ويتـرفع عن الـوضيع، ولا يقدِّم إلا الفعل الحسن «وحذار أن تحقِّر نفسك».

ـ يجب أن يأخذ الملك الامور بالتعقل وبالصبر والتأني «ولا تتسرع» وذلك يكون بالاطلاع على الأمور وتمحيصها قبل إقرارها.

ـ على الملك أن يتوسط بين الجد والهزل، ويحفظ ماء وجهه، ولا يسمح للرعية أن تصبح جسوره على مخالفته، ولا يسمح بعصيان الحاشيـة «كن قليل الكلام والضحك»(٢٢).

ـ يجب أن يكف الملك عن ظلم النـاس «فـلا تجعـل للظلم سبيـلاً إلى قلبك»(٢٣) لأن الظلم يهدم البناء ويقوِّض أركان الممالك والدول.

وظائف الملك وواجباته:

لم يفصل الكاتب في حديثه عن وظائف الملك وواجباتـه، وإنما جـاءت وصاياه في الموضوع مبعثرة في صورة نصائح وأقوال غلب عليها طابع العمـومية والشمول كغيرها من المسائل والموضوعات التي وردت عبر الكتاب(٢٤)، ولتوضيح ذلك لا بد من تبويبها في اتجـاهين: الأول واجبات الملك من حيث عـلاقته بـالرعيـة، والثاني واجبـاته من حيث عـلاقته بـأركان دولتـه (الوزارة والجنـود والعمال).

أولاً ـ وظائف الملك من حيث علاقته بالرعية:

تتحدد علاقة الملك بالرعية من خلال النقاط التالية:

أ ـ على الملك أن يحمي القانون والنظام العام، ويرعى مصالح المجتمع،

---

(٢٢) عينه، ص ٤٠٩.

(٢٣) عينه، ص ٤١٤.

(٢٤) ففي مواضع متفرقة يشير قابوس إلى ثلاث قضايا تدخل في سياق حديثه عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية ويطالب الملك بالاهتمام بظروف بلاده وأحوال مملكته، فينبه إلى ضـرورة التعرف على أحوال الدول المحيطة والمتاخمة لدولته، والاحاطة بتجارب الممالك والدول، كذلك فإن الكاتب يوصي الملك بتوثيق روابط الود والصداقة مع الممالك الأخرى، وينصحه باتباع سياسة خارجية معلنة وصريحة. قابوس نامه، ص ٤١٥ و ٤١٨ ـ ٤١٩.

ويحفظ قوانين العدل الاجتماعي، فيحرص على أمن المواطنين ويقتلع الفساد من دولته، ويحرر الناس من طغيان الظلم وأسباب الانحراف، وذلك بقطع دابر الشر في نفوس العابثين بالحرمات وبالقوانين العامة، كاللصوص والقتلة والمجرمين وجميع الطفيليين في الدولة بقوله: «ولا ترحم اللص ولا تعف عن القاتل». ولا يسع الحاكم من أجل تطهير المجتمع من الخارجين على القوانين إلا أن يتزود بالوعي والثقافة وقوة الارادة، وبالشدة والصرامة والهيبة الشديدة، فقد لا يفلح الملك في حكم رعيته ما لم تقترن شجاعته وسطوته بالعلم وسعة الاطلاع لا سيما في قضايا تطبيق الشريعة وتفسير القرآن والحديث، لأن الجهل لا يورث غير الحقد إذا اقترن بالظلم، ويحفز الرعية على العصيان والتمرد.

ويحذر الكاتب من التساهل مع المنحرفين، فهم يهددون أمن الدولة والمواطن، ويذكّر الملك بالعقاب الذي سيلقاه في الآخرة إن تساهل .وعفا عن مجرم يستحق العقوبة بقوله: «واحتط في أمر القاتل، لأنه إن كان مستحقاً للقصاص وعفوت عنه تكون أنت أيضاً يوم القيامة شريكاً له في ذلك الدم»(٢٥).

كما يتشدد قابوس بشأن القتل والظلم والعدوان مذكراً بالآية الكريمة: **﴿ولا تقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق﴾**(٢٦).

ب ـ من واجبات الملك أن يهتم بالرعية بقدر اهتمامه بجنده وعمال دولته «يجب أن لا تسلط الجند على رؤوس الرعايا»(٢٧) فالناس من أهم وأبرز مقومات الدولة وهم أساس البناء وسبب ديمومة تاج الملك.

ويحرص الكاتب على ضرورة صون حرمات الناس وكراماتهم وأملاكهم وحرياتهم، وينصح الملك بأن يحمى الرعية من ظلم أتباعه، ويُلزم كل فريق في دولته بحدود وأصول مقررة، وباتباع سياسة من شأنها أن توحِّد بين جميع الرعايا على اختلاف طوائفهم ومراتبهم، لأن عمار البلاد وتطور الدولة لا يكون بغير تضافر الجهود وتكامل الطاقات.

---

(٢٥) عينه، ص ٤١١.

(٢٦) القرآن الكريم، سورة (الإسراء) آية ٣٣.

(٢٧) قابوس نامه، ص ٤١٤.

ومن واجبات الملك حماية الرعية من نفسه أيضاً فلا ينفر ولا يتأفف من الناس، ويصبر على آلام المرضى ويستمع لشكاوى المتظلمين، ويفي بحاجات المحتاجين[٢٨]، فهم سنده ومصدر نعمته.

ثانياً ـ واجبات الملك من حيث علاقته بأركان دولته:

١ ـ علاقته بالوزير: على الملك أن يحسن اختيار وزيره، فيقدم الوزير الشيخ على الشاب بقوله: «واتخذ وزيرك شيخاً. . . ولا تقلد الشاب الوزارة»[٢٩] فالشباب تنقصهم الخبرة وسعة الاطلاع وعمق المعرفة التي تتجلى في الشيوخ، فهؤلاء صقلتهم التجارب وهذبتهم الأيام.

وينصح الكاتب ولده أن يحفظ وزيره ويرعاه، يراقب أعماله، ويمنعه من الخيانة بقوله: «ينبغي أن لا تكون غافلاً. . . عن حال وزيرك، ويجب أن لا يشرب وزيرك شربة ماء دون أن تعرف، لأنك استودعته روحك ومالك»[٣٠]. فالوزير سرير الملك ومساعده، وهو المعوَّل عليه في حفظ نظام الدولة وتدبير الرعية، بإخلاصه تعمّر البلاد وتزدهر، وبانحرافه وسوء استخدامه سلطاته يسقط تاج الملك وتهتز أركان الدولة، ولهذا شدد الكاتب على ضرورة الإشراف باستمرار على الوزير ومحاسبته على كل خطوة يخطوها، فهو المؤتمن على مال الدولة وعلى روح السلطان.

وعلى الرغم من تشدد الكاتب مع الوزير فهو لا يمانع من إطلاق يده في مختلف الأعمال ومن توسيع صلاحياته داخل الدولة ومؤسساتها يقول: «وكل من أسندت إليه الوزارة مكنه فيها تمام التمكين»[٣١]. وفي هذا محاولة من الكاتب لإحياء النظام، وتنشيط دوائر الدولة ومؤسساتها من أجل تأمين الخدمات العامة وتنفيذ مصالح البلاد وأهدافها، ورغبة في تسريع عمليات الإنتاج من خلال الحد من الروتين الإداري والبيروقراطية .

---

(٢٨) عينه، ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

(٢٩) قابوس نامه، ص ٤١٠.

(٣٠) عينه، ص ٤١٨.

(٣١) عينه، ص ٤١٠.

وعلى الملك أن يستأنس بالوزير ويثق به ويستمع إلى أقواله «ولا تفتقر كلية إلى رأيه واستمع إلى كل كلام يقوله الوزير بشأن أحد» ، وعليه أن لا يتجاوز حدود العلاقة المعروفة بينه وبين الوزير، فلا يفرط في تعامله معه إلى الحد الذي يفقده صوابه فيحتقره ويحط من قدره، ولا يبالغ في إكرامه ومعاشرته إلى حد يجعل الوزير جسوراً على مخالفة الملك يقول: «وكن ذا سياسة خاصة مع وزيرك»(٣٢).

ويحدد الكاتب شروط علاقة الملك بالوزير بالامرين التاليين:

أ ـ على الملك أن يحسن إلى أتباع الوزير وأعوانه ومستشاريه وأقاربه، فينفق عليهم الأموال ويخصصهم بمكافآت ومشاهرات من أجل تأمين كفافهم وسد نفقات معاشهم «وأحسن إلى أقربائه والمتصلين به».

ب ـ على الملك أن لا يعيِّن أقرباء الوزير وأتباعه في المناصب الهامة ولا يوليهم أمور الرعية «لا تأمر بأي عمل لأقارب الوزير والمتصلين به» حتى لا يتساهل مع أتباعه ويغفر لهم، فالوزير في الغالب «لا يحاسب ذويه بالحق».

وعليه أن يرفع الظلم والفساد الذي يمكن أن يقترفه عمال الدولة لا سيما إن كانت تربطهم بأركان المملكة علاقات ومصالح ، فهؤلاء سوف يرتكبون باسم القانون جرائم بحق الرعية، ولا يتهيبون عن الظلم والافساد في المصالح العامة ولا يرتدعون على حد قوله: «أقرباء الوزير بانتسابهم إليه يرتبكون الجور على المسلمين»(٣٣).

٢ ـ علاقة الملك بالعمال والغلمان والجنود:

لا يقل العمال والغلمان شأناً عن الوزير، فهم أساس البناء والانتاج في الدولة، يتولون تنفيذ الخدمات في البلاط ويقومون باعباء الوظائف العامة في المصالح والدواوين، ولذلك وفي مقابل هذه الخدمات التي يقدمها العمال والغلمان، يقترح الكاتب على الملك أن ينصفهم ويحفظ حقوقهم، فيوزع عليهم

---

(٣٢) عينه، ص ٤٠٩.

(٣٣) عينه، ص ٢١٨ ـ ٤١١.

الأعمال والمكافآت ويصرف لهم الرواتب والمشاهرات. ويحدد الكاتب واجبات الملك تجاه العمال والجنود بما يلي:

أ ـ على الملك أن يوفر لجميع العمال فرصاً للعمل «و مر لكـل شخص بعمل ولا تـضنِ عليهم بالشغل»[٣٤] من أجل أن يعيش هؤلاء في يسر وبحبوحة، فلا يكونون عالة على الدولة والآخرين. وبهذا يظهر الكاتب وكـأنه أحـد رجال السياسة في زماننا الذين يسعون جادين في دولهم للحد من البطالة والتعطل وتأمين فرص متكافئة لجميع المواطنين.

وينصح الكاتب أن يؤمن الملك لعمـاله الأعمـال المتناسبـة مع قـدراتهم واستعد اداتهم بقوله: «أعط العمل للجدير به، ولا تأمر بعمل لمن لا يليق به، فمن يليق بالفراشة لا تعطه السقاية»[٣٥]. ومن خلال هذه الوصية القائلة بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، يلتقي الكاتب مع علماء النفس المعاصرين الذين اهتمـوا بقضية الفـروق الفرديـة بين الناس وأظهـروا دورها ومـدى فاعليتهـا في العمليات الإنتاجية.

ب ـ يجب أن يهتم الملك بـالجند، فيعـطف عليهم ويـوليهم المنـاصب ويكافئهم بالمال والاعطيات والاقطاع، ويوصي الكاتب ابنه أن «لا يقصر في حسن رعاية الجند»[٣٦] لأن العسكر درع الدولة وقوة الملك وأساس سلطانه، وهـم الأداة الفاعلة للدفاع عن المملكة والأرض والرعية.

ولذلك ومن أجل كسب ود الجند والقادة، يقترح الكاتب على الملك أن يصادق جنده وقادة جيشه ويكرمهم ويحقق آمالهم، ويغدق عليهم بالمال والهدايا ويدعوهم لطعامه ومجلسه بقوله: «أدع في كل وقت كبراء الجنـد إلى طعامـك ونبيذك واحسن إليهم بالخلعة والصلة والآمال»[٣٧]. ولا يسمـح عنصر المعـالي بتمادي الملك مع الجند إلى حد يفقد فيه مهابته ووقاره، فيخالفوه ويتمردوا عليه،

(٣٤) عينه، ص ٤١١.

(٣٥) قابوس نامه، ص ٤١١.

(٣٦) عينه، ٤١٤.

(٣٧) عينه، ٤١٤.

وإنما ينصحه بأن يحكم عسكره ويضبطهم ليكونوا دائماً رهن إشارته وطوع أمره، ويعبر الكاتب عن ذلك بقوله: «ولا تسلط الجند... لأن المملكة لا تعمر»[٣٨].

ج ـ على الملك أن يهتم ببناء المؤسسة العسكرية، فهي من أهم مؤسسات الدولة وأخطرها لأن الجيش مسؤول عن حماية الملك والشعب والأرض، ويقترح عنصر المعالي أن يتكوّن الجيش من عناصر وأجناس مختلفة «ولا تجعل الجند من جنس واحد»[٣٩] مخافة أن يتوحدوا ـ إذا كانوا أهل عصبية واحدة ـ ويتآمروا على الملك ويطيحوا بعرشه إن ساءت علاقتهم بالدولة.

وقد أصاب عنصر المعالي في تدبيره هذا سيما وأن الفكرة القومية لم تكن قد تبلورت بعد في تلك الحقبة التاريخية، فولاء الجنود للدولة والملك كان يقوم أساساً على المنفعة والمصلحة الشخصية وليس بدافع وطني أو قومي.

---

(٣٨) عينه، ص ٤١٣.

(٣٩) عينه، ص ٤١٤.

الوزير
صفاته وأخلاقه وسلطاته

تمهيد

تعتبر الوزارة من أعرق النظم السياسية واكثرها اصالة في الدولة الإسلامية، ومن أسمى الرتب السلطانية، وقد تضاربت آراء الباحثين والكتاب حول نشأة منصب الوزارة، فبينما يجمع اكثرية المفكرين على انه محصلة لقبول الارث الفارسي(٤٠)، وإنه وصل إلى العالم الإسلامي بفعل عمليات الاختلاط العنصري والتمازج الحضاري ونقل التراث الفارسي والهندي، ترى الكاتبة «دومينك سورديل» في مقالتها الوزارة العباسية، أن أصل الوزارة ليس فارسياً ساسانياً، وإنما عرف العرب الوزارة عندما اطلعوا على الوزارة عند اليونان والبيزنطيين، وفي الامبراطوريات الرومانية والهندية والصينية القديمة، كما انهم عرفوها في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. وقد استندت الكاتبة في رأيها على تجربة العرب السياسية التاريخية، تلك التجربة التي توضح بأن العرب رغم تأثرهم بالكتب والاقوال الفارسية الساسانية، فإن عدداً كبيراً من وزرائهم كانوا عرباً ومن أصل غير فارسي علاوة على ان البرامكة لم يكونوا أول الوزراء مع أن أجدادهم كانوا بوذيين وليسوا زرادشتيين (مجوساً) ولم يكن لهم أية صلة بالإدارة الساسانية المتعصبة للمجوسية. (٤١).

---

(٤٠) قا: التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، د.ت، مج ١، ص ١٥١. النظم الإسلامية، لحسن حسن، ص ١١٣. تاريخ الحضارة الإسلامية، لعبد المنعم ماجد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٨، ص ٣٢. واط، الفكر السياسي الإسلامي، ص ١١٠.

(٤١) جواتياين، س. د: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١، ١٩٨٠، ص ٨٠.

ومهما يكن أصل الوزارة ومنبعها، فهي نظام سياسي يتولى بموجبه رجل شؤون الدولة ويساعد الملك في تحمل المسؤوليات والقيام باعباء الحكم وتدبير مصالح الامة. وقد وصف «واط» وظيفة الوزارة بأنها مزيج من النظم والوظائف التي يُعمل بها في الدول المعاصره لا سيما ما يتعلق منها برئيس الوزراء. (٤٢)

وفي معنى كلمة وزارة واشتقاقها أوضح علماء اللغة إنها كلمة اشتقت من الوَزَر(٤٣) والوَزَر تعني الملجأ والمعتصم، والوِزر الثقيل،(٤٤) وكلمة وزير اما مأخوذه من الوزر فيكون معناها انه يحمل الثقل، أو تكون مأخوذه من الوَزَر فيكون المعنى أن يُرجع ويلجأ إلى رأيه وتدبيره. والوزارة بهذا المعنى تتصل بصدر الإسلام حيث كان الرسول يشاور أصحابه ويفاوضهم ويخص أبا بكر بخصوصيات، حتى أن العرب أنفسهم الذين خالطوا الفرس والروم قبل الإسلام كانوا يسمون أبا بكر وزيراً(٤٥) كذلك كان أبو بكر يخص عمر وعمر نفسه يخص عثمان وعلياً بخصوصيات ويستعين بهما ويتشاور ويتبادل معهما الرأي، ويعهد إليهما باعمال كثيرة ككتابة الرسائل والقضاء، والنظر في شؤون اسرى الحرب وغيرها من المسائل الهامة.

وتطور مفهوم الوزارة منذ عهد بني أمية لا سيما عندما أصبح الحكم اوتوقراطياً ملكياً وراثياً، فإحتاج الخلفاء إلى مساعدين ومستشارين فاختاروا ذوي الرأي والحنكة والدهاء، وجعلوهم وزراء. ولم يسم الخلفاء مساعديهم وزراء في باديء الامر وإنما لُقب الواحد منهم بالكاتب أو المشير وكان في الوقت عينه يجري مجرى الوزير ويقوم مقامه،(٤٦) مع العلم أن الوزارة كانت ما تزال صيغتها القانونية غير مكتملة وقواعدها غير مقررة ولا مقننة.

وبانتقال الخلافة إلى بني العباس، إستحفل المُلك وعظمت مراتبه وعظم

(٤٢) واط، المرجع نفسه، ص ١١٠.
(٤٣) محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الاحكام السلطانية، دار بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥٣.
(٤٤) الفيروز ابادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، د. ت، مج ٢، ص ١٥٩ - ١٦٠.
(٤٥) النظم الإسلامية، لحسن حسن، ص ١١٣.
(٤٦) الفخري في الاحكام السلطانية، المرجع السابق ص ١٥٣.

في الوقت عينه شأن الوزير وقُدم على جميع القواد، وصارت له النيابة في انفاذ الحل والعقد، وامتـدت مسؤولياتـه فشملت النظر في المكاتبات ، لصون أسرار الخليفة والنظر في ديوان الحساب أيضاً[٤٧].

واول انتقاص من سلطة الوزير ونفوذه كان بانهـاء عهد الإدارة الاقـطاعية واستحداث عهد التنظيم البيروقراطي ، حيث جرده الخليفة من الضياع والاقطاعات التي كان يديرها وحدد له أجراً مقرراً ورزقاً ثابتاً لـه ولاولاده ، وبهذا بـدأ نظام التدرج في المناصب لا سيما بعد أن أصبح الوزيـر مقدمـاً على جميع العمـال والقواد[٤٨].

وهكذا فقد لعب الوزير دورالوساطة بين الرعية والملك كما يقول ابن طباطبا[٤٩] وكان عليه أن يتعامل مع كلا الفريقين بحكمة وبطريقة ترضي الملوك وتناسب العوام من الناس ليحظى بالمحبة والقبول عند الفـريقين ، فينفذ رغبات الخليفة واوامر الملك ويسدي النصح والارشاد لمولاه ويحافظ على حسن سمعة الخليفـة عند رعيته. وبهذا أصبح مركز الوزارة خطراً على الوزراء انفسهم واصبحوا مهددين ومعرضين للإغتيال ، في حال يأس الخليفـة منهم وانقلابـه عليهم ، لا سيما عندما كان يمتد سلطان أحدهم إلى الحد الذي يمكنه من التأثير على نظم الحكم القائمة وعلى الخلفاء أنفسهم، كما فعل خالد البرمكي في عهد هارون الرشيد فتسلم خاتم الخلافة وتولى السلطة الفعلية وأصبح حق الحل والعقد بيده ، كذلك شأن الوزير جعفر بن يحـيى بن خالد البرمكي الذي قبض في عهد الخليفة نفسه على الحكم وصار بيده الدخل والخرج[٥٠]. ومنذ ذلك الحين عرفت الخـلافة الإسلامية نوعين من الوزارة، وزارة التفويض ووزارة التنفيذ.

كان وزير التفويض ينفذ أوامر الخليفة ويتوسط بين الرعية والسلطان ويرئس

(٤٧) قا: التمـدن الإسلامي، مج ص ١٥٢. متز: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، عربه محمد أبو ريده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧، مج ١، ص ١٦٩.

(٤٨) متز، مج ١، ص ١٦٩.

(٤٩) قا: الفخري المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٥٠) النظم الإسلامية، لحسن حسن، ص ١١٨ ـ ١١٩.

العسكر وجميع العمال والموظفينن داخل الدولة، ويشرف بأمر من الملك على النظام الإداري والضرائبي في المملكة. ووزارة التنفيذ هي وزارة استمداد اي ان الوزير ينفذ الامور ويمضيها باوامر الملك وبرأيه.

اما وزير التفويض فهو مفوض من الملك ومسؤول عن جميع شؤون الدولة يدبرها برأيه ومن غير استشارة الملك، وتكون سلطته مطلقة على حساب سلطة الخليفة التي تصبح شكلية صورية لاتتجاوز حدود عزل بعض من يعينهم الوزير. وفي هذا النوع من الوزارة يقلد السلطان وزيره حقوقه وحقوق الرعية وينفذ الامور بنفسه وبرأيه وتدبيره.

وحظي موضوع الوزارة باهتمام المفكرين والفقهاء، فربطوا نوعي الوزارة بقواعد وقوانين وجعلوا الاول بايدي المدنيين وسموها وزارة القلم، وجعلوا الثانية بايدي رجال الحرب وسموها وزارة السيف وحذروا من أن يتولى الثانية غير مسلم. ويعتبرالماوردي(٥١)من ابرز فقهاء القرن الرابع الهجري الذين تحدثوا عن هذا الموضوع واوفوه حقه، وقد فصّل في كتابه الاحكام السلطانية الحديث عن وزارتي التنفيذ والتفويض وتحدث عن خصائص وابعاد كل منهما.

وتجدر الاشارة في هذا المجال أن أحد الوزراء قبض على السلطة العسكرية والمدنية وهو إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد، كما لقب الوزير سعيد بن مخلد بذي الوزارتين(٥٢)، وكل ذلك مؤشرات على فساد الانظمة السياسية.

وتقلص نفوذ الخلافة والوزارة معاً، وخصوصاً في ايام بني العباس حيث أصبح الوزير يلقب بالصاحب لا سيما في عهد الدولة البويهية، ثم ما لبثت أن أبدلت الوزاره بامرة الامراء واصبح الوزير اسماً بلا مسمى(٥٣)، وحتى عهد ما بعد المأمون ولمدة قرن كامل لم يتول الوزاره وزير لمدة عشر سنوات سوى إسماعيل

---

(٥١) قا: الماوردي، الاحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ١٩٧٨، ص ٢٢ وما بعدها. قوانين الوزارة وسياسة الملك (تحقيق رضوان السيد) دار الطليعة بيروت، ط ١، ١٩٧٩ ص ١٣٨ و ٢٠٠ وما بعدها.

(٥٢) دراسات في تاريخ الإسلامي، المرجع السابق ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٥٣) التمدن الإسلامي، مج ١ ص ١٥٢.

بن بلبل ، ولم يستمر من جاء بعده في الوزارة لمدة طويلة بل كانت ولايته تتراوح بين ثلاثة أشهر وعام واحد ، نذكر من هؤلاء وزراء البويهين والفاطميين والسامانين[٥٤].

وبمجيء الأتراك المغول إلى البلاد الإسلامية، وبعد أن سيطروا عليها وفوضوا السلطة إلى رجال وزراء من أهالي البلاد الاصليين، عاد منصب الوزارة إلى مجده القديم وبلغ من الأهمية حداً لم يصل إليه في عهود سابقة لا سيما وان الغزاة كانوا متخلفين جهلة ولا يحسنون السياسة والإدارة، وإن كانوا يجيدون الحرب والفروسية، فاعتمدوا على المتحضرين والمؤيدين لهم من أبناء البلاد وعهدوا إليهم وأطلقوا أيديهم في الحكم والإدارة والسياسة، مما ساعد على وصول الوزير نظام الملك الطوسي على سبيل المثال، إلى مركز الصدارة في الدولة السلجوقية.

وقد شغل موضوع الوزارة العديد من المفكرين والمنظرين السياسيين في مختلف العصور، واهتم المؤرخون أيضاً بتأريخ حياة الوزراء وتدوين آثارهم وتجاربهم داخل القصور والبلاطات الملكية، وكشفوا النظم والقوانين التي تحكم مهنة الوزارة ودور الوزير ووظائفه وعلاقته بالحكم والمحكومين.

ويلتقي كاتبنا عنصر المعالي في كثير من تلك الجوانب، مع العديد من الفقهاء والمنظرين السياسيين لا سيما ما تعلق منها بوجوب منصب الوزارة ودور الوزير ومهامه ووظائفه، فهي من المسائل الهامة التي تعتبر من صميم المسائل السياسية.

وبما أن الوزير يشغل منصباً مهماً على صعيد السلطة السياسية داخل الدولة، فإن دراسة وظائفه وخصائصه الشخصية ذات أهمية كبيرة. ومنعاً للتكرار وحرصاً منا على حسن سير المناقشة، سوف نفصل فقط في القضايا والمفاهيم السياسية التي تفرد بها عن سواه مع تلميح سريع إلى المباحث والافكار التي تكررت عند المفكرين والمنظرين السياسيين.

---

(٥٤) دارسات في التاريخ الإسلامي، ص ١٠٥.

نظرية قابوس في الوزارة:

علق الكاتب أهمية كبرى على منصب الوزير، واعتبره من بين المناصب الهامة في حياة الدول والشعوب، وتحدث عن وجوب الوزارة وضرورتها في تسيير أعمال الدولة وفي خدمة السلاطين والحكام، ونبه إلى دور الوزير في التدبير والسياسة وحفظ مصالح العامة، وأظهر منافعة بقوله: «الوزير هو العقل» أي انه بمثابة العضو الذي لا ينفصل عن أعضاء البدن وان حاجة الملك للوزير كحاجة البدن الى العقل المدبر.

وبهذا يقرب قابوس من افلاطون الذي وزع طبقات المجتمع في مدينته الفاضلة تبعاً لقوى النفس البشرية الثلاث، فجعل الحراس أو النخبة بمثابة الرأس والعقل، والجند بمقابل الجسد والبطن، وشبه العامة بالاطراف والقوة الشهوية.

ويسمي عنصر المعالي وزيره تقديراً بوزير الوزراء(٥٥) للدلالة على أهمية هذا المنصب وحساسيته، كذلك فإنه يلزم السلطان باستشارة وزيره وعدم الاستغناء عن رأيه «ولا تفتقر إلى رأيه واستمع الى كل رأي يقوله الوزير أو طريق يبينه» (٥٦) متفقاً في دعوته مع الطرطوشي(٥٧) الذي نصح بمشورة الوزير وبأهميته على صعيد بناء الدولة وتدبير شؤون الملك والرعية.

صفات الوزير:

نظرا لموقع الوزير داخل السلطة وللمسؤوليات الكبار الملقاة على عاتقه، يرى قابوس أنه لا بد لكل من يشغل هذا المنصب من صفات وخصائص شخصية مميزة تقدمه على سواه من الناس، وتمكنه من ملء مركزه داخل السلطة، وبما أن الفلاسفة وفقهاء الإسلام قد فصَّلوا في صفات الوزير الخَلْقية والخُلُقية(٥٨)

(٥٥) قابوس نامه، ص ٤٠٩.

(٥٦) عينه، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٥٧) الطرطوشي أبو بكر، سراج الملوك، طبعة أنطوان افندي غندور، المطبعة الوطنية بالاسكندرية، ١٢٨٩ هـ. ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٥٨) قا: الاحكام السلطانية للماوردي، ص ٢٢ وما بعدها. قا: أيضاً: سراج الملوك للطرطوشي، ص ١١٩ ـ ١٢١. وقا. بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الازرق (تحقيق علي سامي النشار) ج ١، ص ١٨٣ وما بعدها.

وتشابهت أقوالهم مع أقوال قابوس فلا نجد ضرورة في تكرار ما أجمعوا عليه.

ويشدد عنصر المعالي على ضرورة اختيار الوزير «شيخاً أو كهلاً» تمرس في السياسة والإدارة وخبر الحياة، فالوزارة باعتقاده عبء ثقيل ومسؤولية كبرى تقع على عاتق الشيوخ دون الشبان الذين تنقصهم الخبرة والنضوج وعمق التجربة.

والوزير الكفء في قابوس نامه، هو الذي أكتمل قوامه وظهرت عليه آثار النعمة والجاه والعظمة وقوة البنيان، فكان «بهي الوجه معتدل القامة قوي التركيب كبير البطن» فذلك هام باعتقاد قابوس لأنه يوحي بالثقة ويبعث الرهبة والمهابة في نفوس المحكومين خصوصاً إن ترافق مع لحية عظيمة بيضاء وبطن كبير، إذ «لا أبهة قط للنحيف وقصير القامة»(٥٩) حسب تعبيره.

ويتفرس الكاتب جدارة الوزير العتيد ومقدرته السياسية والإدارية بالنظر في ملامح وجهه وشكله الخارجي، معتقداً أن سلامة المظهر الخارجي للوزير شرط ضروري لفوزه وتثبيت سلطانه. ولم يهمل قابوس الجانب الخلقي والنفسي، فيشدد على أهمية الرصانة والتوازن الشخصي والثبات في شخص وزيره، ويدعوه إلى احترام مشاعر الآخرين، وإلى الحفاظ على أصول الشريعة، وينصحه بأن يترفع عن ارتكاب المحظورات وانتهاك المحرمات كشرب الخمرة مثلاً بقوله: «ولا تشرب النبيذ لأن الغفلة والرعونة والإثم تنشأ من شرب النبيذ».

والواقع إن الكاتب في موقفه هذا يتحدى ظروف بيئته وواقعه الإجتماعي، ويخرج على تقاليد العصر السائدة من غير أن يعبأ بسطوة الحكام والوزراء والقادة، هادفاً من وراء ذلك إحياء الشريعة وتكريس الفضيلة والقيم الأخلاقية الإسلامية، ويمكن للقارىء أن يستشف من خلال اطلاعه على أقوال قابوس في الخمرة، مدى وعي الكاتب بأثر الخمرة على السكير ومضارها من الوجه الصحية والنفسية(٦٠)، فالخمرة تفقد العقل وتهلك الجسد وتجعل الشارب عربيداً طائشاً فاقد الوعي والمشاعر، ضعيفاً محتقراً من الآخرين. لذلك ومن أجل أن يبقى

---

(٥٩) قابوس نامه، ص ٤١٠.

(٦٠) قابوس نامه، ص ٢٧١.

الوزير كبيراً في أعين الرعية وشرفه مصوناً، ولكي لا يُراقَب ويخالف الرأي والتدبير، يحذره عنصر المعالي من مضار الخمرة ونتائج السكر بقوله «الوزير حارس المملكة ومن القبيح جداً أن يلزم للحارس حارس آخر»(٦١).

سلطات الوزير ودوره داخل الدولة وفي المجتمع:

يتحمل الوزير بحكم موقعه الريادي داخل السلطة عدد كبير من المسؤوليات والتبعات يمكن تحديدها بالنقاط التالية: سياسة الوزير وتعامله مع الملك، سياسة الوزير مع العمال والجند، تعامل الوزير مع الرعية.

أ ـ مسؤوليات الوزير وتعامله مع الملك:

ينصح الكاتب وزيره أن لا يطمع بمال السلطان وبملكه ولا يتهافت على جمع الثروة وأسباب الجاه، ويوصيه بعمل كل ما من شأنه أن يرضي وليّ نعمته ويسر قلبه، فيكون مخلصاً له وحافظاً أمواله «فاحفظ مال الملك»(٦٢)، ذلك أن اهتمام الوزير بشؤون الدولة الداخلية ولا سيما السهر على سلامة القانون والنظام وتنفيذ المراسيم لمن أهم واجباته ومسؤولياته.

ويشدد الكاتب على أن يكون الوزير حذراً في تعامله مع الملك يخشاه ويهابه «ولا يجب على شخص الخوف من الملك كما يجب على الوزير» كما يوصي الوزير بالعلم والحكمة والحذر من الملك حتى ولو كان صغيراً وقاصراً بقوله: «إذا كان الملك صغيراً فلا تعده صغيراً»(٦٣). ومن خلال هذه الدعوة يحاول الكاتب تحديد السلطات ومقدار أهميتها وشرعيتها، فيظهر السلطان بمظهر الرجل القوي الذي لا ينازع، ويصوره على أنه الظل الإلهي ومصدر القوانين والسلطات، ويكون بذلك جميع العاملين في مؤسسات الدولة، حتى الوزراء موظفين يعينون ويفصلون بمراسيم وبإرادة ملكية، وبهذا يحد قابوس من سلطات الوزير ومسؤولياته ويجعل بقاءه في السلطة أو عزله عنها رهناً بإرادة السلطان وحده وليس بالاختيار أو الانتخاب أو الشورى.

(٦١) عينه، ص ٤٠٦.

(٦٢) قابوس نامه، ص ٤٠١.

(٦٣) عينه، ص ٤٠٢.

وينبه الكاتب وزيره أن يحذر الملوك ولا يأمن لهم لأنهم سرعان ما ينقلبون، ويدعوه أيضاً إلى أن يترصد أحوالهم ويستكشف أحوالهم ليعرف ما يجول في خاطرهم وما يسرون يقول: «فينبغي أن تكون ذا دراية بأحوال كل الملوك»(٦٤)، ويوصي الوزير أن يتخذ من أتباع الملك واقاربه أدلاء وجواسيس، فهؤلاء برأي قابوس يصلحون لكشف خفايا الملك ونواياه.

ب ـ سياسة العمال والجند:

يشدد الكاتب على ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، معتبراً تكافؤ الفرص وتوزيع الأعمال تبعاً للكفاءة والاختصاص، شرطين ضروريين لحسن سير الأعمال داخل البلاط «واعطى كل عمل للجدير بالعمل» فليس الناس في مرتبة واحدة، بل يختلفون في القدرات والمواهب والاستعدادات، كذلك يتفاوتون في المفاهيم وانماط السلوك، وتلك حقيقة واضحة فطن إليها الكاتب وتداركها، وقد تجسد ذلك من خلال دعوة قابوس وزيره إلى أن يتحرى العمال والموظفين والجند ويكلفهم بالاعمال التي تناسبهم قال: «ولا تضع الدنيا في أيدي الجاهلين» فإنها لا تليق بهم ولا يفلحون لو تولوا المناصب وتحمل المسؤوليات، فالقيام بالأعمال العظيمة مسؤولية الكبار في نفوسهم الأقوياء في ارادتهم «ولا تسد العمل الكبير إلى العمال الوضيعين والسفلة».

كما ينصح الكاتب بعدم إسناد الأعمال إلى المفلسين والظلمة والجهال «ولا تسدالعمل إلى المفلس والمملق»(٦٥)، وغرضه من ذلك قطع دابر الشر في نفوس العمال والموظفين، وتحقيق تقدم اقتصادي واجتماعي وعمراني داخل المملكة.

ويحفظ الكاتب حقوق عمال الدولة وكراماتهم فلا يسمح بالاعتداء عليهم أو التقليل من شأنهم، فكرامتهم جزء من كرامة الدولة يقول: «ولا تغل يد العمال مرة واحدة»(٦٦). ويطالب بتكريم العمال وتشجيعهم بالمال والمكافآت لا سيما الجند

---

(٦٤) عيبه، ص ٤٠٤.

(٦٥) قابوس نامه، ص ٤٠٤.

(٦٦) عينه، ص ٤٠١.

بقوله: «وامتلاك الجند بالمال» ولعل الكاتب محق هنا لأن الجيوش في زمانه تكونت من عناصر أجنبية لا تمت إلى دولة الملك برابطة قومية أو وطنية وكانت تناصر الحاكم وتعاديه بمقدار ما يمنحها من هبات واعطيات.

وعدل الوزير بين جنده وعماله ورعيته شرط ضروري من أجل سلامة الجميع وعمار المملكة، ومن مسؤولياته أن لا يسلط الجند على العباد، ولا يقدم الرعية على الجند بل يكون «منصفا مع الجند والرعية».

والواقع ان اهتمام الكاتب بالرعية والجند يخفي في طياته مقدار وعيه في أن الدولة لا تقوم ولا تقوى إلا إذا تضافرت جهود رعاياها لا سيما الجند منهم «فثبات الملك بالجند[٦٧].

ج ـ سياسة الوزير مع الرعية:

تتلخص سياسة الوزير للرعية بالإهتمام بالمزارعين والفلاحين، فهم يشكلون طبقة إجتماعية هامة تسهم حسب اعتقاد الكاتب في بناء الدولة وتطور العمران «عمارة القرية بالدهقان»[٦٨] فبقدر ما يبذله العمال الزراعيون والفلاحون من جهد يزد اد الإنتاج وبالتالي يتضاعف الدخل الوطني.

كما يشدد الكاتب على وجوب الإهتمام بالعمران الذي يتراكم بفعل ادخار الناس وازدياد مداخيلهم، وينصح الناس بامتهان الزراعة وتشييد الأبنية وتوسيع الأسواق قائلاً: «فجد في العمارة والزراعة» وفي موضع آخر يقول:«يحصل المال بالعمارة»[٦٩] ، فهي مصادر ثابتة للدخل الفردي والوطني بفعلها ينعم الناس ببحبوحة ورخاء، وتنعم المملكة بالازدهار والعمران، فتتضاعف مداخيلهما وتعمر خزائنها بالأموال.

---

(٦٧) قابوس نامه، ص ٤٠٢.

(٦٨) قابوس نامه، ص ٤٠٢.

٦) عينه ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

القضاء
أخلاق القاضي وصفاته ودوره

يعتبر القضاء في الإسلام فريضه محكمة وسنة متبعة، وهو يرتكز أساساً على النصوص القرآنية وسنة رسول الله، ويقبل التفسير والاجتهاد في القضايا.

ولم يكن القضاء في بدايته قوالب جاهزة، وإنما تطور وارتقى عبر مراحل التاريخ الإسلامي بفعل عوامل المزج الحضاري والتداخل في الثقافات. وتأثر القضاء بالتحولات الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية التي أصابت المجتمع الإسلامي، فصار مهنة قائمة بذاتها يتولاها اناس يختارون وفق شروط ومواصفات دقيقة، وأقيمت مجالس خاصة عرفت بدور القضاء يجلس فيها القضاة والموظفون والمساعدون القضائيون والمستشارون. ولم تكن السلطة القضائية في بداية العهد الإسلامي، منفصلة ومستقلة عن باقي السلطات التشريعية والتنفيذية كما هو الحال في زماننا، وإنما كان الخلفاء الأوائل يتولون بأنفسهم السلطة القضائية والتنفيدية اقتداء بالرسول، لكن عمر بن الخطاب خرج على القاعدة وفوض أشخاصاً من قبله ينوبون عنه في الأقاليم عرفوا بالقضاة(٧٠).

وبفعل الفتوحات، وباتساع الدولة الإسلامية وتعقيد الحياة الإجتماعية، إتسعت صلاحيات القضاة، وتجاوزت حدود الأعمال القضائية، وأصبح القاضي يتدخل في الأمور الدينية، فيئم الناس في الصلاة ويخطب في المساجد، ويشرف على أموال المفقودين والغائبين، ويصحب الجيوش في الحروب، ويشرف على

---

(٧٠) قا: الحضارة الإسلامية، لعبد المنعم ماجد، ص ٤٦. قا. أيضاً: تاريخ التمدن الإسلامي، مج ١، ص ٢٣٥.

أدوات البيع والشراء، وامتدت سلطته حسب ما ورد في كتب النظم الإسلامية، إلى النظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء[٧١].

ولمرحلة ما قبل ظهور الشيعة[٧٢] تشعبت القضايا الفقهية وكان القضاة يجتهدون فيها ويفسرون النصوص[٧٣]، وطرأت تعديلات كبيرة على تنظيم مهنة القضاء، وصار القضاة أعضاء في جهاز إداري متكامل يعرف بالجهاز القضائي، ويعينون بمرسوم، ويولي الخليفة بنفسه نوابا للقضاة في الأقاليم والمناطق عرفوا بنواب الملك[٧٤].

وفي هذه الفترة الزاهية من تاريخ القضاء الإسلامي، عاش كاتبنا واستوعب المهنة وتعمق في دراسة أصولها وتفرعاتها وقواعدها، وانتهى إلينا بفصل من قابوس نامه خصصة لمهنة القضاء ذكر فيه أصولها وشروطها وفق ما كان سائداً ومتعارفاً وموروثاً في زمانه إضافة إلى مفاهيم جديدة ذكرها في صورة وصايا ونصائح لابنه، حدد فيها وظائف القاضي وصفاته وشروط المحاكمات.

صفات القاضي:

حدد قابوس مجموعة من الصفات والخصائص الشخصية في متولي مهنة القضاء التقى في كثير منها مع علماء الإسلام وأئمة الدين كالماوردي[٧٨] وأبن الازرق[٧٩] وأبرز صفات القاضي ما يلي:

١ ـ على القاضي أن يكون «بعيد النظر وعارفاً بالناس وصاحب سياسة وعالماً بعلم الدين»[٨٠] وهذه الصفات النبيلة كفيلة حسب قول قابوس برفع

(٧١) قا: الحضارة الاسلامية، لعبد المنعم ماجد ص ٤٦. قا. أيضاً: تاريخ التمدن الإسلامي، مج ١، ص ٢٣٧.

(٧٢) فالشيعة لا يعتبرون التفسير من اختصاص القاضي وإنما الإمام الشيعي المعلم هو وحده صاحب الحق في التأويل والتفسير والاجتهاد.

(٧٣) الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد، ص ٥٠

(٧٤) عينه، ص ٤٧.

(٧٨) قا: الاحكام السلطانية، للماوردي، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٧٩) قا: بدائع السلك في طبائع الملك، لأبن الازرق، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٨٠) قابوس نامه، ص ٣٥٠.

مستوى القاضي في زمن انحطت فيه الأخلاق واندثرت، وأقتحمت المحرمات والمحظورات، فهي تحثه على تحمل مسؤولياته في إقرار الحق والعدل وتطبيق القانون بنزاهة وتعقل وجدية.

ولعل الكاتب قد استدرك خطورة التعامل مع الناس وصعوبة حل النزاعات فيما بينهم، لذلك نصح ابنه بالمرونة وبالقدرة على التكيف والتوافق مع ظروف مجتمعه وبيئته، ودعاه إلى الاطلاع بأحوال الناس وبالتعرف على طبائعهم وميولهم واتجاهاتهم، وبتحسس واقعهم وظروفهم الخاصة، فيصيب في أحكامه وينصف بين المتخاصمين يقول: «وكن خبيراً باحتيال كل جماعة وترتيب كل قوم وكل مذهب»(٨١).

وقد أصاب الكاتب في دعوته هذه، وكان موضوعيا وعقلانيا ومطابقاً في رأيه للإتجاهات المعاصرة في ميادين القضاء، فالقضاة في الوقت الحاضر لا يقفون عند الحدود الظاهرة للقضايا بين المتخاصمين، وإنما يدققون في الأسباب الباطنة والظاهرة والرئيسية والثانوية ويتطلعون إلى ما وراء الاحكام، هادفين بذلك إلى إصلاح الإنسان والمجتمع.

لهذا دعا عنصر المعالي القاضي إلى ضرورة التعرف على أحوال الناس وظروفهم المعيشية، وا وصاه بالعلوم الدينية، كعلم الحديث والفقه وعلم الكلام وغيرها، لأن الدين كان وحده مصدر القوانين وأساس الأحكام في الأمور الجزائية والجنائية وفي قضايا الأحوال الشخصية، ولم تكن القوانين الوضعية قد شقت طريقها إلى الوجود بعد.

٢ ـ على القاضي أن يكون متروياً وحاد الفهم وصاحب تدبير(٨١) ، لأن التسرع يوقع لا محالة بالخطأ، ويزيد مقدار الزلل والسهو والنسيان، ويعطل العقل و هذا مما لا يجوز حصوله في مهنة القضاء التي تتطلب مزيداً من اليقظة والحيطة والتأمل والتروي والصبر والذكاء وسرعة الخاطر، وما شابه من الصفات التي تساعد على الكشف والوعي بالحقائق.

(٨١) عينه، ص ٣٥٠.

٣ ـ على القاضي أن يكون في مجلس القضاء «أكثر هيبة وعبوساً، وأقل ابتساما» فذلك يمنع الناس من تجاوز القانون أو التعدي على القاضي، ويوحي للمتقاضين برهبة المجلس ومهابته وبشدة سطوة القاضي ونفوذه وبسمو مقامه ومجلسه، كذلك فإن هيبة القاضي توحي للناس بالثقة وتشعرهم بالامل، فتكون رادعاً للمخالفين والمجرمين عن ارتكاب الإثم وتمنعهم من الإنحراف.

ويتساهل الكاتب مع القاضي خارج الخدمة، فيسمح له بممارسة حياته الشخصية والعائلية كغيره من الناس من غير قيود ولا شروط، ويدعوه للتبسط في بيته ويتواضع مع أهله وعياله وذويه بقوله: «ينبغي أن تكون في بيتك متواضعاً جداً».

والواقع إن الكاتب عندما يشدد على أهمية هذه الصفات المتمثلة بالجدية والرصانة في العمل، إنما ليظهر مقدار اهتمامه بمصالح الناس وحياتهم وبضرورة إقرار الحق والعدل بين الرعايا، والمحافظة على القانون والنظام الذي ترعاه الشريعة السماوية.

٤ ـ على القاضي أن يكون زاهداً تقياً و ورعا ومجتهداً(٨٢)، لأن غاية القضاء إقرار العدل بين الناس، وإنصاف الضعفاء والمظلومين، وتحقيق المساواة ونشر الإلفة والمحبة في المجتمع. وكل هذه المبادىء هي من صميم الإسلام وتعاليم الدين، أكدها القرآن ودعت إليها الشرائع السماوية الأخرى وأخذتها القوانين الوضعية بعين الإعتبار. وطبيعي أن يكون القاضي الذي يحكم بين الناس مؤمنا بالاسلام وبتعاليم الدين، ومن شروط إيمانه أن يخشى الله فيحافظ على الشرائع والسنن ويحكم بالعدل والإنصاف، فلا يداهن الحكام والسلاطين ولا يحابي، ولا يظلم ولا يجور على الضعفاء.

قواعد وأصول مهنة القضاء:

أما قواعد المهنة وشروطها فقد حددها الكاتب بما يلي:

أ ـ على القاضي أن لا يحكم أو يدخل إلى مجلس الحكم وهو منهمك

(٨٢) عينه، ص ٣٥٣.

بحاجات بدنه وأهله وبظروف السوق والمعاش، فتلك المشاغل تعطل عقله وتشل تفكيره وتوسع فرص الوقوع في الخطأ أثناء المحاكمات.

يقول: على القاضي «أن لا يحكم في عدة أوقات: أحدها عند الجوع والعطش، وثانيها وقت الخروج من الحمام، وثالثها وقت الكدر والمشاغل الدنيويه التي تعرض له». ويبدو الكاتب في موقفه هذا وكأنه عالم نفسي، يعي حقيقة المشاعر الإنسانية والإتجاهات النفسية وتأثير الدوافع والإنفعالات على عقل الإنسان وسلوكه وأفعاله، وهو بذلك مطابق لما خلصت إليه التجارب العلمية في ميادين علم النفس الإجتماع المعاصرة.

ب ـ يجب «أن يكون للقضاة وكلاء نشطون» يختص بعضهم بالحجابة وبعضهم بعرض الأحكام، والبعض الآخر باعداد المحاضر والمستندات اللازمة وقت انعقاد المجلس، والغاية من هؤلاء الموظفين مساعدة القاضي والنيابة عنه في الديوان، وتخفيف صعوبات العمل وأعباء المهنة واختصار الوقت، فمهمة القاضي تنحصر برأي قابوس «في إجراء الحكم لا التفحص» ومن الواضح أن ما يحفز الكاتب على موقفه هذا ودعوته للتسريع باجراء المحاكمات، مدى حرصه على الشريعة والقانون وأهميتهما، ووعيه بالنتائج السلبية التي تلحق بالناس من جراء تعطيل الشريعة أو التباطؤ في تنفيذ أحكامها.

ج ـ على القاضي أن يتعمق في دراسة ما يعرض عليه من قضايا وشكاوى، ولا يتسرع في إصدار الأحكام والقرارات «ولا تخل أبداً من درس المسائل والمذاهب واحفظ التجارب» فالاحكام في النهاية تطال المتخاصمين وتؤثر في صميم الحياة البشرية. ومن أجل أن يتلافى القاضي الأخطاء ويحقق غاية القضاء في إقرار العدل والإنصاف بين الناس وحماية المستضعفين والمضطهدين، يوصيه عنصر المعالي بالتشاور مع أولي الأمر والحكماء وأصحاب الفتاوى، ويعرض عليهم ما أشكل عليه، علهم أن يساعدوه في إدراك الحقيقة وفي الوصول إلى اليقين يقول: «لا تعتمد على رأيك في مسألة تعرض لك واستشر المفتين ونور رأيك على الدوام»[٨٣]. هذا الموقف يظهر مدى وعى الكاتب بقدرات العقل

(٨٣) عينه، ص ٣٥٣.

الإنساني وحدوده فتأتي دعوته لاستشارة المفتين والعلماء والاستفادة من تجارب الآخرين، كوسيلة لإيقاظ العقل والحد من النسيان وخيانة الذاكرة والسهو والذلل.

د ـ يجب أن يجتهد القاضي في القوانين ولا يحكم بموجب النصوص الثابتة «فالاحكام لا تؤخذ كلها من الكتاب، ويجب أن يستنبطوا بانفسهم مثل هذه الاستنباطات ويدبروا التدابير[٨٤]»، وهذه حقيقة ثابتة ويقينية إستلهمها الكاتب من خلال تفهمه لنصوص القرآن ومن الواقع الإجتماعي الذي عاش فيه، فالقرآن الذي هو مصدر القوانين والشرائع يتضمن مبادىء وقوانين عامة وشاملة لتنظيم الكون والمجتمع وحياة الناس، والنصوص الدينية لم تتطرق إلى تفاصيل القضايا وجزئياتها، وفي ذلك حكمة ربانية تتمثل في إحياء العقل بالحكم والإجتهاد، وبالتأويل والتفسير خصوصاً في القضايا التي لا نصوص صريحة حولها. كذلك فإن ظروف الحياة الإجتماعية المعقدة والمتشابكة التي عاش الكاتب في ظلها والتناقضات الفكرية والمذهبية والدينية والمجادلات الفقهية كانت حوافز للإجتهاد والتفسير والأخذ بقوانين العقل والمنطق.

شروط المحاكمات:

حدد الكاتب وظائف القاضي وهو في مجلس الحكم بالنقاط التالية:

١ ـ من أصول المحاكمات أن يختصر القاضي في الاقوال، ويكون دقيقاً وموضوعياً في المرافعات «ولا يسمع في وقت الحكم أن يقص لديه القصص والحكايات وتشرح الاحوال» لأن في الشرح المطوّل مضيعة للوقت وتطويل لفترة المحاكمات، الأمر الذي يلحق الضرر بالمتخاصمين واصحاب الحوائج.

٢ ـ «على القاضي أن يوجز الكلام ويحيل فوراً على الشاهد واليمين»[٨٤] فذلك يُسّهل أمر التقاضي ويسرِّع صدور الاحكام خاصة إن كان المتخاصمون من المسلمين المتمسكين بالدين قولاً وعملاً أما إذا كانوا من غير المسلمين كاليهود والنصارى والمجوس الذين لا يأخذ بشهادتهم، فعلى القاضي أن يعين بنفسه الشهود بحيث يكونوا من الفقهاء والعلماء لأن من اسس الحكم في الإسلام البينة والشهادة. كما

---

(٨٤) قابوس نامه، ص ٣٥٣.

وإن من واجبات القاضي أن «يجري كل تجربة وتجسس يعرفهما»[٨٥] كمحاولة منه لا قرار العدل بين الناس ورد الحق إلى نصابه.

٣ ـ على القاضي «أن لا يكتب بيده قبالة ومنشوراً أبداً» ويترك ذلك الامر لموظف يسمى في أيامنا هذه «المساعد القضائي» وهو واحد من موظفي ديوان القضاء يُنتدب خصيصاً ليلازم القاضي في مجلس الحكم وقت المحاكمات، لتحضير الملفات والدعاوى، ولتدوين القرارات والبلاغات وتسجيل محاضر الجلسات.

٤ ـ يرى الكاتب أن «رأي القاضي في الشريعة مساوٍ لرأي الشرع»[٨٦] ولهذا فهو يمنح القاضي صلاحيات واسعة ويسمح له بتخفيف حدة الاحكام وتبسيطها إن جاءت قاسية وشديدة على رأي الشرع، شريطة أن لا يخالف ويناقض تعاليم الدين، والهدف من ذلك هو الحفاظ على مصالح الناس والعمل بما يقتضيه الظرف وواقع الحال.

---

(٨٥) عينه، ص ٣٥٣.

(٨٦) قابوس نامه، ص ٣٥٣.

الكتابة والانشاء
شروط المهنة، صفات الكاتب ووظائفه

تمهيد

ظهرت مهنة الكتابة في العالم الاسلامي لأول مرة خلال العهد الراشدي، وقد استحدثت برأي ابن خلدون بسبب العجز عن التعبير اللغوي والبلاغي بالمشافهة، وعيّن الكتاب الذين صاروا يعبرون بأقلامهم أفضل وأبلغ مما يعبرون بألسنتهم(٨٧).

وكان الكتّاب أعواناً للخلفاء يساعدونهم في الاشراف على الرعية والجند والسلاح، وفي الحروب وفي جباية الاموال وإنفاقها(٨٨)، وكانت كتاباتهم تدور حول نسخ القرآن وتحرير كتب الرسول. وكان هؤلاء الكتاب يختارون من بين الاسر العريقة في تاريخها العلمي والأدبي والثقافي ومن أنساب الأمراء وأقاربهم(٨٩)، ومن أهل المروءة والحشمة، المتمرسين في صياغة الجمل وصناعة الألفاظ(٩٠)، لأن الكاتب معرض للنظر في أصول العلم وفي مختلف المعارف والقضايا التي تثار في مجلس الخليفة.

وبمجيء العهد الأموي تعددت اختصاصات الكتاب بتعدد المصالح، واحتل

(٨٧) قا: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٦.

(٨٨) قا: النظم الإسلامية، حسن ابراهيم حسن، ص ١٣٩ - ١٤٠

(٨٩) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، قا: النظم الإسلامية لحسن حسن، ص ١٤١.

(٩٠) النظم الإسلامية، عينه، ص ١٤٠.

كتّاب الرسائل مراكز هامة بين باقي كتّاب الدولة لا سيما في العصر العباسي، حيث أصبحت مهمة كاتب الرسائل توازي مهمة الوزير ولا تقل شأناً عنها. وامتدت صلاحياته واتسعت مهامه، فتولى إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه. وكان يجلس الكاتب غالباً مع الخليفة في مجلس القضاء، للنظر في المظالم وختم الأحكام.

والواقع إن ما وصل إليه المسلمون في فن الكتابة وأصوله العلمية لم يكن نتاجاً عربياً صرفاً، فقد كان معروفاً في الحجاز قبل الإسلام، حيث تعلم العرب الخط النبطي من حوران أثناء تجارتهم في الشام، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل، وبقي الخطان معروفين عند العرب بعد الإسلام. ويذكر جرجي زيدان أن العرب المسلمين استخدموا القلمين الكوفي في كتابة القرآن والنصوص الدينية، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الإعتيادية[٩١].

وتعددت الاقلام وتنوعت بعد انقضاء العهد الراشدي حتى بلغت اثني عشر قلماً، منها قلم الديباج وقلم السجلات، وقلم القصص وقلم الثلاثين وسواها، وتنوعت الخطوط تبعاً لتعدد الاقلام، فزادت على عشرين شكلاً جميعها مستمدة من الخط الكوفي. أما الخط النسخي أو النبطي فكان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية[٩٢]، وبتوالي الأعوام تنوع الخط النسخي وأصبح القلمان الرئيسيان في اللغة العربية الكوفي والنسخي. وقد التزم بفن الخط والكتابة عدد كبير من الكتاب والخطاطين الذين كتبوا مؤلفات عديدة في أصول الكتابة والخط سواء من حيث المضامين أو الأشكال الظاهرة، فتحدثوا عن الأقلام وطرق بريها وأحوال الدواة والشق والقط[٩٣]، واهتموا بالصياغة وجودة العبارة أثناء الكتابة.

وليس غريباً وسط هذا الاهتمام بمهنة الكتابة، أن يخصص عنصر المعالي قسماً من صفحات كتابه«قابوس نامه»للحديث عن الكتبه يشرح فيه شروط مهنة الكتابة ويحدد مواصفات الكاتب وسلوكه المهني. أما اهتمام قابوس بهذه المهنة

---

(٩١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٥٨ - ٥٩.

(٩٢) عينه، ص ٦٠.

(٩٣) القط: معناها القطع، قا. بالفيروز أبادي مج ٢، ص ٣٩٤.

فهو لسببين: الأول رغبته في تعليم ابنه مختلف الصناعات والمهن، والكتابة إحدى تلك المهن والحرف الهامة ، والثاني انه هو شخصياً يحب هذه المهنة ويجلّ أصحابها لما يقدمونه من خدمات جلى للدولة، فالكاتب برأيه مؤتمن على أسرار الدولة ووثائقها ومسؤول عن تنظيم الرسائل الداخلية والخارجية نيابة عن السلطان والوزير، كما أنه مسؤول عن نشر المراسيم والتقارير والبلاغات الرسمية.

ويشترط قابوس أن يكون الكاتب قوى البيان وذا خط حسن ، ويمتاز بجذالة الأسلوب وجودة العبارة، وبالبلاغة وحسن الاداء والصياغة.

وعليه أيضاً أن يتعود الكتابة والقراءة باستمرار ليصير ماهراً[٩٤] فيطالع أصنافاً شتى من العلوم والمعارف ويتعود النسخ، ويعاشر أرباب المهنة وينهل من معارفهم ، فذلك يكفل له النجاح ويوسع مداركه وينمي قدراته بحيث يصبح قادراً على التعبير الجيد والاداء الصحيح. ولا تليق مهنة الكتابة بأي كان حسب اعتقاد قابوس فهي للمثقفين الذين وسع اطلاعهم وامتازوا بالذكاء والنباهة، فالكاتب يجب أن يكون «سباقاً إلى العمل وفكرياً ومثقفاً وذكوراً وموفقاً في كل الامور»[٩٥] وهذه خبرات وقدرات لا تتوفر إلا للخاصة الذين تمرسوا في الادارة وعاشوا في دواوين الدولة وخبروا الحياة .

أ ـ شروط الكتابة:

حدد عنصر المعالي شروط الكتابة على النحو التالي:

ـ أن تُكتب الرسائل بطريقة شيقة ومحببة للقراء، وتستعمل الصور البيانية والاستعارات والتشبيهات، وتكثر الاستشهادات بالآيات القرآنية، فذلك برأي قابوس يزيّن النص ويجعله مقبولاً على السمع والقلب ، يقول : «زين كتابتك بالاستعارات والامثال والآيات القرآنية والاخبار النبوية»[٩٦].

---

(٩٤) قابوس نامه، ص ٣٩٣.

(٩٥) عينه، ص ٣٩٨.

(٩٦) قابوس نامه، ص ٣٩٣.

ـ أن تُطعم العربية بالفارسية أو بالعكس أثناء الكتابة[97]. فالفارسية الخالصة ثقيلة على الاذهان لا سيما إن كانت فارسية قديمة «وإذا كان كتاباً فارسياً فلا تكتبه بالفارسية المطلقة لأنها غير مستحسنة وخاصة الفارسية الدرية إذ أنها غير معروفة»[98].

ـ أن يستخدم السجع خصوصاً في الرسائل العربية «والسجع في الرسالة العربية براعة وحَسَنٌ جداً ويُستملح[99]، فهو يضفي على الكتابة العربية رونقاً وروعة، ويجعل العبارة سلسة وخفيفة الوقع على الأذهان، أما استخدامه في اللغة الفارسية فإنه برأي قابوس قبيح وغير محمود «يقبح في الرسائل الفارسية»[99]. ولعل الكاتب قد خلص إلى هذا الموقف نتيجة إلمامه بالعربية ووعيه الدقيق وإعجابه بلغة القرآن التي غلب عليها طابع البلاغة وقوة العبارة وجودة الأسلوب.

ـ أن تتكرر في الكتابة الصور البلاغية والبيانية، وأن تُختصر الافكار وتكون العبارات المستخدمة رقيقة شيقة، فأحسن الكلام برأي قابوس ما كان «عالياً ومستعاراً وعذباً ومختصراً»[100] فالاستعارات تجمِّل العبارة وتقرب المعنى إلى القارىء، كذلك فإن اختصار الجمل يسهِّل استيعاب المعلومات ويساعده في فهم مضمون النص.

ب ـ أدب الكتَّاب وخصائص مهنة الكتابة:

للكتابة أصول ورموز وأسرار لا بد من التعرف عليها والالمام بها من أجل الوقوف على مهنة الكتابة واتقانها، فالكاتب برأي قابوس ينبغي أن يكون درَّاكاً

---

(٩٧) لم تكن اللغة الفارسية مهملة في عصر قابوس، بل كان الادباء والفلاسفة والعلماء يستخدمونها في كتاباتهم إلى جانب اللغة العربية لغة القرآن، ورغم رواج وانتشار اللغة الفارسية في تلك الحقبة، ظلت اللغة العربية أكثر شيوعاً وانتشاراً لا سيما في الاوساط الاستقراطية وبين الطبقات الراقية وكانت حاجة الناس إليها كحاجتنا نحن اليوم إلى اللغات الاوروبية.

(٩٨) قابوس نامه، ص ٣٩٣.

(٩٩) عينه، ص ٣٩٣.

(١٠٠) عينه، ص ٣٩٣.

وان يعرف أسرار الكتابة ويفهم العبارات المرموزة ، فمهنة الكتابة على حد تعبيره تتطلب ذكاءً ويقظة باستمرار[١٠١] .

أما واجبات الكاتب فأهمها برأي قابوس أن يثابر ولا يقصِّر في إنجاز معاملات الديوان، ويكون قديراً في الحساب نشيطاً في تصريف الاعمال وكتابه المعاملات[١٠٢]، ويلبي أوامر السلطان ويتذكر أقواله وملاحظاته وأن لا يفارق مجلسة على الاطلاق «يبقى ملازماً الحضرة على الدوام» ينفذ الاوامر. وعليه أن يطلع على أحوال الديوان، ويتفقد العمال وينظر في الاعمال والمعاملات، يقول : «إطلع على معاملات كل العمال وتجسس وتعرف بجميع أنواع الاعمال»[١٠٣]

ومن مسؤوليات كاتب السلطان أن يترقب كل ما يجري في ديوان الوزير ويتجسس أخباره ويكشف خفايا مكاتباته ومراسلاته «ولا تتفحص في الظاهر شغل الوزير ولكن اطلع على كل الامور في الخفاء»[١٠٤] فمن عادة الوزراء أن لا يسمحوا لأحد قط أن يراقب أعمالهم ويحصي خطواتهم. ويحذِّر عنصر المعالي من تزوير الاوراق والاختام والمعاملات ولو كان في ذلك نفعاً عظيماً للكاتب نفسه لأن «التزوير أمر خطير»[١٠٥] وخطورته تتجلى في انكشاف أمر المزور وخسارته مركزه وثقة مولاه كما يقول قابوس «إذا كنت قديراً في الخط وتقلَّد كل خط تراه لا توقف عليه كل أنسان حتى لا تصير معروفاً بالتزوير فتزول ثقة ولي النعمة»[١٠٦].

---

(١٠١) قابوس نامه، ص ٣٩٤.
(١٠٢) عينه، ص ٣٩٨.
(١٠٣) عينه، ص ٣٩٨.
(١٠٤) قابوس نامه، ص ٣٩٨.
(١٠٥) عينه، ص ٣٩٩.
(١٠٦) عينه، ص ٣٩٨.

خدم الملوك والعمال والندمان

خدم الملوك وأصول تعاملهم مع الحكام والسلاطين:

هم طائفة من العمال والمستخدمين الذين يعملون في بلاطـات الخلفاء، ويختارون في أغلب الاحوال من بين الغلمـان المملوكين، ويدخلون في عـداد الحاشية، وينتدبون للخدمة داخل القصور. ويذكر متز(١٠٧) أن بعض هؤلاء الخدم يصل إلى رتبة الإمارة، ويتدرج الباقون في أعمال مختلفة كـالحجابـة والسقايـة وسياسة الخيل والتنجيم والحراسة، إضافة إلى أعمال المؤذنين والبوابين والخبازين والطباخين، وغيرها من الاعمال اليومية الضرورية التي لا غنى عنها داخل البلاط من أجل انتظام الأمور وحسن سير العمل.

وتَنَبه قابوس إلى أهمية هذه الطائفة من عمال العتبة، واقترح مجموعة من القواعد والقوانين في إطار سياسة الخـدم وعمال البـلاط، وتحدث عن شـروط إعدادهم وتدريبهم وتـأهيلهم للخدمـة وعن أخلاقيـات الخادم وآدابـه وواجباتـه وأصول تعامله مع السلطان.

وأبرز ما يطالعنا به قابوس أنه يحذِّر الخادم من التبّسط في تعامله مع ولي نعمته، فالنعم لا تدوم والملوك متقلبون ولا يؤتمن لهم يقول: «فلا تغتر بقربـه» «وإذا آمنك يومـاً... فكن غير آمن»(١٠٨) وهـذه دعوة صـريحة أطلقهـا عنصر المعـالي محذراً من عشـرة الملوك وأصحاب الشـأن، استخلصها من تجـاربـه

---

(١٠٧) متز، الحضارة الإسلامية، مج ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١٠٨) قابوس نامه، ص ٣٨٣.

الشخصية ومن احتكاكه بملوك السامانيين والغزنـويين وغيرهم. أما عن تعامـل الخدم مع السلاطين فحددها عنصر المعالي بما يلي:

أ ـ على الخادم أن يحافظ على سيده ويتفانى في خدمته ويخلص له ولا يطمع بماله، وعليه بالحشمة وليس المنفعة «ولا تغتر بالجاه وأطلب من السلطان الحشمة لا النعمة» فالمال والجاه لا يدومان للخادم إذا لم يخلص لسيده، ويتفانى ويضحي في سبيله.

ب ـ يجب أن يسارع الخادم في تنفيذ أوامر الملك، فيدبر كل ما أوكل إليه، ويكون مشغولاً بالخدمة على الدوام، لا يقصر في نوع من الأعمال والخدمات. وعليه أن يستبق الآخرين ولا يمـل مـن عمل قط «كن دائماً مشغولاً بالخدمة قبل أن يأمرك. . . وكل ما يريد عمله شخص آخر اجتهد أن تعمله أنت. . .»[١٠٩].

ويحذر قابوس الخادم من التقصير والتقاعس وقت تأدية الأعمال، وينصح بتدبير ذلك بتصنع الجهل، فالجهل عند الملوك لا يعد ذنباً[١٠٩].

ج ـ على الخادم أن لا يترك عمله أو مركزه المقرر «كن دائماً حاضراً في البلاط بحيث كلما طَلب أحداً يَجِدْكَ». ومن واجباته أن يتحمل مشاق العمل وعناء الخدمة وإذلالها كي يكسب عطف الملك ومودته ورضـاه «وما لـم تتحمـل عناء الصنعة لا تصل إلى راحة الرفعة».

د ـ على الخـادم أن لا يتمادى ولا يستهين بـالملك «لا يجوز الاستهـانـة بشيئين: أولهما، غضب السلطان وثانيهما نصيحة الحكماء». وعليه أيضاً أن يحذر من سطوة الملك وغضبه وانفعاله «واخـشَ دائماً غضب الملك»[١١٠].

هـ ـ على الخادم أن يرشد ولي نعمته إلى الخير والفضيلة، فلا ينم في أذنه أو يشجعه على عقاب الآخرين من غير حق و لمنفعة شخصية، فسرعان ما تدور الدائرة على البادىء وينقلب الملك على خادمه فيحمله وزر سنته.يقول قـابوس: «لا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير وإذا علمته السوء يسيء إليك»[١١١].

---

(١٠٩) عينه، ص ٣٨٦.

(١١٠) قابوس نامه، ص ٣٨٧.

(١١١) عينه، ص ٣٨٣.

أخلاقيات الخادم وآدابه الشخصية:

يشترط قابوس على الخادم أن يتحلى بالقيم الاخلاقية النبيلة وبالشيم الكريمة والسيرة الحسنة، ويحصر آداب الخادم بما يلي:

أ ـ ترك الحسد والكبر والطمع «ولا تظهر نفسك لدى الملك حسوداً»[112].

ب ـ التضحية في سبيل سيده والوفاء والاخلاص له «لا تخنه أبداً»[113].

ج ـ تنفيذ الاوامر والمجاراة والطاعة «لا تخالف أمره»[114].

د ـ الحرص على مصالح الملك وكتمان الاسرار وحفظ اللسان «ولا تفش سره لأي إنسان».

هـ ـ الامانة والصدق في القول والفعل «يجب أن لا يسمع منك الكذب قط».

و ـ البعد عن النميمة والغيبة «لا تغتب أحداً عنده».

وظائف الخادم المتفرقة:

أما وظائف الخادم فيحصرها عنصر المعالي بالامور التالية:

ـ على الخادم أن يلم بكل ما يجري في البلاط، ويكون يقظاً باستمرار شديد الملاحظة «لا تكن غافلاً عن عمل الصديق والعدو». فالكاتب لا يحصر مهام خادمه في أعمال الخدمة البسيطة وإنما يوسع من مسؤولياته ليكون عيناً ساهرة ترصد حركات الداخلين والخارجين وتسهر على أمن السلطان وسلامته. ومن مهام الخادم أيضاً أن يسهِّل معاملات الناس ويخفف عن المحتاجين والمتظلمين عذاباتهم يقول: «ولا تمنع المعروف عن الناس»[115].

ـ عليه أن يختلط بجميع عمال البلاط على اختلاف مراتبهم، ويصادقهم ويستميلهم بالمال ليغفروا ذلاته وهفواته وعثراته، ولا يجوز أن يكون الخادم نهماً محباً للمال، بل عليه أن يجمع منه بمقدار ويعطي منه بمقدار أيضاً[116].

(١١٢) قابوس نامه، ص ٣٨٧.
(١١٣) عينه، ص ٣٨٦.
(١١٤) عينه، ص ٣٨٦.
(١١٥) عينه، ص ٣٨٥.
(١١٦) عينه، ص ٣٨٤.

ـ عليه أن يعمل في الدول الفتية المتنامية «ولا تحم حول الدولة التي قد شاخت»(١١٧) فالمال لا يأتي حسب اعتقاد قابوس والجاه لا يكون إلا من الارض الخصبة والدول العامرة، حيث الامكانيات والغني والثروة وفرص العمل.

ندمان الملك

شجع الخلفاء والسلاطين الفنون والعلوم وأنواع الرياضات البدنية، وساعدوا في ظهور طبقة إجتماعية من السمّار والمستشارين عرفت بالندمان، والنديم هو رجل امتاز عن سواه من الناس ببعض الخصائص الشخصية والمعرفية التي استهوت أصحاب الشأن والنفوذ، فطلبوه للإستماع إلى أقواله وأحاديثه، أو للإستفادة من خبراته ومعارفه.

والندمان ليسوا في مرتبة واحدة، وإنما معارفهم عديدة وقدراتهم متفاوتة، فبعضهم يختص بالشعر والفكاهة والهزل، وبعضهم بالسياسة والعلم، والبعض الآخر بالرواية والقصة وسرد الأخبار.

أما أغراض المنادمة فهي عديدة، وتختلف باختلاف حاجات الملوك والسلاطين وتتعدد بتعدد رغباتهم، وتكمن أهمية المنادمة ودور النديم في مؤانسة الحاكم وتسليته بالقصص والنوادر، لان «المنادمة بغير الحكايات والنوادر تكون ناقصة»(١١٨) على حد قول قابوس.

ومن أجل أن تستوفى شروط المنادمة، يقترح قابوس عدداً من المواصفات والخصائص الشخصية في النديم، ويحدد أصول تعامله مع السلاطين وأصحاب الشأن.

وأبرز صفات النديم أن يكون جميل المنظر حسن الهيئة «وتكون حواسه الخمس طوع أمره»(١١٨) سليم الجسم معافاً من الأمراض والعاهات الجسدية، التي قد تمنعه من التكيف والتوافق والانسجام في مجلس الملك.

ولا يصلح للمنادمة حسب قول الكاتب إلا الذين يلمون بالحكايات

(١١٧) قابوس نامه، ص ٣٨٦.

(١١٨) عينه، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

وقصص الأبطال، ويفهمون العلوم العملية التطبيقية كالطب والنجوم فتلك ترتبط مباشرة بحاجات السلطان الشخصية فيستعين بنديمه إن مرض، وبعالم الفلك لمعرفة مواقيت الصلاة والأعياد ووجه القبلة في حلة وترحاله. ويعتبر قابوس مقدرة النديم على المحاكاة وحفظ الحكايات والمضحكات خاصية ضرورية ومقبولة عند أصحاب الشأن من الحكام، يستفيدون منها ويتعلمون بطريق الفكاهة والتسلية وبدون عناء حسب قوله: «ويجب أن تكون محاكياً، وتحفظ حكايات ومضحكات كثيرة ونوادر بديعة»(١١٩).

ويأنس الملك بالنديم الذي يجيد العزف والطرب والغناء «يعرف عزف شيء» ويحسن التصرف في مجالس الانس والسمر «يكون منك جد وهزل» فيلهو ويمرح، ويظهر مواهبه في الوقت المناسب وتبعاً للضرورة.

كذلك تقتضي المنادمة أن يفهم النديم العربية والفارسية، ويمتلك القدرة على التمييز بين رديء الشعر وجيده، ويعرف أصول الفقه والشريعة وعلوم الدين(١١٩).

أدب الندمان وتعاملهم مع السلاطين:

يرى الكاتب أن غاية المنادمة توفير الراحة والسعادة للملك دون سواه وذلك وفق الأصول التالية:

أ ـ الإهتمام بالملك وتنفيذ أوامره والعمل بموجب إشارته ورأيه «لا تغفل عن مولاك ما بقيت»(١٢٠).

ب ـ الاحتراز من الشهوة وكبح جماح النفس وقت الشراب، وعدم التعرض لغلمان الملك وحشمه «ولا تنظر في مجلس الملك إلى غلمانه».

ج ـ على النديم أن يخلص للملك ويتفانى في سبيله ولا يخونه «لا تقع منك خيانة»(١٢١).

---

(١١٩) قابوس نامه، ص ٣٩٠.

(١٢٠) عينه، ص ٣٩٠.

(١٢١) قابوس نامه، ص ٣٩٠.

ويتضح من خلال ما تقدم، أن عنصر المعالي استطاع بمهارته النادرة تصوير معالم دولته وتجسيد الحقائق والوقائع، وتحديد شكل السلطة وظروف الحاكم الشخصية في علاقاته مع أركان دولته، كما صوّر لنا حياة البلاط وطبقات الوزراء والكتّاب والقضاة، والتفت إلى جماعات الغلمان وخدم الملوك؛ فتدخل في طبيعة كل مهنة على انفراد ونظر في قوانينها وأصولها ودرسها في ذاتها بما هي عليه وفيما يجب أن تكون.

وقد استطاع قابوس بفضل مواهبة وتجاربه ونظراته الثاقبة، أن يحدد القوالب والمعايير التي من شأنها أن تحفظ تلك المهن وتحمي أصحابها والعاملين فيها، فهو وأن لم يتمكن من وضع نظرية متكاملة في موضوع الدولة، فإنه استطاع أن يرسي قواعد السلطة السياسية ويحدد أطرها العامة مستوحياً ذلك من الفلسفات والمفاهيم الفارسية الساسانية واليونانية والاسلامية، ومن البيئة اليومية وتجارية الشخصية، فقد قال بالحاكم الفذ الملهم الذي انتدبه الله من بين العباد، واعتبره الظل الالهي الذي يحكم جماعته كيفما يشاء، في مقابل خضوعه لقوانين العدل ومبادىء الشريعة.

ونظر عنصر المعالي إلى الوزير على أنه توأم الملك وشريكه في الحكم ومدبر شؤونه، وصوره على أنه الرجل المميز الذي يعوَّل عليه في تنفيذ سياسة السلطان والاشراف على الشؤون العامة. ونظر إلى النظام القضائي على أنه خلاصة ما تبقى من الارث الشرعي الاسلامي، فاهتم بالقضاة وفصَّل في المحاكمات وفي تعيين القضاة أو عزلهم إن اقتضت الحاجة إلى ذلك.

ولم ينظر قابوس في قضايا الكتابة وخدم الملوك والغلمان، لكنه استطاع أن يصور هذه المهن بدقة موضوعية، ويحدد شروط وخصائص كل منها، كما أوضح آداب هذه المهن وقوانينها ملفتاً إلى أخلاق الكاتب، وإلى الاسباب التي تحفظ الخادم والنديم وتحميهما من الاذى.

الفصل الثالث

نظام الجندية وشروط القيادة العسكرية

تمهيد

القيادة وأصول الحرب

١ ـ صفات القائد العام

٢ ـ علاقة القائد بالعسكر وتعامله مع العدو

قتال الأعداء وشروط القصاص

أ ـ فنون الحرب وطرق مواجهة الأعداء

ب ـ معاملة الأعداء والأسرى

نظام الجندية وشروط القيادة العسكرية

تمهيد:

مرت المجتمعات الانسانية بمراحل عديدة قبل أن تأخذ بنظام الجندية، فبعد أن كان المواطن يلعب دور المنتج ورب الأسرة في السلم، ويقوم بأعباء الدفاع عن قبيلته في أيام الشدائد، تحول تدريجياً إلى جندي متفرغ عندما بلغت جماعته شوطاً بعيداً من التمدن والإستقرار والإزدهار، وأصبحت مهمة الأمن والدفاع من صميم مسؤولياته هو والوحدات العسكرية النظامية التي ينتمي إليها.

كان الفراعنة أول البادئين في بناء الجيوش، ثم تبعهم أهل بابل واليونان والرومان، وكان ترتيب الجند في المعارك على صورة صفوف متعاقبة ومتراصة. وعدّل اليونان تنظيم عساكرهم فأنشأوا الكتائب والصفوف وسلحوها بالرماح والمنجنيق. وأخذ الرومان بالنظام العسكري اليوناني وأضافوا عليه إضافات جديدة، فقسموا الفرقة العسكرية الواحدة إلى ثلاث طبقات: الشبان، وكانوا في الصف الأول وفي قلب المعركة، والكهول في الصف الثاني، وأهل الدربة والحنكة في الصف الثالث، وكانت تتألف الفرقة الواحدة من فصائل وكراديس. وأخذ الرومان أيضاً بنظام الرتب العسكرية، وكان أعلاها رتبة القائد العام، ومساعداه الطومرخانية، وهما ضابطان يرئس الواحد منهما خمسة قادة كباراً. واتبع الفرس النظم العسكرية اليونانية والرومانية وأدخلوا عليها تعديلات يسيرة، فقسموا الجيش إلى أربع طبقات: القادة، وأطلق عليهم لقب ميرميران، وكل ميرميران رئيس لأربعة قواد يسمى الواحد منهم أصبهبذ، ذلك الذي يحكم بدوره

أربعة مرازبة[1]، والمرزبان[2] قائد مسؤول على من دونه ويسمون السالارية، وكل سالار يشرف على عشرة أساورة وهم (من الفرسان والمتفردين) وخمسة مشاة يسمون البيّادة[3].

وتطور نظام الجندية عند العرب بعد تحولهم عن حياة الفوضى البدوية إلى حياة الاستقرار والتنظيم السياسي، فسارعوا إلى بناء الجيوش النظامية، واستحداث القوانين العسكرية للدفاع عن الدين ومحاربة الأعداء، سيما وإن الخلافة كانت محاطة بالأعداء من كل جهة من جراء الدعوة الدينية إلى الجهاد. وبدأ نظام الجندية يتطور ويتنامى منذ العهد الراشدي، ففي بداية تلك المرحلة كان الجند من المتطوعة، ولم يكن هناك ما يعرف بالتجنيد الإلزامي، ولم يكن يتقاضى الجنود رواتب ومشاهرات، وإنما كان لهم نصيب من غنائم الحرب. وبفضل التوسع العسكري وبسط السيطرة على الأقاليم المختلفة، صار لزاماً على الدولة أن تحمي رعاياها وممتلكاتها الجديدة بإبقاء جيش دائم في تلك المناطق أيام السلم ووقت الحرب يتقاضى رواتب من بيت المال، ويعتبر عمر بن الخطاب أول من استحدث ديوان الجند لتسجيل أسماء الجنود وتحديد رواتبهم. وبعد أن كان العنصر العربي هو المادة الأساسية في الجيوش الاسلامية إختلط بعناصر أخرى في العصر العباسي كالترك والروم والفرس وغيرهم، وقد أسقط كلياً العنصر العربي من الجيش في عهد المعتصم، وأصبح العرب في القرن الرابع الهجري يشكلون عناصر غير نظامية في الجيوش الاسلامية ويدخلون كمتطوعة، وصارت الجيوش الاسلامية منذ ذلك الحين تعتمد على المرتزقة من الجرمان والانكليز والروس والأرمن والبلغار والترك[4]، وتتألف من فرق عسكرية عديدة: كالنشابين والنفاطين

---

(١) قا: عن تطور النظم العسكرية اليونانية والرومانية والفارسية، تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، مج ١، ص ١٥٨ ـ ١٦١.

(٢) المزربان: رتبة عسكرية تلي رتبة الاصبهبذ، وتطلق على الرجل الذي يحمي الحدود ويحرس الثغور. انظر: مقالة لواساني، الاصبهبذية، ص ٦.

(٣) التمدن الإسلامي، مج ١، ص ١٦١.

(٤) الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد، ص ٦٠ ـ ٦١.

والمنجنيقيين والعيارين رماة الحجارة والمشاة، وكان يرافق الفرق العسكرية جماعة من الأطباء والصيادلة(٥). واتجه سادة الحرب خلال عهد الدويلات إلى بناء الجيوش القوية بغرض التوسع والإستيلاء والدفاع عن النفس، وكانت الدولة الزيارية إحدى تلك الدويلات التي اعتمد قادتها على الأجانب في جيوشهم، وكان عساكرهم التركمان والمرتزقة يتقاضون رواتب ويمنحون إقطاعات أن نجحوا في تأدية واجبهم واخلصوا للملك. يقول قابوس: «وكل من يحسن القتال.. أو يقوم بخدمة مرضية، فراعه بأضعاف تلك الخدمة من خعله وزيادة معاش»(٦).

وفي قابوس نامه لخص لنا عنصر المعالي أصول قيادة الجند، وتحدث عن الخطط الحربية، وأصول المواجهة العسكرية، كما لخص لنا وظائف القائد وطرق تعامله مع العسكر، لكنه لم يتبسط في الحديث عن تنظيم الجيش وتدريبه وتسليحه.

نظام القيادة وأصول الحرب:

لم يستمر نظام القيادة كما كان عليه أيام الرسول الذي كان بمثابة القائد العام للجيوش الاسلامية، وإنما عهد بقيادة الجند في العصر العباسي إلى أشخاص أطلق عليهم أسماء عدة: أمير الحرس أو القائد الأعلى، أو الاسفهسلار بلغة الفرس، وتعنى أمير الجيوش(٧)، وقسمت الجيوش إلى كتائب وسرايا وفيالق، فكان منهم المشاة والفرسان والقادة، ثم القائد العام «الاسفهسلار» كما قسمت هذه القوات إلى وحدات سميت الأفواج والألوية يرئسها أمير يدعى رئيس الرؤساء(٨). وساد نظام الجاسوسية خلال العصر العباسي أيضاً، فكانت ترسل الجواسيس من كلا الجنسين رجالاً ونساءً متنكرين إلى البلاد المجاورة، وأحياناً في أزياء الأطباء والتجار والفقراء لتقصي أخبار العدو وكشف مخططاته(٩). وظل إرسال الطلائع من الأصول الثابتة، ومن التقاليد العسكرية المتبعة في الحروب طوال العهود الإسلامية وحتى يومنا هذا.

(٥) التمدن الإسلامي، مج ١، ص ١٦٤

(٦) قابوس نامه، ص ٤٠٧.

(٧) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٧.

(٨) ماجد، المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٩) حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ١٨٦.

وقد أخذ قابوس بالنظم العسكرية الإسلامية المتبعة في زمانه، وعمل على تطويرها واستحداث طرائق جديدة في بناء الجيوش وتدريبها وتسليحها، وقد استهل ذلك بالحديث عن القائد العام ودوره ومسؤولياته قال: «إعرف جيداً طريقة قيادة الجند وإعداد الحملة» ، ونبه إلى ضرورة توزيع الفرق العسكرية بالقول: «وابعث الفرسان لواءً لواءً وفوجاً فوجاً، وعين قائداً قائداً، واحتفظ عندك بمن يليق بحملة الأمير»[١٠]واهتم أيضاً بحواشي الجيش كالعيون والجواسيس والطلائع، ورأى أن من مسؤولياتهم رصد تحركات العدو وتقصي أخباره قال: «ولا تغفل عن إرسال الجواسيس واستطلاع حال العدو، ولا تقصر في إرسال الطلائع ليل نهار»[١١].

واهتم عنصر المعالي بنظام التعبئة العسكرية، فقسم الجيش إلى كتائب ووحدات، ووزع الكتائب على الميمنة والميسرة والجناح، ووضع على رأس الكتائب القائد العام «وابعث إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحرب . . . وأقم أشجع القواد مع خير طائفة في الجناح» وأوكل بكل كتيبة مسؤوليات محددة وقت الحرب، كما أشار على القائد أن لا يتقدم بجميع كتائب جيشه دفعة واحدة لمواجهة العدو، ودعاه إلى إرسال أفواج من الفرسان في أول المعركة لاستنزاف العدو وبعثرة قواته «ولا تزحف بالجيش إلبا واحداً وابعث الفرسان لواء لواء»[١٢]. ويتبع الفرسان فرق المشاة وغيرها إلى أن تصل نوبة القائد العام.

١ ـ صفات القائد العام:

لا يصلح برأي قابوس أي رجل لقيادة العسكر، إلا الذين توافرت فيهم الصفات والخصائص العقلية والبدنية، والتقى في ذلك مع إبن الأزرق[١٣].

أما صفات القائد العام فحددها بما يلي:

(١٠) قابوس نامه، ص ٤٠٧.

(١١) قابوس نامه، ص ٤٠٧.

(١٢) قابوس نامه، ص ٤٠٧.

(١٣) راجع: ابن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

أ ـ الجرأة وقوة الإرادة والإندفاع من أهم مواصفات القائد «وإذا صارت نوبة الحرب إلى كبار القواد. . . فانتهز الفرصة ولا تفكر في الهزيمة وصارع الموت» (٢٠) فالقائد الجبان لا يصلح في الحروب لأن تخلفه يزعزع تماسك جيشه ويوهن قوى عسكره ويثبط فيهم الهمم، فالرئيس القائد هو المثل الأعلى لجنده في جميع الأحوال، يقتدون به ويسيرون على هديه، ويتبعون خطاه ويتمثلون أقواله وأفعاله. ويشترط قابوس أيضاً أن يكون القائد مقداماً، رابط الجأش بقوله: «فاجتهد دائماً أن تتقدم عن موضعك ولا تتقهقر خطوة أبداً» (١٥) لأن التراجع والإرتداد عن ساحة القتال يصدع الجيش ويبدد القوة، ويعدم الأمل بالنصر.

ب ـ أن يكون رصيناً ومتزناً ويقظاً «وكن يقظاً دائماً» (١٦) فاليقظة والحيطة أساس النصر. ويجب أن يكون حسن التدبير والسياسة ولا يعرف التسرع «وإذا ظفرت فلا تطارد المنهزمين كثيراً إذ يقع كثيراً من الخطأ في الرجعة» فالحرب لعبة وخدعة وتحقيق النصر لا يكون بغير تروٍ وتعقل، فالعدو يتظاهر أحياناً بالهزيمة ويفسح في المجال أمام خصمه للحاق به فيقع المنتصر في كمائن الخصم وتدور عليه الدوائر ويهزم بعد نصر.

ج ـ أن يكون القائد شجاعاً قوي العزيمة كبير القلب عالي الهمة «وكن باشا يوم المعركة عندما تلقي بنظرك على عسكر العدو» فبذلك يزداد الجند قوة وعنفواناً ويستشعرون بالنصر. ويحذر قابوس من التراخي والتخاذل أمام الجند حتى لا تثبط فيهم الهمم وينصح القائد أن لا يكون وضيعاً بقوله: «ولا تكن. . وضيع الهمة»(١٧).

٢ ـ علاقة القائد بالعسكر وتعامله مع العدو:

ينصح الكاتب القائد أن يتعامل مع جنده ومع عدوه بالطرق التالية:

أولا: على القائد أن يحذر عدوه قوياً كان أو ضعيفاً، ويعد العدة الكافية

(١٤) قابوس نامه، ص ٤٠٨.

(١٥) قابوس نامه، ص ٤٠٨.

(١٦) عينه، ص ٤٠٧.

(١٧) عينه، ص ٤٠٨.

لمواجهته، وعليه أن يرفع من شأن عدوه أمام الآخرين ويظهره بمظهر القوي العنيد ليزداد جيشه قوة ومكانة بعد النصر «ومهما يكن الخصم ضعيفاً فلا تراه ضعيفاً» (١٨) فالحيطة والحذر في الحرب عنصران هامـان لتحقيق النصر والغلبـة على الأعداء، خصوصاً مع العدو الضعيف «واحتط في أمر ذلك الضعيف كما تحتاط في أمر القوي».

ثانيا: من واجبه أن يكون خيِّراًمحسناًمع جنده«فكن محسناً إلى العسكروالرعية» فالإحسان للجند يزيد من قدراتهم ويحفزهم على الطاعة، ذلك أنهم من المرتزقة الذين يتسابقون لجمع الثروة وكسب المناصب القيادية، ولا يعبأون بأسيادهم ما لم يحققوا أرباحاً وفيرة ومكافآت. وعليه أن يتودد إلى جنده ويستميلهم بالكلام المعسول إن تعذر ذلك بالمال يقول: «فإذا لم تستطع أن تزيد في الخلعة فلا تقصِّر في كلامك»(١٨).

ثالثاً: على القائد أن يساوي نفسه بعسكره فيقربهم إليه ويجالسهم، ويتعامل معهم برفق ولطف خصوصاً الرؤساء منهم، فيؤاكلهم ويشـرب معهم النبيذ «ولا تأكل لقمة خبز ولا تشرب قدح نبيـذ إلا مع جنـدك» فإن ذلـك يرضي الجنـد ويزيدهم ثقة برئيسهم، فيحبوه ويحترمونـه ويأتمـرون بأوامـره ولا يضنون عليـه بأرواحهم «وإذا أردت أن لا يضنوا عليك بالروح فلا تضن عليهم بالخبز».(١٩) والواقع أن الجنـد وإن كانوا يتعاطون شرب الخمرة والنبيذ من أنفسهم، فإن ذلك لا يخول الكاتب الحق في أن يدعو إلى شرب الخمر، فذلك يتعارض مـع دوره كحاكم مثالي، مع الأخذ بعين الإعتبار الناحيتين الدينية والصحية، فالإسلام يحرم تعاطي الخمرة ويعتبر شربها معصية، كذلك فإن الخمرة تضر الجسم وتفسـد علاقـات الإنسان الإجتماعية.

رابعا : على القائد أن يحقِّر خصمه ويحط من قدره أمام جنده، ويـظهر

---

(١٨) عينه، ص ٤٠٨.

(١٩) عينه، ص ٤٠٨.

وضاعة الأعداء وخستهم ويعدد عيوبهم وذلك بخطبة يلقيها على جيشه قبل المعركة لتقوى عزائمهم ويحققوا النصر، يقول قابوس: «عندما تلقي بنظرك على عسكر العدو ويلتقي الجمعان وجهاً لوجه، قل لجندك من يكون هؤلاء وما أصلهم»(٢٠). ويتضح من خلال هذا الموقف مدى وعي الكاتب بأهمية الحرب النفسية وبتأثيرها في الميادين السياسية والعسكرية.

قتال الأعداء وشروط القصاص:

أ ـ فنون الحرب:

أول ما أشار إليه الكاتب هو القول بضرورة الإبتعاد عن الكر والفر في القتال، ونصح بالمواجهة المباشرة واقتحام صفوف الأعداء، فهي برأيه طريقة جديدة ووسيلة تحقق النصر لذلك قال: «لا تتراجع خطوة في المعركة ما دمت تستطيع أن تتقدم خطوة»(٢٠). كما اعتبر الخوف والضعف جبناً يورث الخيبة ويمنع المحارب من النجاة وقت المعركة، ودعا إلى القتال بشراسة حتى الإستشهاد بقوله: «إذا وقعت في المعركة فلا تقصِّر قط ولا ترحم نفسك» (٢١) مذكراً إياه بالقضاء والقدر وبأن الموت حق.

ولا يتردد الكاتب في الدعوة إلى سفك دماء المعاندين والمنحرفين من غير المسلمين،كذلك فإنه يستحل قتل «الصعاليك واللصوص والنباشين» وغيرهم من الذين كان سفك دمائهم واجباً شرعياً. ويحذر قابوس الجنود من قتل الأبرياء وقت الحروب بقوله: «لا ترق الدم الحرام» (٢٢) ومن انتهاك الحرمات والمقدسات حفاظاً على سلامة الشريعة، التي حرَّمت قتل الآمنين من الشيوخ والأطفال والنساء والرهبان.

ب ـ معاملة الأعداء والأسرى:

جمع عنصر المعالي بين وظيفة الحاكم وقائد الجند في قضية العفو والعقوبة ومعاملة المذنبين وأسرى الحروب، فطالب الجند والقادة بأن يأخذوا الأمور بحكمة

---

(٢٠) عينه، ص ٤٠٧.

(٢١) قابوس نامه، ص ٣٠١.

(٢٢) عينه، ص ٣٠٠.

وسياسة، وأن يحذوا حذو أهل العـدل فلا يقتلوا بغير ذنب، ولا يقاصصوا من غير دليل سواء كان المتهم عدواً أو صديقاً، من داخل البلاد أو من خارجها. ويوصي بالعفو والرأفة بالأعداء وبالصفح والمغفرة عن المذنبين المسيئين إساءة بسيطة، ويحذر من اتخاذ العقوبة نهجاً وقانوناً بقوله: «ولا توجب على الناس العقوبة في كل ذنب» (٢٣) فالقصاص غير مجدٍ، ولا يورث غير العنف والحقد والعداوة.

ولا يمانع قابوس من التأنيب والتوبيخ كوسيلتين للقصاص، ويقبل الصفح والعفو عن المذنب إن اعتذر على ذنبه قال: «فإذا طلب المجرم المعذرة فيجب أن تجيبه ولا تر ذنباً قط يجلّ عن المعذرة» (٢٤) وإذا حصل وكان لا بد من العقوبة والقصاص، فيجب على القائد أن يقاصص بمقدار يتناسب مع الخطيئة أو يكون أقل من مقدار الذنب «و مر بالعقوبة على قدر الذنب» (٢٥).

أما عن أسرى الحروب فلم يستحل عنصر المعالي قتلهم أو التنكيل بهم، كما درجت عليه عادة الحكام وبعض الخلفاء عبر تاريخ الدولة الإسلامية (٢٦) بـل دعا إلى الرأفة بهم والعطف عليهم والعفو عن ذلاتهم بقوله: «إن قتل الأسرى ليس محموداً بل مذموماً» (٢٧).

وهكذا استطاع قابوس أن يحدد لنا وبلمحة سريعة أصول الحرب وشروط القيادة العسكرية، فجعل قائد الجند أشبه بالحاكم السياسي، وخوله الحق في أن ينظم الجيش ويرتبه وفق ما يجده من مصلحة الدولة، ومنحه الحق والحرية في اتخاذ القرارات المناسبة في المعارك، وفي تعامله مع الجند شريطة أن لا يتناقض

(٢٣) عينه، ص ٣٤٣.

(٢٤) عينه، ص ٣٤٤.

(٢٥) قابوس نامه، ص ٣٤٣.

(٢٦) تذكر بعض المصادر التاريخية أن عدداً من الحكام والخلفاء استحلوا قتل أسرى الحروب ونكلوا بهـم عندما كانت المعاملة بالمثل. فالخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك كان يتسلى بقتل اسرى الروم، كما كان صلاح الدين الايوبي يحضر اجتماعات قتل الاسرى قـا: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، مج ٤، ص ١٥١. الطبري، تاريخ الامم والملوك، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣ مج ٥ ص ٣٠٥. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ٧٢.

(٢٧) قابوس نامه، ص ٣٤٤.

ذلك مع قوانين الإنضباط العسكري. واشترط قابوس في قائد الجيش الشجاعة والإقدام والإخلاص وأن يُختار من بين خواص الملك واتباعه المقربين.

وصور لنا عنصر المعالي نظام التعبئة العسكرية، وحدد بدقة متناهية طرق المواجهة العسكرية وتدخل في الخطط الحربية، كما كشف عن أسباب النصر والهزيمة وعن أهمية الحرب النفسية والتجسس في الحروب.

وقد فلسف العلاقات وآداب التعامل بين القادة والجند، ومع الأعداء فحذر من قتل الأسرى ومن انتهاك الحرمات والمقدسات وقت الحروب، ودعا إلى إزالة الفوارق بين العسكر وقادتهم، من غير أن يكون ذلك على حساب وحدة الجيش والقوانين العسكرية، وسوّى بين الجميع من الناحية الإنسانية والأخلاقية.

الفصل الرابع
النظام الاقتصادي والمالي

تمهيد

مصادر جمع المال والثروة وشروط الإنفاق والإدخار

١ ـ جمع المال والثروة (الكسب)

٢ ـ الإدخار ووجوه الإنفاق

مقومات الاقتصاد ـ الزراعة والصناعة والتجارة

١ ـ الزراعة والصناعة

٢ ـ التجارة وأنواعها وشروطها

١ ـ أصول التعامل التجاري

٢ ـ أنواع التجارات وشروط البيع والشراء

أ ـ شراء العبيد

ب ـ شراء الخيل

ج ـ شراء الأرض والمساكن

د ـ شراء الضياع

النظام الاقتصادي والمالي

تمهيد

السياسات المالية والاقتصادية ، هي جملة من القوانين والتشريعات التي تقررها الدول لضبط مداخيلها وإنفاقها، وتنظيم الضرائب والموازنة. وهي في الوقت عينه مجموعة من التدابير الاقتصادية التي من شأنها تنظيم ظروف الانتاج ووسائله وأدواته.

ولو تتبعنا تاريخ تطور النظم الاقتصادية والمالية للدول والمجتمعات البشرية خلال العصور الوسيطة ، لتبين لنا أن المسلمين لم يعرفوا نظم الخزائن المالية ، لأن النبي ﷺ كان يوزع جميع المداخيل على المسلمين، مع العلم أن التعامل كان بالمقايضة، فإذا ما تبقى من ثروة للدولة في عهد الرسول فإنما هو بقايا زكاة من إبل وماشية وخيل (١).

وظل العهد الراشدي إمتداداً لعهد الرسول، ولم يهتم الخلفاء الأربعة بجمع الأموال والثروات ، وجلّ الأموال الواردة كان عبارة عن ماشية وحنطة وإبل وخيل، وهي أموال الصدقة والغنيمة. وبفضل الفتوحات وردت الأموال من ذهب وفضة، فوزعها الخليفة عمر بن الخطاب رواتب على العمال والقضاة ، وحذر المسلمين من ادخار الغنائم، فهي ملك للدولة التي كانت مسؤولة عن تأمين كفاف الناس وسبل معاشهم، فتدفع لهم ولعيالهم الأموال وحتى لعبيدهم ومواليهم من بيت المال (٢). وبقي المسلمون خلال العهد الراشدي يعانون من ضيق الحالة

(١) التمدن الاسلامي، مج ١، ص ٢٦٤.

(٢) عينه، ص ٢٦٥.

الإقتصادية، ويعيشون حياة بساطة وتقشف.

وسرعان ما تهافت العرب على جمع الثروات واقتناء الضياع والأخذ بأسباب الترف، بفعل الإختلاط بالروم والفرس حلال عهد بني أمية، وكما هو معروف فإن الدولة الأموية كانت عربية اعرابية شديدة التعصب للعنصر العربي، تحتقر الموالي وسواهم من غير العرب، وبنتيجة ذلك التعصب اعتبر الأمويون أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالا لهم [٣]. وتجمع كتب التاريخ على أن بني أمية زادوا نسبة الخراج والجزية عما كانت عليه في العهد الراشدي واضطهدوا أصحاب الأراضي[٤]، وانغمس بعض الخلفاء في الملذات وعاشوا حياة باذخة مترفة مما كاد يهدد القواعدالإساسية التي قام عليها الإسلام كالعدل والإنصاف والمساواة.

واستدرك العباسيون علة سقوط الدولة الأموية، فتجنبوا الوقوع في مثلها وتعاونوا مع الشعوب والأجناس المختلفة، ونظموا سبل المداخيل والإنفاق والدواوين، فامتلأت خزائن الدولة بالذهب والفضة والأموال، وازداد العمال استقلالاً وشاع نظام تضمين الخراج، بحيث أصبح العامل يدفع مبلغاً من المال مقابل جمعه مال الخراج والجزية وسائر الضرائب، ينفق ما ينفقه كما يشاء ولا يطالب إلا بالمال المضروب [٥]. وكانت الدولة الإسلامية مترامية الأطراف امتدت إلى الهند والصين وبلاد الروم وآسيا الصغرى وبحر الخزر وجبال البيرينه في أوروبا، وشملت بلاد فارس والمشرق الإسلامي، إضافة إلى بلاد المغرب في مصر وبلاد النوبة وغيرها، وأنشئت في جميع أرجاء الدولة الدواوين، وأبقيت لأقاليم والمناطق على أنظمتها الخاصة وقوانينها مقابل تقديم الطاعة للخليفة، ومن بين تلك الدواوين ديوان فارس الذي يعتبره «متز» من أصعب الدواوين عملاً وأكثرها تعقيداً، وذلك لاختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة فيها، ولاختلاف أبواب أحوالها وتشعب الأعمال على المتقلدين لها، ويذكر أن ضرائبها كانت ثقيلة وكثيرة ويفوق مقدارها جميع الولايات الإسلامية [٦]. وتجاوزت بلاد فارس الأزمات

(٣) عينه، ص ٢٧٢.

(٤) عينه، ص ٢٧٣ و ٢٧٥.

(٥) التمدن الإسلامي مج ١، ص ٣٠١.

(٦) متز، الحضارة الاسلامية، مج ١، ص ٢٣٢.

وظروف الحياة الصعبة بفعل الأنظمة الساسانية التي سادت فيها خلال القرن الرابع الهجري وما بعده، فساعدت تلك الأنظمة على نمو وازدهار تلك المناطق، فانتعش الإقتصاد وامتلأت الخزائن بالأموال رغم شيوع النظام الإقطاعي.

واختلفت ظروف المجتمع الإسلامي الإقتصادية جزئياً خلال عهد الدويلات عما كانت عليه من قبل، فمن خلال نظرة سريعة في كتاب «قابوس نامه» نتمكن من فهم الواقع الإقتصادي والإجتماعي في تلك المرحلة التاريخية، فقابوس في حديثه عن البنى الإقتصادية للدولة الزيارية يعكس المفاهيم العامة والإتجاهات الإقتصادية، والنظم والقوانين المتبعة ليس في دولته فحسب بل في دويلات بلاد فارس عموماً لا سيما دولة السامانيين والغزنويين، ويستفيد من تجارب تلك الدويلات.

لقد حصر قابوس اهتمامه في ميادين مختلفة من النظام الإقتصادي، فتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة، واعتبرها ركائز اساسية في البناء الإقتصادي الفردي والعام، وبحث في وسائل تطوير كل مهنة على حدة كما نبه إلى أخلاقيات التاجر والصانع والزارع كل في نطاق مهنته، وشدد على ضرورة الإرشاد والتوجيه المهني واعتبر ذلك ضرورياً لمضاعفة الإنتاج، لكنه في الوقت عينه أهمل الحديث عن نظام المؤسسات المالية والخزانة، كما تجاهل موضوع التوازنات بين المداخيل والنفقات والضرائب وما إلى ذلك.

والجدير ذكره أن قابوساً في جميع هذه القضايا كان مختلفاً مع الغزالي [٧] ونظام الملك[٨] فهو لم يتحدث عن خزينة السلطان ونفقاته الخاصة والعامة وتنظيم

---

(٧) انظر: كتابنا، الفلسفة السياسية عند الغزالي، تحت الطبع.

(٨) حرص نظام الملك في سياسته المالية على تحقيق التوازن بين مداخيل الدولة ونفقاتها وحصر عائدات الخزانة بالضرائب واموال الخراج والمصادرات، ونفقاتها برواتب الموظفين والقروض العامة والصدقات والمكافآت. وقال بضرورة انشاء بيت مال، مستقل تحفظ فيه الاموال العامة من غير مال السلطان الخاص. وطالب بتشكيل جهاز اداري يهتم بالشؤون المالية ويشرف على أموال الخزانة وينفذ السياسة المالية التي يرسمها السلطان. قا: نظام الملك، سياست نامه (ترجمة يوسف حسين بكار) دار القدس، بيروت، ط ١، فصل ٤، و٢٢ و٢٣ و٤٠ و٤٨.

المؤسسة الإقتصادية بل اهتم بالجوانب الإقتصادية التطبيقية التي تمس حياة الناس ومصالحم الشخصية المباشرة.

مصادر جمع المال والثروة وشروط الانفاق والادخار

جمع المال والثروة (الكسب):

استهل عنصر المعالي حديثه بالدعوة إلى كسب المال بالجهد والتعب بقوله: «إجتهد أن تجمع المال» ذلك لأن المال عصب الحياة المادية وسبب خير الإنسان وسعادته وطمأنينته، لكنه في الوقت عينه مصدر شقاء لذاك المرء الذي يجمعه بالباطل ومن خلال الربا والسرقة وقطع الطريق، وأكل مال اليتامى.

ورأى الكاتب أن المال يجب أن يكون من وجوه مشروعة بقوله: «إجتهد أن يكون كل ما تحصِّله من خير وجه ليكون هنيئاً لك»[10] فالمال الحلال ينعكس نعيماً وخيراً على صاحبه، بينما الحرام يذهب طالما أنه من ربا أو مقامرة أو سرقة، فجميعها مصادر محرمة شرعاً في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾**[11].

وحذر الفلاسفة وعلماء الأخلاق والاجتماع من التعامل بالنقد، فاعتبر أفلاطون تملّق الأغنياء لكسب المال أحد موانع التأديب، كذلك اعتبر الربا والحيلة واقتراض الأموال طرقاً غير مشروعة لجمع الثروة، فإنها تفسد الشبان وتباعد بين الأغنياء والفقراء[12].

وهكذا وبوحي من هذه التعاليم الدينية والمبادىء الفلسفية، تصدى قابوس لموضوع المال والثروة، منددًا بالربا وبالمرابين قائلاً: «ولا تعط البتة المال أو تأخذه بالربا»، فاؤلئك هم الخارجون على الدين ومبادىء الأخلاق.

وحذّر قابوس من رهن المتاع واستخدام مال الغير بقوله: «ولا تقترض من

---

(٩) قابوس نامه، ص ٣٠٣.

(١٠) عينه، ص ٣٠٣.

(١١) القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية ١٣٠.

(١٢) أفلاطون، الجمهورية، ص ١٦٥ - ١٦٦.

أجل كل ضرورة، ولا ترهن متاعك»[١٣] فالاقتراض يولِّد العداوة والبغضاء، ويشحن القلوب بالحقد، ويباعد بين الأصدقاء.

ولم يرض قابوس بمال اكتسبناه بغير جهد وبلا تعب بقوله: «المال يتجمع بالتعب»[١٤]، ولم يعدَّ جمع المال هدفاً وغاية، فهو عنده وسيلة عيش وأداة لتصريف حوائج الدهر[١٥]، ولذلك يقترح توزيعه على الأهل والعيال، والتصدق به على المحتاجين فيقول: «ومهما يكن المال عزيزاً فلا تضنَّ به على المستحقين»[١٥] فليس هناك أفضل من التقوى وطاعة الخالق والعمل الصالح كزاد للآخرة.

وبما أن المال ضروري وملازم للحياة دعا قابوس إلى حفظه وادخاره وإيداعه الأيدي الأمينة بقوله: «لا تودع مالك إلا بأيدي البخلاء، ولا تعتمد قط على المقامر وشارب الخمر»[١٦] فالمقامر والعربيد والسِّكير لا يرعون حرمة ولا عهداً.

الادخار ووجوه الانفاق:

لا يقل إنفاق المال وادخاره أهمية عند عنصر المعالي عن الكسب وجمع الثروة، فهو نوع من زيادة الربح، ذلك لأن الحرص على المقتنيات والمال والمدخرات، في إطار سياسة حكيمة، يزيد فرص الربح ويضاعف الثروات.

والادخار والإنفاق هو أحد مرتكزات السياسة الاقتصادية والتدبير المنزلي التي لاقت عند قابوس اهتماماً خاصاً كما هو الأمر عند الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين المسلمين. فقد تصدى الكاتب للموضوع وناقشه بإسهاب هادفاً بذلك استكمال الغاية من وضع كتابه، ألا وهي تأديب ابنه، وذلك برسم سياسة اقتصادية متكاملة غايتها تحقيق الاستقرار الاقتصادي الاجتماعي، وتوفير الأمن الغذائي للجميع. ولعل أبرز ما تنبه له قابوس هو موضوع تحديد سبل الانفاق

---

(١٣) قابوس نامه، ص ٣٠٥.

(١٤) عينه، ص ٣٠٣

(١٥) قابوس نامه، ص ٣٠٣

(١٦) عينه، ص ٣٠٥.

ووجوهه، وبالتالي قضية الادخار والتوسط بين الشح والتبذير.

فمن الناحية الأولى، يؤكد قابوس على ضرورة إنفاق المال في سبيل الأهل والعيال، وذلك عبر تأمين القوت والغذاء وسائر الحاجات اليومية. ويحذر من إهمال مطالب الجسد المادية وحاجات الإنسان الضرورية كالغذاء والكساء والمأوى، ذلك لأن المال وأن كان عصب الحياة فليس أعز من الروح(١٦).

ويرى قابوس من الناحية الثانية، أن على المرء أن ينفق المال بمقدار، فلا يبذر ولا يقتر مخافة أن يرهن متاعه ومقتنياته فيقعد ملوماً محزوناً، يتهدده القلق والغم والخيبة.

ويتشدد الكاتب في مسألة التوسطات، معلناً أن من واجب المرء أن ينفق المال بمقدار، على أن لا يتجاوز الحاجة والضرورة بقوله: «يجب أن يكون الإنفاق على قدر الدخل»(١٧) ذلك لأن الزيادة في الإنفاق تسبب الفقر وتضاعف متاعب الناس وشكواهم، لا سيما بعد أن يلجأون إلى رهن متاعهم ومقتنياتهم. ولعل أفضل السبل باعتقاد قابوس لتدارك الأزمة هو التزام المرء حد القناعة والرضا، وبالكف عن الجشع والطمع بمال الآخرين (١٨)

ومن أجل تحقيق سياسة اقتصادية متوازنة على المستوى الفردي والعام، يوصي الكاتب أن يكون الإنفاق بحسب الدخل، ويحذر من التبذير عملاً بالآية الكريمة القائلة: **﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾**(١٩). كذلك فإنه يندد بالبخل والبخلاء الذين يقترون على أنفسهم وعيالهم انسجاماً مع التقاليد والعادات الاجتماعية التي ترفع من شأن الكرم والسخاء، وتعتبره فضيلة ومظهراً من مظاهر الشرف والتضحية ونكران الذات (٢٠).

ولهذا كله يقترح الكاتب إنشاء صندوق خاص لحفظ المدخرات، يكون الغرض منه سد احتياجات الأفراد وقت الشدائد وفي الأيام العصيبة، ولا يقبل

---

(١٧) عينه، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(١٨) عينه، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(١٩) القرآن الكريم، سورة (الإسراء) آية ٢٦ ـ٢٧

(٢٠) قابوس نامه، ص ٣٠٤.

باستخدام هذا المال ما لم يتعهد صاحبه برده، وبتعويض النقص وتعويم الصندوق بقوله: «إذا أخذت المال ولم تضع في مكانه العوض ثانياً فإنه ينفذ»(٢١).

ولتغذية الصندوق بالمال يُلزم قابوس المرء باقتطاع جزء من ماله يقدَّر بدانقين من درهم، تخصص للورثة ولوقت الشيخوخة. كذلك يوصي بحصر الإنفاق اليومي العائلي بما لا يزيد على دانقين من درهم أيضاً. ولا ضير في اعتقاد قابوس من استبدال المال والمدخرات القابلة للتلف بما لا يفنى من المعادن كالذهب والفضة والفولاذ وسائر الجواهر الثمينة(٢٢).

وتجدر الإشارة أخيراً إلى دعوة قابوس للتوسط في مجالات القول والفعل والسلوك، ذلك أن الاعتدال في التصرف باعتقاده، والتزام حد الوسط في الأفعال والأقوال ومظاهر السلوك شرطان ضروريان لحفظ التوازن النفسي والاجتماعي والعضوي، وبالتالي الاقتصادي. فالإفراط في الطعام يورث الأمراض والاضطرابات العضوية، بينما الاسراف في القول يورث الخيبة والمهانة ويعطل الإرادة الواعية والتفكير السديد، كذلك فإن العمل المضني والجهد الدؤوب ينهك القوى ويميت القلب.

مقومات الإقتصاد (الزراعة والصناعة والتجارة)

تناول عنصر المعالي في كتابه الأصول النظرية للتعامل الأقتصادي في جميع القطاعات المنتجة من زراعة وصناعة وتجارة، لكنه لم يتحدث عن النظام المالي في الدولة، ولا عن نظام الضرائب أو خزانة السلطان، ومجمل ما قاله هو وصايا أخلاقية وآداب مسلكية اشترطها لدى التاجر أو الصانع أو المزارع.

١ ـ الزراعة والصناعة:

دعا قابوس المزارع الى التعرف على أنواع النبات وطبيعة الأرض وطرق تسميدها ومواعيد المواسم بالقول: «فأعرف أوقات أعمال الزراعة وازرع قبل موعد

(٢١) عينه، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢٢) عينه، ص ٣٠٥.

الزرع» ذلك لأن الزراعة ترتبط بالمناخ وبالتربة وبمقدار المتساقطات،كما دعاه إلى الاهتمام بأدوات الإنتاج المتمثلة بآلات الحراثة والعلف والبقر والبذار، واشار إلى ضرورة توفيرها قبل موعد الزرع بقوله: «واجعل آلات الزراعة والحراثة معدة وجاهزة». واعتبر الكاتب حرث الأرض أمراً مهما في تنشيط التربة وزيادة الانتاج «وليكن حرث الأرض وفلاحتها بلا انقطاع»، وأضاف قائلاً انه لكي لا يخسر المزارع رأسمالة وليضاعف إنتاجه، عليه أن يختار في زراعته الأرض الخصبة الغنية بمياها والتي تكسو نفسها»، وأن ينتقي البذار من المحصول الجيد قبل استهلاك الإنتاج أو بيعه على أن يسبق ذلك موعد الزرع بقوله: «ودبر هذا العام زراعة العام القادم» فذلك يكفل نجاح الزراعة وثراء المزارع وطمأنينة».

أما في ميدان العمل اليدوي فقد دعا قابوس الناس للأخذ بالصناعات وممارسة المهن الحرة والحرف اليدوية، ففي ذلك غنى وثروة للصانع لا سيما إن أخلص في عمله وأتقن صنعته قال: «وإن كنت من بين جميع محترفي السوق (فكن) سريع العمل محموداً في أية حرفة تحترفها ليكثر مردودك» (٢٣)، فالصناعة تختلف عن الزراعة والتجارة بسبب كونها من الحرف الضرورة في حياة الإنسان، فهي تؤمن له الكفاية في يومه وغده، ولا تتطلب مغامرة وجرأة كالعمل في التجارة، كما انها لا تتأثر بظروف البيئة الطبيعية.

وبهدف زيادة مداخيل الصانع ورواج بضاعته، يوصي عنصر المعالي باتباع الطرق والقواعد التالية:

أ ـ على الحرفي أن يحسن التصرف مع العملاء، ويأخذهم باللطف وحسن المعاملة ويتواضع في محادثاته مع الناس ولا يكن لجوجاً «لا تنفر العملاء بالمماكسة واللجاج الكثير... واجتهد عندما تبيع شيئاً في إظهار التواضع.. ولا تتكلم بعنف ووقاحة» (٢٤) لأن حلاوة اللسان وصدق التعامل مع العملاء يزيدهم ثقة بالحرفي ويتهافتون على منتجاته.

---

(٢٣) قابوس نامه، ص ٤٢١.

(٢٤) عينه، ص ٤٢١.

ب ـ على الصانع أن يكون صادقاً في قوله وعمله، أميناً كريماً كثير البذل في مهنته، «وتعود قول الصدق في البيع والشراء وتجنب البخل» وعليه أن يعرف ربه لا يغش العملاء ولا يتلاعب في سعر البضاعة خصوصاً من الأطفال والأصدقاء والنساء والغرباء «ولا ترهق العاجز، ولا تغل الثمن في المعاملات مع الأطفال والنساء والأصدقاء ولا تطلب زيادة من الغرباء».

ج ـ على الحرفي أن لا يخجل في التعامل مع الآخرين، وأن لا يغدر بالعميل الخجول بل عليه أن يكون سوقياً منصفاً بين نفسه والناس «وكن سوقياً مع السوقة بالوزن والميزان الصحيح . . ولا تخجل في التجارة».

د ـ عليه أن يخلص لمهنته، فلا يصنع رديئاً ولا يزوّر في البضاعة، ويكون مخلصاً وصادقاً مع الخبير والجاهل و «لا تعمل ما تصنعه رديئاً ومزوراً واجعل عملك مع الخبير وغير الخبير سواء». (٢٥)

هـ ـ عليه أن لا يخون ربه ونفسه والمتعاملين معه «لا تخن الشركاء». وعليه أن يبتعد عن الربا والكذب في المعاملة «لا تحلف كذباً ولا تراب» فنجاح المهنة ورواج البضاعة وكسب ثقة العملاء يكون بعدم مطالبة الأصحاب بالديون وبمرونة التعامل معهم «ولا تكن صعب المعاملة . . . ولا تلحف في المطالبة إذا علمت أن صديقك غير قادر» (٢٦).

٢ ـ التجارة:

يعرف عنصر المعالي قابوس التجارة بقوله: «إن التجارة طمع في زيادة الثروة»، وهو إذ يذكِّر بأهمية التجارة ومنافعها، يلمح أيضاً إلى أعبائها ومخاطرها، وإلى الصعوبات التي تواجه التجار في أسفارهم فيقول: «يحملن الأشياء من الشرق الى الغرب، ويخاطرون بأرواحهم، ولا يخشون اللص والصعلوك. . . ولا عدم أمن الطريق»، ويرى ان أمن التجار وسلامتهم أمر يقع على عاتقهم، فهم المسؤولون عن تأمين الأمن والحماية لقوافلهم التجارية خارج البلاد، وإن مسؤولية الدولة تنحصر فقط في توفير الطمأنينة والسلامة للتجار داخل البلاد. ولا يتردد

---

(٢٥) قابوس نامه، ص ٤٢٢.

(٢٦) عينه، ص ٤٢٢.

الكاتب في إهمال التجارة الخارجية وفي التحذير منها، ربما لأن وسائل النقل في زمانه كانت بدائية ولا تفي بالغرض، أو لأن الدويلات التي عاصرها كانت عاجزة عن ضبط الأمن وفرض القانون أو الحد من القرصنة التي سادت البوادي المقفرة داخل الإمبراطورية الإسلامية وخارجها. ويتحدث عن نوعين من التجارة تجارة المسافرة وتجارة المعاملة.

فتجارة المسافرة، هي نوع من المغامرة والمقامرة، لا يقوم بها إلا المتطرفون والمغامرون والمتهورون من التجار «ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطيرة من كانت عين عقله مغمضة»، فهؤلاء لا يعبأون بالأخطار ولا يتورعون عن اقتحام الصعاب.

أما تجارة المعاملة، فهي التجارة الداخلية التي تنشط في السوق المحلية «والمعاملة فتكون للمقيمين الذين يشترون المتاع الكاسد طمعاً في الزيادة» وتكون بتبادل السلع السوقية الكاسدة والرخيصة الثمن. ويعتقد قابوس أن تجارة المعاملة رائجة في أكثر الأحوال لا سيما إن كان التاجر محنّكاً وحسن السياسة مع العملاء «ويلزم لذلك رجل جريء وبعيد النظر» (٢٧)، ويرى أن التجار فريقان: صغار وكبار، ولكلاهما آداب وقواعد لا بد من اتباعها في السوق وفي الأسفار ووقت التعامل مع الآخرين وتنحصر تلك القواعد الأخلاقية بما يلي:

أ ـ على التاجر أن يكون كريم النفس محباً للمغامرة «جريئاً غير وجل على المال والنفس» (٢٨) لأن الحرص المفرط على النفس والمال لا يجدي ولا ينفع ولا يستساغ في التجارة، فالتاجر مقامراً في أغلب الأحوال.

ب ـ على التاجر أن يكون أميناً في تعامله، يحب للآخرين ما يحب لنفسه « لا يرغب في إضرار الناس من أجل نفعه » فإن إخلاص التاجر وصدقه مع العملاء والتزامه بمبادىء الشرع والأخلاق كالأمانة والصدق والمحبة وترك الغش، يعزز ثقة الناس به ويتهافتون على بضاعته.

ج ـ على التاجر أن لا يتعامل مع الأصدقاء الحميمين، حتى لا تسوء علاقته

(٢٧) عينه، ص ٣٥٥.

(٢٨) عينه، ص ٣٥٥.

بهم، فالصداقة تضحية ونكران ذات، بينما التجارة ربح ومنفعة. وإذا كان لا محالة من التعامل مع الأصحاب فلا بد من التضحية بالربح «ولا يعامل الأصدقاء الحميمين وإذا فعل فليقطع الطمع من الربح»، فبذلك تحفظ الصداقات وتدوم علاقات الود بين التاجر وأصحابه.

د ـ من آداب التجارة أن لا يتعامل التاجر «مع قليلي البضاعة والسفيه»، فقليل البضاعة غالباً ما يكون متعنتاً وحريصاً على مقتنياته، أما السفيه فلا يراعي حرمة ولا ضميراً ويكثر من الغبن والخداع ويسيء التعامل مع الناس.

هـ ـ على التاجر أن «لا يتعامل بالنسيئة طمعاً في الزيادة» فالنسيئة تضر برأسمال التاجر الصغير، وتقلل فرص ربحه لاعتبارها ديناً منسياً طويل الأجل، والتجارة بالنسيئة تقرب إلى الربا إن كان يطمع التاجر من خلالها مضاعفة ربحه أو زيادة الأسعار.

و ـ على التاجر أن يكون صادقاً في قوله وفعله «إن الكذب على المبيع غير مستحسن عند الكافر والمسلم» (٢٩)، فالناس تمقط الكذب وتذم المخادعين ولا تثق بغير المؤمن الصادق وحسن المعاملة.

ز ـ على التاجر أن يحفظ لسانه في أسفاره، فلا ينقل معه أخبار الشؤم والسوء «لا يخبر عن السوء في كل مدينة يدخلها» فتلك الأخبار تضر في تجارته وتسوّد سمعته فيزدريه الناس وينفرون منه ويعرضون عن بضاعته. ويرى الكاتب أن من واجب التاجر أن يبقى حسن السمعة طيب العشرة خلوقاً لا يحجم عن فعل الخير «ولا يقصر في خبر التهنئة» أينما حل ونزل. وعليه أن يفي بالوعد ويحفظ الأمانة ولا يغدر بالمحتاجين «أما رسائل المحتاجين فلا يغدر فيها» (٣٠).

١ ـ أصول التعامل التجاري:

يعتقد قابوس أن التعامل التجاري ليس أمراً عارضاً أو حدثاً طارئاً، إنما هو أسلوب عمل يتم وفق قواعد وأصول ثابتة من شأنها أن تحدث زيادة في الثروة

(٢٩) قابوس نامه، ص ٣٥٦.

(٣٠) عينه، ص ٣٥٨.

والمداخيل، وتحقق ازدهاراً مطرداً في ميدان التجارة. أما أصول التعامل التجاري فيمكن تلخيصها بما يلي:

أ ـ على التاجر أن يتعامل مع صغار التجار ويحترز من طمع الكبار، « يعامل من هو دونه فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذي أمانة وديانة ومروءة»(٣١). والواقع إن الكاتب هنا استدرك طبيعة النظام الإقتصادي الحر الذي يقوم على قانون العرض والطلب، ووعى أيضاً قضايا التفاوت بين الطبقات، وعمليات الإحتكار والإستغلال وتحكم المتمولين بالسوق وأثر ذلك على قطاع التجارة، ولذلك وفي سبيل منع الإحتكار والمضاربة نصح الكاتب صغار التجار بالتعامل فقط مع من هم دونهم من الباعة، ولم يمانع من التعامل مع كبار التجار إن كانوا من المؤمنين الذين يخافون الله والضمير.

ب ـ على التاجر أن لا يبيع ويشتري الغلال «واحترز من شراء الغلة بأمل الربح» فتجارة الغلة برأي الكاتب تفلس صاحبها وتسيء إلى سمعته، لأن الناس يتأففون من تاجر الغلال ولا يثقون به يقول: «من يبيع الغلة دائماً سيء السمعة والنية» (٣٢). وهذا الموقف المعادي لبائع الغلال ربما كان وليد تجربة عاشها قابوس في مجتمع كان فيه بائع الغلال مخادعاً، يغش في الكيل والميزان.

ج ـ على التاجر أن يتمهل بتسليم البضاعة، فلا يفرِّط بها أو يتهاون في عرضها على المشتري إلا بعد إنهاء الصفقة وتوقيع العقد، «لايسلّم قط قبل إتمام البيع» (٣٣) فبذلك يحفظ حقه ويتجنب انقلاب الزبون ومطالبته بتعديل سعر البضاعة ومقدارها. ويرى قابوس أن واجب التاجر أن «لا يتعامل مع من لا خبرة لهم في البضاعة» (٣٤).

د ـ على التاجر أن «لا يسأل الطريق من الغرباء» فقد يكون بعض الغرباء لصوصاً يضلون التاجر طريقه ويسلبونه ماله وبضاعته، وعليه أن لا يجالس

---

(٣١) عينه، ص ٣٥٥.

(٣٢) عينه، ص ٣٥٦.

(٣٣) قابوس نامه، ص ٣٥٦.

(٣٤) عينه، ص ٣٥٥.

المسلحين، ويكون حذراً في تعامله مع الحراس، فلا يخونهم أو يتبسط معهم في المعاملة «ولا يخون الحراس ولكن لا يقصّر في خداعهم بالجرأة والكلام الطيب»، فالحراس والشرطة قد يمنعون التاجر ويعطلونه عن البيع والربح، لأنهم مسؤولون عن تطبيق القوانين وضبط المخالفات شأنهم في ذلك شأن الشرطة في زماننا، لذلك لا يمانع قابوس من أن يتملقهم التاجر ويخادعهم من أجل تنفيذ أغراضه ومراميه.

هـ ـ على التاجر أن يصطحب في أسفاره، صديقاً حميماً يشاطره المخاطر ويخفف أعباء السفر وصعوبات الطريق «ولا يسير في الطريق الخارجي بغير رفيق» (٣٥) فالصديق يؤنس صاحبه ويزيل عنه الكرب والهم والوحشة، والأصدقاء برأي الكاتب يجب أن يكونوا من بين ثلاث طوائف: «الفتيان والعيارون (٣٦) والأغنياء وذووا المروءة والأدلاء العارفون بالبلاد» (٣٧) فالفتيان أقوياء البنية الجسدية، وهم مغامرون ومندفعون، أما الأغنياء فإن في مرافقتهم منفعة عظيمة للتاجر، إذ أنهم يحمون ماله وملكه ويسدون عجزه المالي ولا يطمعون بماله أو يخونون. ويستفيد التاجر أيضاً من صحبة العرافين، لأنهم اكتشفوا الطرقات ومواقع البلدان وطبيعة الأقاليم وتعاملوا مع الغرباء وعرفوا حاجات الأسواق وأحوال الناس.

و ـ يجب أن يحترز التاجر من جميع الناس فلا يتواكل على الآخرين، ويدبر تجارته وصفقاته بنفسه «كل عمل تستطيع أن تعمله إعمله بنفسك ولا تأمن لأحد» خوفاً من المضاربة واحتكار السلع أو فساد الصفقات، فالتاجر الناجح برأي الكاتب هو الذي يفهم السوق ويعرف البيع والشراء «وكن نشطاً في البيع والشراء. . . وكثير الشراء، فالبيع» (٣٨).

---

(٣٥) قابوس نامه، ص ٣٥٨.

(٣٦) العيارون: جمع عيَّار، والعيار هو رجل كثير المجيء والذهاب، والذَّكي كثير التطواف. قا: القاموس المحيط للفيروز ابادي، مج ٢، ص ١٠١.

(٣٧) عينه، ص ٣٥٨.

(٣٨) عينه، ص ٣٥٨.

ويشدد الكاتب وهو بصدد الحديث عن أصول التعامل التجاري على فئة صغار التجار والباعة المتجولين، ويخصصهم ببعض النصائح والوصايا، لتسلم تجارتهم وتزداد أرباحهم وهي:

أ ـ على التاجر الصغير أن لا يشرك أحداً في تجارته «ينبغي أن يحترز من المشاركة ليكون ربحه عظيماً وكسبه وفيراً».

ب ـ يجب أن لا يتاجر بالسلع الكمالية خصوصاً في بداية عهده بالتجارة «ولا يشتري في حداثة رأسماله متاعاً يستفيد منه واحد في المائة» كي لا يجمّد رأسماله ويعطل تجارته، فالمواد الغذائية والإستهلاكية أكثر رواجاً من السلع الأخرى، إذ أنها تزيد فرص الربح وتحرك السوق وتضاعف رأسمال التاجر.

ج ـ على التاجر أن لا يتعاطى الإتجار بالبضاعة القابلة للتلف والفساد «ولا يبتاع شيئاً يطرأ عليه التغير» (٣٩) كاللحم والخضار وغيرها من سلع الإستهلاك، فهي تتلف سريعاً ولا تصلح للتخزين والحفظ.

وصايا تجارية متفرقة:

يختتم عنصر المعالي حديثه حول موضوع التجارات بتحديد بعض الوصايا الاخلاقية العامة المتعلقة بالعملاء والتجار والمؤتمنين على أموال الغير، وبطرق التعامل في السوق وقت البيع والشراء واثناء تقلب الأسعار.

ويستهل حديثه بتحذير التاجر من التعامل مع المفلسين والوكلاء وأهل الدين بقوله: «لا تتعامل مع الفقهاء والعلويين ومع حديثي النعمة وقليلي المال، ووكلاء القاضي والخواص والصبيان والخدم» فالفقهاء لا يقبلون على البيع والشراء ودأبهم الفتيا التي قد تعثر التجارة وتخفف من الربح، كذلك فلا يستسيغ القانون ولا الشريعة حرية عمل الصبيان في التجارة، وليس لمثل هؤلاء توقيع عقود البيع أو الشراء من غير توكيل قانوني من أولياء امورهم.

أما الاتجار مع الوكلاء وكبار العمال والموظفين فلا ينفع، فذلك يفرض على التاجر أن يقدم بضاعته بالمجَّان، أو بغير ربح لكي يأمن شرهم ولا تتعثر تجارته.

---

(٣٩) عينه، ص ٣٥٧.

وفي نطاق حفظ المال والائتمان عليه، يقترح قابوس أن يختار التاجر أصحاب الأمانة من الاغنياء ليودعهم أمواله وأملاكه يقول: «ولا تأمن المحرومين على أموالك»(٤٠) فالمال خدّاع والنفس ميالة للسوء. وبما أن التجارة مغامرة، وتفترض اختلاط التاجر بالناس على اختلاف طبقاتهم ومللهم ونحلهم يرى قابوس أن من واجب التاجر أن يحدد آفاق عمله ونطاق تجارته، وان يختار شركاء اوفياء، وأن لا يتعامل إلا مع الذين أثبتوا له بالتجربة صلاحهم واستقامتهم وصدقهم في المعاملة، وأهليتهم التجارية وحنكتهم في السوق يقول: «ولا تعتمد على غير المجربين»(٤٠)، وعلى التاجر ايضاً أن يجرِّب الزبائن بنفسه وبماله، بل عليه أن يراقب التجار والعملاء ويميز بنفسه ومن خلال التجربة والملاحظه بين الصادق والمخادع من الناس، ويعرف حسن المعاملة، يقول: «إمتحن الناس بالناس ثم بنفسك، وجرب الناس بالعمل لا بالقول»(٤١).

وحول الاسفار ووسائل النقل فلا يرى عنصر العالي ضرورة للبحر ان تيسّر السفر في البر «ما دمت تربح نصفاً من كل عشرة في سفر البر فلا تسافر في البحر»(٤١) فالكوارث والنكبات التي تواجه المرء في البر أقل خطراً مما ينجم عن سفر البحر، ففي البحر يفقد التاجر ماله وحياته، ويحفظ أن سافر في البر على الأقل حياته إن وقعت الكارثة «وإذا وقعت في البر واقعة وذهب المال فلعل الروح تبقى، وفي البحر يكون الخطر على كليهما»(٤٢).

وعلى التاجر أن يصطحب وقت سفره رسائل توصيه من اصحاب الشأن والسلطان، تعرِّف به في البلاد التي يقصدها، وتخفف عنه المتاعب ومشقات الطريق وصعوبات التعامل والمتاجره «وإن كنت تاجراً ولم تذهب قط إلى مدينة، فاذهب إليها بكتاب محتشم لتكون معروفاً بتعريفه»(٤٣).

ويوصي عنصر المعالي التاجر أن يرافق وقت اسفاره الأصدقاء الاخيار ليعاونوه ويساعدوه وقت الضيق، ويحذره في الوقت عينه من مصاحبة «غير

---

(٤٠) قابوس نامه، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٤١) عينه، ص ٣٥٩.

(٤٢) عينه، ص ٣٥٩.

(٤٢) قابوس نامه، ص ٣٥٩.

(٤٣) عينه، ص ٣٦٠.

الموافقين والجهال والحمقى والكسالى وتاركي الصلاة»(٤٤) وحجته في ذلك أن الملحد لا يعرف الله ولا الضمير، والاحمق يجهل العرف والقانـون ولا يحسن التعامل مع الناس ، كذلك فقد لا يتقي المتهور والمغامر العواقب.

ويعلق قابوس أهمية كبيرة على اخلاقيات التاجر وقيمه المعنوية، فالاخلاق برأيه أهم واعظم من رأسمال التاجر المادي، فالأمانة والصدق شرطان ضروريان في التاجر بهما يكسب ثقة المتعاملين معه حسب قول الكاتب «ولا تكذِّب فيك ظن كل من يأتمنك»، ومن مستلزمات الامانة والصدق ان يلتزم التاجر بقوانين البيع والشراء ويعرف الكيل والوزن ونوع البضاعة، وشروط العقود واصول الاتفاقات. ويرى عنصر المعالى ضرورة أن يبيع التاجر بالشرط والميثاق ويشتري بعد المعاينة يقول: «ولا تشترِ اي شيء تشتريه غير مرئي وغير معروض، واعرف سعر ما تريد بيعه وبعه بالشرط والميثاق لتسلم آخر الامر من التقاضي والجدل»(٤٥).

ويتطرق الكاتب إلى الحديث عن الإقتصاد العائلي ويتوجه في حديثه للتجار ولعامة الناس على حد سواء، فينصح الجميع بالإهتمام بذخيرة بيوتهم ومؤونتها وشراء المواد الغذائية الضرورية والاستهلاكية وقت توافرها في السوق أيام الكساد بقوله: «تشتري حوائج البيت جملة في كل سنة وقت توافرها»(٤٥)، فذلك يحقق براي قابوس لرب العائلة قدراً كبيراً من ماله كاد أن يذهب هدراً، ويوفر للتاجر في الوقت عينه ثروة واموالاً مضاعفة إذا ما اشترى بضاعته وقت الكساد وباعها في غير موسم انتاجها، وقد اوضح عنصر المعالي ذلك بقوله: «وكن خبيراً بالسعر وعندما يرتفع السعر بع النصف من كل شيء تكون اشتريته لتكون قد اكلت في تلك السنة بالمجان»(٤٥).

٢ ـ أنواع التجارات:

لا تقتصر التجارة على سلعة معينة او مادة مخصوصة، وانما هي صنـاعة تحكمها قوانين البيع والشراء، ويرتبط بها الاحتكار والمضاربـة. وليس بوسعنـا التفصيل في قوانين التجارة في هذا النطاق بل سنحاول توضيح ودراسة الجوانب

---

(٤٤) عينه، ص ٣٦٠.

(٤٥) عينه، ص٣٦٠ ـ ٣٦١.

التي أهتم بها عنصر المعالي في ميدان التجارة وهي: تجارة الرقيق والخيل والاراضي والضياع.

أ ـ شراء العبيد:

نشطت في العصور الإسلامية الوسطى تجارة الرقيق، وتعددت اسواق النخاسة، وكثر عدد النخاسين بعد ان اتسعت حدود الدولة الإسلامية وامتلأت القصور وبيوت الاكابر بالعبيد والغلمان والجواري من مختلف الاجناس؛ كالزنوج والروس والترك والصقالبة والروم وغيرهم، وصار يباهي الناس باقتناء الخدم والعبيد ليستخدموا في البيوت وفي مختلف الاعمال الصناعية والزراعية.

وازداد طلب السلاطين والملوك على العبيد والغلمان والاماء من مختلف الجنسيات، يستخدمونهم في سلك الجندية وفي موسسات الدولة الادراية وفي القصور حراساً وخدماً، بهذا راجت تجارة الرقيق الأسود والابيض، واصبحت من بين التجارات الرئيسية والهامة في البلاد والإسلامية، وكثر عدد الخدم إلى حد يمكنهم لو اتحدوا ان يهددوا المجتمع الإسلامي القائم، ويشكلوا خطراً على الامارات والممالك التي كانوا يعيشون في ظلها.

واسترعت ظاهرة العبيد والخدم اهتمام عنصر المعالي فنظر إليهم نظرة مادية نفعية مصلحية ولم يعبأ بهم كطبقة إجتماعية كبيرة لها حقوقها وحريتها، ولم يتطرق إلى موضوع حرية العبيد وازالة الفوارق الطبقية، بل التزم في هذا الميدان وبالاعراف والتقاليد الإجتماعية السائدة في زمانه، وبحث في الوقائع فتناول العبيد والخدم والغلمان من حيث خصائصهم النفسية والعضوية وقدم مجموعة من الوصايا الاخلاقية والحكم العملية كمبادىء تصلح لسياسة العبد وتعليمه وتأديبه، وتفيد النخاس والتاجر معرفة بعادات العبيد واجناسهم وتمكنهما من اختيار الصالح من الأرقاء والجواري.

شروط اختيار العبد واقتنائه:

العبيد برأي عنصر المعالي كغيرهم من البشر يتمتعون بمواصفات شخصية ونفسية، ويتمايزون في القدرات والمهارات وانماط السلوك الفردي، فمنهم الرديء المشاكس المتمرِّد ومنهم المطيع المخلص الأمين، ويُعتبر العبد الوفي

الذي يحفظ مال سيده ثروة عظيمة ، ولا يجوز التفريط به أو التساهل في بيعه. ومن أجل أن يحظى التاجر ببضاعة جيدة عليه الأخذ بالنصائح والوصايا التالية:

ـ على التاجر أن يتعرَّف على اجناس العبيد وفضائل وعيوب كل جنس ويكشف عللهم الظاهرة والباطنة، ومن يصلح للخلوة والمعاشرة، واي الاجناس يصلح للملاهي وحمل السلاح ولخدمة الحريم والطبخ والفراشة ويوصيه «بعلم الفراسة والتجربة»(٤٦) فإنها لمن أهم الوسائل لمعرفة خفايا العبيد وقدراتهم واستعداداتهم وإنماط سلوكهم.

ـ ان يشتري العبد الذي خدم بيوت أهل الفضل والاكابر «فاشترِ من رجل صالح إذا اشتريت» فالعبد على صورة سيده وابن بيئته وتربيته، فإن صلح السيد صلح العبد وان فسدت اخلاقه ساءت تربية عبيده. ويؤكد الكاتب القول في ان الاعاجم من اكثر الاجناس توافقاً وتكيفاً وقدرة على التعلم واكتساب المعارف، لذلك ينصح باقتناء العبيد الاعاجم والاجانب بقوله: «ولا تشترِ ناطقاً بالعربية ماوجدت أعجمياً لانك تستطيع ان تربي الاعجمي على خلقك»

ـ ان لا يكون العبد هرماً، عريقاً في الخدمة تقلب عند اسياد كثر «ولا تشتر العبد الذي كان له سادة كثيرون»(٤٧) فذلك يجعله صعب المعاملة، ومشاكساً معارضاً يخالف اسياده وينتقي الاعمال السهلة.

ـ أن لا يختار العبد من بين أولئك الذين ذاقوا حلو الحياة وتعودوا على النعيم والملذات «ولا تشترِ العبد الذي كان معززاً في مكان آخر» فمثل هؤلاء يعارضون اسيادهم لمجرد تغير بسيط في معاملتهم، ويلحون في طلب المنفعة باستمرار.

ـ ويفضل قابوس شراء العبد الفقير الذي عاش على الحرمان، فإنه يشكر سيده إن أنعم عليه، ويطيعه على القليل من حسن رعايته يقول: «واشتر العبد من مكان اسيء إليه فيه حتى يشكرك على القليل من حسن رعايتك»(٤٨) ، فالحرمان

(٤٦) قابوس نامه، ص ٣١١.

(٤٧) عينه، ص ٣١٧.

(٤٨) عينه، ص ٣١٧.

برأي قابوس قد يحفز العبد على الاحترام والطاعة وتأدية الواجب.

- يجب شراء العبد غالي الثمن «واشترِ العبد القيِّم»[49] فهو ثروة للتاجر ونعمة من نعم سيده، ويكون بمثابة رأسمال ثابت اذ يُقبل الناس على شرائه باستمرار لما يتحلى به من اوصاف واخلاق ومهارات.

ب - شراء الخيل:

يرى عنصر المعالي ان تجارة الخيل من اهم تجارات عصره فالخيل أداة ضرورية للحياة المدنية والعسكرية وفوائدها كبيرة في الحرب والفروسية وفي الاسفار.

وقد باهى الناس باقتناء الخيول وتسابقوا في الحصول على اجودها، واهتموا بترويضها وتدجينها وكانت تربية الخيول من اختصاص اصحاب الشأن والسلطان واقتنائها من اسباب الرئاسة والعظمة، يقول قابوس: « إن تعهد الخيل من الرياسة ومن المروءة»، كذلك فإنها وسيلة عيش وآله ضرورية لخدمة الإنسان «الدنيا قائمة بالناس والحيوان»[50]، فكما ان الدولة لا تقوم إلا بالرعية، فإن الإنسان لا يستطيع مواجة مشاكل الحياة وصعوبات المعاش إلا بالحيوان الذي سخره الله لخدمته وليخفف عنه شظف العيش وظلم الزمان.

ولكي تصلح الخيول للخدمة يرى الكاتب إنه لا بد من تدجينها وترويضها، وليس ذلك امراً يسيراً بل عملية شاقة وصعبة، تتطلب خبرة طويلة عند السائس وتمرساً في ركوب الخيل والفروسية. ويرى الكاتب ان سياسة الخيل علم بحد ذاته كالعلوم العملية الاخرى، فالخيول من انواع واصناف متعددة، منها الجيد الاصيل ومنها الحصان الحماري الرديء. كذلك فإن للخيل صفات ظاهرة وخفية، فالظاهرة منها باعتقاد قابوس جمال المنظر، وتناسق اعضاء الحصان ولونه واسنانه وقوامه، يقول: «تكون الاسنان متصلة دقيقة وبيضاء، والشفة السفلى اطول من الشفة العليا، والانف عالياً وواسعاً ومسحوباً... وطويل

---

(49) قابوس نامه، ص ٣١٧.

(50) عينه، ص ٣٢١.

الاذن وما بين الاذنين واسعاً ، ومنتصب الرقبة ودقيق الخصر. . . وغليظ القوائم. . . قصير الشعر طويل الحافر وأسوده»(٥١)، ويبدو الكاتب من جديد وكأنه متخصص بعلم الحيوان، لا سيما من خلال ملاحظاته الدقيقة التي اكتسبها بفعل الخبرة والممارسة.

اما صفات الحصان وخصائصه الخفية فيحددها قابوس بما يلي:

أن يكون الجواد «فطناً في السير»(٥٢) لا يسقط على الارض اثناء المشي أو الركض، فالحصان الجيد هو الذي يحرك قدميه بانتظام، ولا يختل توازنه في السير، بينما الحصان الحماري لا يصلح للركوب فهو يقع كثيراً(٥٣).

ان يكون الحصان هادئاً عاقلاً ومطيعاً، فالمجنون من الخيل لا يصلح للركوب ولا يرجى منه منفعة كما يقول الكاتب «والجياد الحمراء العين معيبة ومجنونة»(٥٤).

ويحذر الكاتب من الخيول المصابة بالصمم والبكم أو العمى، فهي لا قيمة لها ولا تصلح للخدمة حسب قوله «احدى علل الخيل في ان يكون ابكم والجواد الابكم ثمنه زهيد جداً، والجواد الاعشى الذي لا يحترز. والجواد الاصم رديء. . والجواد الاحول رديء ويخاطر كثيراً»(٥٥).

ج - شراء الارض والمساكن:

تعتبر ملكية المساكن والضياع والأراضي الزراعية، مصادر هامة للثروة وزيادة المداخيل، فهي وسيلة لضمان استقرار الإنسان وأمنه الاجتماعي الاقتصادي، ومصدر هام لتأمين القوت والغذاء والكساء والمأوى.

وكما أن قضايا الملكية والاستثمار والإنتاج من المسائل الهامة في هذا العصر، فقد كانت الشغل الشاغل للشعوب الإسلامية في القرن الخامس الهجري، حيث كان تصارع الممالك والأمم على أشده، للحصول على مصادر الثروة والتوسع في الملكية. ولذلك تصدى جمع غفير من المفكرين والفلاسفة

(٥١) قابوس نامه، ص ٣٢١.
(٥٢) عينه، ص ٣٢٣.
(٥٣) عينه، ص ٣٢٢.
(٥٤) عينه، ص ٣٢٢.
(٥٥) عينه، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

المسلمين لهذه القضايا محاولين الاصلاح، وكان من بين هؤلاء كاتبنا الذي أفرد في كتابه بضع صفحات كشف فيها موقفه من قضايا الملكية العقارية، وحدد طرائق البيع والشراء، وقد استهل الموضوع بدعوة التاجر إلى الالتزام بأمرين جوهريين قبل البدء بالتجارة هما:

الاول ، شراء الغذاء والكساء والمساكن في وقت الكساد «اشترِ كل ما تشتريه في وقت الكساد»[٥٦] حيث يزيد العرض ويقل الطلب، فتنخفض الاسعار ويكون ذلك كسباً لمن يشتري في حينه .

والثاني، أن يراعي الربح قبل شراء السلعة «اما ما تشتريه فيجب شراؤه بمقياس الربح والخسارة»[٥٧] ، فذلك عين الحكمة وأصل نجاح التجارة سواء كانت مادتها غذائية أو استهلاكية أو ضياعاً ومساكن، فإن ذلك يمنع الافلاس ويحمي من الخسارة.

والجدير بالذكر أن تجارة الاراضي العقارية والضياع والمساكن تتطلب قدراً كبيراً من المال وفطنه وذكاء عند التاجر حتى يحقق الغرض من تجارته ويزداد ربحه، ولكي لا يهدر مال التاجر وتكسد بضاعته، يوصي قابوس باتباع القواعد التالية:

أ ـ إذا أردت أن تشتري بيتاً «فاشتره في حي صالح أهله»[٥٨] فالجار قبل الدار بحسب المثل ، والإنسان ابن بيئته الإجتماعية يتأثر بالاخرين ويكسب عاداتهم وتقاليدهم، فإن كانوا من أهل الفضل والخير والصلاح صلح الإنسان واستقام سلوكه وشرفت اخلاقه، وان عاشر أهل السوء إنحرف وفقد صوابه.

ب ـ يجب أن يعيش الإنسان مع من يساويه في المستوى الاقتصادي «واجتهد في ان تبتاع الدار في حي لا يكونون اغنى منك»[٥٩] فالفارق الاقتصادي يقلل من فرص التعامل بين الناس، ويوسع التفاوت بين الطبقات، ويزيد الحسد والبغضاء عند الفقراء والتسلط والعنفوان عند الميسورين الاغنياء.

ت ـ يجب شراء البيت في المدن الكبرى «واجعل موطنك ما استطعت في

(٥٦) قابوس نامه، ص ٣٢٠.

(٥٧) عينه، ص ٣٢٠.

(٥٨) قابوس نامه، ص ٣١٩.

(٥٩) عينه، ص ٣٢٠.

المـدن الكبرى»[٦٠] فهي مـراكز العمـران ومهد الحضـارة حيث تنشط الاعمال والصناعات وتتـوفر فـرص العمل في القـطاعات الانتـاجية الصنـاعية والتجـارية والخدمات، بعكس الحال في الأرياف والقرى حيث تنتشر البطالة وتقـل فرص العمل، ويعم الفقر والتخلف والعزلة ويعاني الناس من شظف العيش.

ث ـ على التاجر أن يحسن اختيار بيته فلا يكون في مكان وضيع يكشفه الناس، كأن يكون وسط الاسواق أو تكون غرفه على مرأى من العامة «واشتر البيت بحيث يكون سطحك اعلى من سطح الآخـرين حتى لا تقع عيـون الناس على بيتك»[٦١].

ج ـ يجب ان يكـون البيت في مكان حصين، وفي مـأمن من اللصـوص واخطار الحرب «ولا تشترِ على حافة مدينة ولا تحت سورها»[٦٢] فهذه الاماكن برأي قابوس لا تصلح للسكن لاسيما وان فرص الحرب في زمانه كانت كثيرة كما ان المناطق النائية كانت اكثر عرضه لغزوات اللصوص وقطاع الطرق.

د ـ شراء الضياع:

يراعي الكاتب في اقتناء الضياع ثلاثة امور جوهرية هي:

ـ أن تكون الضيعة غنية بالموارد الطبيعية وعامرة بالسكـان «وإذا اشتريت ضيعة فلا تشترهـا بغير جار ومعدن»[٦٣]، فالايدي العاملة والموارد الطبيعية عناصر هامة في غلاء سعرها وزيادة الطلب عليها.

ـ أن تكون الضيعة مؤمنة لاشبهة فيها واهلها يدينون بـالإسلام «ولا تشتـر الضيعة مالم تكن مقوَّمة وبغير شبهة»، فالناس تنفر من الاماكن المشبوهة، ولا تقبل بالتعامل مع الملحـدين والمشككين الذي حـرَّم الشرع التعـامل معهم، واعتبـر أموالهم محرمة.

ـ أن تكون الضيعة عامرة مـزدهرة، وغنيـة بمصادرهـا الطبيعيـة وبموارهـا

(٦٠) عينه، ص ٣٢٠.
(٦١) قابوس نامه، ص ٣٢٠.
(٦٢) عينه، ص ٣١٩.
(٦٣) عيبه، ص ٣٢٠.

الزراعية والصناعية والتجارية، فذلك برأي قابوس يزيد من قيمتها ويرفع من شأن من يملكها «قيمة رب القرية بالقرية والضياع، وقيمة الضياع بالدخل»[٦٤].

نخلص إلى القول ، أن عنصر المعالى استطاع بفضل تجاربه الشخصية، ومن خلال الميدان ان يتلمس خفايا الواقع الاقتصادي وظروف بيئته اليومية.

وقد تدخل في الجزئيات فبحث في مقومات الاقتصاد من غير أن يلتفت إلى القوانين التي تحكم النظم الاقتصادية، كذلك اهمل الحديث عن نظام الضرائب والموازنات والخزانة والجباية وغيرها من القضايا. وانحصر اهتمامه في مصادر الدخل وسبل زيادة الإنتاج، اي بالجوانب التطبيقية وبما يمس حياة الافراد والجماعات داخل المجتمع، فتوسع في دراسة انواع الصناعات وفي طرق الزرع ووسائل زيادة الانتاج الزارعي، ولفت إلى أهمية الارشاد والتوجيه والتدريب المهني، كما تدخل في التجارة ففصَّل في انواعها لا سيما تجارة الرقيق والخيل والاراضي والضياع، وحدد قواعدها وشروطها. وتحدث عن اخلاقيات التاجر والصانع والمزارع كل في حدود مهنته، وعن آدابيات التعامل التي من شأنها أن تحمي العمال والمزارعين والتجار وتسهم في زيادة مداخليهم.

فعلى صعيد الصناعة نجد قابوس يقدِّم مجموعة من القواعد والوصايا الاخلاقية، فيحذر الصنّاع من الغش والخداع والغبن وعدم الامانة، ويعتبر الصناعة من مصادر الدخل الثابته التي تستلزم المهارة والاتقان في العمل، ويربط في موضوع الزراعة بين زيادة الانتاج وخصوبه الارض ويعلق اهمية على المناخ المعتدل والآلات الزراعية والمواد المخصّبة.

أما في موضوع التجارة فقد أسهب الشرح واعتبرها افضل الوسائل في زيادة المال والثروة، وقال بنوعين من التجارة: تجارة المعاملة، وتجارة المسافرة، وحذر من خطر المتاجرة ومن عواقبها، فهي برأيه نوع من المغامرة أو المقامرة.

(٦٤) عينه، ص ٣٢٠.

الفصل الخامس

التعاملية والعائلة (تدبير المنازل)

تمهيد

١ ـ صفات المرأة وسياستها
وشروط التعامل معها

٢ ـ سياسة الولد والبنت، أصول
التربية والتعليم (رياضة الصبيان)

٣ ـ سياسة العبيد والخدم

التعاملية والعائلة (تدبير المنازل)

تمهيد

السياسة بمفهوم عنصر المعالي قابوس ذات طابع شمولي، مباحثها لا تتركز حول قضايا السلطة والحرية والعدالة فحسب وانما تتسع لتشمل السلوك الفردي والاجتماعي، وتتناول الاخلاق وتدبير العائلة وجميع نشاطات الإنسان وسلوكه العملي، وترتبط بالإنسان من حيث وجوده داخل المجتمع، ومن حيث علاقاته بالآخرين، وفي توليه المناصب القيادية.

والسياسة عند قابوس لا تقوم فقط على علم الاخلاق والنبوات كما شاع . عند الفلاسفة المسلمين[1]، بل هي نظر في أحوال الناس واعمالهم وصنائعهم وتصرفاتهم. إنها سياسة المنزل بما فيه الدخل والخرج، والزوجة والولد والخدم، غايتها الاقتراب بالفرد والمجتمع إلى عالم المثل وملامسة السعادة والفضيلة.

وهذه المعاني والمفاهيم وان أسقطت من معنى السياسة في عالمنا المعاصر، فإنها كانت محور الفكر السياسي الوسيط لا سيما بعد أن اعتُبر الادب والدين والاخلاق من صميم المسائل السياسية[2]، وصارت تشكل قطاعاً عملياً

(١) قا: كتاب السياسة المدنية المعروف بمبادىء الموجودات، للفارابي، تحقيق فوزي النجار، المطبعة الكاثوليكية، ص ٧٩ ـ ٨٠. وآراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البيرنادر ص ١١٤ ـ ١١٦. قا: أيضاً: كتاب النجاة، لابن سينا، تحقيق ماجد فخري، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٢) را: بهذا الخصوص مقالة للدكتور علي زيعور، بعنوان الحكمة العملية في الفكر الإسلامي، مجلة

تطبيقياً متميزاً عن قطاعات الفلسفة السياسية في الإسلام، عرف بقطاع الفلسفة العملية.

ولو تتبعنا تاريخ تطور هذا اللون الفكري الفلسفي لتبين لنا انه ظهر في مرحلة مبكرة وكان يمثله جمع غفير من المفكرين والفلاسفة من ابرزهم الكندي(٣) واخوان الصفاء(٤) وابن سينا(٥) ومسكويه(٦) وغيرهم.

أما المصادر الاساسية المكونه لهذا الفكر فيمكن حصرها في ثلاث نواح: الفلسفة اليونانية، والحضارات الشرقية الهندية والفارسية والشريعة الإسلامية.

فمن الناحية الاولى، تعتبر الفلسفة اليونانية من أهم مصادر الفلسفة الإسلامية بقطاعاتها المختلفة، لقد ألف كل من افلاطون وارسطو في النظرية السياسية، وتناولا موضوع الدولة والسلطة والمجتمع الفاضل، وبحثا في الطبقات الإجتماعية وفي قضايا السياسة المدنية(٧)، فكتب الاول في تأديب الولد وفي

الفكر العربي، بيروت، السنة الثالثة، العدد ٢٢، ١٩٨١، ص ٢٩٥. را: أيضاً: زيعور، التربية وعلم نفس الولد في الذات العربية، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ٢٤١ وما بعدها.

(٣) قدم الكندي لولده مجموعة من الوصايا والنصائح منها: رسالة في البخل وعدم السؤال وأخرى في الحيلة في دفع الاحزان. انظر: رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣، ط ٢، ص ٦ وما بعدها.

(٤) بحث أخوان الصفاء في أقسام الحكمة العملية، وحددوا أغراض السياسة وكتبوا في آداب المعلم والمتعلم وفي سياسة الزوجة والخدم، وقدموا مجموعة من الوصايا للقضاة والقواد. قا: إخوان الصفاء، الرسالة الجامعة، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٦٣. ورسائل إخوان الصفاء، مج ٤، ص ٢٥٤ ـ ٢٦١. ومج ٣، ص ٤٨. مج ١، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨.

(٥) ابن سينا، رسالة في السياسة، مجلة المرشد، بغداد ١٩٢٩.

(٦) مسكويه، الحكمة الخالدة، تحقيق بدوي، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٣٢٧ - ٣٤٠.

(٧) قا: وصية أفلاطون في تأديب الأحداث في كتاب الحكمة الخالدة لمسكويه، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٨. قا: أيضاً: أفلاطون في الإسلام، لبدوي، نقلاً عن كتاب السعادة والإسعاد، لأبي الحسن العامري، المقتبس عن كتاب السياسة لأفلاطون، ص ١٦٠ ـ ١٦١، ١٦٦ ـ ١٦٧. أرسطو، كتاب السياسة، تعريب الأب أوغسطينوس البولسي، ط ٢، بيروت ١٩٨٠، ص ٤٠٥ ـ ٤١٥.

سياسة الرئيس والقائد، وتطرق إلى موضوع الغذاء والقوت. وبحث الثاني في موضوع الزواج وتأديب الاولاد وكلاهما أثرا تأثيراً مباشراً في الفلسفة الإسلامية، وقد بدا ذلك بوضوح عبر كتاب «العهود اليونانية»(٨)، وفي كتاب «سر الاسرار»(٩) المنسوب لارسطو.

ويعتبر (Bryson)(١٠) من أهم من كتب في ميدان الحكمة العملية والسياسات الاهلية، فقد تحدث عن سياسة القوت والولد والزوجة والخدم.

وتعتبر من الناحية الثانية حكايات ملوك الهند واقوال ونصائح ووصايا حكماء الفرس القدامي مصادر اصيلة للفكر الفلسفي السياسي الإسلامي، وتأثيرها بدا بوضوح في الكتابات المبكرة(١١)، عند فريق من المفكرين(١٢) المتحدرين من اصول زرادشتية ومانوية ومزدكية.

اما الناحية الثالثة المتمثلة بالشريعة الإسلامية فتدخل كعنصر أساسي في تكوين هذا القطاع الفلسفي فالدين والبيئة الإسلامية والعادات المجتمعة السائدة غطت المصادر الدخلية الفارسية والهندية واليونانية، ومزجت بينها وطبعتها بالطابع الإسلامي الصرف، وكان من نتائج المزج والتداخل أن برزت قضايا الحكمة العملية السياسية لا سيما قضايا السياسة الاهلية التي سوف نتعرف على نموذج منها

---

(٨) هذا الكتاب مستخرج من رموز كتاب السياسة لأفلاطون، تأليف أحمد بن يوسف بن إبراهيم، تحدث فيه عن آدابيات التعامل الإجتماعي والأقتصادي والسياسي، وتضمن الكتاب وصايا في سياسة الرعية والخدم والقواد والجنود والوزراء. قا: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، لبدوي، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٤، ص ٦ ـ ١٤.

(٩) هو كتاب سر الأسرار لتأسيس السياسة وترتيب الرياسة لأخوان الصفاء، تحقيق أحمد تريكي، تضمن الكتاب فصولاً في سياسة الوزراء والقادة والسفراء. را: صفحات ٨٩ ـ ١١٠ و١١٣ ـ ١١٤، و ١٢١ وما بعدها.

(١٠) بروسن، نشرة بلسنر، هيدلبرغ ١٩٢٧، ص ١٤٤ وما بعدها.

(١١) كان كسرى أنوشروان مثال الملك العادل. قا: عن مآثره ووصاياه وأخلاقياته وسلوكه كتاب التاج. وكتاب المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ. عيون الأخبار لابن قتيبة، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبي.

(١٢) را: كتاب السياسة للمغربي. الإشارة إلى أدب الوزارة للسرادي . نصيحة الملوك للغزالي. سلوان المطاع في عدوان الاتباع، لابن ظفر .

من خلال كتاب قابوس نامه عبر الصفحات المقبلة كذلك فإننا سوف نتوقف عند آراء قابوس التربوية بما فيها سياسة الزوجة والولد والخدم.

١ ـ تأديب المرأة وسياستها:

يتصدر موضوع المرأة لائحة موضوعات السياسات الاهلية في فلسفة عنصر المعالي قابوس فالمرأة ركن أساسي في بناء الاسرة، وسبب رئيسي في عملية التناسل والتكاثر واستمرار الحياة الاجتماعية، وتنحصر أهميتها أيضاً في مشاركة زوجها وخدمته، وفي المحافظة على أملاكه ومقتنياته، إنها بحسب المفهوم الإسلامي مؤتمنة على أملاك الزوج وامواله ومسؤولة عن راحته وعن حفظ منزلها ورعاية خدمها وتأديب أولادها، وبهذا تكون زوجة ومربية وشريكة في عملية التربية والتنشئة الإجتماعية. ولذلك ونظراً لاهمية دورها وتداخل مهامها ومسؤولياتها يقترح قابوس مجموعة من المبادىء، ويوصي بعدد من الوصايا والنصائح بهدف انجاح عملية التربية وتحقيق تكامل في العلاقات داخل المنزل وفي المجتمع العام، فيشدد على مسألة إيمان المرأة وشدة تدينها وسلامة معتقداتها، وينبه وهو بصدد الحديث عن الزواج إلى ضرورة اتباع السنن والشرائع.

ومن المعلوم ان الشريعة الإسلامية (القرآن والحديث) تضمنت من المبادىء والقوانين ما يكفي لتنظيم الاحوال الشخصية ـ الزواج الطلاق الميراث البنوة ـ والعلاقات الفردية الإجتماعية ومن أمثله ذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف**﴾(١٣)، وقوله تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾(١٤) وجاء في الخبر أن الرسول ﷺ قال: الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة(١٥).

وما من شك في أن قابوساً استوعب تلك المبادىء والتعاليم، وتأثر بالتجربة

---

(١٣) القرآن الكريم، سورة (النساء) آية ١٩.

(١٤) عينه، (النساء) آية ٣٤.

(١٥) النووي، رياض الصالحين،(تحقيق أبو زينة) المكتبة العصرية، بيروت، د. ت ص ١٢٢.

التاريخية للامة الإسلامية، وحاول من خلال ذلك اصلاح نظام الاسرة وتأديب النساء، وضبط العلاقات الزوجية، وكان يلتقي في جميع مواقفه مع ابن سينا[١٦] والغزالي[١٧] وغيرهما من الفلاسفة المسلمين. كما تأثر بفلاسفة الاغريق وخصوصاً ببروسن[١٨]، وبتعاليم وحكايات حكماء وملوك الفرس والهند[١٩].

صفات المرأة وشروط التعامل معها عند قابوس:

لانجد مفارقات بين الغزالي وابن سينا وقابوس في موضوع المرأة، فهم متفقون في الرأي حول صفاتها، يقول قابوس: «أما المرأة فيجب أن تكون متدينة وربة بيت، ومحبة لزوجها وحيية ونقية وقصيرة اللسان واليد ومحافظة على المال»[٢٠] فالإيمان يحفظ الأخلاق ويبعد عن الخطيئة، ويحفز المرأة على الطاعة والولاء والتضحية في سبيل زوجها وأولادها، مما يوطد العلاقة الزوجية ويقوي أواصر الود والعطف بين الزوجين، فيحفظ شرف الزوج ويصرفها عن اللهو إلى تدبير البيت وتنظيم الدخل والثروة، وتوجيه الأولاد وتأديب الخدم.

ولكي يحظى الرجل بزوجة صالحة لا بد له من تفحص أحوال الفتاة ومعرفة أصلها ونسبها، فإن أصالة النسب تكفل للرجل زوجة وفية وتقية لأن النساء

---

(١٦) يحمِّل ابن سينا المرأة قسطاً من المسؤولية التربوية والإقتصادية، ويقترح أن تربى الفتاة على الإيمان وحب الفضيلة والعفة والطهارة، وأن تكون خفيفة الروح مطيعة ودود وولود. السياسات الأهلية، مطبعة الفلاح بغداد ١٩٢٩، ص ٣٢. الشفاء (الإلهيات)، تحقيق إبراهيم مدكور، القاهرة، د. ت، ص ٤٤٩.

(١٧) يحبِّذ الغزالي - أقوال ابن سينا حول صفات الزوجة وأخلاقها، ويضيف شرط الجمال وشرف النسب والبكارة وسلامة الأعضاء. ويحصر مسؤولياتها في تأديب الأولاد ورعايتهم وفي تأدية واجباتها المنزلية اليومية من كنس وطبخ. انظر: الأحياء، مج ٢، ص ٢٧. ميزان العمل، ص ٣١٦. التبر المسبوك في نصيحة الملوك تحقيق محمد مج، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط ١، ١٩٨٧، ص ٣٥٧ وما بعدها.

(١٨) يشدد بروسن على أهمية الزواج وأهدافه ويحصر صفات الزوجة بالأذعان والخضوع والطاعة والعفة والطهارة، ويرى أن من واجباتها تربية الأولاد وتدبير المنزل. نشره بلسنر ص ١٧٣ وما بعدها.

(١٩) قا: عن المؤثرات الفارسية الساسانية، وموقف حكماء الفرس من المرأة حكاية خسرو أبرويز وزوجته شرين. التبر المسبوك، ص ٣٨١ - ٣٨٤.

(٢٠) قابوس نامه، ص ٣٢٥.

والأبناء صورة للبيت الذي ترعرعوا فيه، فإن كان البيت فاضلاً شريفاً تعلم الأبناء منه الشرف وان كانت العائلة مفككة إنهدم البنيان وفسد الأبناء وانحرفوا، لهذا قال قابوس: «يجب أن تكون الزوجة رأت السيادة في بيت أمها وأبيها»[٢١]، فذلك يورثها ثقة بنفسها ويساعدها على التوافق والتكيف مع واقعها الجديد، وإذا كانت سليلة عائلة عريقة «و من أسرة صالحة»[٢٢] يعظم شأنها وتبقى حرة ومحترمة.

ويوصي قابوس باختيار المرأة العاقلة الناضجة بقوله: «يجب أن تكون الزوجة كاملة بالغة وعاقلة» إذ ان الإقتران بالقاصر مناف للشرع والأخلاق، فغاية الزواج إنجاب الأولاد واستمرار النسل وبناء العائلة المتماسكة. ولا تصلح لهذا الدور التربوي أية إمرأة بل تلك الزوجة التي تجمع بين أصالة النسب والعلم والنضوج وكمال الأخلاق، لهذا وزع قابوس النساء بين فريقين: الأول للمتعة واللذة الجنسية، والثاني لتدبير البيت وإنجاب الأولاد، ويشدد على أهمية الفريق الثاني بقوله: «فالمرأة يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع» ومرد هذا الفرز الإجتماعي الذي يقدمه الكاتب ربما يعود لظروف البيئة الإجتماعية، وحياة القصور والعادات والتقاليد السائدة، فالحكام وأبناء الطبقات الأرستقراطية حرصوا على زواج الحرائر اللواتي ينتمين لعائلات عريقة وأصيلة، بهدف دعم نفوذهم وسلطانهم من خلال تقوية العصبية، ولتنفيذ سياسة تربوية فاضلة وإعداد النشء إعداداً صالحا، فالجواري إنما خلقن للخدمة والمتعة لا أكثر، كما يقول قابوس: «ويمكن شراء الجواري بالسوق من أجل المتعة»[٢٣].

والواقع أن هذا الإتجاه أسهم في ازدهار تجارة الرقيق وشجع على الاختلاط العنصري داخل المجتمع الإسلامي، فامتلأت القصور باعداد هائلة من الجواري والعبيد والغلمان من مختلف الأجناس، وبات اقتناء الجواري ظاهرة مألوفة عند الناس وخاصة في أوساط الطبقات الإجتماعية الميسورة.

وطالما أن الاسترقاق يعني امتلاك العبد ويبيح حرية التصرف بالمملوك، فقد

(٢١) قابوس نامه، ص ٣٢٦.

(٢٢) عينه، ص ٣٢٥.

(٢٣) عينه، ص ٣٢٥.

درجت عادة التمتع بالجواري بعد أن أضحى زواج الحرائر عبئاً مادياً ثقيلاً على كاهل الناس، وبات التمتع بالجواري والاماء أمراً لا مناص منه للحكام وأبناء الطبقات الراقية، التي عمرت قصورهم بألوف الجواري الحسناوات من كل نوع وجنس.

والجدير بالذكر أنه على الرغم من شيوع ظاهرة الاسترقاق في المجتمع الإسلامي، فإن الإسلام خفف من حدة نظام الرق والعبودية ودعا إلى احترام إنسانية العبيد، ووضع أصولاً وقواعد للتعامل مع العبد أو الجارية، فلم يترك للسيد التمتع بجاريته وفق هواه بل دعاه قبل الاتصال إلى إقامة العقد الشرعي القانوني، وشرط عليه أن لا يجمع أكثر من أربع نساء حرائر أو جواري وإماء، وأن يعدل بينهن.

وهكذا يقر الكاتب بحقوق المرأة، ويفرض على الزوج أن يوفر لها الأمن والحماية والرعاية والاشباع، فليس بالإمكان كبت عواطفها ومشاعرها وحاجاتها لأنها تقع تحت تأثير الطبيعة الإنسانية النازعة لتحقيق الكمال والتوازن النفسي. ويفرض عليه أيضاً أن يبادلها الحب والعطف والحنان بقوله: «لاتحب نفسك أكثر منها... وضاجعها بين حين وآخر» فالحب والحنان شرطان ضروريان لتوثيق الروابط بين عناصر الأسرة الواحدة، لا سيما عطف الزوجة على الزوج الذي يزيدها حرصاً على الأولاد وعلى تماسك العائلة، كذلك فإن الجو النفسي الهادىء الذي توفره الزوجة لزوجها وأولادها يسر الرجل ويغمر قلبه بالمحبة فيعطف على الأهل، ويتفاني في سبيل عائلته ويبذل كل جهد من أجل راحة زوجته وسعادة أبنائه.

ويعتبر عنصر المعالي إشباع ميول المرأة الجنسية مسألة هامة أيضاً لتوافر الانسجام ونجاح العلاقة الزوجية، فيوصي الزوج بالتمهل مع الزوجة وقت الجماع ويحذره من الإكثار في المضاجعة يقول: «فلا تضاجعها كل ليلة مهما كنت مولعاً بها»[٢٤] بهدف كسر الشهوة وكبت العاطفة، وتعزيز قدرة الزوجة على الإحتمال إن غاب زوجها عنها لمدة طويلة.

(٢٤) عينه، ص ٣٢٦.

ويرتاب عنصر المعالي من المرأة ويشكك فيهـا، فيصفها بضعف العقـل وسرعة التقلب، ويحذر من التساهل في التعامل معها، فهي برأيه أسيرة شهواتها ونزواتها وليس لها أمان وسرعان ما تخون الزوج وتتعرض للرجال ولا تعبأ بالنتائج، إن قصّر في حقها وتساهل معها، ويعبِّر عن ذلك بقوله: «ولا تأمن المرأة على أي رجل مهما كان مسنا ودميماً»(٢٥).

ويظهر الكاتب من خلال هذا الموقف المتشدد من المرأة، منسجماً مع نفسه ومن تعاليم الإسلام، التي تحـذر من اختلاط النسـاء بالـرجال، من غيـر عقود شرعية، ويقتفي الكاتب أثر الفلاسفة اليونانين والمسلمين الذين حذروا من المرأة وشككوا في قدراتها العقلية، فافلاطون مثلاً وصف المرأة بقصور العقل، وقدّم الرجل عليها رغم أنه خصها ببعض الفنون والأعمال، فهي برأيه تصلح للأعمال المنزلية. كذلك فإن ارسطو اعتبرها أقل عقلا من الرجل، وخصهـا بمسؤوليات رعاية الأولاد وتدبير المنزل بإشراف الرجل. أما ابن سينا، فاعتبـر المرأة واهيـة العقل ميالة للهوى والغضب، أقل عقلا من الرجل و مملوكة له، شديدة التلون والتغير(٢٦).

وهكذا يقر عنصر المعالي بضرورة الزواج والعلاقة العائلية رغم ما يعتري المرأة من نقص وقصور، هدفه حفظ توازن المجتمع، ومنع أسباب الفرقة والطلاق التي من شأنها إذا استشرت أن تهدم كيان العائلة، وتحدث الصدع والخلل في الدين وفي الأخلاق والانساب والمواريث. ولتلافي الكارثة يقترح الكاتب مراعاة الأمور التالية قبل وخلال العلاقة الزوجية.

أولاً: للجمال الخارجي شأن عند قابوس فالإنسان برأيه أسير مشاعره وعواطفه، فالذوق الحسن يأبه من الدمامة ويتأفف من سوء انسجام الأعضاء وعدم تنـاسق الجسم، سواء كان الإنسان رجلاً أو امرأة. وطالما أن المرأة للتمتع عوضـاً عن

---

(٢٥) عينه، ص ٣٢٦.

(٢٦) ابن سينا، الشفاء (الإلهيات) تحقيـق إبراهيم مدكور، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، د. ت، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

كونها مربية وحاضنة، فإن شرط الجمال فيها مسألة ملحة برأي قابوس، وقد أوضح ذلك بقوله: يجب أن تكون «عطوفة وحسناء الوجه ومحمودة»[٢٧] فالحسن يغبط القلب ويسر النفس ويبعث على الشهوة، ويزيد الإلفة بين الزوجين خصوصاً إن اقترن جمالها الجسدي الظاهر بطهارة داخلية وإيمان عميق.

ثانياً: يشدد الكاتب على زواج الفتاة البكر «وينبغي أن تتزوج العذراء حتى لا يكون في قلبها حب لشخص آخر»[٢٨]، فالبكارة تبعث على المحبة والعطف في الزوجة فتقبل زوجها وتخلص له شريكاً وحيداً لحياتها، بينما زواج المطلقة أو الأرملة يكون زواج مصلحة عند كلا الزوجين اللذين اندثرت عاطفتهما وتجمد قلباهما أثر انكشاف كل منهما على شخص آخر، وقد كان الكاتب في هذه القضية منطقياً مع نفسه ومنسجماً مع الواقع عندما اعتبر البكارة شرطاً للسعادة الزوجية، فالإسلام لم يبح الإختلاط قبل الزواج ولم يسمح بالعلاقات الجنسية الإباحية بين الزوجين وقد جاء في الحديث النبوي الشريف «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي رحم محرّم»[٢٩].

وهكذا فإن مجتمع الكاتب، رغم ما اعتراه من فساد وانحلال أخلاقي بفعل العناصر الفارسية والرومية والهندية، ظل أسير الفكر الديني المحافظ وحظر على المرأة التبرج والإختلاط بالجنس الآخر، وليس هذا غريباً فإننا ما زلنا في الوقت الحاضر رغم التطور في المفاهيم والعادات نشهد عند السلفيين حالات من الزواج على النحو الذي ساد في العصر الوسيط.

ثالثاً: على الزوج أن يحسن اختيار شريكته، بحيث توازيه في السلم الطبقي فلا تكون أقل شأناً منه ولا أكثر ثراء وغنى «فلا تتزوج امرأة أعلى منك شأناً»[٣٠] لأن تفوق المرأة على الزوج يقلب المعايير ويجعل المرأة سيدة البيت سليطة على

---

(٢٧) قابوس نامه، ص ٣٢٥.

(٢٨) عينه، ص ٣٢٥.

(٢٩) النووى، رياض الصالحين ، ص ٢٦٧.

(٣٠) قابوس نامه، ٣٢٥.

الرجل، فيصبح أسيرها ينفذ أوامرها، أو يحتدم النزاع الذي يفضي إلى الفرقة والطلاق. وفي الواقع إن كلا الأمرين منافيان للشريعة التي رفعت من شأن الرجل، وجعلته سيداً وراعياً لأهله وولده، وباتت المرأة في ظل الدين معينة للرجل.

ولهذا جعل الكاتب الزواج المتكافىء ضرورة ملحة لسلامة ونجاح العلاقة الزوجية وأضحى اختيار الزوجة تبعاً للسلم الطبقي والإجتماعي شرطاً ضرورياً بين المتزوجين تلافياً لضرر تسلط المرأة على الزوج، كذلك حذر من زواج المصلحة لا سيما الطمع في مال الزوجة وملكها «إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة وانظر في أمرها» فغاية الزواج تفوق كل منفعة ومصلحة مادية.

وتظهر المسحة الدينية عند الكاتب من جديد فنجده يأخذ بأصول الشرع فيمنح الزوجة الحرية في التصرف في ملكها ومالها دون أن يكون للزوج حق في مشاطرتها ذلك الملك والمال، ولا يرى المال وحده مصدراً لتسلط المرأة في جميع الأحوال، بل أن سوء الخلق الناتج عن ظروف بيئية واجتماعية سبب في انحرافها، لذلك يدعو قابوس إلى زواج المرأة المتواضعة خفيفة الظل رهيفة الحس مكسورة الجناح، ويحذر من السليطة قائلاً: «وَفِرّمن يد المرأة السليطة».

رابعاً: على الزوج أن يحسن سياسة زوجته، فلا يظلمها ولا يتشدد معها إلى الحد الذي يفقدها صوابها، فتتمرد عليه وتطلب الطلاق والفرقة، فإن واجبه أن يشبع رغباتها ويسد حاجاتها ويحفظ كرامتها ويأتمنها على ماله وملكه وعياله، لتكون مطمئنة ووفية «إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها وإن يكن المال عزيزاً فليس بأعز من المرأة والوالد»[٣١]، فالمرأة لا تحفظ النعمة ولا تصون الملك والمال إذا قصّر زوجها في الإنفاق عليها، وجعل يده مغلولة إلى عنقه، إنها شريك الرجل في ملكه وماله وفي مسؤولية إنجاب الأولاد وتربيتهم.

ومن شروط الزواج الناجح تبادل العاطفة بين الطرفين، فالحب ينمي علاقات التعاون المتبادل ويجعل الزوجة مطيعة وفية واثقة بزوجها حريصة على البيت، لهذا دعا الكاتب الزوج قائلاً: «فلا تحب نفسك أكثر منها»[٣٢]. وليسوس

---

(٣١) عينه، ص ٣٢٥.

(٣٢) عينه، ص ٣٢٦.

الرجل زوجته بحكمة، فلا مناص من شرط الإعتدال في المعاملة «فلا تسلم نفسك لها كلية»[٣٣]، ولا تتشدد إلى الحد الذي ينغّص عيشها ويفقدها صوابها، كذلك فإن التساهل معها أشد خطراً عليها وعلى العائلة من أمر التشدد، فقد تظن سوءاً بزوجها ويهون في نظرها وتجرؤ على مخالفته وتعصى أوامره، وقد تتمادى في غيها فتتسلط على ماله وملكه وتحرمه حقه في تدبير البيت وتنظيم المعاش، لذلك حذر قابوس من إستيلاء المرأة على مال زوجها بقوله: لا تدعها «فستتولى على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكاً له» حتى لا تفسد النعمة وتبدد الثروة.

خامساً: على الزوج أن يراعي عاطفة المرأة ومشاعرها الرقيقة، فيسعدها دائماً ويبعث فيها الأمل والثقة، ويلفها بعطفه وحنانه ولا يغيرها أو يثير شكوكها «واجتهد أن لا تغيرها بأي وجه» إنها شديدة التأثر ميالة إلى الهوى سريعة التقلب، فإن إغارتها وتجسس باطنها بواعث تفسدها بحيث تتبرج وتتزين وتتغاوى بين الرجال، فتفسد أخلاقها وتنحرف في مسلكها «إغارة النساء تعلمهن الغواية». ويقبل الكاتب بقسط من الغيرة، بهدف استمرار العاطفة وتوثيق الروابط العائلية يقول: «وارع شرط الغيرة ولا تعد الرجل الذي لا يغار رجلاً»[٣٤]، فالغيرة الشديدة وإن كانت قاتلة في أغلب الأحيان مفسدة للعاطفة، فإن القليل منها نافع، فالداء يصلح كدواء في كثير من الأحوال.

٢ ـ سياسة الولد والبنت، التربية والتعليم (رياضة الصبيان):

احتل موضوع التربية وإعداد النشء مكانة هامة في الفكر الإنساني القديم والمعاصر[٣٥] نظراً لأهمية الإنسان ودوره في بناء المجتمع وتطور الحياة البشرية. ويعتبر الفكر اليوناني من أهم منابع الفلسفة التربوية والسياسة الإجتماعية، فأفلاطون هو خير منظّر في شؤون التربية والتعليم، يظهر ذلك من خلال المنهج

(٣٣) عينه، ص ٣٢٥.

(٣٤) عينه، ص ٣٢٦.

(٣٥) قا: علي زيعور، التربية وعلم النفس الولد في الذات العربية، المرجع السابق، ص ٢٤١ وما بعدها.

التربوي المتكامل الذي وضعه بهدف إعداد المواطن الفاضل والدولة العادلة.

واهتم فلاسفة المسلمين أيضاً بمسألة التربية والتعليم، فنسجوا على منوال الفلسفة الإغريقية، لكنهم صبغوا أبحاثهم بصبغة دينية إسلامية، برز ذلك بوضوح عند جمع غفير من رواد الفكر الفلسفي الإسلامي أمثال ابن سحنون وابن سينا والغزالي وابن خلدون، وابن أبي الربيع[٣٦] وسواهم.

واهتم كيكاوس بموضوع التربية وسياسة الأولاد، وتناول في معظم فصول كتابه «قابوس نامه» السياسة الأهلية بما فيها رعاية الأولاد (الصبيان والبنات).

ويجدر بنا الإشارة قبل التفصيل في الفلسفة العملية والتدبير المنزلي عند قابوس أن نذكِّر بموقفي الفلسفة الإغريقية والإسلامية.

نظرية أفلاطون التربوية: جعل أفلاطون التربية في أربع مراحل:

تبدأ المرحلة الأولى، منذ الولادة وتستمر حتى الثامنة عشرة، يتلقى الأولاد طوعاً من كلا الجنسين الفنون والآداب والرياضة البدنية لتشتد سواعدهم وتتنامى قواهم الجسدية والعقلية، ويطّلعوا على القصص البريئة باستثناء قصص وأشعار هوميروس وهزيود، التي تشوه برأي أفلاطون أفكار الشباب وتطفىء نور الحرية في نفوسهم.

وتستمر المرحلة الثانية سنتين وحتى العشرين، يزاول فيها الأولاد الأحرار الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية منقطعين كلية عن الدروس النظرية. وما تكاد تنتهي هذه المرحلة حتى تبدأ المرحلة الثالثة بعودة الأولاد لمزاولة العلوم العقلية، والحساب والهندسة التي تهيىء عقولهم للبحث واستيعاب الفكر الفلسفي.

أما المرحلة الرابعة فتبدأ ببلوغ الشبان سن الثلاثين فيوزعون مجموعات،

---

(٣٦) را: الأهواني، التربية في الإسلام، القاهرة، ١٩٦٨، دار المعارف، ص ٢٦٧ - ٣٤٩ و ٣٥٣. رسالة أيها الولد، للغزالي. را. أيضاً: السياسة الأهلية، لابن سينا، وأيضاً: مقدمة ابن خلدون دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ص ٥٣٧ وما بعدها. سلوك المالك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع تحقيق ناجي التكريتي، دار الأندلس، بيروت، ط ـ٢، ١٩٨٠، ص ١٥٥ - ١٥٧.

ويُقدم أصحاب الكفاءة الفلسفية على سواهم، كالـذين يتوفر فيهم روح الحق وشـرف النفس وضعف الشهوة، ويجبـرون ولمدة خمس سنـوات، على دراسة الفلسفة والبحث العقلي، ثم يعهد إليهم بالوظائف العسكرية والإدارية وهم في سن الخمسين، فيرقى المتفوقون إلى مرتبة الحكام والحراس.

وهكذا يتضح لنا أن الإنسان الفرد هو محور فلسفة أفلاطون، فهو في تتبعه لمراحل التربية ينشد إعداد الحاكم الفيلسوف الذي من شأنـه أن يلقن الفضيلة للناس ويبني المدينة الفاضلة، ذلك الفيلسوف الذي أعد خلال مراحـل تربيتـه ليصبح إنساناً راجح العقل خلّاقاً، نبيل العواطف صادق الطوية[٣٧].

التربية والتعليم في الفلسفة الإسلامية:

يعتبر ابن سينا من أبرز المفكرين الإجتماعيين الذين اهتموا بموضوع التربية والتعليم، فقد عني بريـاضة الصبيـان وبمراحـل تربيـة الولـد منذ ولادتـه وحتى النضوج، وكانت غايته تنظيم المجتمع من خـلال ترسيـخ الإيمان والفضيلة في نفوس المواطنين.

لقد اهتم ابن سينا بالمرحلة الأولى من حياة الطفل، فإشار إلى ضرورة اختيار مرضعة عاقلة، صحيحة الجسم والأعضاء «لا تكون حمقـاء ولا ورهاء»[٣٨] ولا ذات عاهة»[٣٩] حتى لا يصاب الطفل بعاهة أو يضطرب سلوكه خلال مراحل نموه المقبل، لأن فساد اللبن معدٍ وأثره على الولد لا يقل خطراً عن سوء التأديب فيما لو ساء خلق المؤدب. لهذا شدد ابن سينا على اختيار المعلم والمؤدب الفاضل في المرحلة التالية من عمر الطفل لأنه المسؤول عن غرس الفضيلة في الصبي وبعث العلم والكمال فيه وتحريره من العيوب وسوء الأدب، بوسائل مختلفة كالترغيب أو الترهيب والإيناس أو الإيحاش.

ومسؤولية المؤدب في المرحلة الأولى من حياة الطفل تنحصر في تلقين الولد

---

(٣٧) را: أفـلاطون الجمهـورية (نقـله إلـى العربيـة حنا خبـاز) دار التراث العـربي، بيروت ١٩٦٩ ص ١٤٦ ـ ١٤٧، ١٥٠، ١٦٠، ١٧٤.

(٣٨) ورهاء: حمقاء.

(٣٩) السياسات الأهلية، ص ٣٥ ـ٣٦.

القراءة والكتابة، وحفظ القرآن والشعر والأدب والحساب والهندسة والطب، ثم الرسائل والخطب(٤٠).

وأشار ابن سينا إلى التعليم العام والإفرادي (٤١)، وركزّ على منهجية علمية دقيقة في البحث والتعليم آخذاً بعين الإعتبار قدرات الأولاد واستعداداتهم العقلية والفروق الفردية فيما بينهم، ودعا للإنتقال من السهل إلى الصعب «الرجز ثم القصيدة»(٤٢)، ولم يغب عنه موضوع التخلف العقلي والقصور الذهني الذي يحكم فريقاً من الناس، فهو ينصح بوضع هؤلاء المعاقين في مراكز للرعاية الإجتماعية بدلاً من إعدامهم والتخلص منهم وفق النظرية الأفلاطونية.

وهكذا يتجلى الإيمان عند ابن سينا، ويظهر مدى حرصه واصالته الإسلامية فهو يحترم الحياة بعكس أفلاطون الذي يعتبر الناس أشكالاً هندسية أو حروفاً أبجدية يرتبها كيف يشاء ووفق ما يشاء.

والجدير بالذكر أن ابن سينا، وهو بصدد حديثه عن التربية، لم يعط البنت أية أهمية تذكر ولم يهتم بتربيتها وتعليمها بينما أفلاطون وعنصر المعالي، أخضعا كلا الجنيسين للعملية التربوية وجعلاهما مادة التربية والتعليم والتأديب.

آراء قابوس في التربية والتعليم (رياضة الصبيان):

تبدأ عملية التربية عند قابوس منذ الولادة وحتى الرشد والنضوج وهي على مراحل ثلاث: المرحلة الأولى منذ الولادة وتستمر حتى مرحلة ما قبل البلوغ لسن العاشرة تقريباً، والمرحلة الثانية تبدأ من سن السابعة إلى ما قبل المراهقة، وتكون المرحلة الثالثة منذ المراهقة وحتى الرشد.

المرحلة الأولى: (أول الولادة وحتى ما قبل العاشرة):

يكون الطفل في هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى العناية والرعاية، فهو لا يستطيع التحكم في ذاته ولا تلبية حاجاته، لذلك كان لزاماً على الأهل الإهتمام

---

(٤٠) عينه، ص ٣٩.

(٤١) ابن سينا، السياسات الأهلية، ص ٣٨.

(٤٢) السياسات الأهلية، ص ٣٧.

بالولد والإشراف عليه باستمرار وتأديبه. ويحدد الكاتب واجبات الأهل والمربين تجاه الأولاد بما يلي:

أ ـ على الوالدين أن يحسنا اختيار إسم المولود «ومن جملة حق الأبناء على الآباء، أن تسميهم بأسماء حسنة» تيمناً وتبركاً بالمسمى.

ب ـ يجب أن يودع الوالدان الطفل «المرضعات العاملات والعطوفات»(٤٣) من أجل أن ينمو الطفل على حب الفضيلة والمثل العليا، ويبقى سليم الجسم والعقل فلا يعاني من العقد والإضطرابات النفسية. وما يبرر موقف الكاتب هو أن الطفل يكون شديد التأثر بكل ما يعرض عليه خلال سنوات عمره الأولى، فهو كالصفحة البيضاء، ولذلك وخشية أن تهجم على الطفل الأخلاق اللئيمة والشيم الذميمة، ينصح الكاتب الأهل باختيار المرضعة الفاضلة ليسلم الولد وينجو من العقد والآثام.

ج ـ يجب ختان الأولاد قبل انتهاء المرحلة الأولى من عمر الطفل «وان تختنه في وقت الختان» عملاً بأمر الشرع، فالختان شرط ضروري للصحة والسلامة البدنية ولون من ألوان الطهارة. ويقترح قابوس أن يحتفل بمناسبة الختان، فيدعى الناس إلى حضور حفلة يقدم خلالها الطعام والحلوى «ويلزم أن تولم. . . وليمة ذات رونق وبهجة في ذاك الختان»(٤٤).

المرحلة الثانية: (من سن السابعة وحتى ما قبل المراهقة):

خلال هذه المرحلة تتنامى استعدادات الطفل وتشتد قواه البدنية ويصبح مؤهلاً لإكتساب الفنون والعلوم العملية المختلفة. أما شروط اكتساب العلم في هذه المرحلة فقد حددها بما يلي:

١ ـ يجب أن يوفَّر للمتعلم جميع الأدوات والكتب والوسائل اللازمة خلال التعليم، فيكون معه دائماً الكتب الوافرة والقلم والمبراة والمقلمة والمحبرة والسكين والفرجار وقلم الجدول والمسطرة.

---

(٤٣) قابوس نامه، ص ٣٢٧.

(٤٤) عينه، ص ٣٢٧.

٢ ـ على المتعلم أن يكون جريئاً «غير خجول وعارفاً لحق الأستاذ» ويقبل على العلم دون تردد أو خوف، يسجل كل ما يسمعه ويتفحص ويدقق ويستخدم عقله في حل المسائل من غير تقليد(٤٥).

٣ ـ يجب أن يقدر التلميذ أستاذه، ويجله ويحترمه «[وكن] محباً للعلماء»(٤٦).

٤ ـ على المتعلم أن يجدَّ في التعلم فلا يتوانى ولا يتردد في اكتساب العلم مهما كان نوعه «فكن متعففاً وقانعاً ومحباً للعلم» فاقتناع المتعلم بضرورة العلم ورغبته في اكتساب المعارف حافزان مهمان للمتعلم.

٥ ـ على المتعلم أن يكون يقظاً شديد الإنتباه، قوي الذاكرة كثير الجد، لا يلهو وقت الدراسة «حريصاً في الكتابة والدراسة ومتواضعاً وغير ملول من العمل وحافظاً ومكرراً للكلام»(٤٧) فذلك يوقظ عقل المتعلم وينبهه ويساعده على التذكر وسرعة الفهم، ويثبت المعلومات في ذهنه مما يمكنه بعدئذ من استرجاع ما تعلمه ساعة يشاء دونما إجهاد. وبتوافر تلك الشروط يصبح المتعلم أهلاً للتعلم، وجاهزاً لاستقبال ما هو بصدد تعلمه.

ويوضح الكاتب أن العلوم ليست على درجة واحدة، فمنها السهل ومنها المعقد، وقد يسهل بعضها على الصبي في مرحلة ما، ويصعب عليه في مرحلة ثانية، بمعنى أن التعليم يرتبط بمدى نضوج الولد وتكامل قدراته واستعداداته العقلية والجسدية.

ويوزع الكاتب منهجه التعليمي خلال المرحلة الثانية على النحو التالي:

أولاً: يعلم الطفل القرآن «فعلمه القرآن ليكون حافظاً» فحفظ القرآن يعرفه بالقراءة والكتابة ويكسب الولد الأخلاق النبيلة والقيم السامية.

---

(٤٥) قابوس نامه، ص ٣٤٨.

(٤٦) عينه، ص ٣٤٧.

(٤٧) عينه، ص ٣٤٨.

ثانياً: وعندما تشتد مفاصل الولد وتقسو عظامه، يعلم الفروسية وحمل السلاح، فهذه المعارف باعتقادنا كانت وسيلة توفر للشبان فرص العمل في البلاطات وفي جيوش الملوك والسلاطين، وتساعد الفرسان على تأمين الحماية والأمن لأنفسهم.

ثالثاً: في العاشرة من عمر الولد يعلم السباحة «وإذا فرغ من السلاح فعلمه السباحة»(٤٨)، لتقوى مفاصله وتنمو قدراته العضوية، ووقاية له من الأخطار التي قد تعترضه في حياته. ولا يتحدث الكاتب عن فن السباحة عرضاً وإنما يوليها أهمية كبرى ويقدمها على فنون ضرب الصولجان ولعب الطبطاب وغيرها من الفنون الرفيعة، فهي إضافة إلى أنها فن جميل وهواية محببة عند الناس، ذات فائدة عملية للشخص الذي يمارس السباحة يقول: «الفن الذي يلزمه القيام به من أجل نفسه ولا يقوم به أي شخص من أجله... هو السباحة»(٤٩).

المرحلة الثالثة: (تمتد من المراهقة وحتى الرشد):

ولا يكاد يدخل الولد هذه المرحلة حتى تكتمل أعضاؤه وينضج عقله، فيصبح قادراً على الإنتاج، وتظهر لديه ميول جنسية تحفزه لطلب الزواج. وتصعب هنا مسؤولية المؤدب والأهل إذ يصبح لزاماً عليهم تأمل الفتى محاولين كشف خفاياه وقدراته، فإن كان مستقيماً في سلوكه ناضجاً وجاداً في عمله وعاقلاً في تدبيره، وجب تزويجه واختيار شريكة فاضلة مؤمنة تليق به «أما إذا بلغ الصبي فتأمله، فإذا كان صالحاً وله ميل للزواج، وتعرف انه يستطيع القيام بعمل ويمكنه الحصول منه على شيء تتوسم فيه الأكبار فدبر زواجه وزوجه»(٤٩).

قوانين زواج الشاب:

الزواج مسؤولية كبرى، والخلل فيها يولد الريبة ويوقع الخلاف ويهدم المجتمع والأسرة ويشرد الأولاد، لذا لا بد من توافر شروط الكمال في الزواج إذ لا يصح زواج فاسد الأخلاق والجاهل والقاصر لكي لا تضطرب الأحوال ويجنى على

---

(٤٨) قابوس نامه، ص ٣٢٧.

(٤٩) عينه، ص ٣٢٧.

البنات المسلمات، وقد قال قابوس: «فلا تلق بابنه مسلم في البلاء». ويتضح من خلال هذا الموقف أن الكاتب لا يقبل بزواج الأجنبيات إنطلاقاً من موقف ديني مفاده ان المؤمنة المسلمة خير وأبرك لا سيما إن تتلمذت على الإيمان والفضيلة ومبادىء الأخلاق، فهذه أكفأ لتربية الأولاد وإعداد النشء إعداداً صالحاً، وتصلح لتعليم أولادها أصول الدين ومبادىء الشرع.

ويحذر الكاتب أيضاً من زواج الأقارب «ولا تصاهر الأقـارب» منطلقاً من مبدأ قائل بأن الطبيعة البشرية تنزع نحو الغريب والبعيد والمحجـوب وتأنف من سهل المنال والمألوف، فالقريبة لا تثير الشهـوة الجنسية والمتعـة حسب اعتقاد الكاتب «فإنهن مثل لحمك» (٥٠) كذلك فإن زواج الأقارب يورث الخلل العضوي ويؤدي إلى تشويه الولادات.

ويلح الكاتب أيضاً على زواج الأبعدين والغرباء لأسباب سياسية وعسكرية، فـالغريبـة تقرّب المتبـاعدين، وتـزيد الغنى والثـروة وتقوى الأحـلاف والقـربى والسلطان يقول: «فاخطب من قبيلة أخرى حتى تكون قد جعلت القريب قريباً وتصير القوة الواحدة قوتين»(٥١). والواقع إن الزواج وفق هذا المنظور، هو زواج انتقائي اراده الكاتب في العائلات الحاكمة وفي أوساط الأرستقراطيين.

دور المؤدب والوالدين في العلمية التربوية:

لم يغب عن بال قابوس تحديد دور المؤدب وعلاقته بالولد ووالديه، فقد عنى بالموضوع عناية كافية، وأطلق يد المعلم في تأديب الولد محذراً الأهل من التدخل لأن التعليم برأيه لا يكون طوعاً وبالطبع وإنما بالإكراه في أغلب الأحـوال «الصبي يتعلم العلم والفضل والأدب بالعصا لا بالطبع»، ويرى الكاتب أن تدخل الأهل بحجة العـطف والشفقة ـ قـد يؤذي المتعلم ويكون تـوسطهم سـداً يمنع المؤدب من أداء واجبه، ويبيح للصبي التجـاوز والتخلف فعملية التـربية وحـدة متكاملة تبدأ بالمؤدب وتنتهى بالأهل.

(٥٠) عينه، ص ٣٣٠.

(٥١) عينه، ص٣٣٠.

ولا يقل دور الوالدين أهمية عن دور المؤدب فهما المبدأ والأساس، خصوصاً إن اتبعوا خطى المؤدب وقسوا على الإبن عند التأديب بحيث لا تتسع الهوة بينهم وبين أبنائهم، ولا يحقد الأبناء عليهم . فالشدة الشديدة من غير جرم تفسد الإنسان وتصدع شخصيته، ولا يعود لعملية التربية بعدئذ فاعلية وجدوى. لذلك دعا قابوس إلى الإعتدال في التعامل مع الأبناء وعدم الإفراط في العاطفة بقوله: «إذا تأتى من الصبي سوء أدب وغضبت منه فلا تضربه بيدك، وخوفه بالمعلمين. . . حتى لا يبقى في قلبه بغضك»(٥٢) فغاية التربية إعداد المواطن الصالح والإبن البار الذي يقدس الفضيلة .

ويشدد الكاتب على أن يكون للأهل هيبة ورهبة عند الأولاد (٥٣) ، فذلك يكفل استقامة الأبناء وخفض الجناح ، وطاعة الوالدين واحترامهم مهما جاروا أو قسوا . والتأديب برأي قابوس يكون بالترهيب حيناً وبالترغيب حيناً آخر، وذلك بإكرام الولد بهدية أو مال «ولا تضن عليه بالقدر الذي يلزمه من المال» (٥٤) فالإكرام يبادل بالإحترام ، ويبعث الود والرأفة عند الصبي ، فيوافق والديه ويطيع أوامرهم .

تربية البنات وتأديبهن:

نحا قابوس منحى الفلسفة الإغريقية في موضوع تربية الفتاة، وكان أيضاً من بين المفكرين المسلمين القلائل الذين عالجوا موضوع المرأة ونظروا في أمر تربيتها وتأديبها ، وقد ساوى الأنثى بالذكر، وأعطاها الحق في الحياة والعناية والرعاية والتأديب، مستلهماً آراءه من الفكر الديني ومن الواقع الإجتماعي، فالإسلام ساوى بين المرأة والرجل أمام الله، لكنه لم يساوِ بينها وبين الرجل أمام القانون، فرفع من شأن المرأة، وأعطى الزوج الحق في وعظها وهجرها وتقويم اعوجاجها، وأباح له تعدد الزوجات شرط أن لا يجاوز الأربع .

وكما برز الأثر الإسلامي بوضوح عند قابوس في موضوع المرأة، برز أيضاً

(٥٢) عينه، ص ٣٢٨.

(٥٣) عينه، ص ٣٢٨.

(٥٤) عينه، ص ٣٢٨.

الأثر اليوناني، وسار الكاتب على خطى أفلاطون الذي جعل المرأة مساوية للرجل في القدرات والإستعدادات والميول. وظهرت الملامح الإسلامية بادىء ذي بدء عند قابوس في تبنيه لما ذهبت إليه الشريعة في موضوع البنت، وأول ما توقف عنده هو مسألة العناية بها ورعايتها وتأديبها، فلم يهملها، واعتبر عطف والديها عليها حقاً من حقوقها، وطالب بأخذها بالرأفة واللين وبتدبير شأنها والحرص على حياتها، وذلك باختيار مرضعة عطوف ترضعها، لا تكون حمقاء ولا ذات عاهة، فاللبن مُعدٍ وقد يورث مرضاً لا يمكن الشفاء منه.

وأوصى الكاتب باختيار المعلم الكفء والمؤدب الفاضل والمربي العطوف فهؤلاء هم منبع الفضيلة ومكارم الأخلاق، ومن شأنهم أن يعلموا البنت علوم الدين والعقائد وأصول الشريعة، بعدما تكون قد بلغت في نموها العقلي قدراً يسمح لها باكتساب العلم وتذكر المعلومات. وتقترن التربية الحسنة عند قابوس بالعطف والشفقة، فذلك يبعث على الإتزان العقلي والإنفعالي لدى الأطفال، وينمي المشاعر الرقيقة والأذواق الرفيعة، في حين أن الحدة في التعامل وسوء العلاقات والإنفعال المفرط مع الأولاد، يبعث الحقد فيهم ويعلمهم المشاكسة والعدوان.

ورغم أن المرأة مساوية للرجل في العقل والإستعدادات، فالكاتب لا يطبق عليها منهجه التربوي كاملاً، بل يخصّها ببعض أصناف العلوم، كعلوم الشرع وأصول الفرائض «فتلك العلوم تردعها عن الخطيئة واقتحام المحرمات وتساعدها على تربية الأولاد تربية دينية».

ويحذر قابوس من تعليم البنت العلوم العملية والفنون «لا تعلمها الكتابة فتكون الآفة الكبرى» ولا يسمح لها بالإختلاط بالجنس الآخر وبالخروج من البيت، ويشدد باستمرار على ضرورة تسترها وحجابها، بحجة أن المرأة ضعيفة العقل منهكة القوى. كما أنه يرفض تماماً أن تعمل المرأة خارج البيت بحجة أنها لا تستطيع القيام بأي عمل. وفي مقابل ذلك يقول بضرورة توفير كفايتها من المال، فهي ضعيفة واهية العقل والقوى ومسكينة حسب تعبيره.

كذلك فهو يشدد على ضرورة تزويجها فور بلوغها زوجاً صالحاً ليكون لها سنداً «وإذا كبرت فاجتهد أن تزوجها سريعاً» لأن في ذلك خلاصها وطمأنينتها،

وإلا فإن الموت لها ستر ورحمة «وإذا كانت [الفتاة] فمن الخير أن تكون مع الزوج أو في القبر»[٥٥].

أصول الزواج الناجح:

الزواج شرعة دينية، هدفها التكاثر والتوالد وستر المرأة ومنع التعدي والتجاوز واقتحام المحرمات. ورغم أن الشريعة تحض على الزواج وتباركه، فهي لا تسمح بتزويج الفتاة من أي شاب، لأن الزواج غير المتكافىء هو شر على الزوجين نفسيهما، وعلى الأولاد وعلى المجتمع في وقت معاً.

أما شروط الزواج المتكافىء فيحددها قابوس بما يلي:

أولاً: يجب أن يكون الزوج «حسن الوجه لأن البنت الحسناء لا تعطي قلبها للزوج الدميم» فالجمال المتناسب والإستحسان شرطان ضروريان في الزواج، سيما وأن النفس الإنسانية تتأفف بطبعها من القبح، ولا يستهوي القلب غير الجميل.

ثانياً: على الزوج أن يكون «ديِّنا ومن أصل طاهر وصالحاً ومن سلالة الأكابر»[٥٦] فالدين رادع للزوج والزوجة عن الخطيئة، وحافز لهما على الفضيلة وحسن السيرة، كما أن شرف النسب ضروري من أجل المحافظة على تماسك الأسرة وتربية الأبناء، والتحلي بالفضيلة والإستقامة.

ثالثاً: «يجب أن يكون صهرك أقل منك ليفخر هو بك لا أنت به» وذلك بهدف تحقيق التوازن بين الزوجين، فلا يتحكم الواحد بالآخر، ولا يعتدي الزوج على الزوجة الأمر الذي يسبب الفرقة والطلاق.

رابعاً: يحذر قابوس من زواج المصلحة «فلا تطلب منه شيئاً [الزوج] ولا تكن بائع البنت»[٥٧] فذلك يجعل الزوج جسوراً على أهل زوجته، ويستهين بقدر شريكته ولا يرتدع عن الإساءة إليها، ولا يعود يعبأ بوالديها وبأقوالها، الأمر

---

(٥٥) عينه، ص ٣٣٠.

(٥٦) عينه، ص ٣٣٢.

(٥٧) عينه، ص ٣٣٢.

الذي يفضي لا محالة إلى الخصام والصدام والفرقة.

سياسة العبيد والخدم:

نشأ نظام الإسترقاق عن الأسر والإتجار بأسرى الحروب، ونشط نظام الرق في بلاد الإغريق بعد أن اجمعت الفلسفة اليونانية على ضرورة العبودية، فقسّم أفلاطون وأرسطو الجنس البشري قسمين: حر بالطبع ورقيق بالطبع، واعتبروا القسم الثاني سبباً وآلة للأول. وكان الرق نظاماً ضرورياً في اعتقاد أرسطو، وإن العبد في نظره آلة ضرورية للقيام بأعمال الدولة، التي تهدف لتحقيق أمن واستقرار ورفاهية المجتمع.

واسترق اليهود أسرى الحروب [٥٨] وكانوا يبيعونهم بيع المتاع ويستخدمونهم للخدمة في المنازل والحقول والمزارع، كذلك ازدهرت تجارة الرقيق في الجاهلية وتعددت أسواق النخاسين ونشطت مهمة النخاسة.

وبظهور الدعوة الإسلامية تقلص نظام الرق ولم يُلغ تماماً، وعنى الإسلام بالأسرى عناية فائقة وحدَّ من عبوديتهم بما شملهم من عدل ورحمة[٤٨] وفي القرآن آيات وتشريعات من شأنها تحرير العبد إن اعتنق الإسلام.

رغم هذا كله راجت تجارة الرقيق في أرجاء الدولة الإسلامية، واعتبرت العبودية أمراً طبيعياً مما أفسح في المجال أمام الحكام والفئات الإجتماعية الميسورة لاقتناء أعداد هائلة من العبيد والخدم الزنوج بعد أن جيء بهم من القارة السوداء، فتكاثروا وتآمروا فيما بعد وأحدثوا ثورة عارمة في القرن الثالث الهجري عرفت بثورة الزنج[٥٩].

وتعامل العرب أيضاً بالرقيق الأبيض كالترك والصقالبة الذين استقدموا من أواسط آسيا[٦٠]، وقد عومل العبيد من كلا الجنسين الأبيض والأسود في دولة

---

(٥٨) قا: حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٣٠١.

(٥٩) عينه، ص ٣٠٢.

(٦٠) متز، الحضارة الإسلامية، مج ١، ص ٢٦٨.

الإسلام أفضل مما عوملوا به في مجتمعات أخرى،(٦١) ذلك لان الدين الإسلامي أباح زواج الإماء **﴿ومن لم يستطع منكم طولاً ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾**(٦٢) وأعطى الأمة حق الحرية إن مات سيدها، وجعل أولاد الإماء أحراراً، كماساوى الإسلام بين المرأة والرجل والأبيض والأسود والحاكم والمحكوم، وبين اليهود والنصارى، وجعل المؤمنين أخوة لا فرق بينهم إلا في مدى ولائهم للشريعة **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٦٣) وأتسع نفوذ العبيد وازدادت مكانتهم أهمية وقدراً بسبب ضعف السلطة المركزية، فكوّنوا طبقة اجتماعية استطاعت ان تملك زمام الأمور في العالم الإسلامي خصوصاً في مصر بعد أن عنى بهم الأيوبيون وعلموهم علوم العصر النظرية والتطبيقية، فصاروا أصحاب جدارة وتقلدوا المناصب العامة، وكونوا حاشية السلطان(٦٤) وأسسوا فيما بعد دولة المماليك(٦٥).

وازداد شأن العبيد خلال العصر العباسي بعدما اهتم الخلفاء بالرقيق وولعوا بالجواري، فاختلطوا بهن وتزوجوا منهن إذ كن أوفر جمالاً وعلماً. وقد شجّع التساهل في تطبيق الشريعة وظروف العصر المواتية على اختلاط الناس بالرقيق، واستباح الرجال لأنفسهم مخالطة الجواري والإماء قبل عقود الزواج، وبفعل هذا الإختلاط شاع انتشار الجواري والإماء وتزوج الخلفاء العباسيون منهن، فكانت أم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية(٦٦)، وقد حذا الناس حذو الخلفاء فامتد نفوذ الأعاجم وبلغ شأواً عظيماً، ووصل عدد الرقيق في المجتمع الإسلامي إلى ما لا يمكن حصره.

وهكذا تمكن الرقيق من أن يصبحوا قوة جديرة بالإهتمام في المجتمع

---

(٦١) قا: عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.
(٦٢) القرآن الكريم (سورة النساء)، آية ٢٥.
(٦٣) القرآن الكريم (سورة الحجرات) آية ١٣.
(٦٤) حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، ص ٣١٤.
(٦٥) عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، ص ٩٠.
(٦٦) النظم الإسلامية، ص ٣١٣.

الإسلامي، لا سيما بعد أن فرض الغلمان والعبيد أنفسهم على الخلفاء والسلاطين، وتدخلوا بشؤون الجيش والإدارة. وبنتيجة ذلك إنكب المفكرون الإجتماعيون والمنظرون السياسيون وعلماء الفقه والشرع يدرسون تلك الظاهرة الإجتماعية، حتى بتنا لا نقرأ كتاباً في الفقه أو التاريخ، إلا ونجد أثناء طيناً لصفحاته جوانب هامة تتعلق بالعبيد وأصول التعامل معهم.

واهتم كاتبنا بالموضوع فعرف الرقيق بأجناسهم ووقف على خصائصهم الجسمية والعقلية والنفسية، واستلهم أفكاره من تجاربه العملية ومن احتكاكه بالخدم والعبيد في قصور الأمراء والملوك، وفي داخل الجيوش التي كان قوامها المرتزقة والغلمان والعبيد، الذين انحدروا من جنسيات مختلفة كالتركمان والصقالبة والروس وغيرهم.

ووعى عنصر المعالي بنظام الرق وآثاره على المجتمع الإنساني وتعمق في دراسة الجزئيات وأجناس العبيد المختلفة، فكان موضوعياً في بحثه دقيقاً في دراسته، اعتمد على التجربة والإختبار، فجاءت نتائج أبحاثه يقينية ومطابقة للواقع، لكنه ومن خلال دراسته التحليلية لم يكن يهدف إلى وضع قوانين عامة ومبادىء نظرية لإصلاح نظام الرق والعبودية وتحرير العبيد، لكنه كان يبحث عن السبل التي قد تساعد المرء على سياسة عبيده وإعداده للخدمة بهدف زيادة الثروة والجاه والمدخرات، وليبقى السيد مطمئناً على نفسه وملكه.

١ ـ أجناس العبيد:

صنف عنصر المعالي عبيده تبعاً للأجناس ووقف على خصائص كل جنس منهم، فتحدث عن العنصر التركي والهندي والرومي الأرمني، وفصَّل في المقومات الطبيعية والعضوية والنفسية والإجتماعية لكل جنس، وغاص في أعماق النفس البشرية، فتلمس دقائقها ومزاجها وبين آثارها في سلوك العبد، وكشف مقدار قدراته وخبراته وطبيعة أخلاقه ومنابعها.

أ ـ العنصر التركي: ينحدر الترك من أجناس عديدة، ويشتركون في خصائص جسمانية وعقلية، لكنهم لا يشكلون مجتمعاً واحداً وأمة قومية، فهم أشبه بقبائل متحدة، جمع بينها غدر الزمان وقهر الطبيعة. ورغم اشتراك الترك

في صفات الخَلْق فإنهم أصناف عديدة وقبائل متفرقة كالغز والقبجاق والترقاء والتاتار واليغماء وغير ذلك، يختلفون في القدرات والمفاهيم وأنماط السلوك، بسبب تعدد بيئاتهم المناخية وظروف حياتهم الصعبة. أما خصائص العنصر التركي العضوية فقد أوضحها الكاتب بما يلي قال: «إذا نظرت إلى التركي تفصيلاً، فالرأس كبير والوجه والعينان ضيقتان والأنف مفرطح والشفة والأسنان غير جميلة»(٦٧).

وقد وقف عنصر المعالي على ميزات وخصائص كل فريق، فتبين له أن الغز والقبجاق أسوأ الأجناس أخلاقاً»، وحذر من اقتنائهم والإتجار بهم، فإنهم لا يصلحون للخدمة، لأن شأنهم العصيان والتمرد على أسيادهم ودأبهم سوء الادب واقتحام المخطورات.

أما العنصر الترقائي فمن أشجع العناصر وأشرفها وأكثرها صبراً واحتمالاً للتعب بقوله: «وأشجعهم الترقائي وأكثر الجميع احتمالاً للتعب»(٦٨) ومثل هذا العنصر جدير بالإهتمام فالواحد منهم يدافع عن سيده ويحمي أملاكه ويوفر ثروته.

ويهتم الكاتب أيضاً بجمال منظر العبد ورونقه وتناسق أعضائه، فيفضل في ذلك العبد التركي من العنصر الخلخي والتبتي بقوله: «وأحسن الجميع خلقاً... الختني والخلخي والتبتي»(٦٩).

ب ـ **العنصر الهندي والرومي**: جعل قابوس الهنود في المرتبة الدنيا بين جماعات العبيد والخدم، واستثنى من بينهم العبد البراهمي لما يتحلى به من تعقل واتزان «البراهمي عاقل»(٧٠).

ويميل الهنود إلى الطمع والجشع والإعتداء على الآخرين، وينكرون الجميل أنهم حسب تعبير الكاتب «جهلاء متكبرون ومشاغبون وغير راضين» وقد لا يبالون بأسيادهم ولا يحفظون حرمة ولا عهد.

---

(٦٧) قابوس نامه، ص ٣١٤.
(٦٨) قابوس نامه، ص ٣١٤.
(٦٩) عينه، ص ٣١٤.
(٧٠) عينه، ص ٣١٤.

ويعاني الهنود من التخلف العقلي وقلة الذكاء، فهم برأي قابوس يصلحون للأعمال الشاقة الوضيعة التي لا تتطلب جهداً عقلياً، وهم في الوقت عينه شجعان ويستفاد منهم في القتال والفروسية وأعمال الحرب، كما يصلحون للخدمة في المنازل وفي الأعمال الزراعية.

ويحذر الكاتب من تمادي العبد الهندي وتطاوله، فإنه ظاهر العداوة بذيء اللسان وقح، ولا تأمن منه جارية في البيت(٧١).

ولا يختلف الرومي عن الهندي في سلوكه فهو «سيء الطوية وضعيف الطبع... حريص ومحب للدنيا»(٧٢) ويتهافت على جمع المال والثروة، ولا يأبه بأقوال سيده ولا يرتدع عن أفعاله الشاذة، ويمتاز في الوقت عينه بالصبر والقدرة على الإحتمال وكتمان السر وترقب المستقبل. وهو تواق إلى المجد والشهرة وباحث عن الجاه والثروة حسب قول قابوس، «أنهم صابرون وحسنوا الخلق وميالون للرئاسة... وحافظون لالسنتهم»(٧٣).

ج ـ **العنصر الأرمني**: ليس الأرمن أحسن حالاً من باقي الأجناس، فهم لا يصلحون للخدمة رغم ما يمتازون به من نباهة وذكاء، فالأرمني باعتقاد قابوس «حاد الفهم سريع التعلم» ومن عاداته الكذب والوقاحة وعدم الطاعة «سيء العقل ولص ووقح... وغير مطيع»(٧٤).

د ـ **جنسيات متفرقة**: ومن أجناس العبيد الجنس الالاني والبراهمي والنوبي والحبشي وغيرهم، فالالاني مقدَّم على سواه بشجاعته وحبه لسيده «أكثر شجاعة من الترك وأكثر حباً لسيدهم». ومن أوصافه الحميدة، الذكاء والنباهة وركوب المخاطر وصلاحيته لأعمال الحرب والفروسية، وقد قال قابوس في وصفهم: «لينو الطباع ومطبوعون وسريعو الفهم ومتروون في العمل وقويمو اللسان وشجعان وأدلاء وصالحون للتعلم»(٧٥).

---

(٧١) عينه، ص ٣١٥.

(٧٢) قابوس نامه، ص ٣١٥.

(٧٣) عينه، ص ٣١٥.

(٧٤) عينه، ص ٣١٥.

(٧٥) عينه، ص ٣١٥.

ولا يخلو العبد الالاني من العيوب فهو برأي الكاتب لص وبليد ونمّام ميال إلى العصيان وعدم الصبر(٧٦).

٢ - تصنيف العبيد تبعاً للحاجات والصناعات:

شمل نظام الرق جميع الأجناس دونما تفرقه بين أبيص وأسود وأصفر، فالجميع يشتركون في خصائص نفسية وسلوكية، ويتمايزون في الشكل والمظهر الخارجي، فمنهم قبيح المنظر ومنهم مليح الوجه متناسق الأعضاء. وطالما أن الجميع للخدمة مسخرون، فاختيار الأجمل من بينهم أفضل لمالك العبيد، فالملاحة ترفع من قيمة العبد المادية، وتزيد في الطلب على شرائه. وتكون الملاحة في الوجه والأعضاء، وتكون أيضاً في الأنف «وفي الشفة والأسنان والطراوة في الجلد»(٧٧). وبهذه الأوصاف والخصائص الجمالية، يصلح العبد لأعمال عديدة كالملاهي وحمل السلاح والغناء وغيرها من الأعمال والصناعات والحرف.

ويتدرج العبيد برأي عنصر المعالي بين المهن تبعاً لصفاتهم الخلقية، فالخفيف منهم والجميل لا يصح لسياسة الدواب، ومن يصلح للغناء لا ينفع لخدمة الحريم، ومن يسخّر للخلوة والمعاشرة لا يستخدم لأعمال الطبخ والفراشة.

ويصنف قابوس العبيد تبعاً للمهن والصناعات أيضاً، وقد جاء تصنيفه على النحو التالي:

جعل **خدمة الحريم** من اختصاص العبد الأسود قبيح المنظر بقوله: «وعلامة الغلام الذي يليق بخدمة الحريم أن يكون أسود البشرة وعابس الوجه... ولا يليق أن يكون في عينه رعونة وطراوة فإن مثل هذا إما ولوعاً بالنساء او قواداً». (٧٨) واختيار هذا النوع بالذات من العبيد لخدمة الحريم جاء عند الكاتب كردة فعل ضد الظروف الإجتماعية والسياسية والأخلاقية التي سادت في زمانه، فالكبت والحرمان الذي عانت منه المرأة ولّد فساداً في الأخلاق والقيم وخللاً في مستوى العلاقات

---

(٧٦) عينه، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٧٧) قابوس نامه، ص ٣١٢.

(٧٨) عينه، ص ٣١٣.

الاجتماعية، كذلك فإن انتشار الترف والمجون وشيوع التسري وحب الغلمان والإباحية بالتمتع بالجواري، كل ذلك أثر سلبياً على المجتمع وكاد يهدم البناء الأخلاقي والديني. ومن أجل تدارك تلك الأخطار وتقويم الإعوجاج الحاصل في المجتمع وفي البلاطات السلطانية على وجه الخصوص، رأى قابوس أن يعزل النساء ويمنع اختلاطهم بالرجال، فيما عدا العبد الخصي الأسود، فقد لا يستهوي قلوب النساء لبشاعته واضطراب تكوينه العضوي ولفظاظة طباعه، ويعدد قابوس صفات العبد الأسود بقوله: «غليظ الشفة وأفطس الأنف ونحيل العنق». (٧٩)

وخص الكاتب للغناء والملاهي الغلام الجميل المحمود «ناعم اللحم... ورقيق الأصابع... وناعم الكف ووضيء الوجه (٨٠) لأن الغناء من الفنون الجميلة الرفيعة التي تهذب الإحساس وتنمي المشاعر، وتبعث على الحب والعطف والمرح والإنبساط، إذا اقترن بوضاءة وجه المغني وعذوبة صوته وخفة حركته، أو إذا تم العزف والإداء وكان على درجة عالية من التقنية والإبداع.

واعتبر قابوس اعتدال القامة واللون وصفات الخَلْق، شروط ضرورية في من يختار من الغلمان للعشرة والمصاحبة ، وأقترح أن يكون غلام العشرة «رقيق الجلد ومستوي العظام وخمري الشعر وأسود الهدب» (٨١)، ورأى أن اللذة والمتعة لا تتحققان إلا من خلال الغلام جميل القد وحسن الأخلاق. والجدير ذكره أن الكاتب لا يتناول هذا الموضوع إلا لأن حب الغلمان كان ظاهرة اجتماعية مألوفة في زمانه، فهو لم يتحدث عن هذه القضية من جوانبها الأخلاقية النظرية وإنما تناولها من الوجه التطبيقية العملية، ربما ليستوفي الغرض من نصائحه ومواعظه ويحقق الغاية من كتابه.

وأوكل الكاتب أعمال الخزانة إلى الغلمان الذين فطروا على العلم والمعرفة، وأبدوا استعدادات وكفاءات عالية في تدبير الشؤون المالية ، كما أشار

---

(٧٩) عينه، ص ٣١٣.

(٨٠) قابوس نامه، ص ٣١٣.

(٨١) عينه، ص ٣١٢.

إلى ضرورة التناسق والإتزان في مظهرهم وسلوكهم، فتلك شروط ضرورية من شأنها أن تحقق الإنسجام بين الغلمان أنفسهم، وبينهم وبين الآخرين من العامة أو الخاصة. وحصر قابوس صفات من يصلح للأعمال المالية بقوله: يجب أن يكون عامل الخزانة غلام «منتصف القامة ومعتدل الشعر ومعتدل اللحم، وعريض الكف وأحمر اللون منبسط الوجه من غير ابتسام» (٨٢).

أما **أعمال الفروسية وحمل السلاح** فهي من المهن التي تستدعي صلابة في العود وقوة في العزيمة وقدرة على احتمال العنف والقسوة «أما الغلام اللائق لحمل السلاح فيجب أن يكون غزير الشعر تام القوام وقوي التركيب... وخشن الجلد وقويم الجسم شديد المفاصل مشدود العروق». وطبيعي أن يختار غلمان السلاح على هذه الأوصاف والخصائص الجسدية لأن طبيعة الحروب وظروف القتال في الزمن الغابر كانت تفترض المهارة وترتكز على القدرات الفردية، لهذا أوصى عنصر المعالي الفارس أن «يكون مبارزاً وشجاعاً وموفقاً» (٨٣).

ويليق **بأعمال السخرة وترويض الخيل** الغلمان الأشداء الجسورون شديدو الإحتمال، فأعمال السخرة وسياسة الخيل تتطلبان مقدرة جسدية كبيرة وحنكة في ترويض الخيل والدواب. أما خصائص هذا النوع من الغلمان فهي أن يكون السائس «مفتوح الحاجبين وواسع العينين وطويل الشفة والأسنان وواسع الفم»(٨٤).

ويقترح قابوس أن يختار غلمان **الفراشة والطبخ** من بين الأكفاء والمهرة الذين تمرسوا على المهن في بيوت الأكابر وقصور الأمراء، ويشترط في الفرّاش أن يكون نظيفاً في مظهره هادئاً في عمله لا يضج وقت توضيب الأسرّة، ويرى أن من واجب الطبّاخ أن يجيد الطبخ وإعداد الطعام ويكون خفيفاً «صافي الوجه ونقي البدن... ورقيق اليد والقدم... وتام القوام، وصموتاً» (٨٥).

---

(٨٢) عينه، ص ٣١٢.
(٨٣) عينه، ص ٣١٣.
(٨٤) قابوس نامه، ص ٣١٣.
(٨٥) عينه، ص ٣١٣.

٣ - إختيار العبيد تبعاً للخصائص العضوية(شروط الصحة البدنية).

يهتم الكاتب بشروط الصحة البدنية، فيحذر من اقتناء العبيد المرضى وأصحاب العاهات لأنهم برأيه عالة على أصحابهم ومالكيهم، ويعّول على العبد المنتج لأن الصناعات على اختلاف أنواعها تستلزم جهداً بشرياً وقدراً كبيراً من الطاقة وسلامة تامة في الجسم، وقد لا يتمكن العبد من تلبية حاجات سيده لو كان مصاباً بأي من الأمراض والعاهات.

وينبه قابوس إلى أن الأمراض على نوعين: ظاهرة وخفية كالبرص والبواسير واليرقان والناسور والأورام[٨٦]، وإن بعضها يبدو بوضوح والبعض الآخر يترافق مع الأعراض، كذلك فإن اسبابها قريبة وبعيدة، ولا سبيل إلى كشفها ومعرفتها وتحديد نوع الداء والدواء إلا بعد تفحص المصاب وتتبع أخباره وأحواله.

ولهذا كله ينصح عنصر المعالي بتفحص العبد وتتبع سلوكه وحركاته، ومراقبة ملامح وجهه قبل شرائه مخافة أن تظهر عاهاته الخفية الكامنة في مراحل لاحقة يقول: «يجب التأمل جيداً في كل أعضائه حتى لا يخفى عليك شيء، فقد تكون علل كثيرة خفية تتماثل للظهور». وهكذا فرغم أن كشف الأمراض الداخلية الخفية يتطلب مهارة واختصاصاً، ولا يكون ذلك لغير الأطباء والمتمرسين في مهنة الطب، استطاع عنصر المعالي أن يلقي الضوء وينبه إلى قضية جوهرية وهامة في ميدان الأمراض والأعراض وذلك من خلال محاولات الفصل بين الأمراض العضوية والنفسية والعقلية، ففي وصفه لمرض البواسير وأعراضه يقول: «فإن كانت في وجنتيه (أي المريض) صفرة وكان لون شفتيه متغيراً وكانت ذابلتين فذلك دليل البواسير»[٨٧]. أما في حديثه عن مرض الصرع والمالينخوليا فقد كان دقيقاً وموضوعياً وبدا كأنه أحد أطباء الأمراض العقلية في زماننا، قال في وصف مرضى الصرع: إن «احمرار العين وامتلاء الجبهة دليل الصرع» كما اعتبر نتف الشعر وتحريك الأهداب وعض الشفه دليل المالينخوليا».

---

(٨٦) قابوس نامه، ص ٣١٦.

(٨٧) عينه، ص ٣١٦.

وقد اهتم قابوس بمرض البرص، فهو من الأمراض الخطيرة التي تموه بالكي، والكي بالنار أو بالحديد من طرق العلاج البدائية التي استخدمت لتخفيف الآلام الناجمة عن أمراض مختلفة بما فيها مرض البرص، مع العلم أن الكي لا يلغي البرص بل يخفي العلة ويموه المرض «وإذا رأيت كياً على الجسد في موضع لا يكون موضع الكي فانظر حتى لا يكون تحته برص» (٨٨).

وتحدث قابوس عن الأمراض الداخلية، أمراض الكبد والمعدة والطحال وغيرها، وكان يتجسس البواطن باللمس والفحص العملي بالحواس الخمس، وقد أظهر نبوغاً ومقدرة نادرين في كشف خفايا الجسم والأمراض، سيما وإن ذلك يتطلب استخدام أجهزة وآلات دقيقة، لم تكن معروفة في العصور الاسلامية، كما بدا تشخيصه لبعض الأمراض الداخلية دقيقاً عندما قال: «تدلك كلا جانبيه وتنظر عن كثب أن لا يكون به أي ألم وورم فإذا وجد فهو في الكبد والطحال».

ولم يغب عن بال الكاتب موضوع الأطراف وسلامة الحواس الخمس، فإن تكاملها ضروري في العبد، كذلك فإن الخلل في تركيب الجسم الداخلي يخفف من قيمة العبد المادية، ومن مظاهر الخلل «رائحة الفم والأنف وثقل السمع وضعف النطق، وعدم استواء الكلام... وتضخم المفاصل وصلابة اصول الأسنان» (٨٨).

ويشير عنصر المعالي أخيراً إلى أساليب التعاطي مع الارقاء والخدم، وطرق التعامل معهم، فيدعو إلى معاملة العبد باللين والعطف واللطف وينصح بالتمهل وعدم القاء العبء عليه حفاظاً على قدرته ومهارته وطاقته الجسدية، واحتراماً لإنسانيته بقوله: «ضع العبء على العبد والحر بقدر طاقتهما»(٨٩).

* * *

ويتضح مما تقدم أن الكاتب رد نشوء المجتمع إلى عوامل مادية اجتماعية إقتصادية، كالمأكل والمشرب والمسكن، وإلى عوامل دينية برزت من خلال تعاليم

---

(٨٨) قابوس نامه، ص ٣١٦.

(٨٩) عينه، ص ٣١٧.

الشريعة الداعية إلى التكاثر والتناسل واستمرار نوع الإنسان، وأدخل مسائل السياسة الأهلية في إطار تنظيره السياسي، وكان رأيه مطابقاً لرأي غيره من المفكرين في زمانه، فآمن بالإسرة كمؤسسة اجتماعية وأخلاقية وشدد على ضرورة الروابط العائلية، وقال بالزواج الشرعي، واعتبر المرأة محور الأسرة وركيزة هامة في البناء العائلي، فهي الوصية والمربية والمنتجة، كذلك فلم يغفل قابوس عن التنبيه إلى دورها وفاعليتها في بناء المجتمع، فحدد علاقاتها بزوجها وأولادها وبالمجتمع الذي تعيش فيه، وصور لنا أخلاقها وميولها ورغباتها بدقة متناهية، وخلص إلى القول ان المرأة مساوية للرجل في قدراتها واستعدادتها وفي الحقوق والواجبات، ومن ثم اقترح منهجاً تربوياً على النسق الأفلاطوني، وأوصى بتطبيقه على البنين والبنات على حد سواء خلال عملية التربية والتنشئة الإجتماعية.

ولم ينظر قابوس للعبيد كطبقة اجتماعية مميزة، ولم يتطرق إلى موضوع الحرية أو الرق والعبودية، كما لم يميز بين الأجناس على أساس العنصر والأصل، وإنما انصب اهتمامه حول أساليب العمل وطرق الإنتاج، فبحث في النتائج المترتبة على سلوك العبيد، وفي قدراتهم واستعداداتهم، وفصَّل في السبل الآيلة الى زيادة قيمة العبد وقدرته الإنتاجية، ولا يغفل علينا أنه تناولهم كقطعان من الماشية.

ورغم ابتعاد قابوس عن التصورات النظرية المجردة لقضية الرق والعبودية، فإنه أكد عبر مواقفه المتفرقة على بعض المفاهيم الإسلامية، لا سيما قبوله بزواج الإماء وفق العقود الشرعية.

الفصل السادس

آدابية التعامل مع الآخرين وقواعد السلوك الفردي الاجتماعي

تمهيد

١ ـ أخلاقيات الفرد في تعامله مع الوالدين
٢ ـ الصداقة والعلاقة بالأصحاب
٣ ـ التعاملية ضمن العلاقة بالأعداء والخصوم
٤ ـ الأخلاقية والتعاملية في الطعام والشراب
٥ ـ الأخلاقية في النوم والراحة والحمّام
٦ ـ أدب السلوك في العشق والاستمتاع والتعامل مع المحبوب
٧ ـ أدب الضيافة
٨ ـ أخلاقيات الفرد وقت الحديث وفي الكلام

آدابية التعامل مع الآخرين
وقواعد السلوك الفردي الاجتماعي

تمهيد

الحكمة العملية أو السياسة الاهلية أو العلم المدني، فلسفة ذات مدلول واحد ـ كما تقدم ذكره ـ لا تقتصر مباحثها على المنزل وقضايا تأديت الزوجة والولد والبنت والخدم وسياسة القوت، ولا تنحصر مسائلها ضمن حدود الدولة والحاكم أو نظام الطبقات الاجتماعية فحسب، وإنما تمتد لتطال الإنسان في نفسه ووجوده وأخلاقه، وفي تعامله مع الآخرين.

إن هذا اللون الفكري الفلسفي هو تجسيد حقيقي لقيم إنسانية وسلوكات فاضلة، وأخلاق مثالية من شأنها ـ لو صيِّغت في قواعد وقوالب ـ أن تحد من جموح النفس البشرية وتكبح الغرائز والشهوات عند الجماعات والأفراد. كذلك فهو قطاع غني بمضامينه رحب بابعاده وآفاقه ومراميه، يحدد أنماط السلوك ويرسم القواعد الاخلاقية الواجب اتباعها بحيث لا تخلُّ بالعادات والتقاليد والاعراف والقانون ولا تتعارض مع الدين والاخلاق. ويندرج ضمن هذا القطاع أيضاً جميع ما يتعلق بالأفراد، لجهة سلوكهم وتصرفاتهم أثناء الطعام والشراب والنوم، وكذلك وقت العشق والاستمتاع والتحدُّث واستقبال الضيوف.

ولطالما لاقت هذه القضايا وما كتب عنها اهتماماً وقبولاً في المجتمع العربي الاسلامي حقبة طويله من الزمان، واستهوت قلوب العامة والخاصة وارتبطت بحياة الناس اليومية، كان من الطبيعي أن تحظى باهتمام قابوس وتشغله، فيفرد لها فصولاً مستفيضة يحدد فيها القواعد والأصول التي سنأتي على دراستها وتفصيلها في الفصول التالية.

١ ـ أخلاقيات الفرد في تعامله مع الوالدين:

يعتبر احترام الأهل وتقدير الوالدين وخفض الجناح لهما رأس الفضائل، فهم علة وجودنا في هذا العالم ومصدر سعادتنا، سبب خيرنا وأصل تربيتنا[١] إنهم حسب تعبير قابوس «الواسطة وأولي الأمر»[٢].

ولقد أوصى الله تعالى بالوالدين احساناً ودعا إلى طاعتهما في كثير من الآيات وفي مناسبات مختلفة ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً**﴾[٣] وقال تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً**﴾[٤].

ولهذا ومن أجل أن يسلم المرء ويفي الوالدين حقهما ويرضي الله وضميره يرى قابوس ان من واجبه التقيد بما يلي:

أ ـ على الإبن أن يطيع الآباء ويجلّهم ويحترمهم ولا يقصر في حق من حقوقهم، ولا يعصي لهم أمراً، فالله لا يغفر ذنب الإبن المذنب بحق والديه ولو تسامحوا وعفوا ومن واجب الأبناء تكريم الآباء باستمرار وسد حاجاتهم، «وكلما زدت تكريم أبويك كان دعاؤهما وابتهالهما من أجلك سريع الإجابة».

ب ـ على الأبناء أن لايطمعوا بثروة الآباء «وإياك أن تتمنى موت أبيك من أجل الميراث»[٥]، وإذا كان للأبناء حق في الميراث فلم تبح لهم الشريعة أن يلزموا قهراً الآباء بالتنازل عن الثروة والممتلكات.

وتجدر الاشارة هنا إلى أن هذا الموقف ليس إلا محاولة من الكاتب للحد من الجرائم التي تفاقمت في عصره، ونشطت بين الأسر الحاكمة التي كانت

---

(١) قابوس نامه، ص ٢٣٩.

(٢) عينه، ص ٢٣٩.

(٣) القرآن الكريم (سورة الإسراء) آية ٢٤.

(٤) عينه، آية ٢٣.

(٥) قابوس نامه، ص ٢٤٠.

قصورها مرتعاً للمؤمرات والفتن وجرائم القتل، فكان الإبن يقتل أباه ويقتل الأخ أخاه، بغرض السيطرة على مراكز النفوذ والثروة (٦).

٢ ـ الصداقة والعلاقة بالاصحاب:

تعتبر الصداقة شرطاً ضرورياً لاستمرار التقدم في الحياة الإجتماعية، وعاملا مهماً في توثيق الروابط بين الناس وتحقيق التكامل والتضامن الإجتماعيين. وتشتد بالصداقة أواصر الود بين الناس فيتعاونوا ويأتلفوا، ويحققوا كمالاتهم التي لا تحصل لهم لو عاشوا متخاصمين متنافرين لهذا يقول قابوس: «لا بد للناس من الأصدقاء ما داموا أحياء»(٧). كذلك فإن تعامل المرء مع الآخرين، واختيار أصدقاء مخلصين، يعمّق صلته بالمجتمع ويكفل له الطمأنينة، ويوفر للإنسان العيش الرغيد .

وتقتضي الصداقة والتعاملية الأخلاقية أيضاً مبادرة الصديق إلى تفقد أصحابه والسؤال عنهم ورعاية مصالحهم.

أما إذا كان الصديق مسافراً أو ميتاً فالأخلاقية تستوجب السؤال عن أبنائه وتفقدهم وتقديم المساعدة لهم (٨).

وبهذا يعطي الكاتب الصداقة معنى أخلاقياً حقيقياً، فلا يكون هدف الصحبة عنده تمضية الوقت، وإنما توطيد أواصر الود والتعاون والتضامن بين أفراد الجماعة، وبالتالي تضافر الجهود وتجميع الطاقات لما فيه خير المجموع.

والصداقة عند عنصر المعالي نسبية وليست مطلقة تتعدد وجوهها وأغراضها بتعدد المناسبات، وتختلف باختلاف الأفراد ، فهناك الأصدقاء

---

(٦) قا: النظم الإسلامية، حسن إبراهيم، ص ٥١ ـ ٥٤. قا: أيضاً: السيوطي. تاريخ الخلفاء، دار مروان للطباعة، ١٩٦٩، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٧) قابوس نامه، ص ٣٣٣.

(٨) عينه، ص ٣٣٤.

المخلصون، وأنصاف الأصدقاء، وأصدقاء السوء والكأس، والأصدقاء الحمقى والمخادعون.

أ ـ الأصدقاء المخلصون:

تعتبر صداقة المخلصين من أفضل أنواع الصداقات، فهي تقوم على الإحترام المتبادل بين الناس. وينشأ هذا النوع من الصداقة بين الأفراد كما يقول قابوس من خلال تبادل المنافع والهدايا «بتجديد رسم المهاداة وإسداء المروءة»(٩) وبالإنسجام والملاطفة.

ب ـ أنصاف الأصدقاء:

يحذر الكاتب من التعامل مع هذه الفئة من الناس وينبذهم ولا يسمح بالإختلاط بهم والإنكشاف عليهم، فهم لا يصلحوا بأي حال، فالواحد منهم إما أن يخلص ويصبح صديقاً من الدرجة الأولى، وإما أن ينقلب ويصبح عدواً لصديقه. وحرصاً من الكاتب على حسن سير العلاقات العامة وزيادة التعاون الإجماعي والتآلف ينصح بالتقرب من أنصاف الأصدقاء واستمالتهم والتودد إليهم، ويدعو إلى معاملتهم بالحسنى والوفاق ، فالصداقة في جميع الأحوال خير من العداوة (١٠) .

ج ـ أصحاب الكأس:

ويعتبر أصدقاء الكأس «من جملة الندمان لا من جملة الأصدقاء» فصداقة هؤلاء مؤقتة ولا تدوم أكثر من مدة حفلة السكر والشراب، فالكأس والخمرة وحديهما يجمعان بين المشتركين في الحفل. لذلك حذر قابوس من صداقة السكيرين حتى ولو أظهروا تودداً وكرماً وملاطفة، وسماهم ندماناً لا أصدقاء، لأن صداقتهم تزول بعد طلوع الفجر وذهاب النشوة.

د ـ أصدقاء السوء والحمقى:

يحذر قابوس من صداقة الأحمق والسيىء، فهما لا يصلحان للعشرة

---

(٩) قابوس نامه، ص ٣٣٣.

(١٠) عينه، ص ٣٣٣.

والمصاحبة ، فالأحمق يسيء للناس ويصدر أحكامه جذافاً ويتعرض للآخرين وهو برأي الكاتب يعاني من القصور العقلي وسوء الإدراك وعدم الإتزان النفسي الإنفعالي ، لذلك فإن الضرر المترتب على صداقة هذه الطائفة من الناس أعظم بكثير من الفائدة المرجوة وقد قال قابوس: «ولا تصادق الحمقى أبداً، لأن الصديق الأحمق يعمل بجهله ما لا يعمله العدو العاقل».

كما يحذر قابوس من أصدقاء السوء فلا يرجى من صداقة هؤلاء نفعاً، إنهم مصدر شقاء الناس وسبب في انحطاط الأخلاق، ولا نجاة للمرء إلا بالإبتعاد عنهم واستبدالهم بالأفاضل من الناس وأصحاب السير الحسنة يقول: «صادق.. طيبي العهد حسني المحضر» . ويضيف الكاتب إن صداقة أهل السوء قد تكون قسراً بحيث لا يجد المرء بدأ من صداقتهم لدرء الخطر عن نفسه ، وللتخلص من غدرهم وخيانتهم. أما إسلوب التعامل معهم فيكون باللطف واللين والمداراة وبإظهار العاطفة باللسان لا بالقلب «فكن مع فريق الأخيار صديقاً بقلبك وأظهر الصداقة للأشرار بلسانك»[11].

هـ ـ الأصدقاء المخادعون الحقودون المراؤون:

هؤلاء هم أسوأ الأصدقاء «ولا تصادق الرجل الحقود» [12]، فالواحد منهم يصادق طمعاً في مال وملك، ولا يعبأ بمصالح الآخرين إلا بمقدار نفعه ومدى فائدته، كذلك فالمخادع مكار لا يعترف بالفضل «يجتنبك بغير عذر وحجة» وهو كالعدو الذي يصادقك مدة ليكشف سرك ويتأمر عليك. والجدير بالذكر أن الكاتب حذر من الأعداء وأصدقاء السوء وحذر أيضاً من التعامل مع أصدقاء الأعداء بقوله: «واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك» [13].

شروط حفظ واستمرار الصداقة:

لحفظ علاقات المودة بين الأصدقاء ينصح قابوس باتباع القواعد التالية:

---

(١١) قابوس نامه، ص ٣٣٤.

(١٢) عينه، ص ٣٣٤.

(١٣) عينه، ص ٣٣٣.

أولاً: يجب أن يكون الأصدقاء متساوين في درجة الوعي والقدرات والمكانة الإجتماعية «فاختر الصديق في درجتك» (١٤) حتى لا يشعر الواحد بالكبر ولا يتعالى على الآخرين، فهذه أسباب تولد الحقد والتنافر بدل المحبة والتعاون والمشاركة لا سيما إن كان الفارق بين الناس في المال وفي مستوى المعيشة «فإذا كنت فقيراً فلا تطلب الصديق الغني».

ثانياً: على الأصدقاء كتمان الأسرار «ولا تفش للصديق شيئاً من أسرارك» فالحذر والحيطة ضروريان لتلافي عواقب انفراط علاقة الصداقة بين الناس، فالأيام لا تواتي الإنسان باستمرار فقد تتغير الأيام والأحوال ويصبح صديقك عدواً، فيكشف سرك ويصبح عبئاً عليك.

ثالثاً: لا يجوز التسرع في مصاحبة الآخرين واتخاذهم أصدقاء إلا بعد التجربة والسؤال وكشف النوايا «وجرب الصديق وقت الضيق، لأن كل شخص يحبك وقت السعة» (١٥)، فالناس في الغالب تظهر الود والصداقة والإخلاص بهدف تحقيق منافع وأغرضا خاصة وسرعان ما تنقلب عليك بمجرد نيل ما تخطط له. لذلك حذر قابوس من الأصدقاء النفعيين واعتبر الصديق الصدوق من يحب صديقه ويخلص له وقت السعة وفي أيام الشدائد.

رابعاً: يحذر الكاتب من البخل مع الأصدقاء بقوله: «كن كريماً مع الصديق» لأن الكرم والبذل والعطاء يوطد علاقات الأفراد ويعزز أواصر الود والتعاون بينهم ويبعث على الثقة والمحبة والوفاء.

٣ ـ التعاملية ضمن العلاقة بالاعداء والخصوم

وكما أن الصداقة نعمة للفرد وخير عظيم، فالعداوة شر وعبء ثقيل ذلك لأنها تجسد الحقد والحسد وتزرع الكراهية، وتقترن بالأنانية ورغبة السيطرة والتسلط وحب الذات، وهي في جميع اشكالها ـ ظاهرة وباطنة عامة وخاصة ـ مصدر شقاء الناس وتعاستهم وسبب الخصام والفرقة، لهذا يتصدى قابوس

(١٤) عينه، ص ٣٣٥.
(١٥) قابوس نامه، ص ٣٣٥.

للموضوع محذراً من العداوة بقوله: الخير للانسان أن لا يعادي[١٦]، ويحاول بوصاياه ونصائحه الحد من خطرها ملخصاً ذلك بما يلي: ـ

أ ـ يجب استطلاع حال العدو للتمكن منه وتفويت الفرصة عليه «استطلع حال العدو ورأيه» وذلك برصد العيون ومراقبة أعماله في الخفاء والعلن.

ب ـ على المرء أن لا يهادن عدوه بل يتصدى ويرد العدوان بعنف، ويكشف مكر الخصم ولا يقصر في الإساءة إليه «واشتغل دائماً بتدبير المكر والإساءة إليه ولا تأمن من حيلته ومكره».

ج ـ على المرء أن يظهر قوياً عظيم النفس أمام خصمه «واظهر نفسك للعدو كبيراً... ولا تظهر نفسك من العاجزين» [١٧] لأن الضعة والخضوع وصغر النفس يورث الذل والمهانة سواء كان ذلك في الحياة العامة أو الخاصة. ويشهد التاريخ الإسلامي على ذلك حيث كان الخلفاء والسلاطين يبالغون في ترتيب مواكبهم وإعداد الحرس حولهم [١٨].

د ـ يجب أن لا يبادر بعداوة الأعداء الأقوياء «ولا تبدأ العدو الأقوى منك بالعداوة [١٩] فالبادىء أظلم، ولا يجوز أن يحقد الإنسان على غيره قبل أن يتحقق من سوء نواياه، ولا تظهر العداوة للعدو ما لم يتبين وجه الأمر تماماً، فالخطأ في التقويم يورث الشعور بالذنب وخيبة الأمل.

هـ ـ لا يكفي الوقوف على نوايا العدو الظاهرة بل لا بد من كشف مكامن شخصيته وإظهار ما في نفسه، فقد يستطيع بعض الناس اخفاء حقدهم وتبديد الشكوك عند الآخرين بتصنع الكلام الطيب والفعل الحسن، لذلك يقول قابوس: «ولا تثق بالعدو... ولا تعتمد على كلام العدو الطيب» (١٩).

---

(١٦) عينه، ص ٣٣٧.

(١٧) قابوس نامه، ص ٣٣٧.

(١٨) قا: بالنظم الإسلامية، لحسن إبراهيم، ص ٥٦. قا: أيضاً: تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٣٥٣.

(١٩) قابوس نامه، ص ٣٤٠.

و ـ ولا تأمن للعدو قوياً كان أم ضعيفاً، فالعداوة واحدة والحقد لا يتجزأ «وعاد العدو الضعيف كما تعادي العدو القوي»[٢٠].

ز ـ على المرء أن يبادر إلى إهلاك عدوه قبل أن يتمكن العدو منه، وتلك ظاهرة متبعة في زماننا، وهي شرط ضروري للنظر في الحروب، وخطة عسكرية دفاعية ناجحة يقول: «فكن دائماً في تدبير هلاك العدو قبل أن يجتهد في هلاكك»[٢١].

ح ـ على المرء أن يحرص على أصدقائه ويتودد إليهم «كن كثير الصديق وقليل العدو» وأن يعقد معهم الأحلاف ويوقع المواثيق ويتقرب إن إستطاع من أعدائه، فيهادنهم ويصفح عنهم إن طلبوا العفو والمغفرة «إذا طلب عدو منك الأمان فآمنه» فإن ذلك من شيم النفوس الكريمة والأخلاق القويمة.

وتجدر الإشارة في هذا النطاق إلى موقف قابوس من العدو الداخلي، فهو يرى أن الأعداء صنفان: أعداء الداخل وأعداء الخارج، ويعتبر أعداء الداخل أشد خطراً على الإنسان من أعداء الخارج، لأنهم بحكم موقعهم وقربهم منه يطلعون على أحواله ويعرفون عنه حقائق كثيرة لا يمكن لعدوالخارج أن يعرفها، لهذا يقول: «وخف على الأكثر من العدو الداخلي».

ويشير الكاتب أخيراً الى بعض القواعد الأخلاقية الواجب اتباعها مع الأعداء إن هلكوا، فيحذر المرء من الإبتهاج إن مات عدوه على غير يده احتراماً للموت نفسه، ويبيح الإبتهاج فقط بقوله: «إذا هلك عدو على يدك يحق لك إذا ابتهجت»[٢٢]. ويستوى عند قابوس العدو والمستأمن والهارب مع العدو الميت، فكما حذر من إذلال الميت، كذلك حذر من إذلال من طلب الأمان والعدو والهارب، مذكراً بالمبدأ القائل إن العفو من شيم الكرام.

٤ ـ الأخلاق والتعاملية في الطعام والشراب:

تعتبر آداب الطعام والشراب جزءاً من الثقافة والحضارة الإنسانية، فهي تدخل ضمن أنماط العادات والتقاليد الإجتماعية التي تؤثر في مسار المجتمع وفي

(٢٠) عينه، ص ٣٣٧.

(٢١) قابوس نامه، ص ٣٣٠.

(٢٢) عينه، ص ٣٤٠.

سلوك الأفراد والجماعات، وتحدد توجهاتهم وسلوكهم وأخلاقهم، رغم اختلاف مللهم ونحلهم وطبقاتهم الإجتماعية والإقتصادية والدينية.

والعادات والتقاليد متعددة الوجوه ومتغيرة، بعضها يأخذ طابع الإلزام، كعادات الطعام والشراب التي فيها منفعة للأجسام والإنسان، وبعضها الآخر يرفضه المجتمع وتمجه الأخلاق والأذواق وتحذر منه القوانين الوضعية والشرائع الدينية كتعاطي الخمرة والسرقة أو الجريمة وغيرها من العادات الرديئة.

وقد استدرك عنصر المعالي أهمية العادات والتقاليد والأعراف ووعى دورها في الحياة الإجتماعية وفي بناء الدول فدرسها ومحّصها، ووقف على أغراضها ومراميها، وتعمق في تأمل منابعها وأصولها وفي طرق تطبيقها وممارستها، وتناولها أيضاً من حيث فوائدها ومضارها، هادفاً بذلك إصلاح المجتمع وتنظيم سلوك الأفراد وتقويم الإعوجاج.

وأول ما بدأ به قابوس هو تقسيمه المجتمع إلى ثلاث طبقات أو فئات: أهل السوق، والجند، والخاصة المحتشمون، فدرس هذه الطبقات الإجتماعية ووقف على عادتها لا سيما ما تعلق منها بالطعام والشراب، وصور لنا سلوك الجند وأخلاقهم، وكشف مساوىء العامة في تناول الطعام والشراب، وفصّل في آداب الخاصة الأرستقراطيين، وطرقهم في إعداد الطعام وتنظيم مجالس الشراب.

أولاً: أهل السوقة (العامة):

هم برأي قابوس جماعة لا تأكل لتعيش بل تعيش لتأكل، تكد وتشقى في سبيل كسب المال والثروة، وتعوض عن حياة البذخ والترف بتناول الطعام في كل حين من غير نظام، فتصاب بأمراض داخلية خطيرة، وتعاني من الإضطرابات المعدية والمعوية ولذلك قال فيهم: «يتناولون الطعام ليل نهار، وهم متخومون»(٢٣).

ثانياً ـ الجند والمرابطون:

لا تعرف هذه الفئة الإجتماعية للأكل نظاماً ولا توقيتاً إنهم كالعامة الذين

(٢٣) قابوس نامه، ص ٢٦٩.

يهيمون على وجوههم للحصول على القوت والغذاء، ويشبههم قابوس بالبهائم بقوله: «لا يراعون الوقت. . . فيأكلون وقتما يجدون. وهذه عادة الدواب إذ تأكل كلما تجد العلف» (٢٤).

وطالما ان هؤلاء مفرطون في طعامهم وشرابهم، فإنهم معرضون للأمراض أكثر من سواهم لا سيما وإنهم يرابطون في القلاع ويعيشون في البراري وسط ظروف طبيعية صعبة ومتغيرة.

ثالثاً ـ الخواص والمحتشمون:

هذه الفئة أكثر وعياً وتقدماً من العامة والجند، فهي طبقة غنية وممسكة بالثروة، وتعرف أسباب العلم والثقافة، وتعيش في ظل ظروف اجتماعية ونفسية واقتصادية مستقرة، لذلك فالأكل ليس غاية عندها وإنما هو وسيلة حياة، فإذا ما طلب الخواص الأكل بدافع الجوع اختاروا أجوده وتناولوه بمقدار، بحجة الحمية والمحافظة على سلامة الأبدان، وقد أوضح ذلك عنصر المعالي عندما قال: « الخاصة المحتشمون لا يتناولون الطعام أكثر من مرة وهذه الحمية مستحسنة»(٢٥).

أما آداب الخاصة وشروط تعاملهم مع الضيوف وطرق إعداد طعامهم وتناوله، فقد أوجزها قابوس بما يلي:

١ ـ على المحتشم أن يتناول الطعام بمقدار محدد عند الصباح، وأن لا يجلس على المائدة وقت الغداء إلا ومعه ضيوفاً يؤانسونه ويسلونه على المائدة. ففي ذلك زيادة للشهوة وقابلية على تناول المزيد من الطعام يقول: «فالأصوب أن يتناول المحتشمون في الصباح قليلاً من الزاد في الخلوة. . . حتى صلاة الظهر. . . فيحضرون من يتناول الطعام معهم». (٢٦).

٢ ـ يجب أن تنظم سفرة الخاصة وترتَّب جيداً ويعد الطعام إعداداً كاملاً،

---

(٢٤) عينه، ص ٢٦٩.

(٢٥) عينه، ص ٢٦٩.

(٢٦) قابوس نامه، ص ٢٦٩.

وأن تكون الصحون على المائدة منسقة فذلك كله يبعث الشهية في النفس، ومن أدب المائدة حسب قول قابوس: «إما أن توضع الآنية أمام الضيوف وإما أن توضع أمام المضيف» (٢٧).

٣ ـ من أدب المحتشم أن يضع الطعام فوراً أمام الضيف ولا يتأخر «مرهم أن يعملوا على عجل عندما يأتون بالآنية بنوع» (٢٧) فلا يجوز برأي قابوس أن تتهيأ النفس للأكل ويتأخر الخدم عن تقديم الطعام.

٤ ـ على المضيف أن لا يغادر المائدة قبل الضيوف لكي لا يخجل المدعوون ويتركوا المائدة على جوع «عندما يقومون عن المائدة (يجب) أن يكون المُقل والمكثر من الطعام قد شبعوا»

٥ ـ عليه أن يكون طلق المحيا باسم الوجه أمام الضيوف «ولا تكن عابس الوجه».

٦ ـ عليه أن يؤثر الأخرين على نفسه، فلا يحتكر الطعام ولا يفرط في تناوله «وإذا كان أمامك طعام شهي، ولم يكن للآخرين، فينبغي أن يجعل لهم منه نصيباً» (٢٨).

٧ ـ عليه أن «لا يتشاجر على السفرة» (٢٨) فإن ذلك يشعر الضيوف بالضيق ويفقدهم الشهية، ومن أدب المائدة أن يبادر المضيف إلى سرد الأحاديث الشيقة على المائدة بهدف إزالة الخجل من نفس الضيف وتشجيعه على تناول الطعام «ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام» (٢٨).

٨ ـ على المضيف أن يتمهّل، فلا يشبع قبل غيره، ولا يترصد حركات الناس على المائدة وطرقهم في تناول الطعام «ولا تنظر إلى لقم الناس» بهدف أن لا يتعثر المدعوون فيحجموا عن الأكل ويتركوا المائدة وهم جياع.

موقف قابوس من الخمرة والشراب:

وقف قابوس ازاء قضية شرب الخمرة موقفاً وسطاً وجال بين الكفر والإيمان،

---

(٢٧) عينه، ص ٢٧٠.

(٢٨) عينه، ص ٢٧٠.

فلم يسمح لولده بالشراب «فلا أقول تعاط الشراب» ولم يردعه عن الخمرة «فلا أقول لا تشرب» ، وكان هدفه من ذلك تغيير سلوك الصبي طوعاً سيما وإن الشبان حسب اعتقاده لا يرجعون عن فعيلهم بقول أحد(٢٩).

ويبدو الكاتب في موقفه هذا منطقياً مع نفسه وواقعياً في تصوره، فمن أجل أن يعلِّم إبنه المبيحات والمحظورات، ولكي يعزز فيه الآداب العامة وقواعد الأخلاق، وإنسجاماً مع النهج الحكمي الوصفي الذي اتبعه عبر قابوس نامه، تساهل في مسألة تعاطي الخمرة كغيرها من القضايا وترك لإبنه الحرية في التعرف على منافع الشراب ومضاره من نفسه فتلك برأيه وسيلة ردع ناجحة ومفيدة تحقق ما لا يمكن تحقيقه بإسلوب الضغط والإكراه، فذلك يورث الحقد ويزيد المراهق تصلباً وتعنتاً وانحرافاً.

مضار الخمرة من الناحية الشرعية والعضوية:

ولئن تساهل قابوس مع إبنه .إزاء شرب الخمرة خلال فترة المراهقة، فإن ذلك لم يثنه عن تأدية رسالته الأخلاقية ودفاعه عن العقيدة، فقد ظل يحذر من الخمرة ومن مضارها وخطرها على الإنسان من الوجهة الدينية والإجتماعية.

فالدين الإسلامي حرَّم الخمرة وحذر من تعاطيها، ووعد الله المذنبين والمخالفين بعقاب شديد في مقابل الثواب والنعيم للذين آمنوا والتزموا بأصول الشريعة، لذلك يقول قابوس: «إذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين وتنال رضى الله»(٢٩).

ومن الوجه الاجتماعية والاقتصادية فإن الخمرة برأي الكاتب تخلق مشكلة أخلاقية واجتماعية معقدة، فتفكك عائلة السكير بعد أن تتعطل سبل عيشه ويفقد مهابته ووقارة ويخسر ملكه وماله ، ولذلك ينصح قابوس بترك الخمرة قائلاً: ففي ترك الخمرة «وفر كبير في تدبير البيت والرياسة»(٣٠).

ويوضح قابوس أثر الخمرة والادمان من الوجهة الصحية فيصف الشراب

---

(٢٩) قابوس نامه، ص ٢٧١.

(٣٠) قابوس نامه، ص ٢٧١.

بـالداء بقـوله «الشـراب سم» ويرى أن الادمـان مصدر الاضـطرابات النفسيـة والعضوية والعصبية، وإن الخمرة سبب تعطيل العقل والارادة يقول: «إن ثمـرة السيكي شيئان المرض والجنون»[٣١].

معالجة الادمان وإبطال عادة الشراب:

لـم يكتفـ الكاتب بإظهار أثر الكحولية على الانسان من الناحية العضويـة والنفسية والعصبية، وإنما يتعمق في المسألة ويكشف لنا طرق العلاج الصحيحة التي تخفف من خطر الادمان وتبطل عادة شرب الخمرة.

ويسلك قابوس في معالجاته طريق الاقناع بدلاً من الشدة والردع، فيدعو المدمنين إلى ترك الشراب تدريجياً، ويترك الحرية لشارب الخمرة ويدعو الناس إلى التعامل مع السكير ومعاشرته. وقد توصل الكاتب إلى حقيقة مؤداها أن نبذ المدمن والتأفف منه يزيده انحرافاً وعزلة، وإن الكبت والعنف معه يزيده تمرداً وهروباً وكرهاً للمجتمع. وانتهى قابوس إلى معالجة الادمان والتخفيف من حدته بالطرق التالية:

أولاً: ينصح المدمن أن يترك الشراب ليوم واحد على الاقل من كل أسبوع بقوله: «ومهما كنت مولعاً بـالنبيذ فتعـود أن لا تشربـه ليلة الجمعة»[٣٢] عساه أن يترك العادة والادمان، ويسلم من عقاب ربه وقصاص المحتسب ويـدعو شارب الخمرة أن يؤجل موعد شرابه الدوري إلى وقت آخر[٣٣].

ولعل الكاتب في موقفه هذا قد استطاع أن يتعمّق في النفس البشرية، ويعي مكامنها وأغوارها، ويوضح كيفية تكوين العادة وتطورها وأثرها في سلوك الانسان.

ثانياً: أن يؤجل المدمن شرابه إلى ما بعد تناول الطعام بساعات، يقول: «فينبغي إذا تناولت الطعام أن لا تشرب النبيذ في الحال ما لم تظمأ ثلاث مرات، وإذا لم تظمأ فتوقف مقدار ثلاث ساعات بعد تناول الطعام»[٣٤] وهذا التدبير برأي

---

(٣١) قابوس نامه، ص ٢٧٢.

(٣٢) عينه، ص ٢٧٣.

(٣٣) عينه، ص٢٧٣.

قابوس يخفف أثر الكحولية على الكبد وأعصاب المعدة، ويمنع الغثيان، فيسلم الشارب من الاضطرابات العضوية ويحفظ توازنه النفسي والاجتماعي.

٥ ـ الأخلاق والتعاملية في النوم والراحة والحمّام:

أ ـ الراحة والنوم: النوم شرط ضروري من شروط الصحة البدنية، وسبب في تنشيط القلب والدورة الدموية، فإنه يجدد طاقة الجسم ويزيد الإنسان قدرة على مزاولة نشاطه اليومي.

ولقد أكدت الدراسات الطبية ومباحث علم الصحة، على أهمية الجسد من الناحية البيولوجية ورأت أن من بين شروط السلامة توفير الغذاء والنوم والراحة للجسم، ذلك لأنه كالآلة التي لا تتحرك بغير وقود. واجتهد العاملون في هذه الميادين لتحديد مقدار الطاقة الحيوية اللازمة للجسم وسبل تعزيزها، كما بحثوا في عواقب الإفراط في بذل الجهد، وخلصوا إلى اقتراحات كادت تتطابق مع ما قاله قابوس منذ أكثر من ألف عام في ميدان علم الصحة والعلوم الطبية.

استهل قابوس مناقشاته بتقسيم اليوم إلى ثلاث فترات متساوية، ورأى أن ثماني ساعات من الاسترخاء والنوم يومياً، تكفي الإنسان ليكون نشيطاً معافاً قال: «اليوم أربع وعشرين ساعة، تصحو شطرية وتنام شطراً»[٣٥]. ولعل الكاتب هنا يهدف لتحقيق أمرين جوهرين: أولهما تلافي الخمول والذهول والكسل الذي ينتج عن الإفراط في النوم[٣٦]. وثانيهما، السعي لكسب المال وتأمين قوت العيال عملاً بالآية الكريمة القائلة: **﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**[٣٧].

ولقد تمكن الكاتب بتحديد ساعات العمل الفعلية، من أن يتلمس حلولاً لقضايا ما تزال مادة بحث عند علماء الاجتماع والاقتصاد وفلاسفة العصر الحاضر، مثل مشكلات سوق العمل، وقيمة الجهد المبذول في الانتاج، وعقود العمل، والعلاقة بأرباب الأعمال وغيرها.

---

(٣٤) قابوس نامه، ص ٢٧٢.

(٣٥) قابوس نامه، ص ٢٩٢.

(٣٦) عينه، ص ٢٩١.

(٣٧) القرآن الكريم، (سورة النمل) آية ٨٦.

وحذر قابوس من الافراط في الجهد والطاقة ونبه من الموت المفاجىء الذي ينجم عن العمل المتواصل دون فترات استراحة بقوله «إن الآدمي إذا لم يترك لينام اثنتين وسبعين ساعة عمداً وأجبر على السهر فإنه يخشى عليه من الموت المفاجىء»(٣٨) فالانسان برأيه يشبه الآلة الميكانيكية من حيث حاجته للوقود والطاقة لمواصلة الجهد والحركة. وحذر أيضاً من اضاعة الوقت ومن نوم النهار، فذلك يضر بالصحة ويسبب الفقر قال «تكلف أن تبعد عن نفسك نوم النهار»(٣٩)

ويقرن عنصر المعالي النوم باللذة والمتعة خصوصاً إن نام المرء مع المحبوب «ينبغي أن لا تنام وحدك بل يجب النوم مع شخص ينعش روحك» وينصح النائم أن يستيقظ باكراً لكي لا تفوته فريضة صلاة الصبح، ومن ثم للبدء بالعمل بعزيمة ونشاط يقول: «يجب التعود على الاستيقاظ مبكراً بحيث ينهض قبل شروق الشمس»(٣٩).

ب ـ أدب الاستحمام وشروطه:

اهتم قابوس بموضوع النظافة والاستحمام، ففي ذلك طهارة للجسم ووقاية من الامراض. وللاستحمام شروط وأصول برأي قابوس، فلا يجوز دخول الحمّام أو الخروج منه إلا وفق شروط وأصول محددة تلافياً للامراض والاضطرابات العضوية التي قد تنجم عن الاستحمام بطريقة اعتباطية، ومن تلك الشروط: ان يستحم المرء مرة واحدة كل يومين «ينبغي أن يذهب كل يومين إلى الحمّام»(٤٠). فالاستحمام المتواصل يؤثر سلبياً على الجسم والاعضاء فيلين الاعصاب والمفاصل، كذلك فإن على الانسان أن لا يعرّض جسمه باستمرار للماء الحار والبارد، فذلك الكسر الفجائي لدرجة الحرارة المعتادة يضر بالصحة ويُورث الامراض العضوية. وللمحافظة على الصحة يقترح عنصر المعالي على المستحم أن يمر عبر مراحل ثلاث من البارد إلى الاقل برودة ثم إلى الساخن بقوله «توقف أولاً في القسم البارد زمناً... ثم أمض إلى القسم الاوسط... ثم اذهب إلى القسم الساخن». ومن شروط الاستحمام أن تكون فترة الاستحمام قصيرة «ويجب

(٣٨) قابوس نامه، ص ٢٩٢.

(٣٩) قابوس نامه، ص ٢٩٣.

(٤٠) عينه، ص ٢٨٩

أن لا تقيم كثيراً بالحمام» فإن القعود طويلاً في الحمام يؤثـر سلبياً على جهـاز التنفس من جراء نقص الاوكسجين وتعرض الجسم لدرجة عالية من الرطوبة. كما يحذر قابوس من تناول الماء والفقاع أثناء الحمّام «وتجنب الماءوالفقاع في الحمام»[41] فذلك يورث الترهل في اللحم والاستسقاء في الاعضاء.

والجدير ذكره أن حرارة الجسم وقت الاستحمام تحافظ على مقدارها وقد تزداد أحياناً، وهذه الزيادة في الحرارة تكون خطراً على المرء إذا تناول الماء البارد وتسبب له الموت المفاجىء.

ويحذر الكاتب من الدخول إلى الحمام على شبع «إذا ذهبت إلى الحمام لا تذهب على شبع» والحكمة من قوله هذا أن يتلافى الانسان الاضطرابات المعدية ونوبات، المرارة والكبد ونقص التنفس. ولو تأملنا قول الكاتب وراجعنا أحد أطباء الامراض الداخلية لوجدنا أن قابوساً مصيب في موقفه، بدليل أن الاستحمام بحد ذاته هو جهد للجسم، مع العلم أن هضم الطعام يتطلب جهداً أيضاً، من هنا بات اجتماع أكثر من جهد جسدي في وقت واحد سبباً في اضراب الجسم، بمعنى آخر أن عملية هضم الطعام تستدعي ارتفاع الحجاب الحاجز داخل الجسم فيضغط على الصدر ويسبب ضيقاً في التنفس فتتناقص طاقة الجسد وتضعف قواه. ويحذر أيضاً عنصر المعالي من الجماع في الحمّام بقوله: «ولا تنشغل في الحمام أيضاً بالجماع»[42] فمثل هذا الامر مخالف للطبيعة البشرية، إذ أنه وضع غير مـلائم للجسم، فالعملية الجنسية تتطلب جهداً أكبر وقت الاستحمام مما يسبب زيادة في حركة القلب والدورة الدموية والتنفس، ويرتفع ضغط الدم أيضاً، وما من شك في أن هذه التحولات في الجسم إضافة إلى مقدار الطاقة التي يتطلبها الجسم وقت الاستحمام، تشكل مجتمعه خطراً على الانسان.

٦ ـ أدب السلوك في العشق والاستمتاع والتعامل مع المحبوب:

ـ **العشق**: وقف الكاتب من مسألة الحب والعشق موقف الـرجل العـاقل

(٤١) عينه، ص ٢٩٠.

(٤٢) قابوس نامه، ص ٢٨٩٨.

المجرب والراشد، فكان معتدلاً في مواقفه كما كان حاله في جميع القضايا الآنفة الذكر ، وقد لجأ إلى أسلوب التحذير والتنبيه والنصيحة بـدلاً من أسلوب القمع والشدة والصرامة ، ذلك لانه أدرك حقيقة الطبيعة الانسانية النازعـة إلى الحصول على الشهـوة بدافـع الغريـزة، وعرف جيـداً أن العشق والحب أمـران طبيعيـان وضروريان للانسان، وإن الإنسان كتله من المشاعر والاحاسيس .

ومخافة أن ينحرف المرء ويسوء تصرفه ، دعا قابوس بادىء الامر إلى ترك العشق بقوله «تجنب العشق» ثم سمح بقسط من الحب والعشق شريطة ان يراعي العاشق الاعتدال ، وان لا ينجرف وراء ميوله الغريزية ودوافعه الاولية الفطرية على حساب الارادة والعقل، يقول: «فلا تكن أسير القلب ولا تشغل قلبك بالعشق باستمرار. . . فإن هذا ليس شأن العقلاء »[٤٣] .

ويلفت الكاتب إلى مضار العشق وعواقبه ، فهو يورث الغم ويتعس القلب ويلحق الضرر بالفرد والمجتمع في آن ، وقد ينتج عن العشق حسـب تعبيره العناء وألم القلب والمحنة،[٤٣] فيقبع العاشق في بيتـه أو يلهث وراء معشوقـه مشـدوداً إليه وكـأنه مخبـول ومجنونـاً ويعيش منعزلاً غيـر آبه بـالنتائـج السلبية الاجتماعية والاقتصادية التي تلم به.

ويقترح عنصر المعالي عدة شروط للحد من الشهوة وكبح جماح الغريـزة فيدعو إلى الصـوم على الدوام وحمـل الحمل الثقيـل، والسفر الـطويل [٤٤]، فالصوم فريضة على كل مسلم وهي وسيلة ناجعة لترك متاع الدنيا ولطهـارة الجسد والنفس ، كذلك الانصراف إلى العمل والانتاج يملأ فـراغ الانسان ويشغله عن حاجاته الفطرية ، أما الاسفار أو الرحلات فإنها تباعد بين العشاق وتسهم في تبديد شهوة اللقاء.

---

(٤٣) قابوس نامه، ص ٢٨١ .

(٤٤) عينه، ص ٢٨٢ .

ويعتقد قابوس أيضاً ان النضوج العقلي يحد من الشهوة ويحبط الغريزة بقوله: «لا يستيطع الاحتراز من العشق سوى العقلاء»(٤٥). وتجدر الاشارة هنا إلى أن الكاتب يحذر الشيوخ وأصحاب الجاه والسلطان من الافراط في الملذات، فهم بنظرة القدوة الحسنة، فإن انحرفوا فليس لانحرافهم مغفرة «ليس للشيوخ عذراً» كذلك فإن المجتمع لا يرحم الملك العاشق ولا الشيخ «فإنه العشق للملك والشيخ أمر شاق»(٤٦).

وكما تحدث الكاتب عن العاشق فإنه لمّح إلى مواصفات المعشوق وبين كيفية التعامل معه، وحصر صفات المعشوق بالرقة والجمال وحسن القد «ويجب أيضاً أن تكون فيه ملاحة»(٤٧). أما شروط التعامل معه فأوجزها في شرطين أساسين:

الأول: أن لا يصحب العاشق معشوقه معه في كل مناسبة، وان لا ينشغل به باستمرار أمام الغرباء(٤٧).

ثانياً: أن لا يُفتن بمعشوقه أمام الآخرين، كأن يتفقده أو يسر في أذنه(٤٨).

ـ **المتعة وطلب اللذة**: اهتم قابوس بالاشباع الجنسي ودعا إلى طلب اللذة، وكان إباحياً في حديثه عن العلاقات الجنسية إذ أنه أباح التعاطي الجنسي مع الذكور والاناث بقوله «فلا تجعل ميلك لجنس واحد، ولتكن ذا حظ من كلا الجنسين»(٤٩).

وليس لنا أن نبرز موقف الكاتب هذا لولا ظروف العصر التي عاش في ظلها وطبيعة العادات السائدة، التي شجعت الانحراف الاخلاقي وساهمت في تدهور القيم والمثل العليا، فقد عاش في زمن شاع فيه المجون والبذخ والترف وحب الغلمان وانتشار دون الزانيات، الامر الذي كاد يهدم كيان المجتمع ويدك أركانه. ولذلك تصدى عنصر المعالي لمعالجة الخلل محاولاً التخفيف من وقع الانحلال

---

(٤٦) قابوس نامه، ص ٢٨٢.
(٤٧) قابوس نامه، ص ٢٨٥.
(٤٨) عينه، ص ٢٨٥.
(٤٩) عينه، ص ٢٨٧.

واثره على الانسان فدعا إلى الاعتدال في الممارسة الجنسية والتنبيه إلى أن «المجامعة الكثيرة تضر» وفي الوقت عينه نجده يحذر من الاحباط والكبت بقوله: «فعدم الجماع أيضاً يضر»[٥٠].

وتنبه الكاتب إلى أهمية البيئة الطبيعة وتأثيرها على البنية التكوينية للكائن الحي والانسان خاصة، واعتبر المناخ المعتدل في فصل الربيع، أفضل ظرف طبيعي لتكاثر الاحياء «وفصل الربيع أوفق الاوقات» [٥١] ففيه تتوازن الطبيعة ويتوافق الانسان مع البيئة ويكثر الخصب عند الاحياء فيزداد الدم في العروق ويكثر المني في الاصلاب مما يساعد على التناسل والتكاثر[٥١]، ويذكِّر عنصر المعالي بزيادة مقدار الحافز الجنسي عند الانسان في المناطق المعتدلة عندما يقول: «إن الرجل (يصير) محتاجاً للمعاشرة والتمتع»[٥١] بينما يرد تقهقر الرغبة الجنسية إلى ظروف طبيعته ومناخية مضطربة منسجماً في موقفه مع أفلاطون الذي أكد في كتاب الجمهورية، أن توازن الطبيعة أو ما أسماه بأحسن الطوالع، أفضل المناسبات للالتقاء الجنسي، لأن عروق الانسان تتفتح كما تتفتح البراعم والازهار في عالم النبات.

٧ ـ أدب الضيافة:

الضيافة ظاهرة اجتماعية هامة، فهي توثق الروابط بين الناس وتعزز الالف والمحبة بينهم وهي من العادات المألوفة المستحسنة التي سادت مجتمعات شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام حيث كان العرب في الجاهلية يباهون بالكرم ويتسابقون للاحتفاء بالضيوف والغرباء. وظلت الحال كذلك خلال العهد الاسلامي، وبقي الكرم من العادات المحمودة وصارت الضيافة نهجاً وسلوكاً متبعاً في أرجاء الدولة الاسلامية بما فيها أقليم فارس وجزءاً من التراث الشرقي، ومعنى من معاني الفضيلة ومكارم الأخلاق.

وكان من الطبيعي لقابوس أن يتناول هذه القضية ويأخذها بعين الاعتبار

---

(٥٠) قابوس نامه، ص ٢٨٧.

(٥١) عينه، ص ٢٨٧.

طالما أنها مسألة من صميم القضايا الاجتماعية والعادات السائدة في مجتمعه وفي الاوساط الارستقراطية على وجه الخصوص، فالكرم كان مصدراً للشهامة والنبل وسبباً في سموهم الملوك، وقد باهى بذلك الخلفاءوالسلاطين والحكام والامراء فكانوا على سبيل المثال لا يأمرون بما دون الالف من الدراهم(٥٢).

وأبرز ما قاله الكاتب في هذا المجال كان مجموعة من الوصايا والحكم الاخلاقية التي من شأنها أن تغرس الفضيلة في نفس ابنه وتعلم الناس أصول التعامل، واستهل حديثه بدعوة الناس على اختلاف مللهم ومراتبهم إلى الاخذ بعادتي الكرم والسخاء، ورعاية الضيوف بقوله: «كل من يكون له ضيف صديقاً كان أو غير صديق فعليه العناية بالضيف ليل ونهار»(٥٣).

ونبه قابوس إلى أن الكرم يستدعي التضحية والبذل والعطاء وإيثار الآخرين، ويتطلب من المضيف أن ينفق بعض أمواله في سبيل ضيوفه مما يسبب له أزمة مادية، لذلك فإنه ينصح أبناء الطبقات المتواضعة بأن يحتاطوا للامر، وأن يتصرفوا بحكمة فيتريثوا في دعوة الناس إلى منازلهم وموائدهم ويختاروا الاوقات المناسبة لاستدعاء الضيوف يقول: «لا تضيف الغرباء في كل يوم»(٥٤). ويقترح الكاتب أن تجمع عدة مناسبات في وقت واحد وأن يقدم للضيف مرة واحدة ما يمكن أن يقدمه المضيف في مرات عديدة ليظهر بمظهر الاغنياء ويُوصف بالكرم يقول: «وما ستنفقه في هذه المرات الخمس أنفقه مرة واحدة ليخلو سماطك(*) من كل العيوب»(٥٥).

ويتحدث عنصر المعالي عن أدب الضيافة فيعتبر التواضع أمام الضيوف وإيثار الغرباء على الأهل والنفس من أولى واجبات المضيف، ولذلك ينصح بأن

(٥٢) را: حكايات بهذا المعنى عن هارون الرشيد، وانوشروان وعبد العزيز بن مروان في كتاب الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٢٩٢، ٢٩٨ - ٣٠٠و٣١٣ - ٣١٤.

(٥٣) قابوس نامه، ص ٢٧٥.

(٥٤) عينه، ص ٢٧٥.

(٥٥) قابوس نامه، ص ٢٧٥.

(*) سماط: طبق، مائدة.

يجلس صاحب الدعوة بعد أن يجلس الجميع على المائدة، وأن يجهد في سبيل تأمين الطعام والشراب والجو الملائم للضيوف، وان لا يتوانى عن خدمة جميع المدعوين بقوله: «ولا تجلس أنت ما لم يقل لك الضيوف اجلس». ويوصي المضيف أيضاً أن يجلس أدنى الجميع ويتلطف مع الغرباء ويبعد عن كل ما من شأنه أن يخجلهم كأن يلح عليهم بالاكل أو الشرب في كل حين «لا تقل كل ساعة كل جيداً.. لا تخجل»[٥٦].

أما شروط الضيافة فهي أن يُقدم للضيف الفاكهة على الفور لا سيما إذا كان موعد الطعام متأخراً «وإذا كان أوان الفاكهة فقدم فاكهتك قبل الاكل»[٥٧] وتجدر الاشارة هنا إلى أن الكاتب يحاول في تدبيره هذا أن يملأ كل فراغ قد يشعر به الضيف مستخدماً الفاكهة كوسيلة للتسلية وتمضية الوقت، مع العلم أن الفواكه غذاء يتبع الطعام ولا يسبقه كما هو مألوف ومتبع في وقتنا الحاضر.

ولا يمانع قابوس من تقديم الشراب للضيوف وإقامة حفلات السكر والعربدة رغم قناعته بأن ذلك إثمٌ ومعصية بقوله: «فلاتقترف اثماً لا لذة فيه»[٥٧] إضافة إلى ضرر الخمرة وخطرها على الفرد والمجتمع، وحجته في ذلك أن يتكيف ابنه مع البيئة الاجتماعية والواقع الذي يعيش فيه، وان يتخلى عن عادة شرب الخمرة طوعاً لا قسراً بعد أن يستكشف بنفسه أثر الكحولية وضررها على الانسان.

ويتطرف الكاتب إلى الحديث عن أنواع الخمرة فيقترح أن يقدم أجوده للضيوف «ولا تقدم النبيذ إلى الضيف ما لم يكن جيداً»[٥٨]، فجودة المشروب تستر عيوب المائدة وتسد النقص والتقصير وكل عيب على المائدة[٥٩].

وينبه الكاتب المضيف إلى مراعاة عدة أمور عند مائدة الشراب، فيحذره من أن يسكر وينتشي قبل المدعوين، لئلا يفقد صوابه ورشده ويقصِّر أمام ضيوفه فلا يقوم بالواجب «فإذا عرفت أن القوم صاروا نصف سكارى فاسرع عندئذ في السكر

(٥٦) قابوس نامه، ص ٢٧٥.
(٥٧) عينة، ص ٢٧٥.
(٥٨) عينه، ص ٢٧٦.
(٥٩) عينه، ص ٢٧٦.

من تلقاء نفسك»(٦٠). ويشدد قابوس على أن يختار الضيف من بين الاكابر والافاضل ويحذره من صحبة أهل السوء أو مجالستهم بقوله: «لا تأخذ كل ساقط إلى بيتك. . .»(٦١)، كذلك فعلى المضيف أن لا يترك ضيوفه ينصرفون من مجلسه وهم سكارى، بل عليه أن يتلطف معهم ويرعاهم ويخفف من وطأة الكحولية فيهم، لكي يحمي نفسه من النقد ويحفظ كرامته وكرامة المدعوين، وقد أوضح ذلك عندما قال: «إذا سكر الضيف وأراد أن ينصرف فأرحه مرة ثانية. . . ودعه بلطف»(٦٢).

وكما يفصِّل الكاتب في آداب المضيف وشروط تعامله مع الضيوف، فإنه ينبه الضيف ويذكره ببعض القواعد والاصول التي ينبغي عليه أتباعها لو نزل ضيفاً على الناس أهمها: أن يجلس الضيف في المكان المخصص له في بيوت الناس فلا يتنقل حيث يشاء وكيف يشاء، وعليه ان يحسن الادب في المكان الذي يحل فيه، وان لا يلقى نفسه على كل إنسان بل يتعامل مع ذوي المروءة والشهامة وأهل الكرم «وإذ ذهبت ضيفاً فلا تكن ضيفاً لكل أحد فإن ذلك يضير الكرامة»(٦٣) وعليه أن يأكل كل ما يقدم إليه على المائدة، ولا يتأفف من الطعام أو الشراب، كما لا ينبغي أن يحل ضيفاً على جوع شديد أو شبع، «وإذا ذهبت فلا تذهب وأنت جائع جداً أو شبع جداً».

وعلى الضيف أن لا يتأمّر في بيوت الناس «فلا تأمر وأنت على الطعام والشراب في ذلك البيت»(٦٣) فذلك يبعث على النفور والتأفف، لا سيما أن تقرب الضيف من طعام غيره على المائدة، كذلك فإن من واجب الضيف أن لا يعربد أمام الغرباء «ولا تكن ثملاً فاقد الوعي وقحاً»(٦٣) كي لا يفقد رشده ومهابته. ومن آداب الضيف أيضاً أن لا يصطحب أعوانه إلى مائدة الآخرين دون أعلامهم بذلك مسبقاً، كذلك عليه أن لا يهتم بمرافقيه على المائدة، كأن يتفقد غلامه أو يقدم الطعام لخادمه «ولا تعط خادمك طعاماً»(٦٤).

---

(٦٠) قابوس نامه، ص ٢٧٨.
(٦١) عينه، ص ٢٧٨.
(٦٢) عينه، ص ٢٧٨.
(٦٣) عينه، ص ٢٧٨.
(٦٤) عينه، ص ٢٧٨.

٨ ـ أخلاقية الفرد أثناء الحديث وفي استخدام الألفاظ:

تستوجب الآدابية في الكلام توخي الحقيقة في ما نقول، وبلوغ الكمال في التصرف. وتقتضي الأخلاق والتعاملية أثناء الحديث تكريس المحبة والعطف والأنس عند الإنسان، بحيث لا يكون كلامه سرداً للتوافه أو ثرثرة أو اغتياباً، فمن الخير والفضيلة أن يكون الكلام دواءً وشفاءً للنفس، يتجلى في الإقناع واستيعاب المتاعب والآلام.

انطلاقاً من هذه المبادىء والمفاهيم، يرسم عنصر المعالي في «قابوس نامه» النماذج المثالية، ويقرر القواعد الخلقية الواجب اتباعها أثناء الحديث وإلقاء الكلام، ويحصر ذلك بالنقاط التالية:

أولاً ـ أن يتعلم نهج الصمت، فلا يلقي الكلام جزافاً وتطفلاً ومن غير طائل، ولا يقول الكلام الذي لا يُسأل عنه(٦٥).

ثانياً ـ أن يصدق القول، ويحسن استخدام الألفاظ، لأن سقط القول يورث الخيبة والمذمة والازدراء(٦٦).

ثالثاً ـ أن يقدم النصيحة بالمجّان، ويعمل على تصويب أخطاء الآخرين ممن يرجى صلاحهم، ولا يفسح المجال أمام المنحرفين والجهال والفاسقين للتعبير عن الرأي، فمثل هؤلاء باعتقاد قابوس ميؤوس من شفائهم (٦٧)

رابعاً ـ أن يكون ظاهر المتكلم وباطنه واحداً، وأن يعبِّر بلسانه عما يكمن في باطنه وقلبه، ويكون مبتغاه قول الحق وإعلان الصدق.

خامساً ـ عليه أن لا يكشف خفايا نفسه للصديق أو العدو لكي لا يهون عندهم ويسيئون إليه «ولا تظهر الالم والحزن والغم والفرح لكل إنسان»(٦٨).

سادساً ـ أن يكون المتحدث سمحاً حكيماً عاقلاً يقابل الظلم بالعدل والجفاء بالود والسياسة، فالانفعال لا يقابل بالانفعال بل بالصبر واحتمال الاذى

---

(٦٥) قابوس نامه، ص ٢٤٢.

(٦٦) عينه، ص ٢٤٢.

(٦٧) عينه، ص ٢٤٢.

(٦٨) عينه، ص ٢٤٤.

حسب اعتقاد قابوس «وإذا ثـار عليك إنسان فاطفىء ثورته بالصمت»[٦٩].

وخلاصة القول أن الصداقة كما فهمها قابوس نسبية وليست مطلقة، وإن الغرض منها ليس المنفعة الشخصية بقدر ما هو توثيق الروابط الاجتماعية وتوسيع دائرة العلاقات الانسانية. وفي سبيل ذلك اقترح قابوس مجموعة من القواعد التي من شأنها أن تعمِّق العلاقات بين الاصدقاء فقال بضرورة كتمان الاسرار والرِّوية في اختيار الاصدقاء، ودعا إلى الاتزان بالمعاملة مع الاصحاب وبالتضحية في سبيل الآخرين، كذلك اعتبر العداوة شراً مطلقاً وعبئاً ثقيلاً على الناس، ورد أسباب الحقد والخصام إلى دوافع الانسان الفطرية كـالطمـع والشهوة وحب السيـطرة. وتحدث عن نوعين من الاعداء: أعداء الداخل وأعـداء الخارج، وكـانت الفئة الاولى أشد خطراً ومرارة من الفئة الثانية، وقدّم مجموعة من القواعد الاخلاقية التي من شأنها أن تحد من خطر الاعداء وسطوتهم، وأوصى بعدم البدء بالخصومة وبمداراة الأعداء وإنفاق الاموال في سبيل استمالتهم.

وفصَّل قابوس في آدابيات التعامل لا سيما في موضوع الطعـام والشراب ووصف لنا العادات والتقاليد التي تحكم الطبقات الاجتماعية (العامة والخـاصة والجنود)، ولفت الانتباه إلى مسـألة الادمـان على المسكرات، وعـالج القضيـة بحكمة وتعقل، بالتحذير حيناً وبالعلاج الـوقائي حينـاً آخر، وبين آثـار الخمرة والادمان على الانسان والمجتمع، كما تحدث الكاتب عن آداب الراحة والنـوم والحمّام والعشق وكشف شـروط الاستحمام وبين مخاطر الافراط في النوم وفي ممارسة الحب والعشق.

---

(٦٩) قابوس نامه، ص ٢٤٤.

الفصل السابع

الآدابية في العلوم والفنون ووقت الرياضة وممارسة الهوايات

القسم الأول

الاخلاق والتعاملية في العلوم

علم الطب

التشخيص وطرق العلاج

القسم الثاني

الاخلاق والتعاملية في الفنون (الشعر، الغناء، الموسيقى)

١ ـ فنون الشعر

٢ ـ فنون الغناء والموسيقى

٣ ـ الأخلاق والتعاملية في الصيد ووسائل اللهو

ـ الصيد والقنص

ـ لعب النرد والشطرنج وضرب والصولجان

الاخلاق والتعاملية في العلوم

علم الطب

تمهيد

اعتبر المسلمون الطب من العلوم العملية الهامة الملحة، ففيه شفاء من الامراض وسلامة للأبدان. وقد تطور هذا العلم في العصر الإسلامي الوسيط إثر نشاط حركة الترجمة والنقل، وانتقال التراث اليوناني إلى اللغة العربية وبخاصة كتب جالينوس وأبقراط في الطب، ولم يكتف العرب وغيرهم من المسلمين بما قدمه مشاهير الاغريق في مجال الطب العلاجي والوقائي، وإنما تقدم هذا العلم على أيديهم بفعل فضولهم العلمي ومنهجيتهم الدقيقة القائمة على الملاحظة التجربة المخبرية، وإستطاعوا اكتشاف أمراض عديدة، كانت وما تزال مجهولة عند سابقيهم، كما فرقوا بين الأمراض المتشابهة كالجدري والحصبة مثلاً بدقة بالغة، وبرعوا في ميادين الطب المختلفة ولا سيما طب العيون والجراحة[1]، وبلغوا شأوا عظيما في تلك الميادين بفضل المراكز الطبية والبيمارستان التي أنشأوها.

ومن مظاهر نبوغهم وسبقهم العلمي انهم وضعوا أسماء عربية لكثير من الأمراض، كالصداع والمالينخوليا، والفالج، والسعال، والذبحة، والسل. وتقدم علم الجراحة عند المسلمين بفضل ما نقلوه عن غيرهم وما تمرسوا فيه أنفسهم، فبرعوا بجراحة العيون والمثانة والولادة وتجبير الكسور وغيرها[2].

---

(١) عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٤٤.

(٢) عينه، ص ٢٤٥ -٢٤٦.

وعلى العموم فقد تقدم علم الطب وبلغ مبلغاً عظيماً على أيدي أطباء وعلماء مسلمين واكتشفوا العديد من الامراض والاعراض وعرفوا طرق علاجها، ووضعوا العديد من كتب الطب لتدريس الطلاب في المعاهد ودور العناية، فكثر بذلك الاطباء المسلمون والنصارى واليهود في مصر وبغداد وفارس(٣).

ويعتبر قابوس واحداً من الاطباء المشهورين في زمانه، فلم يعرف الطب والمعالجة فحسب بل كان صاحب أبحاث وآراء دقيقة في الامراض وطرق العلاج، وفي إعداد الادوية. وقد صور لنا ملاحظاته في «قابوس نامه» بدقة متناهية، معمقاً بحثه حول الجانب العملي أكثر من النظري مع توضيح كامل ودقيق لطرق سياسة البدن وحفظه من التلف والمرض، وكان باستمرار يذكّر بجالينوس وأبقراط وبضرورة الاطلاع على مؤلفاتهما كخطوة أولى في تعلم الطب، فهؤلاء بنظره يعتبرون المصادر الثقة والينابيع الغنية والاصلية في هذا الميدان، لدقة أقوالهم ونظرياتهم في علوم الاعضاء والمزاج يقول: «ويجب أن يكون قد قرأ وصايا أبقراط حتى يستطيع أن يؤدي شرط الامانة والصدق في معالجة المرضى»(٤).

ويعطي قابوس أهمية كبرى لعنصري التجربة والملاحظة، لكونهما أساساً لأي بحث علمي وموضوعي «وتجب على المعالج أن يقوم بتجارب كثيرة» لأن الامراض وإن كانت واحدة فإن أثرها يختلف باختلاف المريض نفسه، وتبعاً لاستعداداته وخصائصه الفرديه العضوية، فالتجربة تعمق المعرفة وتوسع المدارك وتساعد على سرعة التشخيص، وتنمي عنصر المهارة عند الطبيب إذ أنها شرط ضروري للمهنة ولا سيما في العمليات الجراحية. وقد أكد قابوس على ضرورة التمرس والتجربة الميدانية داخل المستشفيات، ودعا الطبيب إلى الكشف على عدد كبير من المرضى والمصابين قبل مزاولة المهنة بقوله: «ويجب أن يكون قد خدم في البيمارستانات ورأى مرضى كثيرين، وعالج كثيراً حتى لا تشكل عليه

---

(٣) عينه، ص ٢٤٤ و٢٤٧.

(٤) قابوس نامه، ص ٣٦٨.

العلل الغريبة. . . ويرى بـأم العين ما يكون قد قرأه في الكتاب»[٥].

وتحدث قابوس عن مرحلة ما بعد التخرج قال: إن أول شرط لممارسة المهنة هو استخدام المطهرات والادوات والملابس المعقمـة، فالنـظافة تمنـع التلوث والعدوى وانتقال الجراثيم من المرضى واليهم، ورأى أن واجب الطـبيب «أن يجعل جسمه وثيابه نـظيفين دائماً وأن يكـون مطيبـاً ومعطراً» لأن المـظهر الخارجي يوحي بـالامل والثقـة ويسهم في طمأنينـة المرضى، فيتقبلون طبيبهم المعالج ويرتاحون له، ويتماثلون للشفاء، فـالإيمان والثقـة عنصران ضـروريان للعلاج برأي الكاتب، كما وإن الامراض ذات شقين عضوي ونفسي، ولكل منهما تأثير على الآخر، فارتياح المريض من الناحية النفسية يؤثر إيجابياً عليه، لذلك ينصح قابوس الطبيب بأن يكون «ناضر الوجه مبتسماً وعذب الحديث ويبعث الامل في المريض لأن تقوية الطبيب للمريض تزيد قوة الحرارة الغريزية»[٦] فذلك النهج وأسلوب المعاملة عظيم الفاعلية، في حين أن قسـوة الطبيب وإهمـال المرضى والإساءة اليهم يعقّد الامر ويزيدهم تعاسة وشقاءً، ويتضح ذلك من قول الكاتب: «لا تتهم المريض، ولا تكتب تعهداً، ولا تحكم على المريض النهم»[٧] فاتهام المريض يثير شكوكه وانفعالاته، فتضطرب أعضاؤه ويتفاقم المرض عنده لا سيما في أمراض القلب.

ولا يقل أمر كتابه التعهد على المريض أثراً عن اتهامه، لأن التعهد في حالة المرض تزيد القلق وتميت القدرات الحية في الانسان وتحطم مشاعـره، ويقترح عنصر المعالي على الطبيب المعالج «ألا يبدأ بأية معالجة ما لم يعرف أولاً شـدة المرض ونوع العلة وسببها ومزاج المريض وسنه وصنعته وكلامه وطبعه، وطبـع المكان وحال المزاج» لأن مراعاة هذه القضايا والاطلاع بأحوال المرضى وظروفهم البيئية والمعاشية يسهم في كشف العلة وأسباب المرض ويسهل على الطبيب سبل المعـالجة لا سيما إن كانت العلة وليدة سوء التغذية وظروف السكن الرديئة. وهذه

(٥) عينه، ص ٣٦٨.

(٦) عينه، ص ٣٦٨.

(٧) عينه، ص ٣٧٠.

العناصر وإن كانت ثانوية قياساً على الاسباب الرئيسية، فإن استدراكها وتنبيه قابوس إليها لهو شاهد عظيم على - تريته وإبداعه لا سيما وأن العلماء المحدثين في زماننا ما زالوا يعتبرون العناصر الثانوية في المرض ركائز أساسية في الوصول إلى الحقيقة العملية والموضوعية.

وبعد مرحلة الكشف العام، ومعرفة الاسباب البعيدة والقريبة للمرض، تأتي مرحلة الكشف المباشر على المريض وفحصه مخبرياً للتعرف على الماء والمجس والجنس والعرض الظاهر والعلامات الحسنة والعلامات السيئة، وأنواع الرسوب وعلامات الامراض التي تقع في الداخل.

فمن خلال تأمل علامات الجسم الداخلية يمكن للطبيب أن «يبين أسباب الحميّات»[٨] ويعرف مسببات العلة والمرض، من ثم ينتقل إلى مرحلة إعداد الأدوية المناسبة بنفسه، أو استحضارها من الصيدليات ويقدمها للمريض.

والجدير بالذكر أن عنصر المعالي اشترط على الاطباء أنفسهم الاشتغال بالكيمياء وتركيب الادوية بقوله: يجب أن يكون الطبيب ماهراً في تركيب الأدوية [٩] كما نبه الاطباء إلى أهمية المواد الغذائية ودورها في علاج الامراض «فتدبر أغذية الشيوخ والأطفال»[١٠] ودعا إلى تناول الفيتامينات بمقدار يتناسب مع الاجسام والأمراض، وحذر في الوقت عينه من بعض مواد التغذية التي تضر بالجسم في حالات مرضية معينة كتناول المواد الدهنية في حال البدانة، وجعل مقدار الوجبات الغذائية والجرعات للأطفال أقل قدراً من وجبات الشيوخ والكبار، لأن المناعة في الاجسام تختلف عند الناس تبعاً للسن واستعدادات الأفراد. ومهما يكن فاستخدام الغذاء والعلاج الطبيعي أفضل من العلاج بالادوية في كثير من الاحوال «وإذا عرفت الجنس فلا تمعن في الدواء والضماد ما دام يكتفي بالغذاء»[١١] لأن المعدة ليست كالزجاجة والمواد الجامدة، وإنما هي عضو حيّ تؤثر فيه الادوية سلباً في بعض الاحوال.

---

(٨) عينه، ص ٣٦٨.
(٩) قابوس نامه، ص ٣٦٧.
(١٠) عينه، ص ٢٦٧.
(١١) عينه، ص ٣٧٠.

تشخيص الامراض واستخدام الأدوية:

يتحدث قابوس عن تشخيص الامراض فيأمر بإجراء فحوصات عديدة كإمساك المجص وسماع نبضات القلب وفحص البول ومراقبة القارورة لمعرفة الرواسب، وقد بين ذلك بدقة فائقة ومقدرة شخصية عظيمة وبموضوعية وفضول علمي نادرين قال: «إذا رأيت البول مثل الزيت يتراءى وفي قاع البول خط تكون العلة قريبة العهد، وإذا رأيته بلون الزغفران(١٢) فاعلم انه مصاب بحمى الصفراء». وكما ان البول وسيلة لمعرفة أسباب الامراض العضوية، فمن خلال تحليل البول استكشف الكاتب الامراض النفسية وأسبابها أيضاً قال: «فإذا رأيت الماء أبيض غير وضيىء يكون الرجل مريضاً من الغم... وإذا كان صافياً كالماء يكون مريضاً من الكراهية»(١٣).

ويستدل الكاتب أيضاً على الامراض العقلية من خلال نبضات القلب «إذا نبض تحت الاصبع بطيئاً وغليظاً وضعيفاً فالسوداء عالية»(١٤).

وتتجلى عبقرية قابوس عندما يفصل بين الأمراض فصلاً كلياً، فهو يرى أن بعضها خفيف سريع الزوال، وبعضها عظيم لا يرجى الشفاء منه، فالتقيء الدائم بألوان مختلفة، وحالات الهزال والسعال المتواصل وإشتداد بياض العين وسواده بصورة غير مألوفة، وعدم تجاوب المريض مع من يناديه ويفرط في النوم، كلها مظاهر وأمراض لا يرجى الشفاء منها، وهي خطرة برأي الكاتب ومعالجتها لا تجدي «ولا تداو كل هؤلاء الذين ذكرتهم قط فالمعالجة لا تجدي»(١٥).

ولم يهمل الكاتب موضوع الأدوية ووصف المراهم، فهي أمور ضرورية لمعالجة أمراض الجلد والجروح والخدوش، لكنه لم يجز استخدام أدوية الشراب مع المراهم في جميع الأحوال إلا إذا استلزم الأمر واستعصى الداء، وقال بضرورة التدريج في العلاج من البسيط إلى المقعد «ما دام يكتفي بالسفوف والطلي فلا

---

(١٢) الزغفران: نبات شديد المرارة والإصفرار.

(١٣) قابوس نامه، ص ٣٦٩.

(١٤) عينه، ص ٣٦٩.

(١٥) عينه، ص ٣٦٨.

تمعن في الحب والمطبوخ» فالكبسولة أكثر فاعلية في الجسم من الدهون والمراهم لأنها تتفاعل مباشرة مع الجسم وتذوب في المعدة وقد تسبب ردود فعل سلبية وتضر بالجسم بمقدار أكبر بكثير من تأثير المراهم والدهون. ولهذا يحذر عنصر المعالي من الإدمان على الدواء فإنه برأيه يصبح داء في حالات عديدة، وينصح بعدم التهاون في تقديم الأدوية لا سيما في الحالات الخفيفة «فما دام الأمر يتم بالتسكين فلا تسرف في الاستفراغ». أما في حالات المرض الشديد فيستلزم اعطاء الأودية اللازمة لأن المسكنات لا تنفع، فهي تخفي الداء لحين، مما سيساعد على استشراء المرض وتمكينه من المريض، يقول قابوس: «وإذا كان الأمر سيخرج عن الحد، فاشتغل بالدواء المحض ولا تشتغل بالتسكين»(١٦)

(١٦) عينه، ص٣٧٠.

الاخلاق والتعاملية في الفنون
الشعر، الغناء، الموسيقى

١ ـ الشعر:

درجت العادة عند أصحاب الجاه والسلطان ممن شجعوا العلوم والفنون خلال العهود الإسلامية، على عقد جلسات وندوات للشعراء والأدباء وأهل الفن والغناء، يتبادلون فيها نتاج معارفهم وعلمهم في حضرة الخليفة أو السلطان ويتحدثون عن سير الملوك الروم والأعاجم، ويسردون أخبار الدول العريقة والأمم العظيمة، وكان هدف الحكام والسلاطين من ذلك التوسع في أسباب الدهاء وفنون السياسة. أما مجالس الأدب والفن فكانت تعقد كذلك بهدف الترويح عن النفس من مشاغل السياسة ومشاق الحكم، وقد ترتب على ذلك ان اختص بكل مجلس من المجالس جماعة من القصّاص والشعراء والمغنين، يتحفون أولياء النعمة بملاهيهم وأشعارهم وأقاصيصهم واخبارهم النادرة في كل مناسبة يدعون إليها.

وقد بالغ بعض الحكام في تكريم الشعراء وأهل الفكر، فأكثروا المنح والاعطيات، واختاروا بعضهم أساتذة لابنائهم ليعلموهم أسباب السياسة والسلطان وأصول العلوم والمعارف، مقابل أجور كانت تدفع لهم تزيد أو تنقص تبعاً لأمزجة الحكام وهواهم، وكان مقام الشاعر أيضاً يعلو ويهبط بقدر ما كان يجيد الشعر أو يعجز عن الإداء.

وعلى العموم فقد أجلّ الحكام عدداً كبيراً من الشعراء، وكانوا يرسلون في استدعائهم من مختلف الامصار إلى مجالسهم، ان تأخروا في المجيء من

تلقائهم، وفي الوقت عينه كان أغلب الخلفاء والحكام يتذوقون الشعر ويفهمون اغراضه، ويميزون بين جيده ورديئه، حتى ان بعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر وكانوا يستوقفون الشاعر عند بيت أو كلمة يباحثونه في معناها[١٧].

ومهما اختلفت معاني الشعر وتعددت أغراضه، فإنه صناعة وحرفة عند العديد من الناس الذين كانوا يتكسبون به ويتقربون من أصحاب الجاه وأهل النعمة. وصناعة الشعر لا تقل شأناً عن باقي الصناعات والحرف في زمان الكاتب، فهي كسواها من العلوم والفنون تحكمها برأي قابوس مجموعة من القواعد والأصول التي تتعلق بالمعاني والقوافي وبموسيقى الشعر وأغراضه، وبالصور البيانية والبلاغية وما إلى ذلك، وقد أدرك كيكاوس هذه الحقائق والقواعد وتذوق الشعر وعرف أصوله، وتلذذ بسماعة وإنشاده، وليس ذلك غريباً فإنه كان هو نفسه أديباً وشاعراً.

وأول ما يلفت الكاتب إليه النظر في موضوع صناعة الشعر هو الإهتمام بمبنى القصيدة يقول: «واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر»[١٨] فالشعر برأيه من الفنون الجميلة التي تهذب الحس وتنمي المشاعر والخيال، وتوسع مدارك الإنسان وتحيي آماله وأمانيه، بما يبثه الشاعر في قصائده من حياة بفعل ذوقه الرفيع وحسه المرهف ومعاناته الشخصية.

ولكي يبلغ الشاعر قصده ويجيد الشعر يجب أن يجيد الأسلوب ويحسن استخدام المعاني الواضحة والصور الشعرية «فاجتهد أن يكون كلامك سهلاً ممتعاً، وتحاشى الكلام الغامض ولا تقل ما تعرفه أنت ولا يعرفه سواك فيحتاج إلى الشرح» فيتقبل الناس بذلك الأشعار والقصائد ويتلذذون بها، في حين لو كانت معاني القصيدة غامضة لأصبح الشعر عقيماً ثقيلاً على الذهن ويستلزم التوضيح والتفسير. كذلك فإن الإهتمام بالأوزان والقوافي وإهمال المعاني يجعل الشعر أشبه بعملية حسابية آلية جامدة لا حياة فيها، وقد حذر قابوس من ذلك بقوله: «ولا

---

(١٧) قا: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ص ٦٧٥ ـ ٦٧٨.

(١٨) قابوس نامه، ص ٣٧٦.

تقنع بالـوزن والقوافي الفـارغة» فـالشعر عمليـة متكاملة تجمـع بين الصناعـة والمعاني، ولا قيمة برأي الكاتب لشاعر أهمل أحد الجانبين في شعره «ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب»[١٩] فالقصيدة وحدة فنية متناسقة ومنسجمة أشبه ما تكون بلوحة موسيقية تناسقت جميع عنـاصرهـا الفنية من تـوزيع وإيقـاع ووزن وآلات، أو لوحة فنية وفق الرسام في مزج ألوانها. وهكذا فإن الإنسجام والتناسق ضروريان في صناعة الشعر ليكون جيداً حسب اعتقاد قـابوس يقول: «ويجب أن يكون في الشعر والإيقاع والصوت تطريب ليلذ للناس»[٢٠].

أغراض الشعر:

تحدث الكاتب عن أغـراض الشعر، وفـرق بين الغزل والتـرانيم والهجاء والمديح، وحدد قواعد وشروط كل لون من هذه الألوان الشعرية.

أ ـ المديح:

إهتم قابوس بالمديح لأنه كان من الألوان الرائجة والشائعة في زمانه، وكان وسيلة كسب ومصدر عيش للعديد من الشعراء المحترفين. وقد حدد الكاتب قواعد هذا النوع من الشعر وأصوله بما يلي:

على الشاعر أن يفهم الممدوح ويعرف طباعه وسلوكه ومقامه ليكون صادق القول ومنسجماً مع نفسه، فالمراوغة في الكلام والخداع في الألفاظ غير مجدٍ للشاعر وللممدوح، ذلك لأن جمال الشعر بتقدير قابوس يتجلى في سلامة وصدق التعبير وفي قوة العاطفة وتطابق الشكل مع المضمون[٢١].

ـ على الشاعر أن ينشد شعره بقوة وشدة «وكن في المدح قوياً وجريئاً وعالي الهمة»[٢١] لا سيما عند مديح الاصاغر من الناس، فقد درجت العادة على ذلك في المحافل وامام الامراء والملوك داخل القصور، حيث كان الشعراء ينشـدون قصائدهم باداء جيد وبصوت عال وهم قائمون[٢٢].

---

(١٩) قابوس نامه، ص ٣٧٥.

(٢٠) عينه، ص٣٧٥.

(٢١) قابوس نامه، ص ٣٧٦.

(٢٢) قا: التمـدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٧٨.

ـ على الشاعر أن يتواضع عندما يمدح أصحاب الشأن، فلا يترفع أو يباهي، ولا يعتدّ بنفسه أمام أهل النعمة «ولا تدع نفسك في القصيدة بالعبد والخادم إلا في المدح الذي يكون فيه الممدوح أهلاً لذلك»[٢٣]، فالتعالي والمكابرة يفسد النعمة على الشاعر فيكسد شعره وتقل النعمة عليه ويخسر الأجر والمكافأة.

ـ عليه أن يكثر من الإستعارات في شعر المديح «وقل الإستعارة على الممكنات واستعملها في المدح»[٢٤]، فالصور البيانية والجمالية تعزز المعاني وتجعل القول عالياً صريحاً والمعنى أشد وأقوى.

ـ على الشاعر المداح أن يهتم بهندامه وبنظافته «فلا تكن مدْبر الوجه قذر الثياب وكن ناضر الوجه وباسماً»[٢٥]، فالمظهر الخارجي والهندام الحسن يستحسن في المجلس، كذلك فإن استخدام الشاعر للمضحكات والقصص الفكاهية والنوادر يرضي الأمير ويزيد من عطفه وعطائه و«احفظ الحكايات ونوادر الكلام والمضحكات الكثيرة، وقلها أمام الممدوح»، فإن سعة الإطلاع وغزارة المعرفة توسع مدارك الشاعر وآفاقه، فيبدع في ميدانه، ويخرج أداءه على الوجه المطلوب، في حين أن نقص الخبرة والجهل يخرجان الشعر هزيلاً عقيماً لا جديد فيه حسب قول قابوس «ولا تحم حول أقوال الناس»[٢٦].

ب ـ **الهجاء**: حذر الكاتب من تعاطي الهجاء بقوله: «لا تعتد الهجاء»[٢٧] فالهجاء يورث الكراهية بين الناس ويسبب البلاء لقائله، مع العلم أن العديد من الهجائيين خلال التاريخ الإسلامي تكسبوا به وبالغوا فيه، ولم يمتنعوا عن الهجاء رغم ما لحق بهم من تهديدات وويلات، أمثال الحطيئة الذي رفض الإمتناع عن قول الهجاء بقوله: أن الهجاء سبب تكسبي ومعاشي[٢٨].

ج ـ **الغزل والترانيم**: هي من الموضوعات الشعرية التي استرعت اهتمام قابوس لما لها من دور فاعل ومؤثر في الإنسان ومشاعره، فهي برأيه من الألوان التي

(٢٣) قابوس نامه، ص ٣٧٧.
(٢٤) عينه، ص ٣٧٥.
(٢٥) عينه، ص ٣٧٧.
(٢٦) قابوس نامه، ص ٣٧٧.
(٢٧) عينه، ص ٣٧٧.
(٢٨) قا: بالتمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٧٨.

تتطلب معاني رفيعة وعبارات سلسة، وقوافي متناسقة لطيفة «وإذا نظمت الغزل والترانيم فانظمها سهلة ولطيفة وفي القوافي المعروفة».

ويحذر الكاتب من استخدام المعاني المعقدة والصور الغامضة في الغزل والشعر الغنائي، فهذا النوع من الشعر يدخل القلب مباشرة ويؤثر في المشاعر والأحاسيس وينمي الخيال «ولا تقل الكلمات الباردة والغريبة... ولا تقل الشعر العروضي الثقيل».

والجدير بالذكر الشعر الصوفي الذي استحسنه قابوس ونصح بنظمه، فإنه وإن لم ينفع في الحياة الدنيا فسوف ينفع في الحياة الثانية قال: «وإذا كنت قادراً على الشعر في الزهد والتوحيد فلا تقصر»[٢٩].

٢ ـ الغناء والموسيقى:

الموسيقى من الفنون الجميلة التي تنمي المشاعر وتصقل الأذواق وتهذب الأحاسيس، وهي فن يعْبُرُ من القلب إلى القلب عفواً، فباللحن الجميل تكتنز الصدور، وبالصوت البديع تغتبط القلوب وتنتشي.

والموسيقى إبداع يتجاوز حدود الزمان والمكان والدين والقومية، ومظهر حضاري ومعيار لرقيّ الشعوب، بدأ عند اليونان والفرس وازدهر وتطور عند العرب، وتشهد المصادر التاريخية مثل «ألف ليلة وليلة» و«الأغاني» و«العقد الفريد» على افتتان العرب بالموسيقى الصوتية، فقد كانت بيوتات الإشراف عامرة بطائفة من المغنين رغم تحريم الإسلام للموسيقى والغناء، وكانت الملاهي ومجالس الطرب ناشطة خلال العهد الأموي[٣٠]. كذلك فإن الفتوحات الإسلامية أسهمت في تطور الموسيقى، خصوصاً بعد أن انتشرت ألحان الفرس وأغانيهم على يد «سعيد بن مسحج» الذي يعتبر أول من صنع ونقل الغناء إلى العرب[٣١].

(٢٩) قابوس نامه، ص ٣٧٧.

(٣٠) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار صعب (مأخوذ عن طبعة بولاق) بيروت، د. ت، مج ١٦، ص ٧٢.

(٣١) أبو عثمان سعيد بن مَسْجَعْ من الموالي، أسود اللون ومن فحول المغنين وهو أول من صنع الغناء ونقل غناء الفرس إلى العرب. قا: الأغاني، مج ٣، ص ٨٤.

وقد استخدم العرب الشعر في الغناء وخاصة الغزل، وعرفوا أنواعاً مختلفة منه، كالثقيل والهزج، والغناء البغدادي والمصحوب بجوقة أو بالرقص، كما أخذوا عن اليونانيين موسيقاهم بعد أن ترجمت كتب أرسطو في الموسيقى، وربطوا الموسيقى بالرياضيات، ومن مظاهر نبوغ العرب في الموسيقى أنهم أول من وضع النوتة الموسيقية والسلم الموسيقي.

وتعددت آلات الموسيقى العربية بعد أن طوروا الآلات المستوردة وأضافوا إليها وكانت تعرف باسماء مختلفة عربية وفارسية وهندية ويونانية كالمزمار والصفارة، والناي والبوق، والغيتار والطنبور[٣٢].

واهتم الخلفاء والسلاطين المسلمون بالغناء والموسيقى فتعددت مجالس الطرب والغناء في قصورهم وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم، كما فرضوا للفنانين رواتب ومشاهرات ومنحوهم الجوائز[٣٣]. وقد كان قابوس واحداً من هؤلاء الأمراء الذين ولعوا بالطرب والغناء والموسيقى وبمجالس الشراب، وكان هو نفسه موسيقياً بارعاً، يتذوق الفن الرفيع ويطرب للصوت البديع. وبقدر اهتمام قابوس بالفنون والصناعات، اهتم بالموسيقى والغناء، ووضع مجموعة من القواعد والشروط تتعلق بالغناء والعزف وآدابهما.

أ ـ ألوان الغناء والموسيقى: يستهل الكاتب حديثه في موضوع الغناء بالحديث عن مواصفات المغني وآدابه ويؤكد بادىء ذي بدء على أهمية هذا الفن ومواصفات المطرب بقوله: إن الغناء من الفنون الجميلة التي تهذب الحس وتنمي الخيال وتبعث على الحب والحنان. وقد لا يتحقق ذلك ما لم يكن المغني لطيفاً، خفيف الروح «وإذا كنت مغنياً فكن حسن الطبع خفيف الروح واجعل نفسك دائماً نظيف الثياب ومطيباً ومعطراً وكن ذلق اللسان»[٣٤].

ويشير قابوس إلى أنواع من الغناء: الثقيل والخفيف والترانيم ويرى أن كل

---

(٣٢) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٣٣) قا: بالتمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٨٠.

(٣٤) قابوس نامه، ص ٣٧٩.

نوع منها مناسب لمرحلة معينة من مراحل عمر الإنسان.

فالطريقة الثقيلة في الغناء تمثل برأي الكاتب الجد، وتلائم الكبار بينما الطريقة الخفيفة تناسب الشباب والصغار والنساء، ولذلك ينصح قابوس بعدم استخدام طريقة بعينها في جميع المجالس والمناسبات بقوله: «وإذا دخلت في دار الغناء فلا تكن عابس الوجه ولا تعزف كل الطرق الخفيفة» فهي لا تناسب باعتقاده المسنين الذين يرغبون بالشعر الموزون والموسيقى الثقيلة التي تدور موضوعاتها حول الغناء في الشيخوخة ومذمة الدنيا يقول: «فإذا كان القوم من الخواص والشيوخ والعقلاء الذين يعرفون حرفة الغناء، فغن كثيراً واعزف الألحان اللطيفة ولكن أكثر من الغناء في الشيخوخة».

أما الشباب والنساء الذين ما زالوا في ربيع العمر فإنهم يتلذذون برأي قابوس بالغناء الخفيف اللطيف وبالغزل وفي وصف النساء أو في مدح النبيذ وشاربي النبيذ [٣٥].

ولم يهمل قابوس الأناشيد الحماسية والموسيقى العسكرية، فهي ضرورية في الحرب والقتال حيث تكون حافزاً للجنود على الحرب دون خوف وتردد، وقد عرفها العرب والمسلمون في عهودهم المختلفة وما يزال يعمل بها في مجتمعاتنا في العالم المتمدن لاثرها وفاعليتها في نفسية الجنود والمحاربين. وينصح قابوس المغني بإنشاد الشعر الحماسي ان كان الحشد من الجند والعيارين، اعتقاداً منه أن الطباع القاسية ورؤية الدماء تجعل الجندي يألف الألحان الشديدة والموسيقى الصاخبة التي تصور الشدة العنفوان يقول: «إذا رأيت القوم عسكريين وعيارين فغن دوبيتات ما وراء النهر في الحرب وإراقة الدماء ومدح العيارية»[٣٦].

أما النساء والأطفال فإنهم يتذوقون الموسيقى ويألفون الشعر الخفيف والترانيم وهذا اللون من الموسيقى والغناء يبعث على العطف والحنان، وينمي المشاعر والاحاسيس في الصغار يقول: «ولئلا يحرم الصغار والنساء والرجال

(٣٥) عينه، ص ٣٧٩.

(٣٦) قابوس نامه، ص ٣٨١.

الألطف طبعاً، صنفوا الترانيم من أجلهم»[٣٧].

وبهذا يكون الكاتب قد فطن إلى أهمية الموسيقى ودورها في الحياة البشرية، وتأثيرها على السلوك الإنساني، شأنه شأن علماء التربية والنفس المعاصرين الذين يعلقون على الموسيقى والفنون أهمية كبرى في عملية التوجيه والتنشئة الإجتماعية وحفظ التوازن الانفعالي عند الأطفال.

ويربط قابوس بين الموسيقى والشعر الوجداني، فالواحد يكمل الآخر ولا يقوم إلا به، ويعتقد أن الشعر الغنائي متعدد الموضوعات كالفراق والعتاب والهجر والجفاء، وهي مسائل تتناسب واتجاهات الناس وأحاسيسهم، ويرى أن من الضروري أن يكون الغناء بألوان شتى ليناسب الأذواق المختلفة «واجعل أغانيك في شتى المعاني» كما يجعل لكل زمان ومكان نوعاً من الأغاني، فللربيع أغانيه وألحانه، وكذلك الصيف والخريف والشتاء، ومن المستهجن باعتقاده أن تعزف ألحان الصباح في المساء، وتنشد أغاني الظهيرة في منتصف الليل[٣٨].

وإن كان للون الموسيقى والقصيدة أثر في مشاعر الإنسان وسلوكه كذلك فإن الآلة الموسيقية لا تقل أثراً وفاعلية في مزاج الناس ومشاعرهم، فالناس برأي الكاتب مختلفون في الأمزجة والعقلية وخصائص الجنس، ويعود ذلك لمؤثرات البيئة وظروف الحياة الإجتماعية، فمنهم السوداوي الذي «يروق له الضرب على المثلث» ومنهم أبيض البشرة والسمين فيرغب في البم، كذلك فإن أصفر الوجه «يلائمه الضرب على الزير».

وهكذا وبوقوف الكاتب على خصائص الأجناس البشرية ودقائق أمزجتها، ومعرفة ما يناسبها وما لا يناسبها من الألحان الموسيقية وإيقاعات الآلات يجعل الموسيقى علماً ومهنة يسهل على العازف أن يتعلمها ويبرع في العزف ويحسن الإداء .

ب ـ آداب المغني وشروط نجاحه: وينتقل الكاتب من الخصائص العامة

---

(٣٧) عينه، ص ٣٧٩.

(٣٨) عينه، ص ٣٨١.

للموسيقى والغناء إلى الخصائص الفردية فيتحدث عن دور المغني وآدابه وشروط نجاحه، ملخصاً ذلك بالقواعد التالية:

أولاً: على المغني أن لا ينشد قصائده باستمرار إن كان شاعراً «وإذا كنت مغنياً وتعرف قرض الشعر فلا تكن مغرماً بشعـرك» فالنجاح والشهرة يكونان بجودة الاداء وبتناسب اللحن والشعر وأذواق المستمعين.

ثانياً: يجدر بالمطرب أن يكثر من الإيحاءات في الغناء ويقدم لحنه عذباً فيه حيوية وجودة في الاداء، فذلك يخفف من عناء العمل وصعوبة الغناء كما يقول قابوس: «واجتهد أن تكون محاكياً.. حتى يخف عناء غنائك».

ثالثاً: على المغني أن يحسن الاداء ولا ينشد غير الألحان الموزونة التي تناسب أذواق الآخـرين «وارع الذوق أيضاً في الغناء، ولا تتعلم الغزل واللحن غير الموزون».

رابعـاً: من أدب المهنة والغنـاء أن لا يفرط المـطرب في وصف عشيقته ويتغزل بها باستمرار، فإن راق له ذلك فلا يروق لغيره من الناس «وإذا كنت عاشقاً لشخص فلا تبث شجونك كل يوم.. فإنه لا يطيب للآخرين»[٣٩].

خامساً: على المغني أن لا يتعاطى المسكرات في مجلس الغناء، ويجب أن يحسن التعامل مع السكارى فلا يعارضهم في أي أمر «ولا تسبق إلى تعاطي الخمر... وفي الغناء لا تعاند السكارى في الأغنية التي يـطلبونهـا»[٤٠]، منعاً للورطة وفساد الحال وذهاب المال، لأن غاية المطرب أولاً وأخيراً التكسب وجمع المال، وقد لا يتحقق له ذلك إن عاند المستمعين وخالفهم. لهذا ينصح قابوس المغني بملاطفة أهل مجلس الغناء لا سيما السكارى والمعربدين منهم، ويعتبر ذلك شرطاً لنجاح المطرب، وسبباً للرزق وكسب المال بقوله: على المطرب «أن يساير طبع المجتمع»[٤٠].

سادساً: على المطرب بالتواضع أن أطراه الآخرون في مجلس الغنـاء «وإذا

---

(٣٩) عينه، ص ٣٨٠.

(٤٠) عينه، ص ٣٨٠.

مدحك شخص في المجلس فتواضع له». وعليه أيضاً أن يحرص على نفسه وماله فلا يعربد أو يتنازع مع غيره في المجلس «وراع ان لا تعربد مع مطرب آخر فيضيع أجر الغناء. . . وتعود إلى البيت مهشم الرأس والوجه»(٤١).

سابعاً: على المطرب أو العازف أن يتحلى بالصبر وشدة الإحتمال «واحسن فضيلة للمطربين هي الصبر»(٤٢)، فإطراب الناس يكون بالعزف المتواصل وبتتابع الأنغام والألحان لا سيما نغمات الراست والبوسليك، وأصفهان، والنوا وغيرها حسب اعتقاد قابوس الذي قال: «فاضرب أولاً شيئاً من نغمة الراست ثم غن على الراست بكل نغمة مثل نغمة العراق، ونغمة العشاق. . ونغمة البوسليك ونغمة اصفهان. . . لتؤدي شكل الطرب».

ثامناً: وأخيراً على العازف والمطرب أن يكونا كتومين للسر، فلا يكشفان ويرددان ما يريانه ويسمعانه من الأحوال من مجلس لآخر، فإن حفظ النعمة من حفظ اللسان «وحينما يذهب لا يذكر شيئاً قد رآه أو سمعه في المجلس في مكان آخر». وعليه أن لا يكترث بالأشياء والأحوال في مجلس الغناء فلا يراقب أو يتربص بما لا شأن له به في مجلس الغناء «يجب أن لا ينظر إلى ما لا ينبغي له النظر إليه»(٤٣).

٣ ـ الأخلاق والتعاملية في الصيد والملاهي:

فتن العرب والمسلمون بأدوات التسلية وبالألعاب الرياضية كغيرهم من شعوب الأرض، وكانت العابهم وملاهيهم ذاب طابع بسيط وخفيف وبعيدة عن العنف الذي ساد المجتمع الروماني ولا سيما في مصارعة الرجال والثيران (٤٤)

وقد تدرج العرب المسلمون في ملاهيهم من سماع الشعر والمناظرات ومشاهدة الرقص والجواري والغناء، الى العاب عقلية كالنرد والشطرنج وسباق

---

(٤١) عينه، ص ٣٨٢.

(٤٢) عينه، ص ٣٨٢.

(٤٣) عينه، ص ٣٨٢.

(٤٤) قا: الحضارة الإسلامية، لعبد المنعم ماجد، ص ١٣٧.

الخيل والقنص والصيد ولعب الصولجان والطبطاب وغيرها، وذلك بفعل عوامل داخلية وبتأثير الشعوب المختلفة التي اختلطوا بها كالفرس والروم.

وعرف عرب الجاهلية في أوائل عهدهم الصيد والسباق، وأقاموا لها الميادين الخاصة، وكان الصيد آنذاك مقتصراً على الطيور والغزلان، وآلاته كانت النبل والفخاخ. وفي عهد الرسول وتيمناً به، أحب المسلمون الخيل والسباق(٤٩). أما في العهد الأموي فتنوعت طرق الصيد وتعودت أدواته وصار يُصطاد الطير بالطير، بعد أن اتخذ الأمويون الباز والشاهين والعقاب والصقر آلاتٍ لصيد الطيور الأخرى، واصطادوا أيضاً الحيوانات الوحشية والمفترسة بالكلاب والفهود(٤٦)، ويعتبر يزيد بن معاوية من أكثر خلفاء زمانه رغبة برياضة الصيد والقنص، ويذكر عنه لشدة ولعه بالصيد أنه كان يلبس كلابه والقردة الاساور والقلانس الذهبية، وكان يسابق بين الخيل(٤٧).

وازداد الإهتمام بالرياضة والصيد في العصر العباسي، وتعددت وسائل اللهو، وغالى السلاطين والخلفاء لا سيما ملوك البويهيين والسامانيين والغزنويين والسلاجقة والفاطميين في تربية الجوارح والكلاب وأقاموا عليها أناساً يدربونها ويرعونها، عرفوا بالفهادين وأصحاب الصقور والكلاب، ويذكر عن ملكشاه السلجوقي وعن ولعه الشديد بالصيد القنص أنه تصيد عشرة آلاف رأس من الحيوانات، بنى من حوافرها ومن قرون الظباء التي صادها منارة، كذلك بالغ السلطان مسعود السلجوقي في تربية الكلاب والإفتتان بها(٤٨).

وقد كان عنصر المعالي شديد الولع أيضاً كغيره من أصحاب السلطان فاهتم بالصيد والقنص وأنواع الرياضات البدنية والذهنية، يشهد على ذلك مجموعة القواعد والقوانين التي وضعها بين أيدينا في «قابوس نامه» حيث تحدث عن الصيد

---

(٤٥) قا: تاريخ الحضارة الإسلامية، المرجع نفسه، ص ١٣٩. التمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٩٥.

(٤٦) عينه، ص ١٤٣. قا: التمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٩٦٥.

(٤٧) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص ١١٣. البداية والنهاية، مج ٧ ـ ٨، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٤٨) قا: التمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٩٦. تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٤١.

والقنص ووصف لعبتي النرد والشطرنج وحدد أصولها بدقة متناهية.

١ ـ القنص والصيد: استمتع قابوس بصيد الحيوانات وقنصها كغيره من الأمراء والحكام في زمانه، وكان يمارس تلك الرياضة في أوقات فراغه، يسلي أيامه ويخفف عن نفسه من أعباء السياسة والحكم. والصيد وإن كان حرفة عند العوام من الناس، فهو برأي الكاتب متعة ولذة ونزهة وليس وسيلة لكسب المال والثروة يقول: «ويجب أن يكون مقصود الملك من الصيد النزهة لا الطعمة»(٤٩)، فالأكابر ليسوا بحاجة إلى طعام ولا مال من صيد، كما هو شأن أهل السوقة الذين يحترفون الصيد ويمارسونه في كل مكان وزمان، بل عليهم حسب تعبيره أن لا يكثروا من الخروج إلى الصيد «فاخرج يومين للصيد»(٥٠) لكي لا تتعطل أعمالهم ومصالحهم ويلهون عن سياسة القوم وتدبير شؤون الرعية.

والصيد كغيره من الحرف والصناعات، لا يقوم بدون أدوات وآلات. أ ما آلات الصيد فهي: الخيل والباز والصقر والشاهين والكلاب.

الخيل: يعتبر قابوس الخيول الأصيلة القوية أكثر الآلات ضرورة في صيد الحيوانات المفترسة والوحوش الكاسرة، كالثيران والخنازير وحمير الوحش، فكما أن الخيول القوية مصدر قوة للفارس وسبب عنفوانه وشموخه، ووسيلة للنصر في المعارك، فهي ضرورية في رحلات الصيد لاقتناص الحيوانات. ولذلك ينصح قابوس بترك الجياد الضئيلة بقوله: «الرجل وإن كان منظرانياً فإنه يبدو حقيراً فوق الجواد الصغير» ويدعو إلى اختيار الجياد الأصيلة وفق أصول وشروط ومواصفات سبق ذكرها(٥١)، ويشدد على ركوب الحصان السريع الوثّاب لأن الصيد والفروسية من الأعمال الصعبة التي تتطلب مقدرة وكفاية عالية سواء عند الفارس والصياد أو في الحصان.

الكلاب والصقور والفهود: اهتم قابوس بتدريب هذه الحيوانات كغيره من

---

(٤٩) قابوس نامه، ص ٢٩٦.

(٥٠) عينه، ص ٢٩٥.

(٥١) را: الكتاب الفصل الرابع، تجارة الخيل، ص١١٧.

أهل زمانه، ونصح بتدريبها واستخدامها في أعمال القنص والصيد بقوله: «فإذا كنت تحب الصيد فاشتغل بالصيد بالباز والصقر والشاهين»[٥٢]، واقترح أن يكون الصيد بإطلاق الطيور المدربة في البراري لتطارد غيرها، ودعا أيضاً إلى الصيد بالكلاب بعد أن يُعَّود الكلب على السير أمام الصياد لا خلفه بتوجيه من العبد الذي دربه.

وتجدر الإشارة الى أن قابوساً عندما تحدث عن صيد الطيور والحيوانات المفترسة توجه في حديثه إلى الخاصة والنخبة دون العامة، فحذر الملك من الإمساك بالكلب وقت صيده «فلا يليق به أن يمسك الكلب»[٥٣] ومن حمل الفهود والسباع على الحصان وراء ظهره، فسمو الملوك يستدعي إطلاق هذه الحيوانات في الميدان، لذلك قال: «وإذا كنت تصطاد بالفهد فلا تجعل الفهد على الجواد وراء ظهرك... كما لا يشترط أن يحمل السبع وراء الظهر»[٥٤].

ويحرص الكاتب على حياة الصيّاد، فينصحه باختيار الحيوان المدرب والمطيع سواء كان فهداً أو كلباً أو حصاناً، فالصيد برأي قابوس للمتعة والنزهة وليس لرعاية الفهد أو الكلب[٥٤]. كما يدعو الصياد إلى التأني والصبر أثناء صيده فلا يطارد الوحوش الشرسة الكاسرة مخافة أن يصاب بسوء يقول: «ولا تطارد السباع المفترسة»، أما إذا كان لا محالة من صيد هذه الحيوانات فإن على الصياد أن يدّخر قوته وطاقته لحين لقاء الفريسة، ولا يُركض حصانه عبثاً[٥٥].

٢ - لعب النرد والشطرنج، وضرب الصولجان:

ضرب الصولجان: - شغف الملوك والسلاطين بضرب الصولجان ولعب النرد والشطرنج وتفننوا في هذه الألعاب ومارسوها بإتقان، واقتصرت على الخواص والأرستقراطيين دون سواهم من الناس[٥٦]. ولعبة الصولجان أو الكرة،

---

(٥٢) قابوس نامه، ص ٢٩٦.

(٥٣) عينه، ص ٢٩٦.

(٥٤) عينه، ص ٢٩٦.

(٥٥) عينه، ص ٢٩٥.

(٥٦) الصولجان: إسم فارسي، وضرب الصولجان لعبة تعرف في وقتنا الحاضر بالبولو (Polo). وهذه

هي في الأصل لعبة فارسية نقلها عنهم بنو العباس ومارسوها حتى شاعت بين الأمراء والقادة في حاضرة الخلافة. أما شروط اللعبة فتنحصر في أن تُلقى في أرض الميدان كرة من مادة خفيفة يتسابق فارسان إلى الإمساك بها بعصا عقفاء تسمى الصولجان(٥٧).

وضرب الصولجان من الألعاب الملوكية زاولها الحكام والسلاطين والأرستقراطيون دون سواهم، وقد لا تخلو هذه اللعبة من المخاطر والمخاوف، فقد يلحق المتبارين من صدمات أو سقوط وقت المبارزة من على الخيل ويصابون بأذى شديد، لذلك نصح عنصر المعالي من التمادي بهذا النوع من الرياضة بقوله: «وإياك من كثرة الركوب فإنه مخاطرة»، وأشار إلى أن اللعب مرة أو مرتين في السنة يكون كافياً «وإذا نشطت إلى الصولجان مرة أو مرتين في السنة فأجيز ذلك» لأن معيار الإنتصار في هذه اللعبة هو الصدمة وسقوط الفارس عن جواده. إذاً فالفارس في كلا الأمرين مصاب لا محالة وقد يتأذى ويشقى حسب اعتقاد قابوس لا سيما إن كانت تنقصه المهارة.

ويشرح لنا قابوس خصائص اللعبة وقواعدها فيقول: قوام اللعبة فريقان، عدد كل فريق أربعة فرسان «ويجب أن لا يزيد جميع الفرسان عن ثمانية أشخاص» وهؤلاء يتوزعون وفق ترتيب وتنظيم، يقف الواحد في رأس الميدان والثاني في آخره، ويقوم كل منهما مقام حراس الشبكة في لعبة كرة القدم في زماننا، ويتوزع الباقون في وسط الملعب يضربون الكره باتجاهات معاكسة(٥٨). وينبه عنصر المعالي أعضاء الفريق من كثرة الذهاب والاياب بقوله: «ولا تكثر في الكر والفر لتأمن من الصدمة»(٥٨) بهدف الحرص على سلامة اللاعب.

وينصح بشيوع الروح الرياضية بين اللاعبين طالما أن الهدف من اللعب هو المتعة والتسلية واللذة.

اللعبة تقدمت على أيدي المماليك الذين أقاموا لها الملاعب وكانوا يعلمونها في المدارس الحربية. انظر: عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٤٣.

(٥٧) التمدن الإسلامي، مج ٢، ص ٦٩٨.

(٥٨) قابوس نامه، ص ٢٩٨.

لعبة النرد: من الألعاب المسلية القديمة الجديدة، ابتكرها المصريون القدماء والهنود(٥٩) وطورها الفرس بعد أن أدخل عليها أزدشير الأصول الرياضية(٦٠)، وسميت «نزدشير» وادواتها لوحة مقسمة إلى مربعات وعدد من الأحجار.

انتشرت هذه اللعبة في الجزيرة العربية، وشاعت بين جميع الأوساط الإجتماعية، وكان يلجأ إليها الناس وقت الراحة والدعة. وقد بالغ البعض في ممارستها واتخذوها وسيلة لكسب المال والثروة، الأمر الذي دفع الرسول ﷺ إلى درء الخطر فحرّمها وأباح لعب الشطرنج من غير رهان(٦١).

وبمجيء العصر العباسي تبدلت ظروف الحياة الإجتماعية، وتغيرت العادات والتقاليد وتنوعت الفنون والألعاب وأدوات التسلية، وعادت لعبة النرد لتظهر من جديد بتشجيع من الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين بالغوا في طلب المتعة واللذة، وتفننوا في ممارسة الألعاب والهوايات من غير أن يعبأوا بالدين وبالمصالح العامة، وانعكس ذلك سلباً على حياة الناس، فأفرط البعض في اللهو والمجون والترف، وحولوا التسلية إلى مقامرة لذلك تصدى عنصر المعالي لهذا الموضوع بهدف ترميم ما تصدع وإصلاح ما فسد، فدعا إلى التوسط في الأفعال ومظاهر السلوك والتزام جانب الأعتدال « وإذا لعبت فالعب بين حين وآخر »، وقبل بلعبة النرد شريطة أن لا يقصِّر اللاعب في حق نفسه وعياله أو يتهاون بشأن الشريعة، وحذر في الوقت عينه من الرهان في اللعب، رغم اعتقاده بأنه أحد الحوافز الأساسية عند اللاعبين، ولم يقبل الكاتب بالرهان إلا إذا كان على طعام أو ضيافة قال: «وحذار أن تلعب على ذهب وفضة»(٦٢).

وندد الكاتب بالقمار واعتبره آفة خطيرة تفسد الشباب وتهدم المجتمع، كما

---

(٥٩) قا: تاريخ اليعقوبي، مج ١، ص ٩٠.

(٦٠) قا: تاريخ الحضارة الإسلامية، ماجد، ص ١٣٨.

(٦١) قا: اليعقوبي، مج ١، ص ٨٩. أيضاً: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٣٨.

(٦٢) قابوس نامه، ص ٢٧٩.

حـذّر من معاشرة المقامرين وأهل السوء بقوله: «فلا تلعب مع شخص معروف بالمقامرة»(٦٣).

كما نصح لاعب النرد أو الشطرنج بالتحلي بالقيم النبيلة والأخلاق السامية وأوصاه باتباع الأمور التالية:

ـ أن يكون لطيفاً في معاشرة الآخرين، ودوداً متعاوناً محباً لزملائه، سمحاً وغير صدامي في علاقاته، يلعب بروح رياضية من غير منافسة وشجار «ولا تتشاجر مع غريمك».

ـ أن يتواضع مع خصومه، فلا يتسابق باللعب، ولا يتهافت على تناول قطع اللعب «لا تبدأ بتناول قطع اللعب ما لم يلعب الأشخاص أولاً».

ـ أن يبتعد عن قول اليمين والقسم أثناء اللعب «ولا تحلف أنت ضربت الضربة الفلانية»(٦٤)، فالأمر برأي قابوس لا يحتمل الحلفان والقضية ليست بمستوى القسم.

نخلص إلى القول أن عنصر المعالي كان واحداً من كبار الأطباء، وأستاذاً في الموسيقى والشعر والغناء، فقد تجلت عبقريته في تشخيص الأمراض ووصفِ الأعراض، وفي فصل الاعراض الثانوية عن الرئيسية، وأظهر نبوغاً في علم الجراحة وفي معالجة عدد يسير من الأمراض الداخلية، وقد اعتمد في أبحاثه الطبية على المنهج العلمي الموضوعي واستند في دراساته إلى الملاحظة والتجربة المخبرية والفرضية العلمية، فكان على سبيل المثال يراقب القارورة ويتفحص بول المريض ليعرف الداء، وكان أيضاً يراقب سير الأمراض ويتبين أثر التغذية والفيتامينات على الجسم . وتجلت عبقريته قابوس في الفصل بين الامراض وفي تحديد مقدار الجرعات لمختلف الأعمار، كما تجلت في اكتشافه ومعالجاته لأمراض الصرع والمالينخوليا، فاستطاع أن يكشف مدى التداخل والترابط بين الأمراض النفسية والعضوية.

(٦٣) قابوس نامه، ص ٢٧٩.

(٦٤) عينه، ص ٢٧٩.

وكما برع عنصر المعالي في الطب الوقائي والعلاجي، برع أيضاً في فنون الشعر والغناء والموسيقى، فعرف بحور الشعر وألوانه وأغراضه، واستطاع بفضل نباهته وملاحظاته الدقيقة أن يصور آداب الشاعر وسلوكه ويحدد شروط تعامله مع الخاصة والعامة إن امتهن قرض الشعر. واهتم قابوس بالغناء والموسيقى، فعرّفنا بالآلات الموسيقية وبالألحان وألوان الغناء، وربط بين الأنغام والألحان وأمزجة الناس، وصنّف الأغاني تبعاً لطبقات المستمعين، وكشف لنا عما يصلح من الغناء للحرب والحب والحزن والفرح، وصور آدابيات العازف والمغني فحذرهما من السكر والعربدة، ومن معاندة المستمعين في مجالس الغناء.

وبدأ عنصر المعالي متخصصاً، أثناء حديثه عن الرياضة البدنية وعن مزاولة الهوايات وألعاب التسلية، في لعبتي الصيد وضرب الصولجان.

فالصيد برأيه وأن بدا متعة ولذة فهو لا يخلو من المخاطرة والمغامرة، لذلك ومن أجل سلامة الصياد قال بضرورة الصيد بالفهد والباز والشاهين والكلب والحصان، ووصف طرق القنص والصيد بمهارة وإتقان، فمنع الكر والفرومواجهة الوحوش الكاسرة وجهاً لوجه.

ولم يقبل قابوس بممارسة لعبة ضرب الصولجان أكثر من مرة واحدة في العام، لأنه قلما أن يسلم من خطرها اللاعب، فقد تلاحقه الصدمة ويسقط من على جواده مهما كان بارعاً ونشيطاً.

أما بالنسبة للعبة النرد فلا يجوز برأي الكاتب أن تكون على رهان أو تتحول إلى مقامرة يلهو الإنسان بها عن كسب رزقه وعبادة ربه.

الخاتمة

الخــاتمة

يجِّسد كتاب قابوس نامةْ الحكمة السياسية بقطاعاتها المتفرقة، فيَعالج قضايا السلطة والإدارة ويتـطرَّق إلى الاقتصـاد والاجتمـاع وتـدبيـر المنـازل والتـأديب والتعليم، فضلاً عن الاخلاق وآداب التعامل والعادات والتقاليد. ولقد كان المؤلف واقعياً وموضوعياً استلهم أفكاره من الميدان والبيئة اليومية، وبحث في الوقـائع فجاءت أبحاثـه قريبـة من الأذهان والافهـام، مبسطة وسهلة التـطبيق، ومغمورة بالعقلية الإسلامية وبالوقائع التاريخية، وبالعقلية اليونانية والفارسية في وقت معاً.

وتعتبر فلسفة قابوس السياسية فلسفة عملية نفعية تطبيقية قريبة من الافهام وإن كانت في مجملها عبارة عن مواقف وآراء متفرقة، فهو يتحدث عن جميـع الناس بمن فيهم الوضيـع والشريف، ويفـاضل بين الملك والـوزير بين الخبـاز والفراش، على أساس الرتبة والمهنة دون العنصر والأصل والإنتماء الطبقي.

والواقع أن فلسفة قابوس تشكل مع نظريات المفكرين السيـاسيين، أمثال الفارابي ونصير الدين الطوسي، وحدة متكاملة، وتعبر مجتمعة عن الفكر الفلسفي الإسلامي الوسيط، لكن الفارق بين الفريقين أن عنصر المعالي وسائر كتَّاب مرايا الامراء لم يتحدثوا عن الدولة من حيث ضرورتها ووجوبها ومضاداتها، أو عن الإمامة كما كان الحال في مدرسة الفقهاء، وإنما بحثوا في التعاملية وفي أخلاقيات الحكام وطرق المنفعة الشخصية، واهتمـامهم كان في رتبـة الفرد ودوره ومـركزه المهني وليس في انتمائه الطبقي الاجتماعي.

وعلى الجملة فإن تفكير قابوس تمركز حول الدولة كما كـان الحال عنـد

الفارابي وابن سينا مع فارق واحد هو أنه بحث في جزئيات الأشياء وقال بتمركز السلطة في الملك وفق مناهج وأصول وقوانين لاقت استحساناً عند الناس، وكانت مستلهمة من الواقع التجريبي، بينما رسم كل من الفارابي وابن سينا صوراً مثالية وانساقاً خيالية لبناء الدولة العادلة.

أما أبرز المفاهيم السياسية والاخلاقية وآدابيات التعامل التي خلص إليها قابوس فيمكن حصرها بما يلي: ـ

أولاً: المفاهيم السياسية:

ـ تختلف صورة الرئيس عند قابوس عما هي عليه عند المفكرين المتأثرين بالفلسفة السياسية اليونانية وعن تصور الفقهاء للإمامة، ففهم قابوس للرئيس لم يكن فهما دينياً (يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر) وإنما يصوره على أنه شخص استنفاعي يهتم بمصلحته وبالمحافظة على وجوده وعلى سلطته ونفوذه دون أدنى اعتبار لقيم أخرى، ويمنحه سلطات واسعة ومطلقة، فالحاكم في قابوس نامهْ هو ذلك الإنسان الفذ الملهم الذي يقر القوانين ويصدر القرارات ويحكم سواه من الناس دون أن يعبأ بهم، أولئك الذين ليس عليهم سوى الخضوع له والاستسلام لمشيئته، فهو علة بقاء الدولة وسبب ديمومة واستمرار واستقرار المجتمع.

بهذه النزعة الميكيافيلية يؤكد قابوس مبدأ حق الملوك المقدس في السلطة وحكم الجماعة مستوحياً ذلك من الأرث الفارسي الساساني، وهذا الحق هو منحة وهبة من الله للملك الذي وصل إلى العرش بمشيئة الله وبقضائه وقدره. لذلك ومن خلال هذا الإعتقاد أهمل عنصر المعالي مبدأ الشورى والانتخاب ولم يعبأ بأمر الإجماع الذي كان معمولاً به في عهد الخلفاء الأوائل.

ـ يدخل الكاتب أخلاق الملك في إطار تنظيره السياسي، فتنظيم الأخلاق لا يقل شأناً عند قابوس عن سياسة الرعية وتنظيم مؤسسات الدولة، فهي من صميم القضايا السياسية، ومتداخلة ومتكاملة مع غيرها من مسائل الحكمة السياسية.

ـ يقرر قابوس أن لا حياة للملك من غير وعي لظروف الحياة العامة الفكرية والثقافية والإجتماعية، ومن غير العدل والمساواة بين الناس، ويرى أن من واجب

الملك أن يجمع بين السلطة والثقافة بتوسيع دائرة معارفه ومداركه وتعميق خبراته بالإطلاع على الآثار والأخبار ومعاشرة الأخيار من العلماء الصالحين وأصحاب التجارب.

ـ جاء تقسيم قابوس للوظائف العامة في دولته تقسيماً عرضياً عن غير قصد، فتحدث عن الوزارة والقضاة والكتاب والندمان والخدام، ووصفهم وحدد أساليب عملهم وذكر سبل المنفعة والإستفادة في نطاق كل مهنة على حدة من غير أن يهتم بالدولة كنظام مؤسسات كما فعل نظام الملك في كتابه سياست نامهٔ، ولم يرسم صورة مثلى للمؤسسة البريدية أو لنظام الجندية. أما من حيث فهمه للدولة فلم يتجاوز مفهوم الملكية (الراعي والرعية).

ـ ينظر الكاتب إلى النظام القضائي من الزاوية الإسلامية، ويشدد على أن يكون القاضي مؤمناً بالشريعة وعاقلاً، ويقر قابوس بمبدأ الإجتهاد ويمنح القضاة حقوقاً واسعة داخل مجالس القضاء ويجعل كلمتهم نافذة.

ـ وينظر قابوس إلى الكتبة كعنصر هام وفاعل داخل دواوين الدولة وفي البلاط، فهم المسؤولون عن حفظ أسرار الدولة وعن وثائقها.

ـ اعتمد قابوس في بناء جيوشه على المرتزقة الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة، واهتم في هذا المجال بمبدأ التوازن العسكرى الداخلي، أي أنه قسم جيشه إلى فرق عسكرية وجعل كل فرقة من جنس معين، وكان يهدف من تلك السياسة إلى حفظ الأمن وعدم استئثار فرقة معينة بالسلطة والقوة، فذلك برأيه هو السبيل الوحيد والحل الناجح لإحباط مؤامرات الجند والحد من تمردهم، لا سيما وان التجنيد الإلزامي لم يكن معروفاً في زمانه، وفكرة القومية والولاء الوطني كانا معدومين تماماً.

ثانياً: المفاهيم الإجتماعية:

ـ تقوم المملكة برأي قابوس على ثلاثة أركان: الإنسان والدولة والمجتمع، وهذه العناصر حسب اعتقاده متداخلة متكاملة، وأن خللا بسيطاً في أي منهما يهدم الباقي ويتلف العمران.

ولهذا يبدو الكاتب شديد الحرص على حسن سير العناصر الثلاثة، فيهتم بأخلاق الفرد وسبل معاشه وطرق كسبه، وذلك بتحديد وسائل الإنتاج الفردي وأخلاقيات المواطن الفاضل. ويهتم أيضاً بالملك وبأركان الدولة فيحدد الأدوار والواجبات للجميع، ومن مظاهر اهتمام قابوس بالتكامل والتضامن الإجتماعيين، نصائحه في تربية البنين والبنات على حد سواء، ومقولاته بالتنشئة الإجتماعية الفاضلة وفق برامج تربوية على النسق الأفلاطوني حيث تراعى فيها مراحل عمر الإنسان المختلفة، الطفولة والمراهقة والرشد.

- آمن قابوس بالأسرة كمؤسسة اجتماعية أخلاقية وبالملكية الفردية وشدد على ضرورة الروابط العائلية وذلك بتأثير الشريعة الإسلامية، واعتبر الأبناء ذخراً للأهل، وقال بالزواج الشرعي وفطن إلى دور البيئة الطبيعية وإلى تأثير المناخ على الإنسان والأنسال، واقترح أن تؤجل مناسبات الزواج وتكون في الربيع. ولعل الكاتب هنا كان متأثراً بأفلاطون الذي اعتبر فصل الربيع أفضل فصول الخصب والإنجاب والتكاثر.

- لم يقبل قابوس بالنظام الطبقي ولم يكن مجتمعه مجتمعاً طبقياً، لقد ساوى بين جميع الرعايا ووزع الأعمال والوظائف تبعاً لاختصاصات الأفراد وكفاءاتهم، وشدد على مبدأ تكافؤ الفرص وعلى أهمية العدل الإجتماعي، وأقر قانون وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

- يهدف الكاتب في سياسته الإجتماعية إلى إصلاح المجتمع وتحريره من الظلم والجور والعدوان، ويحذر من اللصوص والمجرمين والخارجين على القانون ويدعو إلى تطهير الدولة منهم، لكنه لم يحدد سبل ذلك ولم يطالب بإعدامهم كما فعل أفلاطون في مدينته الفاضلة.

ويقتصر قابوس حديثه على العموميات، فيشدد على ضرورة العمل وأهمية الإنتاج لكنه يتعمق في دراسة السلوك الفردي وبجهد الأشخاص ودورهم واختصاصهم، من غير أن يبين أثر الجهد وفاعليته في تحقيق التكامل العام، داخل المؤسسات الإجتماعية والرسمية.

ومما يلفت الإنتباه في قابوس نامهْ، هو محاولة الكاتب باستمرار، تسليط الأضواء على الملك في رتبته ويدعوه للإشراف مباشرة على كبار الموظفين وعلى دواوين الدولة والوزير، ويطالبه باليقظة الدائمة والوعي بما يجري داخل البلاط لإحباط المؤامرات، وينصحه بتكريم القادة.

- يشدد الكاتب على مبدأ العصبية في بناء الدولة، وذلك من خلال دعوة الملك إلى تكريم الخاصة والبطانة والأقارب، فذلك يشد أزره ويساعده على الإمساك بزمام الأمور.

- تبرز في قابوس نامهْ ملامح هامة لتنظيم السياسة الخارجية للدولة ودعوة صريحة لتوسيع دائرة العلاقات والتعاون المشترك مع الدول الأخرى وذلك بالمصاهرة والأحلاف وعلاقات المصلحة المشتركة.

- يتأثر قابوس بالفكر اليوناني في موضوع الوزارة، فهو يشبه الوزير بالعقل كما فعل أفلاطون عندما لقب طبقة الحراس بالقوة العاقلة، كذلك فإن حال الوزير عند قابوس كحال وزراء الفرس، فهو وزير تنفيذ لا وزير تفويض، له الحق المطلق في اتخاذ القرار في اطار الوظيفة والمهمة المرسومة.

وأهمية الوزير عند قابوس تكمن أساساً في مساعدة الملك وإرشاده ونصحه وتوجيهه. وينوه بالثواب والعقاب بحسب المفهوم الإسلامي، ويقبل سفك دماء المذنبين والمعاندين والمفسدين بهدف حماية النظام العام والقانون.

- يعتبر قابوس القمار والرهان والكسل واللهو والعبث خطراً عظيماً على الفرد والمجتمع، فالقمار آفة أخلاقية تلهي الإنسان عن دينه ودنياه وتفقده كرامته وتعطل سبل معاشه وكسبه الحلال. ولا يقل السكر والعربدة سوءاً عن القمار فهما رذيلتان وشران عظيمان.

- يدعو الكاتب إلى الكسب الحلال والمشروع، ويعتبر الربا والسرقة والتعامل بالنقد مصادر محرمة أخلاقياً واجتماعياً وشرعياً، ويحذر من الإستدانة ورهن المتاع، مشدداً على أهمية الإنتاج والجهد وينصح بالإعتدال في الإنفاق.

ومن الآفات الإجتماعية برأي قابوس احتكار السلع الغذائية والضرورية.

والغش والخداع في المعاملة، ويعتبر التلاعب بالمكاييل والموازين وقت البيع والشراء من الشرور أيضاً، وينبه إلى عدم الإتجار بالسلع الإستهلاكية، ويشدد على ضرورة الأمانة والصدق في المعاملة.

- يعتبر قابوس الجريمة شراً مطلقاً، ويحذر الإنسان من قتل نفسه ومن قتل الأبرياء، ففي ذلك خروج على القيم والعادات والدين.

- يشدد على أهمية الضيافة كمبدأ أخلاقي اجتماعي، ويتحدث عن طرق إعداد الطعام وتقديمه وتناوله على المائدة وسبل التعامل اللائق مع الضيوف.

- يحرص قابوس على أهمية التطور الإجتماعي الرأسي والأفقي، فيتناول في تقريره جميع الطبقات العاملة والمنتجة داخل دولته وعلى اختلاف تجمعاتها وأعمالها وصنائعها فيحدد واجبات وأدوار ومسؤوليات كل طائفة على حدة، ويفصِّل في الحديث عن الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من الحرف والصناعات.

- تظهر النزعة الإنسانية عند قابوس من حين لآخر، فيدعو إلى رعاية المستضعفين والفقراء، ويحرّم قتل أسرى الحرب.

- يرد نشوء المجتمع إلى عوامل مادية، كالمأكل والمشرب والمسكن وتربية الأولاد والحرص على الأبناء والأملاك، وإلى عوامل دينية تتمثل في تحقيق الإرادة الألهية الداعية إلى حفظ النوع البشري بفضل التناسل والتكاثر، ويشدد قابوس على ضرورة الزواج الشرعي من المرأة المسلمة المؤمنة الطاهرة الراشدة، وينظر إلى المرأة نظرة شك وريبة، فهي برأيه ضعيفة العقل والإرادة ميالة للهوى. لكنه يساوي بين الولد والبنت في الحقوق والواجبات سيما في الطفولة ويهتم بتربية البنت بقدر اهتمامه بتربية الولد، وبحفظ حقوقها المدنية والإجتماعية بالقدر المطلوب اللهم إلا في مسألة التعليم فيحذر من تعليمها الكتابة.

- ويتساهل الكاتب بشأن الشريعة ويتسامح في قضية شرب الخمرة، فحيناً يحذر من تعاطي المسكرات وأحياناً يدعو إلى الشراب، ويبدو متذبذباً في إيمانه وصدق اعتقاده.

فلو كان مؤمناً بالفعل ومتمسكاً بأهداب الدين لما بحث في مسألة تعاطي

الخمرة أو ذكر الشراب، لكننا نلاحظ بوضوح أنه فصَّل في الموضوع وبين آثار الخمرة والشراب على الإنسان من النواحي الإجتماعية والأخلاقية والصحية، مراعياً في ذلك مصلحة الشارب ومنفعته الشخصية.

وفي الحقيقة ان قابوساً قد تعمق في موضوع الشراب وبحث في كيفية تعاطيه وبالوسائل الكفيلة بعدم الحاق الضرر بالشارب، وبين أثر الكحولية بدقة فائقة وطرق التخفيف من حدة الأضرار، وذلك بدعوة الشارب لملء معدته بالطعام قبل تناول الشراب ، كما أنه أوضح آثار السكر والإدمان على الإنسان وكشف السبل الآيلة لترك هذه العادة.

والواقع أن قابوساً في دراسته التحليلية لآثار الخمرة على الإنسان، كان سبَّاقاً في ميدان الطب، وقد أثبت جدارة وتفوقاً في كشف مشاكل الإدمان وترك العادة بالتدرج، وألمح إلى أمراض الصرع والمالينخوليا.

ـ اعتبر العبد آلة حياة ووسيلة كسب وإنتاج، وكانت نظرته للعبيد مادية نفعية مصلحية كغيرها من القضايا. ولم يتطرق إلى موضوع الحرية ولم يدخل في دراسة الطبقات الإجتماعية أو في موضوع إزالة الفوارق والحد من نظام الرق والعبودية، وإنما نظر إلى العبد والخادم نظرة مجردة كوسيلة إنتاج واضعاً المنفعة والمصلحة فوق كل اعتبار، وبدأ في ذلك محافظاً على مصلحة سيد العبد لا العبد نفسه.

واهتم الكاتب بسلوك العبيد ودرجاتهم وبأجناسهم، وفصَّل في كفاءات وقدرات وخصائص كل جنس، فبدا وكأنه يتعامل مع قطعان من الماشية.

والواقع أن عدم اهتمام قابوس بالأبعاد الإنسانية لمسألة الرق، يعود لاهتمامه بالجوانب الفلسفية التطبيقية ولتسليمه بالأمر الواقع بدلاً من التصور النظري والفكري المجرد.

ورغم هذا كله فإنه يؤيد المفاهيم الإسلامية التي تحد من العبودية، وقد برز ذلك بوضوح من خلال قبوله بزواج الإماء وفق العقود الشرعية.

ـ يبني مجتمعه على أساس الجهد والطاقة والإنتاج، ويوزع الناس تبعاً للمهن والحرف والصناعات. ورغم تركيزه على القطاعات الإنتاجية (الزراعة

والصناعة والتجارة) فإنه يتحدث عن الخاصة المحتشمين، والجنود والعامة، كجماعات إجتماعية وطبقات مستقرة.

ثالثاً: المفاهيم الإقتصادية:

- يولي قابوس موضوع الاقتصاد العائلي أهمية بالغة، ويهتم بسبل الإنتاج الفردي في مختلف القطاعات الإنتاجية والحرف اليدوية، هادفاً بذلك إلى تحقيق رفاهية الفرد والمجتمع من خلال الدعوة للحصول على الثروة والأملاك والمقتنيات. فمنفعة الواحد من الناس المادية الشخصية تنعكس برأي الكاتب إيجاباً وخيراً على المجموع (الدولة والمجتمع).

ويشدد الكاتب على أهمية التدريب والتوجيه والإعداد المهني لا سيما في قطاع الزراعة، ويدعو إلى تقديم الدعم للمزارعين، وهذه إشارات واضحة إلى مبادىء في النظام التعاوني والتكامل الإقتصادي. وقد بحث هذه المبادىء من خلال دعوته إلى إقامة الأسواق التجارية داخل البلاد وخارجها.

ومن خلال الحديث عن الوضع الإقتصادي يتضح اهمال قابوس لموضوع البناء المؤسسي للنظام المالي، كذلك فإنه لم يتحدث عن المداخيل والنفقات والتوازنات ونظام الخزانة، وسبل جباية الضرائب وغيرها كما فعل نظام الملك أو الطرطوشي.

رابعاً: مفاهيم عامة مختلفة:

- وقف موقفاً متأرجحاً من مسألة القضاء والقدر، فهو يدعو تارة إلى التواكل والتسليم والعمل وفق المشيئة الإلهية، ويشدد على مبدأ الإرادة الإنسانية الحرة تارة أخرى. وهذا الموقف يظهر تساهل الكاتب في مسألة الإيمان بالله والقرآن مرة جديدة، فهو يقبل بالقضاء والقدر، بقدر ما يعود عليه ذلك الموقف بالمنفعة الشخصية، كأن يغرس فكرة الإرادة الالهية في نفوس الجند وقت الحروب والمعارك، ويذكرهم أن الموت والحياة يكونان بقضاء الله وقدره، كذلك في قوله أن حق الملك المقدس في الحكم هو قضاء وقدر من الله.

- اهتم الكاتب بالطبيعة من حيث هي قائمة وليس في ماهيتها ووجودها ولم

يبحث في مبادىء الموجودات، لكنه مركز اهتمامه في ماهو موجود وقائم بالفعل، فدرس علم الطب على سبيل المثال وساهم في تكريسه كعلم موضوعي مستقل وقائم بذاته، وربط بينه وبين علوم أخرى كالكيمياء والصيدلة، واعتمد في أبحاثه الطبية على الملاحظة والتجربة والفرضية العلمية، وأخذ بنتاج الفكر البشري في هذا الميدان، لا سيما أبقراط وجالينوس.

والواقع أن قابوساً في علم الطب وقف موقف عالم الطبيعة الموضوعي، فلم يقبل بالشعوذة والسحر، ولم يفسر علاقات الأشياء على أساس غيبي وإنما كان في أبحاثه واقعياً موضوعياً بعيداً عن الهوى والعاطفة، تمسك بأصول المنهج العلمي وشدد على ضرورة التجربة المخبرية والبحث الميداني وأكد على ضرورة الجراحة والعلاج الوقائي في علم الطب.

الكتاب الثاني

كتاب النصيحة
أو قابوس نامة

تأليف : الأمير عنصر المعالي
قابوس بن اسكندر بن زيار

ترجمه للمرة الأولى : صادق نشأت
وأمين عبد المجيد بدوي

نظر في الترجمة وكتب التعليقات :
د. محمد دمج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين. هكذا يقول جامع هذه النصائح، الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير مولى أمير المؤمنين، لابنهَ گيلا نشاه[1].

أعلم يا بني أني قد هرمت، وغلب عليّ الضعف، ومن شعري، أرى لمنشور اعتزال الحياة كتابة على وجهي لا تستطيع محوها يد المدبرين. فلما وجدت يا بني إسمي في دائرة الراحلين، رأيت من المصلحة، قبل أن يصل كتاب عزلي ـ أن أدون كتاباً في ذم الزمان، والاستمتاع بالذكر الجميل، وأقدم لك منه نصيباً بموجب الحب الأبوي، حتى تنظر بنفسك في كلامي بعين العقل قبل أن تسحقك يد الزمان، وتنال بهذه النصائح الرفعة وطيب الذكر في الدارين.

وإياك أن يتخلف قلبك عن قبول هذه النصائح، فقد أديت ما عليّ من واجب الأبوة، فإذا لم تحسن الإفادة من قولي فقد يكون هناك آخرون يغتنمون سماعه والعمل به، ولو أن طبيعة الأيام مجبولة على أن لا يعمل إبن بنصح أبيه لشغلة في باطن الشباب، تجعل ظنهم من قبيل الغفلة يحملهم على أن يروا علمهم أسمى من علم الشيوخ، ومع أن هذا كان معلوماً لي فإن الحب الأبوي لم يسوِّغ لي السكوت، فما وجدته بطبعي جمعت منه بضع كلمات في كل باب، ودونت ما كان أوجب

(١) گيلانشاه: هو جهانشاه ابن كيكاوس بن اسكندر بن وشمگير. تولى الحكم بعد ابيه سنة ٤٦٢ هـ واستمر حتى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٦٩ ـ ١٠٧٧ م) را: د.م. الاسلامية، مج ١٠، ص ٤٧١. را أيضاً: زمباور، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ، ص ٣٢٠.

وأفضل في هذا الكتاب، فإن تحقق منك العمل فبها، وإلا فأكون قد أديت شرط الأبوة، وقد قيل: **ليس على القائل أكثر من الكلام، فإن لم يكن السامع مشترياً**(٢) **فلا ضير.**

إعلم يا بني أن المرء قد جُبل على أن يكد ويسعى، ليخلف ما يكون قد أصاب في الدنيا لأعز أقربائه، وقد أصبت من الدنيا هذا الكلام، وأنت أعز إنسان عندي، فلما أزمعت الرحيل، بعثت إليك بما كان من نصيبي، لكيلا تكون متابعاً لهواك، وتجتنب ما لا يليق، وتحيا حياة خليقة بأصلك الطاهر، فإنك ذو أصل شريف وكريم الطرفين من كلا الجانبين.

لقد كان أجدادك دائماً ملوك الدنيا، وكان جدك الأعلى **الملك شمس المعالي قابوس**(٣) بن وشگمير، حفيد **أرغش بن فر هادان**(٤)، وفي عهد **كيخسرو**(٥) كان له ملك **گيلان**(٦)، وقد أورد **أبو المؤيد البلخي** ذكره في الشاهنامة، وقد بقي منه ملك كيلان ذكرى لأجدادك. وجدتك أمي، كانت بنت الأمير **مرزبان**

---

(٢) راغباً في سماع النصيحة مقبلاً عليها (المترجمان)

(٣) شمس المعالي قابوس (٣٦٦ - ٤٠٣ هـ/٩٧٦ - ١٠١٢ م) أحد ملوك بلاد الديلم، ورث الحكم بعد أخيه مرداويج صاحب بلاد الجبال. ويحكى عن شمس المعالي أنه تحالف مع ملوك آل سامان لمواجهة البويهيين الذين انتزعوا منه مملكته. وتصفه كتب التاريخ بأنه كان ملكاً فاضلاً عالماً محباً للشعر والادب بارعاً في السياسة وفي علم النجوم، كما كان شديد السطو مهيباً كثير العقاب قليل العفو الامر الذي جعل أتباعه ينقلبون عليه ويرغمونه على التنازل عن ملكه لابنه منوجهر. را: تاريخ ابن خلدون، مج ٤ ص ٤٩٨. وأيضاً: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٣٤٨. را. أيضاً: القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، ص ٣٣٠. ابن الاثير، الكامل في التاريخ مج ٧، ص ٢٦٦.

(٤) هو جد شمس المعالي قابوس لامه.

(٥) هو كيخسرو بن سياوخش بن كيكاوس بن قيقباد، مَلَكَ الري وعمرها وعرف عنه انه زهد بالدنيا في أواخر أيامه وتنسك، وقد دام حكمه ستين عاماً. را. معجم البلدان، مج ٣، ص ١١٦. را. أيضاً: تاريخ الطبري، مج ١، ص ٣٦١ - ٣٦٧.

(٦) گيلان: تعرف بجيلان، وهو اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان تقع بين قزوين وبحر الخزر. وتشمل قرى عديدة منتشرة على الجبال. را: اثار البلاد واخبار العباد ص ٣٥٣. را. أيضاً: معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٠١.

بن رستم بن شروين[٧] مصنف مرزبان نامه، وجدها الثالث عشر **كايوس بن قباد**[٨]، كان **أخا لانوشروان العادل**[٩]، وأمك ابنة الملك الغازي **محمود بن ناصر الدين**، وكان جدي حسن بن **فيروزان**[١٠] **ملك الديلم**[١١].

فكن فطناً يا بني واعرف قدر أصلك ولا تكن من السافلين. ومع أني أتوسم فيك الخير والتوفيق، رأيت من الواجب تكرار هذا الكلام.

تنبه يا بني أن يوم رحيلي قريب، وسيكون مجيئك على إثري قريباً، واعلم أن هذه الدنيا مزرعة من خير وشر، وما تزرع تحصد ولا يأكل أحد حصيده في مزرعته، بل يأكله في العمار، والعمار هو الدار الباقية، وللرجال الصالحين في هذه الدار همة الأسود وللطالحين همة الكلاب، فإن الكلب يأكل حيث يصيد[١٣]، والأسد يأكل في مكان آخر، ومكان صيدك هذه الدار الفانية، **وصيدك العلم والإحسان، فاصطد هنا** لتستطيع أن تجعل أكلك أسهل وقت الأكل بالدار الباقية، وطريق **ذلك طاعة الله عز وجل**. ومثل الذي يطلب الله كمثل النار مهما تنكسها تطلب العلو الازدياد، والذي

---

(٧) هو مرزبان رستم بن شروين الباونـدي مصنف مرزبان نـامه ، طلب الحكم من أخيه دارا بن رستم الذي حكم سنة ٣٥٥ هـ. را. زمباور، معجم الانساب، ص ٢٨٨.

(٨) هو كايوس بن قباد بن فيروز، أخو انوشروان العادل.

(٩) هو كسرى انوشروان بن قباد بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور. حكم ثمان واربعين سنة، وكان مجوسياً حكيماً فيلسوفاً، حكم بالعدل، وعمّر دولته وشيد الحصون والقلاع واخضع القيصر وفتح المدن والبلاد ودانت لـه الشام وانـطاكيا . را : المسعـودي مـروج الـذهب، مـج ١، ص ٢٦٣ -٢٧٠. را. أيضـاً: تاريخ الطبري، مج ١، ص ٥٢٠ - ٥٢٩ وأيضـاً: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٢.

(١٠) حسن بن فيروزان حاكم جرجان والدامغان تزوج ابنة ركن الدولة وحارب وشمگير وحاصره لمدة سنة في مدينة سارية، صالحه بعدها وزوجه من ابنة سالار الذي كان رهينة لديه. را : ابن الاثير حوادث سنة ٣٣٠ هـ . را. أيضاً: الاسرات الحاكمة لزمباور، ص ٣٢٨.

(١١) الديلم: كلمة تعني الاعداء أو النمل الاسود، والديالمة جماعة سموا بأرضهم وليس باسم لأب لهم. وبلاد الديلم هي منطقة قرب قزوين تمتاز بجبالها ووهادهـا، وملوك بلاد الـديلم القدمـاء يعودون في نسبهم إلى قبائل بني تميم العربية. را. القزويني، آثار البلاد، ص ٣٣٠. را. أيضاً: معجم البلدان مج ٢، ص ٥٤٤.

(١٢) الترجمة الحرفية: في ضرب الصولجان (المترجمان).

(١٣) جاء في الترجمة «يصيب»

يبتعد عن طريق الله وطاعته كالماء، كلما ترفعه يطلب الإنحدار، وقد وضعت هذا الكتاب في أربعة وأربعين باباً.

وها هي الأبواب التي أكتبها: ـ

الباب الأول:	في معرفة الله تبارك وتعالى.
الباب الثاني:	في خلق الأنبياء ورسالتهم.
الباب الثالث:	في شكر المنعم.
الباب الرابع:	في ازدياد الطاعة عن طريق القدرة.
الباب الخامس:	في معرفة حق الوالدين.
الباب السادس:	في ازدياد الجوهر بازدياد الفضل.
الباب السابع:	في الحسن والقبيح في الكلام.
الباب الثامن:	في نصائح أنوشروان العادل لابنه.
الباب التاسع:	في الشيخوخة والشباب.
الباب العاشر:	في ترتيب تناول الطعام.
الباب الحادي عشر:	في ترتيب تناول الشراب.
الباب الثاني عشر:	في التضييف والضيافة.
الباب الثالث عشر:	في المزاح ولعب النرد والشطرنج.
الباب الرابع عشر:	في العشق.
الباب الخامس عشر:	في الاستمتاع.
الباب السادس عشر:	في أدب الذهاب إلى الحمام.
الباب السابع عشر.	في النوم والراحة.
الباب الثامن عشر:	في الصيد والطرد.
الباب التاسع عشر:	في لعب(١٢) الصولجان.
الباب العشرون:	في قتال الأعداء.
الباب الحادي والعشرون:	في جمع المال.
الباب الثاني والعشرون:	في إيداع الأمانة.
الباب الثالث والعشرون:	في شراء الرقيق.

الباب الرابع والعشرون: في شراء الدار والضياع.
الباب الخامس والعشرون: في شراء الخيل.
الباب السادس والعشرون: في الزواج.
الباب السابع والعشرون: في تربية الولد.
الباب الثامن والعشرون: في الصداقة واتخاذ الأصدقاء.
الباب التاسع والعشرون: في الحذر من العدو.
الباب الثلاثون: في العفو والعقوبة.
الباب الحادي والثلاثون: في طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك.
الباب الثاني والثلاثون: في التجارة.
الباب الثالث والثلاثون: في علم الطب.
الباب الرابع والثلاثون: في علم النجوم والهندسة.
الباب الخامس والثلاثون: في رسم الشعر.
الباب السادس والثلاثون: في الغناء.
الباب السابع والثلاثون: في خدمة الملوك.
الباب الثامن والثلاثون: في آداب المنادمة.
الباب التاسع والثلاثون: في الكتابة والإنشاء.
الباب الأربعون: في شرائط الوزارة.
الباب الحادي والأربعون: في نظام القيادة.
الباب الثاني والأربعون: في آداب الملك.
الباب الثالث والأربعون: في الزراعة والصناعة.
الباب الرابع والأربعون: في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة.

في معرفة الله تبارك وتعالى

إعلم يـا بني أنه لا شيء قط من كـائن أو معدوم أو يمكن أن يكـون لم يصـر معلوماً للخلق كما هو، وأنت في معرفة الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ما عداه صار معروفاً، وإنما تكون عارفاً لله عنـدما تكـون غير معـروف، ومثال المعرفة كالمنقوش، والعارف كالنقاش، فما لم يكن في المنقوش قبول للنقش، لا يستـطيع نقاش أن ينقش عليه.

ألا ترى أن الشمع لمّا كان أكثر قبولاً للنقش من الحجر، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر؟ فعليـه يكون في كـل معرفـة قبول للعـرفان، والخـالق غير قـابل للمعرفة فتأمل في نفسك ولا تتأمل في الخالق.

أنظر إلى المصنوع واعـرف الصانـع، واحذر أن يضلك التلبث في المعـرفة طريق الصانع، لأن كل تلبث من الزمان، والزمان منقض، وللمنقضي بداية ونهاية، وهذه الدنيا التي تراها مغلقة لا تضيق بوثاقها وتيقن أن وثاقهـا لا يبقي غير محلول، وتفكر في آلاء الخالق ونعمائه، ولا تفكر في ذاته، فإن أضلَّ الناس من ينشد الطريق حيث لا طريق، كما قال النبي ﷺ[1] **تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته ولو لم**

(١) رواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب بلفظ: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله. ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس بلفظ: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله. كما رواه بهذا اللفظ الاصبهاني في كتاب الترغيب. ورواه أبو الشيخ في العظمة بلفظ: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله. قا: بكشف الخفاء ومزيل الالباس، للعجلوني الجراحي، مج ١، ص ٣٧١ - ٣٧٢. احياء علوم الدين، مج ٤، ص ٤٢٤. الجامع ألصغير، مج ١، ص ٥١٤.

يمنح الخالق بلسان صاحب الشرع، عباده الجرأة، لما اجترأ أحد على الكلام في معرفة الطريق إلى الله تعالى.

اعلم أن دعاءك الله بكل اسم وصفة إنما يكون على قدر عجزك وقصورك لا على قدر ألوهيته وربوبيته، إنك لا تستطيع الثناء على الله كما ينبغي له، فإذا كنت لا تستطيع الثناء عليه كما يليق به، فأنى لك بالمعرفة إذا أردت حقيقة التوحيد؟

فاعلم أن كل شيء في المجاز صدق في الربوبية، وكل من عرف الواحد حقاً بريء من محض الشرك، الواحد في الحقيقة هو الله عز وجل، وكل ما سواه مثنى، إذ كل شيء يتصف بالإثنينية أو يتركب من اثنين مثل الجسم، أو يكون اثنين بالتفريق مثل العدد، أو اثنين في الجمع مثل الصفات، أو اثنين في الصورة مثل المبسوطات، أو اثنين بالأتصال مثل الطبع والصورة، أو اثنين في مقابلة شيء مثل الجوهر والعرض، أو اثنين بالتولد مثل الأصل والفرع، أو اثنين بالمكان كالمثل والشبه، أو شيئاً متولداً من جوهر شيء كالهيولي والعنصر، أو اثنين عن طريق العدد مثل المكان، أو اثنين من طريق المد مثل الزمان، أو اثنين من طريق الحد مثل الظن والعيان، أو اثنين من طريق قبول شيء مثل الخاصية، أو اثنين عند الوهم مثل المشكوك حتى الوجود أو العدم، أو يكون هو نفسه اثنين مثل الضد والند.

ومميز كل هذه علامة الثنوية، حاشا الله الذي ليس كمثله شيء، والحقيقة أن تعلم أن كل ما يأتي في تصورك ليس هو الله بل الله عز وجل بارىء ذلك الشيء، بريء من الشرك والشبه.

في خلق الأنبياء ورسالتهم

أعلم يا بني أن الله تعالى ما خلق هذه الدنيا من أجل حاجته ولا خلقها عبثاً، بل فطرها على موجب العدل، وزينها على اقتضاء الحكمة، لأنه علم أن الوجود خير من العدم، والكون خير من الفساد والزيادة خير من النقصان، والحسن خير من القبيح، وكان على كليهما قادراً وبهما عالماً، ولم يعمل ما لا يليق أن يكون، أو كان على خلاف علمه، وعمل في ميقات، وكان ما عمله على موجب العدل، ولم يكن من الجائز أن يكون على موجب الجهل، فجاء وضعه على مقتضى الحكمة، حيث صوره على أبدع ما كان.

كذلك كان قادراً على أن يعطي الضوء بغير الشمس والمطر بغير السحاب، ويركب الأشياء بغير الطبائع ويوجد التأثير بالخير والشر في العالم بغير النجوم، ولكنه لما كان الأمر على أساس الحكمة، لم يوجد شيئاً بغير الواسطة وصيَّر الواسطة سبب السكون والفساد، لأنه إذا زالت الواسطة زال شرف الترتيب ومنزلته، وإذا لم يكن الترتيب لم يكن النظام ولا بد للفعل من نظام ولا بد أيضاً من واسطة، فأوجد الواسطة كذلك ليكون ثمت قاهر ومقهور، ورازق ومرزوق، وهذه الإثنينية شاهد على وحدانية الله تعالى.

ولما كنت ترى الواسطة ولا ترى الغرض، فإياك أن تنظر إلى الواسطة أو ترى القليل أو الكثير من الواسطة بل من رب الواسطة، فإذا لم تنبت الأرض، فلا تضع الغرم على الأرض، وإذا لم ينصف النجم فلا تضع الغرم على النجم، فإن النجم يعرف عن الإنصاف والجور بقدر ما تعرف الأرض عن الإنبات، وكما أن الأرض ليس

لها القدرة على أن تبذر فيها البذر الطيب فتنبت الخبيث، فإن للنجم هذا الحكم عينه ولا يستطيع عمل الخير والشر، ولما كانت الدنيا قد زينت بالحكمة كان لا بد للمزينة من التزيين.

فانظر في هذه الدنيا لترى زينتها من النبات والحيوان والمأكولات والملبوسات وأنواع الطيبات، إذ كل هذه زينة قد أوجدت بموجب الحكمة كما يقول في كتابه[1]: **﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾**. فإذا عرفت أن الله لم يخلق نعمه في هذه الدنيا عبثاً، فمن العبث أن لا يؤدي حق النعمة والرزق، وحق الرزق أن تعطيه للمرزوق، ولما كان العدل كذلك، فقد خلق الناس ليأكلوا، ولما أوجد الناس، كان تمام النعمة بالناس، وكان لا بد للناس من سياسة وترتيب، والسياسة والترتيب بغير إرشاد فجان[2] مبتسران[3]، لأن كل مرزوق يأكل رزقه بغير ترتيب وعدل، لا يعرف شكر الرازق، ويكون هذا عيب الرازق، إذ أعطى الرزق للجاهلين والجاحدين، ولما كان الرازق منزهاً عن العيب، لم يترك المرزوق جاهلاً، كما ذكر في كتابه[4]: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** وأرسل الأنبياء بين الناس فعلموهم أسلوب المعرفة وطريق الارتزاق، وأداء شكر الرزق، لكي يكون خلق الدنيا بالعدل، وتمام العدل بالحكمة، وتمام الحكمة بالنعمة، وتمام النعمة بالمرزوقين، وتمام المرزوقين بالأنبياء الهادين، إذ لا يجوز نقصان شيء من هذا الترتيب ليكون إرشاداً حقاً.

فإذا نظرت من ناحية العقل فإن كثيراً من الحرم والفضائل التي للمرزوق بسبب النعمة والرزق تستوجب أن يعرف حق هاديه، ويشكر رازقه، ويعترف بحق رسله ويتبعهم، ويعتقد صدق الأنبياء جميعاً، من آدم إلى نبينا ﷺ وأن يكون مطيعاً في الدين ولا يقصر في شكر المنعم ويراعي حق فرائض الدين ليكون حميد الذكر ومحموداً.

(١) القرآن الكريم، سورة (الدخان) آية ٣٨-٣٩

(٢) فجّان: مثنى فج، والفج هو النيء من الفاكهة.

(٣) مبتسران: مثنى مبتسر من فعل بسر. وبسر تعني عجّل في طلب الشيء في غير أوانه وقبل نضوجه را. القاموس المحيط، للفيروز ابادي مج ١، ص ٣٨٥.

(٤) القرآن الكريم، سورة (الذرايات) آية ٥٦.

في شكر المنعم

إعلم يا بني أن شكر المنعم واجب على جميع الخلق على قدر التكليف لا على قدر الاستحقاق، إذ لو جعلوا جميعاً كل كيانهم شكراً، لا يكونون قد أدوا بعد شكران جزء من ألف. اعلم أن حدود الطاعة في دين الإسلام خمسة: إثنان منها خاصان بذوي اليسار، وثلاثة بجميع الخلق، وأحد هذه الثلاثة، الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، والثاني أداء الصلوات الخمس، والثالث صوم رمضان، أما الشهادة فهي دليل النفي على حقيقة كل ما سوى الحق، والصلاة بصدق القول، إقرار العبودية، وصوم رمضان هو التصديق بالقول والإقرار بألوهية الله.

وبما أنك قلت إنني عبد فينبغي أن تكون في العبودية، وإذا أردت أن يطيعك عبدك، فلا تفر من طاعة ربك، وإذا فررت، فلا ترج خيراً من عبدك، إذ أن إحسانك إلى عبدك ليس بأكثر من إحسان الخالق إليك، ولا تكن عبداً غير طائع، فإن العبد غير الطائع طالب للربوبية والعبد الطالب للربوبية سرعان ما يهلك.

يحق لك إذا ضربت عنق العبد الذي يطلب الربوبية

إعلم أن الصلاة والصوم خاصان بالله، فلا تقصر فيهما، لأنك إذا قصَّرت في الخاص، حرمت من العام. واعلم بأن صاحب الشريعة قد عدل الصلاة بالدين كله، فمن ترك الصلاة، فكأنما ترك الدين كله، وجزاء غير المتدين القتل وسوء السمعة في الدنيا وعقوبة الله تعالى في الآخرة.

إياك يا بني أن تدع لقلبك سبيلاً إلى التقصير في الصلاة، فإنك إذا نظرت من وجهة الدين أو من ناحية العقل عرفت أن فوائد الصلاة جمة، وأولها أن كل من يؤدي

فريضة الصلاة يكون جسده وثوبه طاهرين، والطهر خير من الدنس على أي حال، ثم إن المصلي يكون خلواً من الكبر، لأن أصل الصلاة مبني على التواضع، فإذا اعتاد الطبع التواضع، تبعه الجسد أيضاً، ومعلوم لأهل المعرفة أن كل من أراد اتباع قوم وجب عليه أن يصحبهم، وإذا أمرؤ صحب التعساء صار تعساً، وإن أحد طلب السعادة والجاه وجب عليه اتباع أصحاب الجاه والثراء، وإجماع العقلاء على أنه لا دولة أقوى من دولة دين الإسلام، ولا أمر أمضى من أمر الإسلام.

فإذا أردت أن تكون دائماً ذا إقبال ونعمة، **فاطلب أصحاب الطول والحول، وكن مطيعاً لأرباب الدولة**، ولا تطلب خلاف هذا كيلا تكون تعساً. وحذار يا بني أن تستخف وتهزأ بالصلاة، بعدم إتمام الركوع والسجود والمزاح فيها فإن هذا ليس من عادة المتدينين.

فصل

واعلم يا بني أن الصوم طاعة تكون مرة في العام، وليس من المروءة التقصير فيها، ولا يجيز العقلاء مثل هذا التقصير. واحذر أن تحوم حول التعصب، لأن الصوم لا يخلو من تعصب، لا تتعصب في الصوم والإفطار، فإذا علمت أن خمسة رجال علماء متعقلين قد صاموا فصم أنت أيضاً معهم، وأفطر معهم ولا تركن إلى قول الجهلاء.

واعلم أن الله تعالى مستغنٍ عن شبعك وجوعك، ولكن الغرض من الصوم هو ختم من صاحب الملك على ملكه، وليس هذا على بعض من ذلك الملك، بل على كافة الجسد، على اليد والرجل والعين والفم والأذن والبطن والعورة، يجب ختم هذه كلها كي تنزهها كما ينبغي، وباعد هذه الأعضاء عن الفجور الذي لا يليق، حتى تكون قد أديت حق الصوم. واعلم أن أجلَّ عملٍ في الصوم هو أنك إذا أجلت طعام النهار إلى الليل أن تعطي للمحتاجين ذلك الطعام الذي كان نصيبك بالنهار لتظهر فائدة تعبك، ويصل بره ونفعه إلى المستحقين.

وحذار أن تجيز التقصير في هذه الطاعات الثلاث الخاصة بعامة الخلق فإنه لا عذر للتقصير فيها. أما هاتان الطاعتان الخاصتان بالأغنياء، فعذر التقصير فيهما جائز، والكلام في هذا الباب كثير، ولكني قلت ما لا بد منه.

في ازدياد الطاعة عن طريق القدرة

اعلم يا بني أن الله عز وجل خص ذوي النعمة واليسار بفريضتين وهما الزكاة والحج، وأمر بأن يزور بيته كل مستطيع، ولم يكلف غير القادرين بالحج. ألا ترى في الدنيا أن تكاليف أبواب الملوك كذلك ينهض بها الموسرون؟ ثم إن اعتماد الحج على السفر، ومن الجهل تكليف غير القادرين بالسفر، لأن السفر بغير مكنة من التهلكة، وإذا لم تسافر عند القدرة لا تكون قد استكملت متعة الدنيا ولذة نعيمها فإن تمام اللذات في أن ترى مالم تكن رأيت وتأكل مالم تكن أكلت وتنال مالم تكن نلت، وهذا لا يكون في غير السفر، فأهل السفر، ذوو خبرة بالدنيا وتجربة للامور وتوفيق مستمر ومعرفة لكونهم يرون مالم يروا ويسمعون مالم يسمعوا، كما قيل في العربية ليس الخبر كالمعاينة. ومن ثم قدر الخالق السفر على أولي النعمة، ليؤدوا حقه، ويستحقوا نعمته ويمتثلوا أمر الله سبحانه، ويزوروا بيته ولم يأمر الفقير المعدم غير القادر كما قلت:

رباعي

إذا لم يدعني الحبيب ولم يجلسني معه وتركني هكذا ذليلاً لفقري فهو معذور لأنه خالق الكونين لم يدع الفقراء إلى بيته.

واعلم يا بني أن الفقير إذا حج، يكون قد ألقى بنفسه في المهلكة، لأن كل فقير يعمل عمل الأغنياء مثله كالمريض الذي يعمل عمل الأصحاء وقصته تشبه قصة ذلك الحاج:

(حكاية)

سمعت أن رئيس **بخارى**[1] قصد الحج مرة وكان رجلاً متنعماً، ولم يكن في

(١) هي مدينة قديمة من اعظم مدن بلاد ما وراء النهر، اقيمت عليها مملكة آل سامان، إشتهرت بكثرة=

تلك القافلة من هو أظهر منه شأناً، وكان يحمل متاعه أكثر من مائة جمل وقد جلس في الهودج(٢) بتيه ودلال، وبرفقته قوم من الفقراء والأغنياء، فلما اقترب من عرفات، كان درويش يسير حافياً ظمآن متورم القدمين، ورآه بذلك الدلال والنعيم، فالتفت إليه وقال: أيكون جزائي وإياك كلينا سواء يوم الجزاء، وأنت ترفل في تلك النعمة وأنا في هذه الشدة؟ فأجاب الرئيس: حاشا أن يجزيني الله عز وجل مثل جزائك يوم القيامة، فلو كنت أعرف أن ستكون منزلتي وإياك سواء لما أتيت قط إلى البادية. فقال الدرويش ولما؟ فأجاب الغني: أنا جئت بأمر الله، وقد جئت أنت مخالفاً أمره، لقد دعيت فأنا ضيف، وأنت طفيلي، فأنى تكون حرمة الطفيلي كحرمة الضيف؟ لقد أمر الله تعالى الأغنياء بالحج وقال للفقراء **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**(٣) أنت جئت إلى البادية بغير أمر الله عز وجل في ذلة مسغبة، وألقيت بنفسك في المهلكة، فكيف تستوي وأهل الطاعة؟

كل من يحج مستطيعاً يكون قد أدى حق النعمة وامتثل أمر الله، فإن تكن لك مؤنة الحج فلا تقصرٍ في الطاعة، ومؤنة الحج خمسة أشياء: المكنة، والمدة، والحرمة، والأمن، والراحة، فإذا وجدت نصيباً منها فاجتهد في تمامها.

واعلم أن الحج طاعة لا تسقط قط ما دامت المكنة، واعلم أن الله تعالى دعا مخرجي الزكاة بمقرَّبيه، ومخرج الزكاة بين الآخرين كالملك بين الرعية، لأنه رازق والآخرين مرزقون.

واعلم أن الله تعالى قادر على أن يكون كل الناس اغنياء، ولكن هكذا اقتضت الحكمة أن يكون البعض غنياً والبعض فقيراً، لتبدو منازل الناس واقدارهم، ويظهر الاعلون، مثل الملك الذي يوكل غلاماً بأرزاق القوم، فإن هذا الغلام الموكل بالأرزاق إذا أغتصبها ولم يؤدها لا يستطيع أن يأمن غضب الملك، وكذلك الغني إذا استأثر بالرزق ولم يؤت الزكاة لا يمكنه أن يكون آمنا من غضب الله تعالى والزكاة مرة في العام فريضة عليك، أما الصدقة فزيادة في الطاعة، وهي وإن لم تكن فريضة فإنها

= بساتينها. را. معجم البلدان مج ١، ص ٣٥٣.

(٢) الهودج هو مركب النساء.

(٣) القرآن الكريم، سورة (البقرة) آية ١٩٥.

من المروءة والإنسانية. فتصدق ماشئت ولا تقصّر فإن المتصدقين في أمان الله ويجب اعتبار الأمن من الله تعالى غنيمة.

وعليك ألا تشكك قلبك في مناسك الحج والزكاة ولا تقل لِمَ السعي والإحرام وقص الأظافر والشعر؟ ولم يلزم إعطاء نصف دينار من العشرين ديناراً؟ وماذا يريدون من البقر والضأن والإبل؟ ولم يقدمون الأضاحي؟ طهّر قلبك من هذا جملة، ولا تظن أن كل مالا تعرفه ليس بخير، فإن الخير هو أن لا تعرف ولا نعرف، واشتغل بطاعة الله عز وجل ولا شأن لك بكيف ولم، فإذا امتثلت أمر الله تعالى فاعرف حق الوالدين لأنه أمر الله تعالى.

في معرفة حق الوالدين

إعلم يا بني أن الخالق حين أراد عمارة الدنيا أوجد أسباب النسل، وصيَّر شهوة الوالدين البهيمية سبب وجود الابناء فأداء حقهما واجب على الأبناء بموجب الوجود. وإياك أن تقول أي حق للوالدين عليَّ؟ لقد كان غرضهما الشهوة، ولم أكن أنا المقصود؟ فإن لهما فضلاً عن الشهوة شفقة بالغة وقد احتملوا كثيراً، وأقل حق الأبوين أنهما الواسطة بينك وبين خالقك.

فينبغي بقدر احترامك لخالقك أن تحترم الواسطة احتراماً يليق بها، والوليد مادام صغيراً لا يحرم من حق الإرشاد وحب الأبوين، والله عز وجل يدعوهما بأولي الأمر. وكذلك قرأت في التفسير أن أولي الأمر ـ على قول ـ هم الآباء والأمهات، إذ أن حقيقة الأمر في العربية اثنان: الأمر والعمل كلاهما وأولو الأمر من يكون لهم الأمر والقدرة على السواء، وللأبوين قدرة في تربيتك وأمر في تهذيبك.

أي بني لا تستهن بإيلام قلب أبويك، فإن الخالق عز اسمه يأخذ بحق الوالدين .

ويقال انهم سألوا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه عن حق الوالدين فقال: إنه هذا الأدب الذي جعله الله تعالى في موت أبوي النبي ﷺ، فقالوا وماهو؟ قال إنهما لو أدركا زمن النبي ﷺ، لكان لزاماً عليه أن يقدمهما على نفسه، وأن يتواضع لهما ويراعي أدب البنوة. ومن ثم كان يأتي هذا الكلام ضعيفاً حيث قال(١) : أنا

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس، وله شواهد ضعيفة وورد بلفظ «أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب». واخرجه مسلم والترمزي وابن ماجة. قا: الاحياء، مج ٣، ص ١٦١. كشف الخفاء ومزيل الالباس، مج ١، ص ٥٦١. الجامع الصغير، مج١، ص٤١٣.

سيد ولد آدم ولا فخر. فإذا لم تنظر إلى الأبوين من وجهة الدين فانظر إليهما من وجهة إنسانيتك، إذ أن الأبوين سبب خيرك وأصل تربيتك، وعندما تقصر في حقهما فإنه يتضح كذلك أنك لست أهلا لأي خير، لأن من لا يعرف حق إحسان الأصل لا يعرف قدراً لإحسان الفرع أيضاً، وكيف يكون من الخير الإحسان إلى غير الشاكرين؟ فلا تطلب أنت كذلك خير نفسك وكن مع والديك كما تطمع من أولادك، لأن من يولد لك يطمع في نفس ما تطمع فيه من أبيك، إذ مثل الآدمي كمثل الفاكهة والأبوين كالشجرة، فكلما أكثرت تعهد الشجرة آتت ثمرا أطيب وكلما زدت تكريم أبويك كان دعاؤهما وابتهالهما من أجلك سريعاً الإجابة، وكنت أقرب إلى رضاء الله عز وجل.

وإياك أن تتمنى موت أبيك من أجل الميراث فإن ما يكون من رزقك، يصل إليك بغير موت الأبوين، لأن الرزق مقسوم وكل إنسان يصل إليه ما يكون قد قسم له في الأزل، ولا تشق على نفسك كثيراً من أجل رزقك، لأن الرزق لا يزيد بالسعي، فقد قيل: **الرزق بالجد لا بالكد.**

وإذا أردت أن تكون راضياً عن الله عز وجل من أجل الرزق فانظر في الصباح إلى من يكون حاله أسوأ من حالك لترضى دائماً عن الله عز وجل وإذا كنت فقيراً في المال فاجتهد في أن تكون غنياً بالعقل، لأن العقل خير من الغنى(١)، إذ يمكن تدبير المال بالعقل، ولا يمكن تكوين العقل بالمال، والجاهل يفلس سريعاً من المال، ومال العاقل لا يستطيع اللص أن يسرقه(٢) ولا يستطيع الماء والنار أن يهلكاه، فإذا ملكت العقل فتعلم الفضل، لأن العقل بغير الفضل كرجل بغير ثياب، وشخص بغير صورة، وجسم بغير روح، وقد قيل(٣): **الأدب صورة العقل.**

---

(١) ورد بمعناه في العقد الفريد لابن عبد ربه ٢ : ٤٢٢. وفي النهج المسلوك للشيزري ص ٨.

(٢) المقصود هنا بمال العاقل عقله وفضله، كما يبدو من المفاضلة بين المال والعقل (المترجمان)

(٣) ورد القول في النهج المسلوك في سياسة الملوك، للشيزري ص ٧.

في ازدياد الجوهر بازدياد الفضل

إعلم يا بني أن المرء بغير نفع ما دام بغير فضل، كشجرة أم غيلان[1] التي لها جذع وليس لها ظل، لا تنفع نفسها ولا غيرها، وذو النسب والأصل لا يحرم احترام الناس وإن يكن غير ذي فضل، وأسوأ ما يكون المرء أن لا يكون له أصل ولا فضل، ولكن ينبغي الاجتهاد في أن يكون الجوهر في شخصك حتى ولو كنت أصيلاً كريم المحتد ، لأن جوهر الشخص خير من جوهر الأصل كما قالوا. **الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب** فإن العظمة للعقل والعلم لا للعنصر والأصل. ولا تكن تبعاً للاسم الذي يضعه أبواك فذاك الاسم علامة، والإسم هو ما تخلعه على نفسك من الفضل، لتجعل إسم أحمد ومحمد وموسى وجعفر علماً على أستاذ فاضل أو حكيم كامل، فإذا لم يكن لذي الأصل جوهر فإنه لايليق بصحبة أحد، وتشبث بكل من فيه هذان الجوهران، ولا تدعه من يدك، فإنه ينفع كل إنسان.

إعلم أن الكلام خير الملكات جمعاء، لأن الخالق جل جلاله خلق الإنسان أحسن مخلوقاته كلها، والإنسان الذي رجح على سائر الحيوانات رجحها بعشرة أشياء في بدنه: خمسة من الباطن وخمسة من الظاهر، فالخمسة الخفية مثل الفكر والتعلم والحفظ والتخيل والنطق، وتلك الخمسة الظاهرة مثل السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وما يكون لسائر الحيوان من هذه كلها لا يكون على هذه الجملة، فصار الإنسان لهذا السبب ملكاً قاهراً على سائر الحيوان، فإذا عرفت ذلك فتعلم الفضل وتعود فضائل اللسان، لأن لسانك يقول دائماً ما تجري عليه، فقد قيل: **أحسن الناس**

(١) شجرة ذات أشواك (المترجمان)

لساناً أكثرهم فضلاً. واجتهد مع كل فضائلك في أن تقول الكلام في موضعه، فإنك إذا أحسنت الكلام ولم يكن في موضعه يبدو قبيحاً، وآثر الصمت على الفضول؛ فإن الكلام غير النافع ضرر كله، والكلام الذي لا تأتي منه رائحة الفضل من الخير أن لا يقال، فقد مثل الحكماء الكلام بالنبيذ منه السكر والنشوة ومنه الخمار أيضاً، وحذار أن تقول الكلام الذي لم تسأل عنه، وتجنب سقط القول وإذا سئلت فلا تقل غير الصواب.

ولا تنصح أحداً ولا تعظه مالم يطلب إليك وخاصة من لا يسمع النصح، ولا تنصح على الملأ فقد قيل: **النصيحة بين الملأ تقريع**. وإذا كان امرؤ قد نشأ على الاعوجاج فلا تحم حول تقويمه، لأن الشجرة التي نشأت على العوج وتفرعت وطالت لا تستقيم بغير القطع والتشذيب، وكما تجود بحلو المقال لا تبخل عند القدرة ببذل المال، لأن الناس أكثر افتتانا بالمال منهم بالكلام، وتجنب مواطن التهم وفر من قرين السوء خبيث النية، ولا تكن معجباً مغروراً بنفسك. وضع نفسك في موضع إذا طلبوك فيه وجدوك حتى لا تخجل، واطلب نفسك من حيث وضعتها لتجدها ثانياً[٢].

ولا تفرح بغم الناس حتى لا يفرحوا بغمك، وانصف حتى تجد النصفة، وقل خيراً لتسمع خيراً، ولا تبذر في الأرض السبخة[٣] فإنها لا تثمر، والإحسان إلى غير الشاكرين كالبذر في الأرض السبخة، ولا تضن بالإحسان على مستحقيه واهد إلى الخير، فقد قيل: **الدال على الخير كفاعله**. واعلم أن فاعل الخير والآمر به أخوان لا يقطع الزمن وصلهما، ولا تندم على فعل الخير، فإن جزاء الخير والشر ينالك في هذه الدنيا أيضاً، وعندما تحسن إلى أحد فتأمل، تشعر أنه يوجد في قلبك من الارتياح والغبطة وقت الإحسان بقدر ما يصل إلى شخصه من راحة، وإذا أسأت إلى إنسان أحس قلبك من الضجر والضيق بقدر ما يصيبه من أذى، فإذا نظرت إلى الحقيقة رأيت أنه لا يلحق أحداً منك أذى بدون ضجرك، ولا تصل إلى أحد منك رفاهية بغير هنائك، فصار حقاً أنك تنال جزاء الخير والشر في هذه الدنيا أيضاً قبل أن تصل

(٢) يعني ضع نفسك في موضعها.

(٣) أرض غير صالحة للزراعة لكثرة الأملاح فيها.

إلى العالم الآخر، ولا يستطيع امرؤ إنكار هذا الكلام، فإن كل من أحسن أو أساء في حياته إلى إنسان يعرف أنني في هذا الكلام على حق، فلا تضن ما استطعت بالخير على أحد فإن ذلك الخير يثمر يوماً ما.

(حكاية)

كذا سمعت أنه في ذلك العصر الذي كان المتوكل خليفة في بغداد، كان له غلام اسمه الفتح، حسن الحظ دائم التوفيق، وقد تعلم الفنون والآداب، فتبناه المتوكل. وأراد الفتح هذا أن يتعلم السباحة فكان الملاحون يعلمونه فنونها، ولم يكن قد اجترأ على السباحة في دجلة ولكنه على عادة الصغار كان يتظاهر بنفسه قائلاً إني قد تعلمت.

وذات يوم ذهب للسباحة منفرداً بغير الأساتذة، وكان الماء يجري بشدة فجرف الفتح، وعرف الفتح أنه لا يستطيع مقاومته فجاراه وأرخى نفسه، وصار يدلف على وجه الماء حتى غاب عن أعين الناس، فلما قطع مسافة كان على ضفة النهر فجوات نخرها الماء، وفجأة بلغ به الماء الفجوات، فجاهد والقى بنفسه في إحداها وجلس وقال لنفسه: سأبقى حتى أرى ما حكمة الله تعالى في هذا؟ وعلى كل فقد نجوت هذه الساعة بنفسي، وقد بقي في تلك الفجوة سبعة أيام بلياليها.

وأخبروا المتوكل في اليوم الأول أن الفتح قد غرق، فنزل عن السرير وجلس على الأرض ودعا الملاحين وقال: كل من يأتيني بالفتح حياً أو ميتاً أعطيه ألف دينار، وأقسم الأيمان المغلظة قائلاً بأنه إذا لم يأتوا به بالحالة التي يكون عليها ولم أره فإني لن أتناول طعاماً.

فنزل الملاحون في دجلة وغاصوا وأخذوا يبحثون إلى أن وصل أحد الملاحين في نهاية اليوم السابع إلى تلك الفجوة ورأى الفتح فابتهج وقال: أذهب فاحضر السماري(٤)، فذهب وجاء إلى المتوكل وقال: ياأمير المؤمنين! إذا أتيت بالفتح حيا فماذا تعطيني؟ قال أعطيك خمسة آلاف دينار نقداً، فقال الملاح وجدته وسآتي به حيا. فأخذوا السماري

(٤) السماري نوع من الزوارق يستخدم في دجلة.

وأتوا بالفتح حياً، فأعطى المتوكل ما كان وعد به الملّاح، وقال للوزير: إذهب إلى الخزانة واعط للفقراء النصف من كل ما يكون بها، ثم قال احضروا الطعام، فإنه جائع سبعة أيام بلياليها، فقال الفتح: يا أمير المؤمنين إني شبعان؛ فقال المتوكل: لعلك شبعان من الماء، فقال الفتح: في هذه الأيام السبعة كان يأتيني في كل يوم عشرة أرغفة موضوعة على طبق، فكنت أجاهد وآخذ في كل يوم اثنين أو ثلاثة منها وأعيش بها، وكان مكتوباً على كل رغيف محمد بن الحسن الإسكاف فأمر المتوكل أن نـادوا من الرجل الذي كان يلقي بالخبز في دجلة؟ فأتوا به وقولوا له: إن أمير المؤمنين سيحسن إليك.

وفي اليوم التالي جاء رجل وقال: إني أنا الذي ألقيت الخبز في دجلة، فقال المتوكل: بأية علامة؟ قال بعلامة أن اسمي محمد بن الحسن الإسكاف كان مكتوباً على كل رغيف، فقالوا إن هذه العلامة صحيحة، فمنذ أي وقت تلقي بهذا الخبز في دجلة؟ قال منذ سنة فقالوا وما غرضك من هذا؟ قال كنت قد سمعت أن أعمل المعروف وألقِ به في الماء فإنه يثمر يوماً ما، فقال المتوكل لقد عملت بما سمعت ووجدت ثمرة ما عملت، وأقطعه خمس قرى على باب بغداد. وذهب ذلك الرجل إلى قراه، وصار وجيها جداً، إلى أن ذهبت في زمن القائم بأمر الله للحج، حيث رزقني الله تعالى زيارة بيته، فرأيت أحفاد ذلك الرجل في بغداد وسمعت هذه الحكاية من الشيوخ.

فلا تتقاعس عن إيلاء الجميل ما استطعت واظهر نفسك للناس بعمل الخير والإحسان، وإذا ظهرت فلا تكن بخلاف ذلك، لا تقل بلسانك غير ما تضمر، ولا تضمر في قلبك غير ما تقول، لكيلا تكون عارض القمح بائع الشعير(٦)، وانصف من نفسك في كل الأمور لأن كل من ينصف من نفسه يستغني عن القاضي(٧)، وإن كان لك غم أو فرح فبثهما لمن يعني بغمك وفرحك، ولا تظهر الألم والحزن والغم والفرح لكل إنسان. ولا تكن سريع الابتهاج والاغتمام بكل خير وشر، لأن ذلك

(٦) هذا مثل فارسي يضرب للمخادع الذي يظهر غير ما يبطن وكأنه يبيع للناس الشعير على أنه قمح (المترجمان).
(٧) لو أنصف الناس استراح القاضي... وبات كل عن أخيه راضي، كما في المثل الفارسي.

فعل الصغار، وكن على أن لا تتحول عن حالك بكل محال، فإن ذوي الحجى لا يتزحزحون عن مكانهم بكل حق وباطل، وكل سرور مآله إلى الغم لا تعده سروراً، وكن في وقت اليأس أكثر رجاء، واعتبر اليأس باب الرجاء المغلق، والرجاء باب اليأس، واعلم أن حاصل كل الأمور هو الارتحال عن الدنيا، ولا تكن منكراً للحق، وإذا اثار عليك إنسان فاطفىء ثورته بالصمت، واعلم أن الصمت جواب الحمقى ولا تضيع تعب أحد قط.

واعرف حق كل إنسان كما ينبغي، وخاصة حق قرابتك، واحترم شيوخ قبيلتك، فإن الرسول ﷺ قال(8): الشيخ في القبيلة كالنبي في الأمة.

ولكن لا تكن مولعاً بهم، حتى تستطيع أن ترى معايبهم كما ترى محاسنهم، وإذا لم تأمن الغرباء فآمن نفسك منهم بمقدار خوفك، ولا تأمن بالظن غير المؤتمن، لأن من الجهل تناول السم بمظنة الترياق، وانظر إلى عقول الناس وفضائلهم فإذا رأيت أنك تستطيع الحصول على الشهرة والعيش بالغباء والجهل فكن غبياً جاهلاً، وإلا فتعلم العلم، ولا تر عاراً في التعلم والاستماع لتنجو من العار.

وانظر في عيوب الفضلاء ومزاياهم متسائلاً: ما هو نفعهم وضررهم؟ وما مدى الربح والخسارة؟ ثم التمس نفعك من بين ذلك، وابتعد عما يقرب الناس من الأذى وعوِّد نفسك تعلم الأدب والفضل، وتعلم ما لا تعرف، فإن سقراط يقول: لا كنز خير من الفضل، ولا عزة أجل من العلم، ولا زينة أحسن من الحياء، ولا عدو أسوأ من الخلق السيء. فلا تحدد وقتاً للتعلم إذ في أي وقت وحال يجب أن لا تفوتك ساعة لا تتعلم فيها علماً، وإذا لم يوجد وقتئذ عالم فإنه يمكنك أن تتعلم من جاهل، ذلك لأنه في كل وقت تنظر إلى الجاهل بعين البصيرة وتوكل به بصارة العقل، تعرف أن مالا يعجبك منه لا ينبغي عمله، كما قال الإسكندر: إنني لم أفد من الأصدقاء بل أفدت على الأكثر من الأعداء، وذلك أنه إذا كان في فعل قبيح يستره الأصدقاء شفقة

(8) رواه ابن حبان في الضعفاء بنسب ضعيف. ورواه الديلمي عن أبي رافع لكن بلفظ «الشيخ في اهله...» ويذكر الحافظ ابن حجر كابن تيمية انه ليس من كلام رسول الله وإنما هو من كلام العلماء. وورد بلفظ الشيخ في جماعته كالنبي في قومه. قا: كشف الخفاء ومزيل الالباس، مج ٢، ص ٢١-٢٢. الاحياء، مج ١، ص ٨٣. الجامع الصغير، مج ٢، ص ٩٠.

عليّ حتى لا أعرفه، ويتحدث به العدو لعداوته فأعلمه، فأبعده عن نفسي، فأكون قد أفدت من العدو. وأنت أيضاً تكون قد تعلمت ذلك العلم من الجاهل لا من العالم.

وتعلم الفضل والأدب واجب على الناس، سواء منهم الأكابر والأصاغر، لأن التفوق على الأقران يمكن نيله بالفضل والمعرفة، وعندما ترى في نفسك ميزة لا تراها في أقرانك فإنك ترى نفسك دائماً أسمي (منهـم)[٩] ويراك الناس أيضاً أفضل من أقرانك بقدر فضلك وعرفانك، وعندما يرى الرجل العاقل أنهم زادوا قدره، فإنه يجتهد حتى يكون أفضل وأكثر معرفة، وإذا فعل كذلك، فإنه لا يمضي طويلاً حتى يصير أعظم من كل إنسان. وطلب العلم هو طلب الرفعة على الأصحاب والأقران، والكف عن الفضل دليل الرضا بالجهل والضعة، وتعلم الفضل وترويض الجسم جدّ نافعان فقد قيل: **الكسل فساد البدن**. وإذا لم يطعك الجسد فإنك لا تستريح جيداً، لأن جسمك لا يطيعك من الكسل وحب الراحة، وذلك أن أجسادنا لا تتحرك بطبعها، وكل حركة يعملها الجسم إنما يعملها بالأمر لا بالرغبة، وما لم ترد أنت وتأمر فإن الجسم لا يرغب في العمل قط فطوع جسدك بالعسف، ورده إلى الطاعة بالقهر، فإن من لا يستطيع تطويع جسده لا نصيب له من الفضل، وإذا جعلت جسدك مطيعاً بتعلم الفضل، لقيت سلامة الدارين في فضله. واعرف أن رأس مال الصالحات في العلم وأدب النفس والورع والصدق والتقوى وعدم الأذى والحلم والحياء.

أما حديث الحياء فإنه وإن قيل: **الحياء من الإيمان** إلا أنه في كثير من المواضع يكون وبالا على المرء، فلا تكن خجولاً بحيث يتطرق الخلل والتقصير في المهمات من الخجل، إذ أنه في مواضع كثيرة يجب عدم الخجل ليتحقق الغرض، ويجب الحياء من الفحش واللؤم وعدم الحفاظ والكذب ولا تخجل من قول وعمل فيهما صلاح، فكما أن الخجل نتيجة الإيمان، فإن الحرمان نتيجة الخجل.

يجب معرفة مواضع الخجل وعدم الخجل، وعمل ما يكون أقرب إلى الصواب، فقد قيل: **مقدمة الصلاح الحياء، ومقدمة الفساد القحة**. أما الجاهل فلا

---

(٩) ليست في الاصل (المترجمان).

تعده من الناس، وعد الفاضل عاقلاً حصيفاً ولا تحسب المتعفف الجاهل زاهداً، ولا تصحب الجهال، وبخاصة الجاهل الذي يحسب نفسه عالماً، ولا ترض بجهلك، ولا تصاحب غير طيبي السمعة، فإن الرجل يصير حسن الذكر بصحبة الأخبار، ألا ترى أنك تمزج زيت السمسم بالورد أو البنفسج ولبقائه حينا مع الورد أو البنفسج، لا يسميه أحد زيت السمسم، بل زيت الورد أو زيت البنفسج؟ وببركة أولئك الأخيار لا تكن جاحداً للعمل الصالح ولا تنسه ولا تعرض عن المحتاج إليك فكفاه ألم الحاجة، وإستشعر كرم الخلق والرجولة، وابتعد عن الأخلاق الذميمة، ولا تكن متلفاً فإن ثمرة الإتلاف الحاجة، وثمرة الحاجة الهوان، واجتهد أن تكون ممدوح العقلاء ولا تكون ممدوح الجهال، فإن ممدوح العوام والجهال مذموم الخواص، كما سمعت في الحكاية.

(حكاية)

هكذا يقولون ان أفلاطون كان جالساً ذات يوم، فاقترب منه رجل من جملة خواص المدينة وجلس، وأخذ في شتى أنواع الحديث، وفي خلال ذلك قال: أيها الحكيم! رأيت فلاناً يتحدث عنك ويدعو لك كثيراً ويثني عليك قائلاً: إن أفلاطون رجل عظيم ولم يكن قط رجل على شاكلته ولن يكون، فأردت أن أبلغك ثناءه، فلما سمع أفلاطون هذا الكلام إغتم وبكى، فقال الرجل: أيها الحكيم؛ أي أذى لحق بك من هذا الكلام فبكيت هكذا؟ فقال أفلاطون: أيها السيد لم يلحقني منك أذى قط، ولكن أية مصيبة أسوأ لي من أن يمدحني الجاهل ويعجبه عملي؟ لا أدري أية جهالة فعلت فكانت قريبة من طبعه وأعجبته، لأتوب عنها، واغتمامي هذا من كوني ممدوح الجهال.

وأذكر أيضاً في هذا المعنى حكاية أخرى:

(حكاية)

كان محمد بن زكريا الرازي (١٠) يسير مع قوم من تلاميذه، فجاء إليهم مجنون

(١٠) محمد بن زكريا الرازي (٢٥١ ـ ٣١٣ هـ/ ٨٦٥ ـ ٩٢٥ م) هو أبو بكر الفيلسوف ولد بالري ونشأ وتعلم فيها، واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والشعر والكيمياء. را: الزركلي، معجم=

وقال: لا يوجد أحد طيب إلا محمد بن زكريا وضحك في وجهه، فلما جاء محمد بن زكريا إلى بيته أمر بمطبوخ الأفتيمون[11] وأكله فسأله تلاميذه لم تأكل هذا المطبوخ؟ قال من أجل ضحك ذاك المجنون، لأنه لو لم يكن قد رأى فيّ جزءاً من جنونه لما ضحك في وجهي، فقد قالوا: **كل طير يطير مع شكه.**

وفضلاً عن ذلك لا تثر ولا تحتّد ولا تخْلُ من الحلم، ولكن لا تلِنْ كلياً بحيث تؤكل من اللين؛ ولا تكن أيضاً فظاً بحيث لا يمكن اجتذابك قط، وكن على وفاق مع كل قبيل، فإنه بالوفاق يمكن تحقيق المراد من الصديق والعدو.

ولا تعلِّم أحداً السوء فإن تعليم السوء سوء آخر، وإذا أساءك إنسان بغير جرم، فاجتهد أن لاتسيء إليه، فإن دار قلة الأذى في حي الإنسانية بل إن أصل الإنسانية قلة الأذى، فإن كنتَ رجلاً فكنْ قليل الأذى، ويجب على المرء أن ينظر في المرآة، فإن كان له مرأى حسن وجب أن يكون عمله حسناً كمرآه، وإن رأى وجهه قبيحاً وجب عليه أن يكثر من عمل الإحسان لأنه إن عمل قبيحاً وقع القبح على القبح، وقبيح جداً قبحان في مكان واحد.

واقبل النصح من الإخوان الموافقين، واخل كل وقت بناصحيك، وإذا قرأت هذه الكلمات التي ذكرتها وعرفتها، فلا تغتر بفضلك وعلمك، ولا تظن أنك عرفت كل شيء وعدَّ نفسك من جملة الجهال، فإنك تكون عالماً حينما تقف على جهلك، كما سمعت في الحكاية

(حكاية)

إنه في عصر كسرى أبرويز[12] وعهد وزارة بزرجمهر[13] جاء

= الاعلام، مج ٦، ص ١٣٠. را. أيضاً: طبقات الاطباء، مج ١، ص ٣٠٩ - ٣٢١. وايضاً: الصفدي، الوافي بالوفيات، مج ٣، ص ٧٦ انظر أيضاً. الفهرست لابن النديم، ص ٤١٥ - ٤١٨.

(١١) دواء يُعالج به مرض الصرع.

(١٢) كسرى ابرويز أوخسرو ابرويز بالفارسية: هو ابن هرمزد بن كسرى أنوشروان، ويسمى بابرويز للدلالة على النصر والظفر، وذكر عنه انه كان شديد البطش وان النبي ﷺ ارسل في دعوته إلى الإسلام، ودام حكم ابرويز ثمان وثلاثين سنة. را. تاريخ الطبري مج ١، ص ٥٨٧. را. أيضاً: مروج الذهب، مج ١، ٢٧٦ - ٢٨٠.

(١٣) هو بزرجمهر البختكان وزير كسرى أبرويز الساساني ومدبر أمره ومملكته وهو من حكماء الفرس=

رسول من الروم، فجلس كسرى على رسم ملوك الفرس وأذن للرسول، وكان يريد أن يعلن أن لديه وزيراً عالماً، فقال الرسول للوزير: يا فلان! أتعرف كل شيء في العالم؟ قال بزرجمهر: لا يا سيد العالم فغضب كسرى من هذا الكلام وخجل من الرسول وسأل: من يعرف إذاً كل شيء؟ قال بزرجمهر: كل شيء يعرفه الجميع والجميع لم يولدوا من أمهاتهم بعد.

فعد نفسك أجهل إنسان بين الجميع، فإذا عرفت نفسك جاهلاً صرت عالماً والعالم من يعرف أنه جاهل وعاجز، وكان سقراط مع علمه يقول: لو لم أكن أخشى أن يعيبني أكابر العقلاء من بعدي ويقولون ان سقراط ادعى كل علم الدنيا جملة لقلت إني لاأعرف شيئاً مطلقاً وإني عاجز، ولكني لا أستطيع أن أقول ذلك فإنه يكون مني دعوى كبيرة. وأبو شكور البلخي يمدح نفسه بالعلم فيقول:

لقد وصل علمي إلى حيث عرفت أني جاهل(١٤)

فلا تغترّ بعلمك مهما كنت عالماً، وإذا اتفق لك عمل فلا تكن مستبداً برأيك مهما كانت لك القدرة على إنجازه، لأن كل مستبد برأيه يندم دائماً، ولا تأنف من المشورة، وتشاور مع الشيوخ العقلاء والأصدقاء المشفقين، فإنه مع حكمة محمد ﷺ ونبوته، وبعد أن صار معلماً وقائماً بأمر الله عز وجل قد أمره قائلاً: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾(١٥) يامحمد تشاور مع هؤلاء المرتضين وأصحابك، عليكم التدبير وعلي النصر فإني انا الله.

واعلم أن رأي شخصين لا يكون كرأي شخص واحد وأنّ عيناً واحد لا تستطيع أن ترى ما تراه العينان، ألا ترى أنه عندما يمرض طبيب ويشتد عليه المرض، لا يعتمد على علاجه لنفسه فيحضر طبيباً آخر ويداوي نفسه باستطلاع رأيه وإن يكن أقل منه؟ وإن حدث لأحد بني جنسك أمر فلا مناص أن لا تضنَّ عليه

= المشهورين بالكفاية وحسن التدبير. ر: المسعودي، مروج الذهب، مج ١، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(١٤) تابد آنجا رسيد دانش من . . . كه بدانم همي كه نادانم.

(١٥) «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر» القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية ١٥٩.

بالجهد والتعب والمال، وإن يكن عدوك وحاسدك؛ لأنه إذا تم له أمر بمعونتك تخلص من هذه المحنة، وقد تتبدل تلك العداوة بالصداقة، وإذا جاء البلغاء المفوهون للسلام عليك فاحترمهم وأحسن إليهم ليحرصوا على السلام عليك، فإن ألأم الناس من لا يسلم عليه، وإذا تكلمت مع الناس فلا تكن هينا إذ لا يحسن بالرجل العاقل أن يكون هيناً، لأن الرجل وإن يكن حكيماً ـ لا تشبه حكمته الحكمة إذا كان هيناً ولا يكون لكلامه رونق، فاعرف كيف يكون شرط الكلام.

عن الحسن والقبيح في الكلام

أي بنيّ كنْ لسناً[1]، ولكن لا تكن كذاباً، ولا تجعل نفسك معروفاً بالكذب، وكن معروفاً بالصدق، حتى إذا ما كذبت مرة مضطراً قبل منك، ولتقل ما تقوله صدقاً، ولكن لا تقل الصدق الشبيه بالكذب فإن الكذب المشابه للصدق خير من الصدق الذي يشبه الكذب، لأن هذا الكذب مقبول وذاك الصدق غير مقبول، واحترس كيلا يقع مثل ما وقع لي مع الأمير أبي الأسوار[2]:

(حكاية)

اعلم أنه في أيام الأمير أبي الأسوار شاور بن الفضل ذهبت للغزو بگنجة[3] في السنة التي عدت فيها من الحج، إذ كنت قد غزوت كثيراً في الهند وأردت أن أغزو في الروم أيضاً، وكان أبو الأسوار رجلاً ساكناً عاقلاً وملكاً عظيماً شكوراً وعادلاً وشجاعاً وفصيحاً وبعيد النظر، وكان كما ينبغي أن يكون الملوك الممجدون، كان كله جداً لا هزلاً، فلما رآني أجلني كثيراً، ودخل معي في الحديث، وكان يتحدث عن كل شيء ويسأل وأجيب، وكانت تعجبه أحاديثي فأكرمني كثيراً ولم يتركني

(١) متكلماً. واللسن هو الوضيح اللسان والصادق.

(٢) أبو الأسوار هو أبو السوار الشدادي شاور بن فضلون بن محمد أحد ملوك أران وأرمنستان في القرن الخامس الهجري وكان مقره مدينة كنجة وله حروب كثيرة مع الأرمن والروم ولاه ألب أرسلان على أرمينية، وتوفي سنة ٤٥٩ هـ را: معجم الانساب، ص ٢٨٢.

(٣) گنجه: تسمى جنزة وهي مدينة عظيمة في بلاد أرّان من نواحي كردستان، بين خوزستان واصبهان. اشتهر أهلها بالتعصب للسنة والجماعة. راجع: معجم البلدان، مج ٤، ص ٤٨٢. را. أيضاً: اثار البلاد واخبار العباد، ص ٥٢٢.

لأعود، ورضيت كذلك لكثرة ما كان يحسن إليَّ وأقمت سنوات بگنجة وكنت دائماً أحضر للطعام والشراب في مجلسه، وكان يسألني في شتى أنواع الكلام، إلى أن جرى الحديث ذات يوم عن عجائب كل موضع، فقلت: في رستاق جرجان(٤) قرية وعين ماء بعيدة عن القرية، والنسوة اللاتي يذهبن لطلب الماء يتجمعن وقد أخذت إحداهن جرة فارغة، وهي تمشي في المقدمة وتنظر في الطريق، وفي أراضي تلك القرية دودة خضراء، وحينما ترى من ذلك الدود شيئاً تنحيه عن الطريق، لكيلا تطأه واحدة من النسوة اللاتي يحملن الماء، فإذا وطئت إحداهن تلك الدودة وماتت تحت قدمها تعفن الماء الذي تحمله في الجرة في الحال بحيث يجب إراقته ويلزمها أن تعود مرة ثانية وتغسل الجرة وتأتي بالماء من العين.

فلما قلت هذا الكلام عبس الأمير أبو الأسوار وحول وجهه، ولم يكن معي لبضعة أيام على تلك الحال التي كان عليها من قبل، حتى قال لي فيروزان الديلمي: إن الأمير ممتعض من تلك الحكاية؛ وقال: فلان رجل ثابت رزين فما يدعوه أن يتكلم معي كما يتكلمون مع الأطفال؟، فأرسلت في الحال قاصداً من گنجة إلى جرجان وأمرت بعمل محضر بشهادة قاضي وخطيب ورئيس وعلماء تلك الناحية يثبتون فيه أن تلك القرية لم تزل موجودة وحال تلك الدودة كما هي. وكان يلزم أربعة شهور لأعمل ذلك المحضر، ووضعت المحضر أمام أبي الأسوار وقرأته، فتبسم وقال: إني أنا نفسي أعلم أن قول الكذب لا يتأتى من رجل مثلك وخاصة في حضرتي، ولكن لم يلزم قول ذلك الصدق الذي يتحتم انقضاء أربعة أشهر والإتيان بمحضر بشهادة معارف تلك الديار حتى يقبل منك!!

ولكن اعلم يا بنيّ أن للكلام أربعة أنواع: أحدها غير جدير بالمعرفة والقول، وآخر جدير بالمعرفة وجدير بالقول أيضاً، وآخر جدير بالقول وغير جدير بالمعرفة، وآخر جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول. أما غير الجدير بالقول والمعرفة فهو الكلام

(٤) مدينة واقعة بين طربستان وخراسان في بلاد فارس، احدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفره. وهي قطعتان احدهما المدينة، والثانية بكر أباد وبينهما نهر، وتعتبر جرجان من أكبر مدن تلك البلاد، وقد أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والمؤدبين، واشتهرت بانتاج الابريسم. را: معجم البلدان، مج ٢، ص ١١٩. را. أيضاً: آثار البلاد واخبار العباد، ص ٣٤٨.

الذي يضر بالدين، وذاك الجدير بالقول والمعرفة أيضاً هو الكلام الذي فيه صلاح الدين والدنيا، ينفع في الآخرة وينفع في الدنيا أيضاً، ويكون من قوله وسماعه منفعة للقائل والسامع، وذاك الجدير بالمعرفة وغير جدير بالقول هو الذي يجعل عيب محتشم أو عيب صديق معلوماً لك، أو يظهر لك من طريق العقل أو الدنيا أنه غير شرعي، لأنك إذا قلته حل عليك غضب ذلك المحتشم، أو يترتب عليه أذى صديق أو خوف الهياج والاضطراب.

فهذا الكلام جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول، وذاك الجدير بالقول وغير جدير بالمعرفة هو الكلام الذي في كتاب الله عز وجل، وفي أخبار الرسول ﷺ وفي كتب العلوم، وللعلماء في تأويله تعصب واختلاف، لأنه إذا لم يهتم بتأويله أحد لم يؤاخذه الله بذلك. أما أفضل هذه الأنواع الأربعة التي ذكرتها فهو الكلام الجدير بالمعرفة وبالقول أيضاً، ولكل واحد من هذه الأنواع الأربعة من الكلام وجهان، أحدهما حسن والآخر قبيح فتحدث على خير وجه كلما تحدثت إلى الناس ليكون الكلام مقبولاً ويعرف الناس منزلتك فإن المرء مخبوء تحت لسانه كما يقولون بالعربية: **المرء مخبوء تحت لسانه** ومن الكلام ما إذا قاله أحد الناس يكدر سماعه النفس، وعين ذلك الكلام يمكن قوله بعبارة أخرى تنعش الروح.

(حكاية)

كذا سمعت أن هارون الرشيد رأى رؤيا على تلك الجملة: إذ تخيل أن جميع أسنانه سقطت من فمه، فدعا معبراً في الصباح وسأله عن تعبير تلك الرؤيا، فقال المعبر: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، جميع أقربائك يموتون قبلك بحيث لا يبقى أحد بعدك! فأمر هارون بأن يضربوا المعبر مائة عصا، قائلاً: يا كذا وكذا واجهتني بهذا الكلام المؤلم لهذا الحد! إذا مات أقربائي جميعاً فمع من أكون حينئذ؟ وأمر باحضار معبر آخر وقص الرؤيا ثانياً، فقال المعبر: يستدل بهذه الرؤيا التي رآها أمير المؤمنين على أن حياة مولانا ستكون أطول من حياة أقربائه جميعاً! فقال هارون: هذا في طريق العقل واحد لم يخرج التعبير عن ذلك، ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير، وأعطى لهذا الرجل مائة دينار.

(حكاية)

وسمعت حكاية أخرى ولو أنها غير لائقة بهذا الكتاب ولكن النادرة لا ترد،

كذا سمعت أن رجلًا كان نائماً مع غلامه وقال للغلام: إجعل دبرك من هـذه الناحية! فقـال الغلام: يـا سيدي! يمكن قـول هذا الكـلام بأحسن من هـذا، فقال الـرجل: كيف أقـول؟ قال الغـلام: قل هكـذا، إجعل وجهـك إلى تلك الناحيـة، فالغرض واحد في كلا القولين، حتى لا تكون قـد قلت مثل تلك العبـارة القبيحة، فقال الرجل: قد سمعت وأعتقتك.

فينبغي أن يعرف وجه الكلام وظهره، ولتقل ما تقوله على الوجه الأفضل حتى تكون لسناً وفصيحاً أيضاً، فإذا كنت تتكلم ولا تدري مـا تقول، فسـواء أنت وذلك الطائر الذي يسمونه الببغاء، فـإنه نـاطق أيضاً ولكنـه لا يفهم الكلام. ويجب على المتكلم أن يكون كل ما يقوله مفهوماً[٥] للناس ليكون من جملة العقلاء، وإلا فـإنه يكون بهيمة في صورة إنسان، أما الكلام فعظمه لأنه نزل من السماء، ولا تضـن في مقام القول بما تعرف من الكلام، ولا تضيعه في غير موضعه، حتى لا تكون قد جرت على العلم، ولتقل ما تقوله صدقاً ولا تكن ذا دعوى بغير معنى، وفي كل الدعـاوى إعرف البرهان أكثر من الدعوى، ولا تدعي المعرفـة في علم لا تعرفـه، ولا تطلب العيش من ذلك العلم، فإنه يمكنك تحقيق الغرض من ذلك العلم والفن إذا عرفته، ولا تصل إلى شيء فيما لا تعرف.

حكاية

يقال انه في أيام كسرى جاءت امرأة إلى بزرجمهر وسألته عن مسألة، إلا أنه لـم يكن مستعداً لها في تلك الساعة، فقال لا أدري، فقالت المرأة: إذا كنت لا تدري فبم تأكل نعمة الملك؟ فقال بزرجمهر: بما أدري، ولا يعطيني الملك شيئاً عما لا أدري، وإذا كنت لا تعرفين ذلك فتعالي واسألي الملك.

ثم إنه لا تفرط في الأمور واعلم أن الإفراط شؤم، وكنْ وسطاً في كل الأعمال،

(٥) الترجمة الحرفية: ويجب على المتكلم أن يصير كل ما يقوله معلوماً للناس. (المترجمان).

فإن صاحب شريعتنا يقول: **خير الأمور أوسطها**[٦] وتعود الرزانة في القول والعمل، وإذا ذممت من أجل تلك الرزانة والأناة، فاعلم أن ذلك خير من أن تمدح من أجل التسرع والخفة، ولا ترغب في معرفة سر لا يتعلق بنفعك أو ضرك ولا تبح بسرك لغيرك، وإذا بحت به، فلا تعد ذاك الكلام سراً من بعد ذلك، ولا تسر إلى أحد أمام الناس، فإنه مهما يكن باطن الكلام حسناً يحمل ظاهره على السوء، لأن الناس على الأكثر سيئو الظن بعضهم ببعض.

واجعل همتك في كل عمل وقول على قدر مالك، ولتقل كل ما تقوله بحيث يشهد كلامك على صدقك، مهما تكن عند الناس متكلماً وصادقاً، وإذا لم ترد أن تعيب نفسك بالظلم فلا تكن شاهداً على شيء قط، فإذا صرت (شاهداً) فلا تمتنع وقت أداء الشهادة، واسمع كل كلام يقال ولكن لا تكن متسرعاً وقت العمل به، ولا تقل ما تقول بغير تدبر، وقدم التفكير على القول لكيلا تندم على ما قلت، فإن النظر في العواقب كفاية ثانية، ولا تمل من سماع أي كلام، إسمعه سواء أكان يفيدك أم لا، حتى لا يوصد عليك باب الكلام.

وحذار أن تقول كلاماً بارداً، فإن الكلام البارد بذر تنبت منه العداوة، وإذا كنت عالماً فعدَّ نفسك جاهلاً، لكي ينفتح عليك باب التعلم، ولا تنقض أي كلام أو تمدحه ما لم يعلم لك عيبه وفضله، وتكلم على نسق واحد مع الخاص والعام حتى لا تخرج عن حد الحكمة ولا يصير الكلام وبالاً على المستمع إلا حيث لا يسمعون منك دليلاً وحجة على الكلام، فعندئذ تحدث كما يريدون حتى تخرج سالماً من بين كل قوم، ومهما تكن لسناً فاظهر نفسك أقل من ذلك، حتى لا تبقى راجلاً وقت القول والعمل[٧]، وكنْ كثير المعرفة قليل الكلام، لا كثير الكلام قليل المعرفة، فقد قيل: **الصمت سلامة ثانية وكثرة الكلام حمق ثان**، ذلك لأن الرجل الثرثار مهما يكن عاقلاً، فإن العامة يعدونه من جملة الحمقى، وإذا كان شخص أحمق، فإنه حين

---

(٦) حديث نبوي شريف اخرجه البيهقي في الشعب، ورواه السمعاني في ذيل تاريخ بغداد والديلمي بغير سند بلفظ «خير الاعمال اوسطها». قا: الاحياء، مج ٣، ص ٥٧ و ١٦٩. كشف الخفاء ومزيل الالباس، مج ١، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٧) أي حتى لا تعجز.

يكون صامتاً، يعد العوام صمته ذاك من العقل، ولا تكن مزكياً نفسك مهما كنت طاهراً ورعاً، لأن أحداً لا يسمع شهادتك لنفسك، واجتهد أن تكون ممدوح الناس لا ممدوح نفسك، ومهما تكن واسع المعرفة فتكلم بما ينفع حتى لا ينقلب الكلام وبالا عليك، كما حدث للعلوى الزنجاني[٨].

(حكاية)

سمعت أنه كان في أيام الصاحب شيخ بزنجان[٩] وكان رجلاً فقيهاً ووجيهاً من أصحاب الشافعي رحمه الله، ومفتياً وواعظاً بها، وكان هناك شاب علوى هو ابن رئيس الناحية ويشتغل بالوعظ، وكان بين كليهما دائماً مكاشفة[١٠] وكل منهما يطعن في الآخر على المنبر، وذات يوم دعا ذاك الشاب الشيخ بالكافر من فوق المنبر، فوصل إليه هذا الخبر فدعاه الشيخ من على المنبر بابن الحرام، فحملوا إليه ذلك الخبر، فنهض من مكانه وقصد الري[١١] وذهب إلى الصاحب شاكياً من ذلك الشيخ وبكى وقال: أيجوز في أيام مثلك أن يدعو أحد ابن رسول الله بابن الحرام؟ فغضب الصاحب وأرسل شخصاً ودعا ذلك الشيخ وجلس للمظالم مع الفقهاء والسادة وقال: أيها الشيخ! إنك رجل من أئمة الشافعية وعالم ووصلت إلى حافة القبر، فلا يجوز أن تدعو ابن الرسول بابن الحرام، فالآن صحح هذا الذي قلته، وإلا أنزل بك عقوبة لا يكون أشد منها حتى تكون عبرة لخلق الله ولا يأتي شخص آخر هذه الوقاحة كما هو

---

(٨) نسبة إلى مدينة زنجان.

(٩) زنجان هي بلدة من بلاد الجبال قرب ازربيجان تقع بين أبهر وقزوين يلفظها العجم زنگان وتعرف اليوم بالمنطقة الممتدة ما بين طهران وتبريز. نبغ في هذه المدينة العديد من العلماء والفقهاء والادباء، كما اشتهرت بالمعادن. را: معجم البلدان، مج ٣، ص ١٥٢. را. أيضاً: آثار البلاد واخبار العباد، ص ٣٨٣.

(١٠) عداوة وخصومة.

(١١) ناحية من نواحي بلاد فارس تقع على مقربة من نيسابور وقزوين بناها كيخسرو بن شياوس بالآجر المنمق المدهون ونصَّب نفسه ملكاً على أهلها. ويُذكر عن أهل الري أنهم كانوا من الشيعة، يعيشون في مساكن مبنية تحت الأرض، لكثرة الغزوات والحروب ضدها. وعُرف عنها انها كانت غنية بالمعادن والكنوز والجواهر. را. معجم البلدان، مج ٣، ص ١١٦ ـ ١١٧. القزويني، ص ٣٧٥ ـ ٣٨٣.

واجب في الشرع، فقال الشيخ: إن صدق شاهدي في هذا الكلام هو هذا العلوي نفسه! فلا تطلب مني شاهداً أحسن من هذا! أما بقولي فهو ابن حلال طاهر، وبقوله ابن حرام. فقال الصاحب: بأي معنى؟ فقال الشيخ: كل أهل زنجان يعلمون أنني عقدت نكاح أبيه وأمه، وهو يدعوني من فوق المنبر بالكافر، فإذا قال هذا الكلام باعتقاد، فالنكاح الذي يعقده الكافر لا يكون صحيحاً، وبقوله يكون من غير شك ابن حرام، وإذا قاله بغير اعتقاد يكون كذاباً، وابن الرسول لا يكون كذاباً، فادعوه كما تشاءون، ويجب الوقوف بلا شك على شيء من هذين، فخجل العلوي، ولم يستطع أن يجيب قط، وصار هذا الكلام غير المتدبر وبالاً عليه.

فكن متكلماً لا مهذاراً، فإن الهذر هو الجنون الثاني، وانظر لمن تتحدث إليه أهو مشتر(١٢) لكلامك أم لا، فإذا وجدته مشترياً فبع، وإلا فقل ما يعجبه ليشتري منك، وكن مع الناس رجلاً، ومع الآدميين إنساناً، فإن الرجولة شيء والإنسانية شيء آخر، وكل من صحا من نوم الغفلة يعيش مع الخلق كما قلت. ولا تكن ما استطعت نفوراً من سماع الكلام، فإن الناس يتعلمون الكلام(١٣) بسماع الكلام، والدليل عليه أنه إذا ولد طفل من أمه وحملوه إلى سرداب وربوه هناك ولم يتكلم معه أمه وأبوه ومرضعته، ولم يسمع كلام أحد، فإنه حينما يكبر يكون أبكم، ولا يعرف الكلام قط إلى أن يسمع أياماً طويلة ثم يتعلم. والدليل الآخر هو أن الطفل الذي يولد من أمه أصم لا يستطيع النطق قط، ألا ترى أن جميع البكم صم؟ وقد قال الحكماء: يضيء الملوك أبصارهم بسماع نصح الحكماء، لأن الحكمة كحل وتوتيا عين القلب، فيجب استماع كلام هؤلاء القوم بمسمع القلب والاعتماد عليه.

وفي هذا الكلام تذكرت بضع كلمات طيبة من كلام أنوشروان العادل ذكرناها في هذا الكتاب لتعمل بها بقدر ما تستطيع، فإن العمل بنصائح ذلك الملك واجب.

(حكاية)

هكذا قرأت في أخبار الخلفاء الماضين أن الخليفة المأمون ذهب إلى تربة

---

(١٢) أي راغب في كلامك وسامع له. (المترجمان)

(١٣) الترجمة الحرفية: ـ يصيرون متكلمين. (المترجمان).

أنـوشروان العادل فوجد أعضاءه متفتتة على تخت وصارت تراباً[١٤]، وقد كتب على جدار البيت بضعة سـطور بماء الـذهب بالخط البهلوي، فـأمر المـأمون فـأحضروا الكتاب العارفين بالفهلوية وترجموا تلك الكتابات إلى العربية، فصارت تلك العربية معروفة في العجم، وهي : كان جميع عباد الله عز وجل ـ ما حييت ـ يتمتعون بعدلي ولم يـأت أحد قط إلى حضـرتي إلا ولقي نصيباً من رحمتي، والآن وقـد حل وقت العجز، لم أعرف حيلة إلا أن أكتب هذه الكلمات على الجدار حتى إذا ما جاء أحد لزيارتي قرأ هذه الألفاظ وعرفها وتعلمها وعمل بها كيلا يبقى محروماً مني .

---

(١٤) جاء في كتابنا التبر المسبوك ص ٢٣٣ . انه لما فتح المأمون قـبر أنـوشروان وجد جثمانه على حاله، لم تتغير له صورة، ولا بليت ثيابه وان خاتمه كان بيده وقد كتب عليه : «به مه به نه به مه» ومعناه أن الاجود أكبر وليس الاكبر أجود.

في نصائح أنوشروان العادل لابنه

قال أولاً: ما دام الليل والنهار يتعاقبان، فلا تعجب من تقلبه الأمور.

وقال أيضاً: لماذا يندم الناس على عمل كان قد ندم عليه الغير؟

وقال أيضاً: لم ينام آمناً من له معرفة بالملوك؟

وقال أيضاً: كيف يعد نفسه حياً من لم تكن حياته على مراده؟

وقال أيضاً: لم لا تدعوه عدواً من يرى شهامته في أذى الناس؟

وقال أيضاً: إنك لا تدعو من يكون عدو محبك صديقاً.

وقال أيضاً: لا تصادق الجاهل، فإن الجاهل ليس جديراً بالحب أو البغض.

وقال أيضاً: اجتنب من يرى نفسه عالماً وهو جاهل.

وقال أيضاً: أنصف من نفسك لتستغني عن القاضي.

وقال أيضاً: قل الحق وإن يكن مراً، وإذا أردت أن لا يعرف العدو سرك فلا تفشه للصديق.

وقال أيضاً: كل عظيم يعتبر نفسه صغيراً فهو عظيم الزمان.

وقال أيضاً: لا تعد الخاملين أحياء.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون غنياً بلا عناء فكن حميد الفعال.

قال أيضاً: لا تشتر جزافاً كيلا تضطر إلى البيع جزافاً.

وقال أيضاً: الموت جوعاً خير من الشبع بخبز اللئام.

وقال أيضاً: بكل خيال يتراءى لك، لا تعتمد على غير ذوي الثقـة، ولا تنزع ثقتك ممن يوثق بهم.

وقال أيضاً: أعلم أن الحاجة إلى أقاربك الذين هم دونك مصيبة عظمى، فإن الموت في الماء خير من طلب الأمان من الضفدع.

وقال أيضاً: الفاسق المتواضع الذي يـطلب الآخرة خيـر من العابـد المتكبر الذي يطلب الدنيا.

وقال أيضاً: لا أجهل من ذلك الرجل الذي يرى وضيعاً وصل إلى الرفعة، وهو ما يزال ينظر إليه بعين الاحتقار.

وقال أيضاً: لا جرم أكبر من أن يدعي الشيء من لا يعرفه فيصير كذاباً.

وقال أيضاً: لا تغتر بمن يستبدل المفقود بالموجود.

وقال أيضاً: لا أسفل في الدنيا ممن يكون لأحد إليه حاجة يستطيع قضاءها ولا يفعل.

وقال أيضاً: كل من يقول عنك كلاماً قبيحاً بغير جرم، عده أكثر عـذراً ممن يبلغك هذا الكلام.

وقال أيضاً: إن المصاب في عزيز لا يلحقه من الألم ما يلحق بالمنتـظر بغير جدوى.

وقال أيضاً: إن من يضطر لرؤية المؤذى لأكثر تأذياً ممن لحق به الأذى البالغ.

وقـال أيضاً: اعتبـر العبد الـذي يشتري ويبـاع أكثر حـرية ممن يكـون عبداً لبطنه[1].

وقال أيضاً: لا ينبغي لأي عالم أن يتعب في تعليم من لم يؤدبه تعليم الزمان.

وقال أيضاً: صون كل شيء من الجاهل أيسر من صونه من نفسه.

وقال أيضاً: إذا أردت أن يثني عليك الناس فاثن على الناس.

---

(١) الترجمة الحرفية: عبد حلقه (المترجمان).

وقال أيضاً: إذا أردت أن لا يضيع تعبك في سبيل الناس، فلا تضيع تعب الناس.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون بعيداً عن الأذى فلا تكن حسوداً.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تقضي الحياة في راحة فاجعل سيرتك على مقتضى الأمور.

وقال أيضاً: إذا أردت أن لا تعد كالمجانين فلا تطلب شيئاً غير قابل للوجود.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون محترماً فالتزم الحياء.

وقال أيضاً: إذا أردت أن لا تكون مخدوعاً عاقلاً تعتبر الأمر غير الحاصل كالأمر الحاصل.

وقال أيضاً: إذا أردت أن لا تكون خجلاً فلا تأخذ ما لم تكن قد وضعته، وإذا أردت أن لا يضحكوا منك من ورائك فاخش من هم دونك.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تأمن طول الندم فلا تعمل بهوي القلب.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون في عداد الأحرار فلا تدع للطمع موضعاً في قلبك.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون من المنصفين فاحسن إلى من هم دونك بقدر الطاقة، وإذا أردت أن لا يصيب قلبك جرح لا يندمل بأي مرهم فلا تناظر الجاهل.

وقال أيضاً: إذا أردت بقاء قدرك فاعرف قدر الناس.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون خير ممدوح للناس فلا تظهر باطنك لمن لا عقل له.

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون أجل الناس فكن كثير العيش والملح(٢).

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون بعيداً عن مذمة الخلائق فكن مثنياً على آثارهم.

---

(٢) الترجمة الحرفية: كن واسع العيش والملح، أي كن كريماً مضيافاً (المترجمان).

وقال أيضاً: إذا أردت أن تكون محبوباً في قلب إنسان ولا ينفر منك الناس فتحدث كما يريد الناس.

وقال أيضاً: إذا أردت أن يكون لسانك طويلاً فكن قصير اليد.

هذه كانت كلمات أنوشروان العادل فإذا قرأتها فلا تحتقر هذه الألفاظ فإن أريج الحكمة وعبير الملك يتضوعان من هذه الأقوال لأنها كلام الحكماء وكلام الملوك، وتعلم الآن وأنت شاب إذ حينما تصير شيخاً لا تكون بك حاجة إلى سماع وتعلم النصحية والحكمة، لأن الزمان نفسه يكون قد علم الشيوخ.

في الشيخوخة والشباب

أي بني! مهما تكن شاباً فكن ذا عقل شيخ(١) لا أقول لا تصب(٢) ولكن كن شاباً مسيطراً على نفسه. ولا تكن من الشباب الذابلين. لأن الشاب الشاطر حسن لطيف كما يقول أرسطاطاليس: **الشباب شعبة(٣) من الجنون**، ولا تكن أيضاً من الشبان الجاهلين لأن البلاء لا ينشأ من الشطارة، ومن الجهل ينشأ البلاء، وخذ نصيبك بقدر الطاقة من أيام الشباب، فإنك إذا صرت شيخاً لا تستطيع أن تستجمع نفسك، كما قال ذلك الشيخ: لقد تحسرت واغتممت السنين الطوال قائلاً: عندنا أصير شيخاً لا يرغب في الحسان، والآن وقد صرت شيخاً فإني أنا نفسي لا أرغب فيهن، وإذا أنا رغبت فإنه لا يليق. ومهما تكن شاباً فلا تنس الله عز وجل ولا تأمن الموت، فإن الموت لا يعرف الشاب ولا الشيخ، كما يقول العسجدي:

لم يكن الموت بالشيخوخة والشباب   فيموت الشيخ ويعيش الشاب

(حكاية)

يحكى أنه كان بمدينة الرى خياط له دكان في بوابة الجبانة قد علق كوزاً في مسمار، وكان له شغف بأن يلقي حصاة في ذلك الكوز كلما خرجت جنازة من البوابة، ويحصيها كل شهر قائلاً: إنه قد مات في هذا الشهر كذا شخصاً، يفرغ

(١) أي كن ناضج العقل كالشيوخ.

(٢) صبا الرجل يصبو صبوا وصبوا وصبا وصباء (واوى) مال إلى الصبوة أي جهلة الفتوة (أقرب الموارد مادة صبو) (المترجمان).

(٣) نوع في الاصل الفارسي.

الكوز ويلقي به الحصى ثانياً إلى الشهر التالي، حتى انقضى على ذلك زمن، ومات ذلك الخياط، فجاء رجل في طلبه، ولم يكن يدري انه قد مات، فلما رأى باب الدكان مغلقاً سأل جيرانه أن أين الخياط؟ فقال الجار: إن الخياط وقع في الكوز أيضاً.

ولكن يا بني كن فطناً، ولا تغتر بالشباب، واذكر الله عز وجل في الطاعة والمعصية في أي حال تكون، واطلب العفو واخش الموت حتى لاتقع مثل الخياط في الكوز فجأة موقراً بالمعاصي، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرتك مع الشبان، وجالس الشيوخ كذلك، واجعل رفقاءك وندماءك خليطاً من الشيوخ والشباب، حتى إذا قال شاب محالاً بسبب السكر نبهك الشيخ، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان ولو أن غالب الشبان يضحكون من الشيوخ لأنهم يرون الشيوخ في حاجة إلى الشباب، ولهذا السبب يطلبون التقدم على الشيوخ، ويهزأون بهم، ولئن كان الشيوخ يتمنون الشباب فإن الشبان أيضاً بغير شك يتمنون الشيخوخة وقد يبلغونها أو لا يبلغونها، وإذا نظرت جيداً رأيت كلا منهما حسود للآخر، ومهما كان الشبان يعدون أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة مثل هؤلاء الشبان. وقرِّ الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافاً فإن جواب الشيوخ والعقلاء قاس.

(حكاية)

سمعت أن رجلاً عمره مائة سنة مقوس الظهر كان يسير متكئاً على عصا، فقال له شاب ساخراً منه، أيها الشيخ! بكم اشتريت هذه القوس حتى أشتري أنا أيضاً واحدة؟ فأجاب قائلاً. إذا عمرت وهبت لك بلا ثمن وإن كنت لا تستحقها.

ولكن لا تجالس الشيوخ البله، فإن صحبة الشبان العقلاء خير من صحبة الشيوخ البلهاء. وما دمت شاباً فكن شاباً، وإذا صرت شيخاً فتشيخ لأن التصابي في وقت الشيخوخة لا يليق، والشيخ الذي يتصابى يكون كمن ينفخ في البوق وقت الهزيمة، كما قيل:

الشيخ الذي يتصابى في وقت الشيخوخة ، كالنافخ[٤] في البوق وقت الهزيمة .

ولا تكن شيخاً أرعن ، واخش الشيوخ الدنسين الجائرين ، وأدحق[٥] الشيخوخة أكثر مما تؤدي حق الشباب ، لأنك ما دمت شاباً يكون لك أمل الشيخوخة ، وليس للشيوخ أمل غير الموت ، إذ أن الغلة إذا ابيضت ولم تحصد تناثرت ، وكذلك الثمرة التي نضجت ، إذا لم تقطف وقعت من الشجرة ، وقيل في المعنى :

لو وضعت على ناصية القمر قوائم التخت أوصرت كسليمان في الدولة والبخت
إذا نضج عمرك حزمت المتاع فالثمرة إذا نضجت سقطت من الشجرة

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ولتعلم أنك لا تترك لتبقى هكذا ، فإذا تعطل شبابك إنسد عليك باب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق جملة ، فلا أنت تسر بحياتك ، ولا أحد يسر بك ، وتصير وبالاً على الناس ، فالموت خير من مثل تلك الحياة ، ومثل عمر الإنسان كمثل الشمس ، وشمس الشبان في أفق المشرق وشمس الشيوخ في أفق المغرب كما قلت .

كيكاوس[٦] يا من صرت عاجزاً في كنف الشيخوخة ، تهيأ للرحيل فقد أقبلت الثالثة والستون .

لقد شارف يومك صلاة العصر على كل حال ، ويقبل الليل سريعاً إذا حلت صلاة العصر .

لهذا السبب لا ينبغي أن يكون الشيخ شاباً في عقله وفعله ، وكن دائماً رحيماً بالشيوخ ، لأن الشيخوخة مرض لا يذهب أحد لعيادته ، والشيخوخة علة لا يعرف أي

---

(٤) في الاصل النفخ ، (المترجمان) .

(٥) من دحق أي منع وطرد ، وأدحقه بمعنى ابعده .

(٦) في الأصل الفارسي : سلطان . طبعه نفيسي ، ص ٤٢ .

إنسان لها دواء إلا الموت، ولهذا لا يستريح الشيخ من ألم الشيخوخة ما لم يمت، وكل علة تصيب الإنسان إذا لم يمت بها يصح منها ، إلا علة الشيخوخة فإنها كل يوم تزداد سوءاً ولا يرجى منها الشفاء.

ومما قرأت في الكتاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم في القوة والتركيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لا يزيد ولا ينقص، كالشمس وقد بلغت كبد السماء، تكون بطيئة السير حتى الزوال، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر في نفسه نقصاناً لا يكون قد وجده في الشهر الماضي، ومن الستين حتى السبعين يرى كل أسبوع في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في الأسبوع المنصرم، ومن السبعين إلى الثمانين يرى كل يوم في نفسه نقصاناً لم يكن قد رآه بالأمس، وإذا جاوز الثمانين يرى في نفسه كل ساعة ألماً وعناءً لا يكون قد رآه في الساعة الأخرى.

وحد لذة العمر إلى الأربعين، فإذا انقضت الأربعون فقد جلس على درجة السلم العليا، فتهبط كما صعدت من غير شك ، فالبرم من يرى في كل ساعة ألماً وعناءً لم يكونا في الساعة الماضية.

فيا ولدي ويا قرة عيني، لقد أطلت شكاية الشيخوخة إليك، لأن منها عنائي. ولا عجب فالشيخوخة لي عدو، ومن العدو تحق الشكوى كما نظمت:

إذا شكوت منها فلا تعجب مني لأنها بلائي والشكوى تكون من البلاء

ويشتكى من الأعداء لأحب إنسان أرجو من الله عز وجل أن تبث هذه الشكوى لإبنك، ولي في هذا المعنى بيتان:

أواه لمن أشكو الشيخوخة؟ فإن ألمي هذا ليس له دواء آخر غير التوبة.

هلّم إليّ أيها الشيخ حتى أبثك شكواي؛ لأنه لا خبر للشباب بهذه الحال، ولا يعرف أحد ألم الشيخوخة خيراً من الشيوخ.

(حكاية)

كان من جملة حجاب أبي حاجب يقال له مجاهد الحاجب الكامل، وكان شيخاً جاوز الثمانين وأراد أن يشتري حصاناً، فأحضر رائض حصاناً سميناً، بديع اللون صحيح القوائم، فرأى الحصان وأعجبه ودفع الثمن، فلما رأى أسنانه ألفاه عجوزاً فلم يشتره فاشتراه رجل آخر، فقلت له: يا حاجب! فلان اشترى الحصان فلم لم تشتره؟ قال: إنه رجل شاب وأنا خبير بألم الشيخوخة وضعفها وآفتها، فكيف أكون معذوراً حين أشتري حصاناً عجوزاً؟

ولكن متى صرت شيخاً فاجتهد أن تقرَّ في موضع، لأن السفر في الشيخوخة ليس من العقل، وخاصة لمن لا يكون قادراً، إذ أن الشيخوخة عدو والعجز عدو آخر، فالسفر مع عدوين ليس من الحكمة، أما إذا وقع السفر اضطراراً وابتعدت عن بيتك ولطف الله تعالى بك في ذاك السفر وظهر في تلك الغربة والسفر خير أفضل من ذاك الذي كان في الحضر، فلا تطلب العودة إلى البيت قط، واستقر حيثما ترى عملك واعتبر ذلك المكان الذي فيه خيرك موطناً ومقاماً، ومهما قيل **إن الوطن هو الأم الثانية** فلا تكن مشغولاً به، وحافظ على رونق أيامك، فقد قيل: **الخير يطلب السعداء، وللتعساء المولد والمقام**.

أما إذا رأيت لنفسك رونقاً وظفرت بعمل مفيد، فاجتهد في أن تثبت ذاك العمل وتحكمه، ولا ينبغي أن تكثر الطلب في ذاك الثبات الذي تلقاه، لأنك في طلب الزيادة تقع في النقص، فإذا كان شيء موضوعاً وضعاً حسناً فلا تحاول أن تجعله في وضع أحسن لكيلا تعجز عن ذلك بالطمع في المحال، ولكن لا تكن غير منظم في تمضية العمر، وإذا أردت أن تكون محترماً في عين الصديق والعدو فيجب أن يكون وضعك ومقامك متميزين عن عامة الناس.

في ترتيب تناول الطعام

اعلم يا بني أنه ليس لعامة الناس في أشغالهم أوقات وترتيبات ظاهرة، فهم لا يراعون الوقت وعدم الوقت، بينما يكون الأكابر والعقلاء قد عينوا أوقاتاً لأعمالهم، وقسموا عليها الأربع والعشرين ساعة من الليل والنهار وأوجدوا لكل عمل حداً ولكل وقت قياساً لكيلا تختلط أعمالهم ببعضها البعض وليكن معلوماً لخدمهم كذلك بأي عمل يجب أن يشتغلوا في كل وقت، حتى تكون جميع أعمالهم منظمة.

أما أول حديث تناول الطعام، فاعلم أن عادة أهل السوق أن يتناولوا الطعام ليلاً وذلك ضار جداً، وهم دائماً متخومون، وعادة أهل الجندية أن لا يراعوا الوقت كذلك، فيأكلوا وقتما يجدون، وهذه عادة الدواب إذ تأكل كلما تجد العلف، والخاصة والمحتشمون لا يتناولون الطعام أكثر من مرة، وهذه الحمية مستحسنة، ولكن الجسد يضعف ويكون الناس دائماً ضعفاء، فالأصوب أن يتناول المحتشمون في الصباح قليلاً من الزاد في الخلوة ويذهبوا إلى أعمالهم حتى صلاة الظهر، فيكون قد وصل ذلك الراتب المرسوم، ويحضرون من يتناول الطعام معهم ويأكلون، ولكن ينبغي أن لا يأكلوا بعجلة، وأن يتمهلوا ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام، فإنه شرط الإسلام، ولكن أطرق برأسك ولا تنظر إلى لقم الناس.

(حكاية)

سمعت أن الصاحب إسماعيل بن عباد[1] كان يأكل مرة مع خواصه فرفع رجل

(١) هو الصاحب بن اسماعيل بن عباد من أهل الطالقان، لقب بالصاحب لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد. عمل وزيراً لفخر الدولة بن بويه، واشتهر بعلمه وفضله، له مؤلفات عديدة منها:

لقمة من الإناء وكان في اللقمة شعرة لم يرها الرجل، فقال الصاحب: يا فلان! اخرج تلك الشعرة من اللقمة، فوضع الرجل اللقمة من يده وقام وهم بالذهاب، فأمر الصاحب أن يأتوا به، وسأله قائلاً: أي فلان! لم قمت عن سماطنا(٢) نصف شبعان؟ فقال الرجل: لا ينبغي لي أن آكل طعام من يرى الشعرة في لقمتي، فخجل الصاحب.

أما أنت فكن مشغولاً بنفسك، فتمهل أولاً في الطعام ثم مرهم بوضع الآنية، ورسم المحتشمين نوعان:

فبعضهم يأمر بوضع الآنية أمامه أولاً ثم أمام الضيوف، وبعض من المحتشمين يأمرون بوضع الآنية أولاً أمام الضيف، وهذا أفضل لأنه طريق الكرم، وذلك طريق السيادة.

ولكن مرهم أن يعملوا على عجل عندما يأتون بالآنية بنوع، لأن البطون ليست كلها سواء، فيجب أنهم عندما يقومون عن الخوان(٣) أن يكون المقل والمكثر من الطعام قد شبعوا جميعاً، وإذا كان أمامك طعام شهي ولم يكن أمام الآخرين، فينبغي أن تجعل لهم منه نصيباً، ولا تكن عابس الوجه على الطعام، ولا تتشاجر على السفرة مع قيم الخوان فإنها عادة غير مستحسنة، وهذا الكلام يقال في وقت آخر، فإذا كنت قد عرفت ترتيب الطعام فاعرف ترتيب الشراب.

المحيط والاعياد والإمامة وكتاب الوزراء. وتوفي سنة ٣٨٥ هـ. قا: ابن كثير، مج ١١ - ١٢، ج ١١، ص ٣١٤. قا. أيضاً: بالكامل في التاريخ، مج ٧، ص ١٦٧ - ١٧١. وآثار البلاد واخبار العباد، ص ٥٤٨. معجم الادباء، لياقوت الحموي، مج ٥ - ٦، ج ٦، ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) سماط مفرد سُمط، وهو الوعاء الذي يُمد عليه الطعام.

(٣) مائدة الطعام.

في ترتيب تناول الشراب

أما حديثُ تناول الشراب، فلا أقول تعاط الشراب، ولا أستطيع أيضاً أن أقول لا تشرب، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لي كثيراً ولم أسمع، حتى منحتني رحمة الله التوبة بعد الخمسين. أما إذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين، وتنال رضاء الله تعالى وتنجو من ملامة الخلق، ومجالسة غير العقلاء، وفعل المحال، ويكون ثمت وفر كبير في تدبير البيت والرياسة، فإذا لم تشرب فهو أحب عندي من عدة وجوه، ولكنك شاب، وأعلم أن الرفاق لا يدعونك لا تشرب، ومن هنا قالوا :**الوحدة خير من جليس السوء**. فإذا شربت على أي حال فهيء قلبك للتوبة واطلب من الله تعالى التوفيق لها واندم على عملك فلعله بفضله يمنحك التوفيق للتوبة النصوح. وعلى كل حال، إذا شربت النبيذ ينبغي أن تعرف كيف يجب الشرب لأنك إذا لم تعرف، فالشراب سم، وإذا عرفت فهو ترياق[1] وكل المأكولات والمشروبات تصير سماً على التحقيق إذا أسرفت فيها، ولهذا قالوا:

إنّ الترياق سم إذا زاد وتجاوز مقداره

وينبغي إذا تناولت الطعام أن لا تشرب النبيذ في الحال ما لم تظمأ ثلاث مرات، وتستعمل الماء أو الفقاع[2]، وإذا لم تظمأ فتوقف مقدار ثلاث ساعات بعد تناول الطعام، لأنه مهما تكن المعدة صحيحة وقوية، إذا تنوول الطعام والشراب بضع

(١) دواء مركب يحتوي على كمية كبيرة من لحوم الافاعي. وهو مضاد للدغ الهوام والحشرات والثعابين. اخترعه العالم اليوناني ماغنيس وتممه الطبيب أندروماخس. قا: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مج ٣، ص ٢٢٣.

(٢) هو نوع من الشراب سمي بالفقاع لما يرتفع في رأسه من الزبد.

مـرات فإنها تهضمه في سبع ساعات؛ تنضجه في ثلاث ساعات وفي ثلاث ساعات أخرى تأخذ قوة الطعام وتوصلها إلى الكبد، ليقسمها الكبد على الأعضاء، لأنه هو القسّام، وفي ساعة أخرى ترسل بالثفل الذي يكون قد تبقى إلى الأمعاء، ويجب أن تكون خالية في الساعة الثامنة، وكل معدة لا تكون بهذه القوة فهي يقطينة لامعدة، فلهذا السبب قلت أن أشرب النبيذ بعد مضي ثلاث ساعات من الطعام، لتستفيد من الطعام ومن الشراب أيضاً.

أما بدء شراب السيكي[٣]، فاجعله من بعد صلاة العصر، حتى إذا ما سكرت يكون الليل قد أقبل، ولا يـرى الناس سكـرك، ولا تتنقل في السكـر لأنه غيـر محمود، فقد قيل: **النقلة مثله**. ولا تشرب السيكي في الصحراء والبستان، وإذا شربت فعد إلى البيت للسكر، واسكر في بيتك، لأن ما يجوز عمله تحت السقف لا يمكن عمله تحت السماء، وظل سقف البيت خير من ظل الشجرة لأن المرء في بيته كملك في ملكه، ويكون في الصحـراء كالغـريب، وظاهـر إلى أي مدى تصـل يد الغريب، وانهض دائماً عن النبيذ وما يزال هنالك موضع لكأسين، واحترز من لقمة الشبع ومن قدح السكر[٤] لأن الشبع والسكر لا يكونان من كل الطعام والشراب، بل يكون الشبع من اللقمة الأخيرة كما يكون السكر من القدح الأخيـر، فقلل لقمة من الطعام وقدحاً من السيكي، لتأمن عاقبة الإفراط في كل شيء، واجتهد أن لا تكون ثملاً دائماً، فإن ثمرة شرب السيكي شيئان: المرض والجنون، لأن شارب السيكي يكون إما سكراناً أو مخموراً، فعندما يكون سكراناً فهو من جملة المجانين، وعندما يكون مخموراً فهو من جملة المرضى، فالخمار نوع من المرض، فلم يلزم الولع بأمر ثمرته المرض أو الجنون؟

وإني لأعلم أنك لا تكف يدك عن النبيـذ بهذا الكـلام، ولا تقبل نصيحتي، وعلى كل فلا تتعاط الصبوح ما استطعت، لأن العقلاء قد ذموا عادة الصبوح، وأول شؤمها فوات صلاة الصبح، ثم إنه لا يكون خمار الليلة الماضية قد خرج من الرأس والدماغ حتى يصحبه بخار اليوم، ولا تكون ثمرة ذلك غير الماليخوليا، وفضـلاً عن

---

(٣) خمرة بدرجة عالية من الكحول.

(٤) اللقمة التي يتم بها الشبع والقدح الذي يتم به السكر (للمترجمان).

ذلك فإنه وقتما يكون الناس نائمين تكون إنت صاحياً، وعندما يصحو الناس لا بد لك من النوم، وإذا نمت كل النهار فلا بد من أن تسهر طول الليل فتكون كل أعضائك منهكة ومتعبة، وقلما يكون صبوح لا تكون فيه عربدة أو شيء يرتكب ينشأ عنه الندم أو مال ينفق في غير ما ينبغي، أما إذا أنفق صبوح في أوقات نادرة فجائز، ولكن لا ينبغي تعوده لأنه غير محمود.

ومهما تكن مولعاً بالنبيذ فتعود أن لا تشربه ليلة الجمعة، ولو أن النبيذ حرام في يومي الجمعة والسبت كليهما، ولكن ليوم الجمعة حرمة وبعدم شربك النبيذ من أجل حرمة الجمعة ويوم الجمعة، تجعل شربك النبيذ أسبوعاً، طيباً على قلوب الناس وتنعقل عنك ألسنة العامة، وتنال الثواب بالدار الآخرة والسمعة الطيبة في هذه الدنيا أيضاً، فإذا حصلت السمعة الطيبة فعليك أن تحافظ عليها، ولا ينبغي الإمعان في الإسراف فإن ذلك أفضل.

في التضييف والضيافة

أي بني، لا تضيّف الغرباء في كل يوم، فإنك لا تستطيع القيام بالضيافة اللائقة كل يوم، فأنظر كم مرة تضيف في شهر، وما تعمله خمس مرات اعمله في مرة واحدة، وما ستنفقه في هذه المرات الخمس انفقه في مرة واحدة، ليخلو سماطك من كل العيوب، وتنكف عنك ألسنة اللامزين[1]. وإذا جاء الضيوف إلى بيتك فأستقبل كل واحد منهم وكرمه وابذل من العناية ما يليق بهم كما يقول أبو شكور البلخي في شعره:

كل من يكون له ضيف صديقاً كان أو غير صديق فعليه العناية بالضيف ليل نهار

وإذا كان أوان الفاكهة، فقدم فاكهتك قبل الأكل ليأكلوها، وتوقف ساعة، ثم أحضر للناس الطعام. ولا تجلس أنت ما لم يقل لك الضيوف أجلس، ولكن ساعدهم وقل دعوني أخدمكم، فإذا كرروا فاجلس وكل معهم، ولكن اجلس أدنى الجميع، وإذا كان الضيف عظيماً جداً فلا ينبغي الجلوس. ولا تلتمس المعذرة من الضيف فإن الاعتذار شأن أهل السوق، ولا تقل كل ساعة كل جيداً، وأنت لا تأكل شيئاً، بحياتك لا تخجل، وإنني لا أستطيع عمل شيء يليق بك، فلعله يمكن عمل هذا مرة أخرى، فليس هذا كلام ذوي الهمم، إنما يقول هذا من يضيف مرة في أعوام، والناس يخجلون من مثل هذه الأقوال، ولا يستطيعون تناول شيء ويقومون عن سماطك قبل الشبع، ولنا بگيلان عادة طيبة جداً وهي أنه عندما يأخذون الضيف إلى الخوان، يضعون كيزان شرب الماء وسط المائدة، ويخرجْ صاحب الدعوة وأهله

(١) العّيابين أو الغّيابين الذين يغتابون ويغيبون في الوجه والقفا. القاموس المحيط، مج ٢، ص ١٩٨.

من هناك ويقف شخص من بعيد لأجل وضع الآنية، ليأكلوا برغبتهم كما يشتهون. ومر بماء الورد والعطر بعد غسل الأيدي، وتعهد جيداً خدم الضيف وغلمانه لأنهم يذيعون في الخارج السمعة الطيبة، ومر في المجلس بالورد والرياحين الكثيرة، واحضر المطربين الحسني الصوت الماهرين، ولا تقدم النبيذ للضيف ما لم يكن جيداً، فإن الناس أنفسهم يأكلون كل يوم، ويجب أن يكون السماع والشراب طيبين لطيفين حتى إذا ما وقع تقصير في الخوان والآنية يستر ذلك العيب بذاك.

والشراب كذلك إثم، فإذا أردت أن تأثم فلا تقترف إثماً لا لذة فيه، إذا شربت الشراب فأشرب أحسنه وإذا سمعت السماع فأسمع أعذبه، وإذا ارتكبت الحرام فأرتكبه مع شخص لطيف، حتى إذا ما أخذت بذلك في الآخرة لا تكون مذموماً ومعيباً في هذه الدنيا، فإذا ما فعلت كل ما قلته فلا تر لنفسك أي حق على الضيف، واعرف بأن لهم عليك حقوقاً جمة.

(حكاية)

هكذا سمعت أن ابن مقلة[٢] استعمل نصر ابن منصور التميمي على البصرة وفي السنة التالية استقدمه وحاسبه، وكان نصر رجلاً ثرياً فصار للخليفة فيه مطمع، فحوسب وتجمع عليه مال كثير، فقال ابن مقلة: سلم هذا المال أو امض إلى السجن، فقال نصر: أي مولانا! إن لي مالاً ولكنه غير حاضر هنا، فامهلني شهراً، إذ لا ينبغي الذهاب إلى السجن بهذا المقدار! وعرف ابن مقلة أن تسليم هذه المال ليس بصعب على نصر، وأنه يقول صدقاً، فقال: ليس لدي أمر من أمير المؤمنين بأن تعود إلى مكانك ما لم تسلم هذا المال، فأقم بحجرة هنا في داري وكن ضيفي هذا الشهر.

فقال نصر: إني مطيع، وأقام محبوساً في دار ابن مقلة، واتفق أن كان أول

(٢) هو الحسن بن علي بن مقلة أبو عبد الله ولد سنة ٢٣٨ هـ. كان أكتب أهل زمانه إمتاز بجودة خطه، وألم بخطي الرقاع والتوقيعات وبقلم الدفاتر والنسخ. تولى وزارة المقتدر إثر عزل الوزير علي بن عيسى سنة ٣١٦ هـ. را: ابن الأثير، مج ٦، ١٩٢ - ١٩٣. را أيضاً: معجم الأدباء مج ٩ - ١٠، ج ٩، ص ٢٨ - ٣٠.

شهر رمضان، فلما أقبل الليل قال ابن مقلة: احضروا فلان ليفطر معنا كل ليلة فأفطر معه نصر شهراً، ولما عيدوا وانقضت بضعة أيام، أرسل إليه ابن مقلة شخصاً يقول: إنهم يتأخرون في إحضار ذلك المال فما تدبير هذا الأمر؟ فقال نصر: إنني سلمت المال، فقال ابن مقلة: لمن أعطيته؟ قال أعطيته لك؛ فغضب ابن مقلة وقال: أيها السيد، متى أعطيتني مالاً؟ قال: ؟ إنني لم أعطك ذهباً لكني أكلت طعامك دون مقابل في شهر رمضان هذا وأفطرت على مائدتك، والآن وقد أقبل العيد، فإن من حقي أن لا تطلب مني مالاً، فضحك ابن مقلة وقال: خذ البراءة وامض، فقد أعطيتك ذاك المال أجر سن[٣] وأؤديه عنك، فنجا نصر من المصادرة بهذا السبب.

فتقبل منّة الضيف وكن مشرق الوجه، ولكن أقل شرب النبيذ ولا تسكر أمام الضيف، فإذا عرفت أن القوم صاروا نصف سكارى، فأشرع عندئذ في السكر من تلقاء نفسك، ولا تنس الأصدقاء، وعليك بحسن الخلق وبشاشة الوجه، اشرب واسق، ولكن لا تكن ضحوكاً عبثاً، فإن الضحك عبثاً هو الجنون الثاني كما أن قلة الضحك سياسة ثانية، وإذا سكر الضيف وأراد أن ينصرف فارجه مرة وثانية وتواضع ولا تدعه ليذهب ولا تتشبث به في المرة الثالثة ودعه بلطف، وإذا أخطأ خدمك فتغاض ولا تعبس أمام الضيف ولا تبدأ الشغب معهم، ولا تقل بأن هذا جيد وذاك رديء، وإذا لم يعجبك شيء، فلا تأمر بعمل مثل ذلك مرة أخرى واصبر هذه المرة، وإذا قال ضيفك وفعل ألف محال، فلا تأخذ عليه محالاً، وعظِّم حرمته.

(حكاية)

سمعت أن المعتصم أمر مرة بضرب عنق مجرم بحضرته فقال ذلك المجرم: يا أمير المؤمنين بحق الله ورسوله، ضيفني بشربة ماء ثم مر بما تشاء، فإني ظمآن جداً، فأمر المعتصم ـ بحكم القسم ـ فأعطوه الماء ليشرب، وقال على عادة العرب: كثر الله خيرك يا أمير المؤمنين بشربة الماء هذه كنت ضيفك، فإذا كان طريق المروءة يوجب قتل الضيف فمر بأن يقتلوني، وإلا فأعف حتى أتوب على يدك، فقال

(٣) أجر السن تقابل في الفارسية دندان مزد أو مزد دندان، فقد كانت عادة المولمين الكبار أن يسرا بالباب بعد الوليمة وينفحوا كل ضيف، عند خروجه بمبلغ يقال له مزد دندان أو دندان مزد، ومعناها أجر السن (المترجمان)

المعتصم: تقول حقاً، إن حق الضيف عظيم، عفوت عنك، فتب على أن لا تقترف إثماً بعد هذا، فتاب الرجل وأطلق سراحه.

أما فاعلم بأن رعاية حق الضيف واجبة، ولكن حق الضيف الذي يستحق التقدير، لا بحيث تأخذ كل ساقط إلى بيتك ثم تتواضع كثيراً قائلاً إن هذا ضيفي، ينبغي أن تعرف مع من يجب عمل هذه المروءة والتقرب.

(موعظة)

إذا ذهبت ضيفاً فلا تكن ضيفاً لكل أحد فإن ذلك يضير الكرامة، وإذا ذهبت فلا تذهب وأنت جائع جداً، أو شبع جداً أيضاً، لأنك إذا لم تأكل شيئاً تأذي المضيف، وإذا أكلت بافراط يكون قبيحاً، وإذا ذهبت إلى بيت المضيف فأجلس حيث يجلسونك ويكون مكانك، ومهما يكن البيت بيت صديقك وكان لك فيه شأن، فلا تأمر وأنت على الطعام والشراب في ذلك البيت، ولا تقل لخدم المضيف: أي فلان! ضع هذا الطبق في المكان الفلاني، واحمل هذه الآنية إلى المكان الفلاني، يعني إنني من ذلك البيت.

لا تكن ضيف الفضول، ولا تتقرب بطعام الناس وآنيتهم، ولا تعط خادمك طعاماً ولا تكن ثملاً فاقد الوعي إنهم قالوا: **الزَّلة ذِلة**. وقم بحيث لا يبدو عليك أثر السكر في الطريق أويستولي عليك فتتحول عن صورة الآدميين، وأتم السكر بدارك، وإذا كنت مثلاً قد شربت قدحاً من النبيذ وارتكب من هم دونك مائة ذنب، فلا تزجرن أحداً أبداً وإن يكن مستحقاً للزجر، فإن أحداً قط لا يعد ذلك من قبيل التأديب، ويقولون إنه يعربد، واعمل كل ما تريد عمله قبل شربك للنبيذ، ليعلم أن ذلك قصد لا عربدة، لأنهم في ذلك الوقت يعدون كل شيء عربدة كما قالوا: **الجنون فنون**، أي الجنون أنواع، والسكر أيضاً نوع من الجنون، وكثرة الكلام في السكر عربدة، وكثرة التصفيق والدبيب والتقرب الكثير بلا موجب عربدة، في السكر والصحو. فأحذر من كل ما قلت إنه عربدة أو جنون ولا تصر ثملاً فاقد الوعي أمام أي شخص غريب، اللهم إلا أمام عيالك وغلمانك، ولا تطلب من المطربين سماع الألحان الخفيفة حتى لا تنسب إلى الرعونة والطيش، ولو أن أكثر الشبان يطلبون الألحان الخفيفة والحزينة.

في المزاح ولعب النرد والشطرنج

اعلم يا بني أنهم قالوا في العربية: **المزاح مقدمة الشر**[1] فتجنب المزاح ما استطعت، ولا سيما المزاح البارد، وإذا مزحت فلا تمزح في السكر لأن الشر يحدث على الأكثر في السكر، واستحِ من المزاح القبيح والفحش في السكر والصحو وخاصة في لعب النرد والشطرنج، لأن المرء في أثناء هذين العملين يكون أكثر ضجراً وأقل أحتمالاً للمزاح. ولا تتعود كثرة لعب النرد والشطرنج، وإذا لعبت فالعب بين حين وآخر، ولا تلعب بالرهان اللهم إلا بطير أو ضيافة ومثل هذا، وحذار أن تلعب بالذهب والفضة، لأن اللعب بغير دراهم أدب واللعب بالذهب والفضة مقامرة.

ومهما تكن تستطيع اللعب جيداً، فلا تلعب مع شخص معروف بالمقامرة، لأنك أيضاً تعرف بالمقامرة، وإذا لعبت مع شخص أكثر منك احتشاماً، فأن الأدب في النرد والشطرنج كليهما أن لا تبدأ بتناول قطع اللعب ما لم يلعب ذلك الشخص أولاً، ولا تلعب قط بالرهان مع السكارى والمعربدين والثقلاء حتى لا تقع خصومة، ولا تلعب بغير رهان أيضاً إذا أمكن، ولا تتشاجر مع غريمك على نقش الكعبتين[2]، ولا تحلف أنك ضربت الضربة الفلانية، لأنك مهما تكن صادقاً قد يقول شخص إنه يكذب. واعلم أن أصل جميع الشرور والعربدة من المزاح، واحترز من الممازحة وإن تكن الممازحة ليست بعيب ولا إثم، إذ أن الرسول ﷺ قد مزح، فقد جاء في

(١) ورد في الأصل الفارسي بعد هذه العبارة العربية (يعني مزاح پيش روشراست)، وهي ترجمة للعبارة العربية إلى الفارسية (المترجمان).

(٢) الزهر.

الخبر أن عجوزاً كانت في بيت عائشة رضي الله عنها، فسألت الرسول ﷺ يوماً قائلة: يا رسول الله أوجهي وجه أهل الجنة أم أهل النار؟ فقال الرسول ﷺ[٣] بطريق المزاح: «لا يدخل الجنة عجوز قط» فأغتمت تلك العجوز وبكت، فعندئذ قال الرسول ﷺ: لا تبكي، فليس في قولي خلاف وأقول صدقاً إنه لا يدخل الجنة عجوز قط، لأنه في يوم القيامة يبعث كل الخلق من القبور شباناً، ففرحت تلك العجوز.

ويجوز المزاح، أما الفحش فلا يجوز، فإذا قلت وفعلت فلا تقل ولا تفعل مع من هو أقل منك، حتى لا تجعل هيبتك في ترس جوابه[٤]، وإذا كان ولا بد فقل ما تقوله لأقرانك، حتى إذا أجابوك لا يكون عيباً وقبيحاً، وامزج كل هزل تقوله بالجد، وتجنب الفحش، ومهما يكن، فالمزاح لا يكون بغير هزل، وهو مهين لجميع الأقدار .

كل ما تقوله تسمعه لا محالة، وتوقع من الناس عين ما يصل إلى الناس منك، ولكن لا تخاصم إنساناً قط، لأن الخصام ليس شأن المحتشمين، بل هو عمل النساءوالاطفال الصغار، فإذا اتفق لك أن تخاصم أحداً فلا تقل كل ما تعرفه وتستطيع قوله .

وخاصم بحيث يكون هناك مجال للصلح، ولا تكن عديم الحياء لجوجاً كلية، واعلم أن عدم الحياء واللجاج من عادات اللئام، وأن خير العادات التواضع، لأن التواضع نعمة الله التي لا يحسد عليها أحد، ولا تقل في كل كلمة «يا رجل» فإن قولك «يا رجل» هذه بغير حجة، تسقط المرء من المروءة.

أما المزاح والشراب فهما عمل الشبان، فإذا راعيت الحد والمقدار، فإنه يمكن فعلهما على خير وجه، وكذلك يمكن الاحتراز، وإذا أعملت العقل في شرب السيكى والممازحة، تنسد عليك هذه كلها، وما دمت قد قلت شيئاً في هذا المعنى، فإني أقول الآن شيئاً مما أعرفه في باب العشق لأن محاكمة القلب شاقة.

---

(٣) اخرجه الترمزي في الشمائل واسنده ابن الجوزي في الوفاء. قا: الغزالي، الاحياء، مج ٣، ص ١٤٠.

(٤) أي حتى لا يردّ عليك ردّاً يذهب بهيبتك.

في العشق

اعلم يا بني أن الإنسان ما لم يكن لطيف الطبع لا يعشق، لأن العشق ينشأ من لطافة الطبع، وكل ما ينشأ من لطافة الطبع فهو لطيف، ولما كان لطيفاً فإنه يتعلق بالطبع اللطيف، ألا ترى أن الشبان أكثر عشقاً من الشيوخ، لأن طبع الشبان ألطف من طبع الشيوخ؟ وكذلك لا يكون غليظ الطبع ثقيل الروح عاشقاً قط، لأن هذه علة تصيب خفاف الروح على الأكثر، ولكن اجتهد أن لا تعشق وتجنب العشق، لأن أمر العشق أمر ذو بلاء، وخاصة إبان الإفلاس، إذ كل عاشق مفلس لا يبلغ المراد، وخاصة إذا كان شيخاً، لأن الغرض لا يتحقق بغير المال، فيكون قد سعى في سفك دمه، وقد نظمت في المعنى:

كنت مفلساً فحل بي الألم لذلك، وبقيت محروماً من وجهك لإفلاسي ولي مثل يليق بحالي، المفلس يأتي من السوق صفر اليدين.

فإذا اتفق أن طاب لك الوقت يوماً مع شخص، فلا تكن أسير القلب ولا تشغل قلبك بالعشق باستمرار، ولا تكن دائماً متابعاً للشهوة، فإن هذا ليس شأن العقلاء، لأن الرجل العاشق إما أن يكون في الوصال أو الفراق وسنة من راحة الوصل لا تساوي يوماً من ألم الفراق، إذ أن رأس مال العشق العناء وألم القلب والمحنة، ومهما يكن ألماً لذيذاً فإنك إذا كنت في الفراق تكون في العذاب، وإذا كنت في الوصال وعرف المعشوق ما في قلبك، فإنك لا تعرف لذة الوصال عندما ترى دلاله ووقاحته وسوء طبعه، وإذا كان ثمت وصال يعقبه فراق؛ فذاك الوصال أسوأ من الفراق.

وإذا كانت معشوقتك ملاكاً في المثل، فإنك لا تخلو في أي وقت من ملامة الخلق، لأن عادة الناس قد جرت هكذا، فاحفظ نفسك ما استطعت وجانب العشق،

إذ لا يستطيع الاحتراز من العشق سوى العقلاء لأنه لا يمكن أن يصير شخص عاشقاً بنظرة واحدة فالعين ترى أولاً ثم القلب، فإذا أعجب القلب، مال إليه الطبع وعندئذ يطلب اللقاء. وإذا جعلت شهوتك طوع قلبك وصيرت قلبك متابعاً للشهوة فإنك تدبر ثانياً أن تراه[1] مرة أخرى، وإذا حصل اللقاء مرة ثانية يزداد ميل الطبع إليه، ويصير هوى القلب أكثر تغلباً فتقصد اللقاء مرة ثالثة، وتدخل في الحديث، وإذا تكلمت وسمعت جواباً، يصير كل عقلك وفطنتك في قيده، مثل العجلة والرسن، وتتخلف عن كل الأمور.

فإذا أردت أن تحفظ نفسك من بعد ذلك لا تستطيع، لأن الأمر يكون قد خرج من يدك، ويزداد العشق كل يوم، فيتحتم بعد ذلك ضرورة أن تكون متابعاً للقلب، ولكن إذا حفظت نفسك في اللقاء الأول فإنه عندما يطلب القلب، توكل به العقل حتى لا يكثر من ذكر اسمه، وتشغل قلبك بشيء، وتستفرغ شهوتك في مكان آخر وتغض الطرف عن رؤيته، فيكون كل ألم القلب أسبوعاً، ولا يذكر بعد ذلك ويمكنك تخليص نفسك من البلاء سريعاً، ولكن عملاً مثل هذا لا يتأتي من كل أحد، إذ يلزم رجل عاقل كامل العقل حتى يستطيع مداواة هذه العلة، لأن العشق علة، كما أن محمد بن زكريا الرازي قد أورد في «تفاسير العلل» سبب علة العشق وذكر علاجها، مثل الصوم على الدوام، وحمل الحمل الثقيل، والسفر الطويل، وما أشبه ذلك.

أما إذا أحببت شخصاً ترضى برؤيته وخدمته، فجائز عندي، كما قال الشيخ أبو سعيد ابن أبي الخير: لا مفر للآدمي من أربعة أشياء: الأول خبز والثاني خرقة والثالث خربة[2] والرابع حبيب، لكل شخص بحده ومقداره من وجه الحلال.

ولكن المحبة شيء والعشق شيء آخر، وفي العشق لا يطيب الوقت لأي إنسان، ونظم ذلك الرجل العاشق بيتاً مترجماً عن نفسه:

نار عشقك هذه لذيذة أيها الحبيب، أرأيت قط ناراً محرقة ولذيذة؟.

واعلم بأن الرجل يكون في المحبة مبتهج القلب دائماً، ويكون في العشق في

(١) أي: المعشوق.

(٢) أي بيت متواضع يأوي إليه.

محنة على الدوام، ثم إنك إذا عشقت في الشباب فثمت عذر على أي حال ويعذرك الناس أيضاً ويقولون إنه شاب، فاجتهد أن لا تكون عاشقاً في الشيخوخة فليس للشيوخ عذر قط، وإذا كنت من عامة الناس فإن الأمر يكون أهون، فإذا كنت ملكاً وشيخاً فحذار أن تفكر في هذا المعنى، ولا تعلق قلبك بأحد في الظاهر، فإن العشق للملك الشيخ أمر شاق.

(حكاية)

في أيام جدي شمس المعالي كانوا يتناقلون أن ببخاري تاجراً له غلام ثمنه ألفا دينار، فحكى أحمد بن سعد(٣) هذه الحكاية عند الأمير قائلاً: ينبغي لنا إرسال شخص يشتري ذلك الغلام، فقال الأمير ينبغي أن تذهب أنت فجاء أحمد بن سعد إلى بخارى وقابل النخاس وأحضروا الغلام واشتراه بألف ومائتي دينار وأتي به إلى جرجان، فرآه وأعجب به، وعهد إلى الغلام بالدستاريه(٤) فعندما كان يغسل يديه، كان يقدم له منشفة ليجفف يده وانقضت مدة، وذات يوم غسل الأمير يديه فقدم له الغلام منشفة، فجفف الأمير يده وهو يتأمل الغلام، فأعجبته رؤيته، ورد إليه المنشفة، ومر على هذا برهة، فقال لأبي العباس العالم قد أعتقت هذا الغلام، ووهبت له القرية الفلانية، لتعلم ذلك، فاكتب منشورة واخطب له ابنة أحد الرؤساء بالمدينة، ومره بأن يقيم في البيت حتى ينبت شعر وجهه وعندئذ يأتي إلي.

وكان أبو العباس العالم وزيراً فقال: الامر للملك، ولكن إذا اقتضى رأي الملك فليقل لعبده ما المقصود من هذا؟ فقال الأمير: اليوم جرى كذا وكذا وقبيح جداً أن يعشق الملك بعد سن السبعين، ويجب عليَّ بعد السبعين أن أكون مشغولاً برعاية عباد الله وبصلاح رعيتي وجندي ومملكتي فإذا انشغلت بالعشق لا أكون معذوراً عند الله ولا عند الخلق.

أما الشاب فيكون معذوراً مهما فعل، ولكن يجب أن لا يظهر العشق دفعة،

---

(٣) هو أحمد بن سعد بن أحمد بن محمد بن معدان أبو العباس الوزير الفقيه مصنف تاريخ مرو. را: معجم الأعلام، للزركلي، مج ١، ص ١٣١. را أيضاً: تاج العروس، مج ٢ ص ٥٠٣. وأيضاً: حاجي خليفة، كشف الظنون، مج ١، ص ٣٠٣.

(٤) تعريب (دستارداري) أي وظيفة حمل المناشف والمناديل في خدمة الأمراء والملوك.

ومهما تكن شاباً فالزم طريق الحكمة والحشمة والسياسة حتى لا يتطرق الخلل إلى عملك، فقد سمعت هكذا من عظيم أنه ـ

(حكاية)

كان للسلطان مسعود[٥] عشرة غلمان كانوا حفظة ثيابه الخواص، وكان منهم واحد يقال له نوشتكين[٦]، وكان مسعود يحبه، وانقضت بضع سنوات ولم يعرف أحد قط من يحبه السلطان، لأن كل الأعطية التي كان يعطيها لهم كانت سواء حتى انقضى على هذا خمس سنوات، وذات يوم قال في سكره: كل ما أمر به أبي لإياز[٧] اكتبوه لنوشتكين! فعندئذ صار معلوماً أن مقصودة كان نوشتكين.

والآن يا بني، مع أني قصصت عليك هذه القصة، أعلم أنك لا تعمل بقولي إذا انفقت لك، إذ أنني كذلك أقول بلسان الحال[٨].

رباعي

كل آدمي حي ناطق.
يجب أن يكون مثل عذرا ومثل وامق[٩].
وكل من ليس كذلك فهو منافق.
وليس بآدمي من يكن غير عاشق.

ورغم أني قلت هذا فلا تعمل ببيتي هذين، واجتهد أن لا تكون عاشقاً، فإذا

(٥) هو ناصر دين الله مسعود النجل الأكبر للسلطانن محمود الغزنوي وولي عهده، تولى الحكم بعد موت والده السلطان العادل محمود بن سبكتكين عام ٤٢١ هـ. ويؤثر عنه انه يحب الرياضة البدنية كالمصارعة وحمل الأثقال والصيد، وكان شجاعاً جريئاً وسخياً كريماً إذا أعطى، وعن حياته السياسية يذكر البيهقي أنه كان لاهياً ماجناً متراخياً في شؤون العامة من الناس مما حمل اتباعه على التخلص منه وكان ذلك سنة ٤٣٣ هـ. عندما اغتاله أحمد بن محمد إبن أخيه. را: تاريخ البيهقي ص ١١٨ و ١٣١ و ١٣٤ أيضاً: معجم الأنساب، لزمباور، ص ٤١٦.

(٦) غلام تعلق به قلب السلطان مسعود وكان مسؤولاً عن حفظ وإعداد ثياب السلطان.

(٧) هو غلام أحبه السلطان محمود الغزنوي وتعلق به قلبه.

(٨) الترجمة الحرفية: من قبيل حسب الحال.

(٩) إشارة إلى عذرا ووامق بطلي قصة غرامية مشهورة في الأدب الفارسي.

أحببت إنساناً فأحبب شخصاً يستأهل الحب، ولو أن المعشوق لا يكون كلية بطليموس(١٠) وأفلاطون، ولكن يجب أن يكون على شيء من الحكمة، وأعرف كذلك أنه لا يكون يوسف بن يعقوب(١١)، ولكن يجب أيضاً أن تكون فيه ملاحة لتنعقل ألسنة بعض الناس ويقبلوا عذرك، فإن الخلق لا يفرغون من أن يعيبوا ويتلمسوا عيوب الناس، كما قيل لشخص: أفيك عيب؟ قال لا! قالوا ألك عائب؟ قال كثيرون، فقالوا اعلم أنك أكثر الخلق عيباً.

وإذا ذهبت ضيفاً فلا تصحب المعشوق معك، وإذا صحبته فلا تنشغل به أمام الغرباء ولا تشغل القلب به، فإن أحداً لا يستطيع أن يأكله، ولا تظن أنه يبدو في عين كل إنسان مثلما يبدو في عينك، كما قال الشاعر:

الويل لي إذا كنت في عين الخلائق تبدو بهذا الشكل الذي تبدو به
في عيني أنا المسكين.

وكما يبدو لعينك أحسن من كل الخلائق، فقد يبدو لأعين الآخرين أقبح، ولا تعطه الفاكهة أيضاً في كل آونة، ولا تتفقده ولا تناده في كل ساعة ولا تسر إليه في أذنه، فإني أكرر القول في نفعك وضرك، وينبغي أن تجتهد حتى لا يأخذ الناس عليك عيباً.

---

(١٠) هو عالم الفلك اليوناني وواضع كتاب المجسطي، مَلَك بعد الإسكندر وكان خليفته حكم أربعين سنة، وكان حكيماً وعالماً. را: تاريخ اليعقوبي، مج ١ ص ١٣٣ وما بعدها. را أيضاً: مروج الذهب، مج ١، ص ٣٠١.

(١١) هو أبو محمد يوسف بن يعقوب بن زيد بن درهم الأزدي (٢٠٨ - ٢٩٧ هـ ٩١٠ م) ولي قضاء البصرة وواسط، ويذكر عنه أنه كان صالحاً وعالماً، حفظ الحديث وألف كتاب السنن. را: معجم الأعلام، مج ٨، ص ٢٥٨. را أيضاً: الذهبي، مج ١-٢، ج ١، ص ١٨١.

في الاستمتاع

اعلم يا بني أنه إذا أحببت أحداً فلا تنشغل دائماً بمجامعته في السكر والصحو، لأنه معلوم أن تلك النطفة التي تنفصل عنك بذرة روح وشخص، فإذا فعلت لا تفعل في السكر لأنه في السكر أشد إضراراً، ولكنه في وقت الخمار يكون أصوب وأحسن، ولا تكن مشغولاً به في كل وقت تتذكره، فإن ذلك فعل البهائم التي لا تعرف وقت كل عمل فتعمل وقتما تجد، ولكن ينبغي أن يكون للإنسان وقت معلوم حتى يكون فرق بينه وبين البهائم.

وأما عن النساء والغلمان، فلا تجعل ميلك لجنس واحد، لتكون ذا حظ من كلا الجنسين، ولا يكون واحد منهما عدواً لك، وكما قلت إن المجامعة الكثيرة، تضر فعدم الجماع أيضاً يضر، فكل ما تعمله ينبغي أن تعمله باشتهاء، ولا تعمله بتكلف ليكون أقل ضرراً، ولكن تجنب الاشتهاء وعدم الاشتهاء في الحر الحار والبرد القار، فإن المجامعة أشد ضرراً في هذين الفصلين، وخاصة للشيوخ، وفصل الربيع أوفق الأوقات، لأن الهواء يكون معتدلاً، وتفيض عيون الماء، وتتجه الدنيا إلى البهجة والسرور، فكما يصير العالم الكبير شاباً، وتصير كذلك قوة أجسامنا التي هي العالم الصغير، فإن الطبائع المختلفة في الجسد تعتدل، ويزداد الدم في العروق ويكثر المني في الأصلاب، فيصير الرجل بغير قصد محتاجاً للمعاشرة والتمتع، فعندما يكون اشتهاء الطبيعة، صادقاً، يكون عندئذ أقل ضرراً، وكذلك الفصد[1]، فلا تفصد ما استطعت في الحر الحار والبرد القار، وإذا رأيت الدم زائداً فسكنه بالأشربة الباردة، ومل في الصيف إلى الغلمان، وفي الشتاء إلى النسوان، وينبغي في هذا الباب اختصار الكلام فإنه يثقل.

( ) معناه الشق. ويقال فصد الشيء شقه وكسره.

في أدب الذهاب إلى الحمام

اعلم يا بني أنه إذا ذهبت إلى الحمام فلا تذهب على شبع، فإنه يضر، ولا تنشغل في الحمام أيضاً بالجماع، وخاصة في الحمام الساخن، ويقول محمد بن زكرياء الرازي: إني لأعجب من شخص شبعان يجامع في الحمام ولا يموت فجأة. ولكن الحمام شيء حسن جداً، ومذ أقام الحكماء الأبنية لم يعملوا شيئاً أفضل من الحمام، ولكنه مع كل حسنه، فإن الذهاب إليه يومياً لا يفيد بل يضر، لأنه يلين الأعصاب والمفاصل ويذهب بصلابتها، وتعتاد الطبيعة الذهاب كل يوم إلى الحمام، وإذا لم تذهب يوماً تكون ذلك اليوم كالمريض، ولا تكون أعضاؤك قويمة.

فعليه ينبغي أن تذهب كل يومين، وتوقف أولاً في القسم البارد زمناً بقدر ما ينال منه الطبع حظاً، ثم امض إلى القسم الأوسط واجلس هناك زمناً لتنال قسطاً من ذلك القسم أيضاً، ثم اذهب إلى القسم الساخن وامكث ساعة لتحظى بالقسم الساخن كذلك، فإذا أثرت فيك حرارة الحمام، فاذهب إلى الخلوة واغسل رأسك هنالك.

ويجب أن لا تقيم كثيراً بالحمام ولا تصب على نفسك الماء الشديد الحرارة أو الشديدة البرودة، بل ينبغي أن يكون معتدلاً، وإذا كان الحمام خالياً فعد ذلك غنيمة كبرى، لأن الحكماء يعدون الحمام الخالي غنيمة من جملة الغنائم، وإذا خرجت من الحمام فتعال على نفس الترتيب الذي كنت عليه في الذهاب، ويجب تجفيف الشعر جيداً، ثم الخروج فإنه عمل العقلاء ومن شأن المحتشمين، وكذلك لا يليق الخروج من الحمام بالشعر المبلل والذهاب إلى الأكابر لأنه من سوء الأدب.

ونفع وضرر الحمام هو ما قلته، ولكن تجنب شرب الماء والفقاع في الحمام لأن فيه ضرراً بالغاً ويؤدي إلى الاستسقاء[1]، إلا أن تكون مخموراً، فيجوز عندئذ أن تشرب قليلاً تسكيناً للخمار ليقل الضرر.

(١) الترهل في اللحم والتورم في الجسم.

الباب السابع عشر

في النوم والراحة

اعلم يا بني إن رسم حكماء الروم هو أنهم إذا خرجوا من الحمام ينامون زمناً في مسلخ الحمام، ثم يخرجون، وليس لأي قوم آخرين مثل هذا الرسم، ولكن الحكماء يسمون النوم الموت الأصغر، لأن النائم والميت على السواء لا خبر لكليهما بالعالم، وليس الأمر أكثر من أن أحدهما ميت بلا نفس والآخر ميت له نفس، والنوم الكثير عادة غير ممدوحة، تخمل البدن، وتذهل الطبع، وتحول صورة الوجه من حال إلى حال، وهناك ستة أشياء إذا أصابت الناس حولت في التو صورة الوجه وغيرته، أحدها السرور الفجائي، وثانيها الغم المفاجىء، وثالثها الغضب، ورابعها النوم، وخامسها السكر، وسادسها الشيخوخة، فإذا شاخ الناس تحولوا عن صورتهم، وذلك نفسه نوع آخر، أما النائمون فليسوا في حكم الأحياء ولا في حكم الأموات، فكما أنه لا يكون على الميت حساب فكذلك لا يكون على النائم أيضاً وقد قيل:

رباعي

مهما حنيت ظهري بالجفاء
فإني لا أقلل حبك في قلبي
لا انقطع عنك أيها المعشوق المشهور
لانك نائم ولا يجري على النائم قلم(١)

وكما أن النوم الكثير ضار، فإن عدم النوم يضر أيضاً، إذ أن الأدمي إذا لم يترك لينام اثنتين وسبعين ساعة عمداً وأجبر على السهر، فإنه يخشى عليه من الموت

(١) أي لا حساب على النائم (المترجمان).

المفاجيء، ولكن لكل أمر حداً، وهكذا قال الحكماء: إن اليوم أربع وعشرون ساعة، تصحو شطريه وتنام شطراً، يجب الاشتغال ثماني ساعات بطاعة الله تعالى وتدبير شأنك، وثماني ساعات بالاستمتاع والمؤانسة وإنعاش الروح، وثماني ساعات بالراحة حتى تستريح الأعضاء التي تعبت ست عشرة ساعة. وينام الجهلاء من هذه الأربع وعشرين ساعة نصفاً ويستيقظون نصفاً، وينام العقلاء شطراً ويستيقظون شطرين على الوجه الذي ذكرناه. ينبغي أن يكون الإنسان كل ثماني ساعات بلون آخر، واعلم أن الحق تعالى قد خلق الليل من أجل راحة العباد كما قال في كلامه: ﴿**وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً**﴾(٢).

واعلم حقاً أن الحياة كلها بالروح، والجسد هو المكان، والروح هي المتمكنة، وللروح ثلاث خاصيات، كالحياة والخفة والحركة. وللجسد ثلاث خاصيات، هي الموت والسكون والثقل، وما دام الجسد والروح في حيز واحد، فإن الروح تحفظه بخاصيتها وتحمله على العمل حيناً وترده بخاصيتها عن الأعمال حيناً آخر، وتجره إلى الغفلة، وعندما يظهر الجسد خاصيته يستغرق الموت والثقل والسكون في ثبات ويكون ذلك بمثابة انهيار(٣) بيت يسقط، فإذا سقط البيت، أطبق على كل من يكون فيه، فعندما يستغرق الجسد في ثباته، يطبق على كل حواس(٤) الإنسان بحيث لا يسمع السمع، ولا يبصر البصر، ولا يتذوق الذوق، ولا يدرك اللمس الثقل والخفة والنعومة والخشونة، ولا تتكلم الناطقة فيستولي على كل ما يكون نائماً في مكانه، ويكون الحفظ والفكرة خارج مكانهما، فلا يستطيع الاستيلاء عليهما، ألا ترى أنه عندما ينام الجسد، ترى الفكرة الرؤى المنوعة وتذكرها الحافظة حتى إذا ما استيقظ يقول رأيت كذا وكذا؟ ولو كان هذان أيضاً في مكانهما، لكان قد استولى عليهما، فلم تكن الفكرة تستطيع الرؤية ولا كانت الحافظة تستطيع الحفظ، ولو كان النطق أيضاً في مكانه، لما كان الجسد يستطيع المضي في النوم، ولو مضى في النوم وتكلم، لما كان النوم نفسه، ولما كانت الراحة والاستحمام، لأن كل راحة

---

(٢) القرآن الكريم، سورة (النبأ) آية ١٠ ـ ١١.

(٣) الترجمة الحرفية: نوم.

(٤) الترجمة الحرفية: أرواح.

الأحياء في النوم، فالحق تعالى لم يخلق أي شيء بغير حكمة.

ولكن تكلف أن تبعد عن نفسك نوم النهار، وإذا لم تستطع، فليكن نومك قليلاً، لأنه ليس من الحكمة تحويل النهار إلى ليل. ولكن رسم المحتشمين والمنعمين هو أن يستريحوا في الصيف ظهراً وقت القيلولة، أما طريق التنعم فهو أن يستريحوا ساعة حسب العادة، ويخلوا بشخص يطيب وقتهم معه إلى أن تنحدر الشمس وينكسر الحر، وعندئذ يخرجون، وفي الجملة يجب أن تجتهد قضاء أكثر العمر يقظاً، لأن أمامك نوم طويل.

ولكن إذا أردت النوم ليلاً أو نهاراً، فينبغي أن لا تنام وحدك، بل يجب النوم مع شخص ينعش روحك، لأن النائم والميت كليهما في القياس سواء، ليس لهما خبر عن العالم، بيد أن أحدهما نائم حياً، والآخر نائم ميتاً، فالآن يجب أن يكون فرق بين هذين النائمين، إذ يتحتم على ذاك أن يكون وحيداً بعذر العجز، وهذا النائم الذي لا اضطرار له، لم ينام مثل ذلك العاجز المضطر؟ فيجب أن يكون فراش هذا الحي منعشاً للروح، حيث لا مؤنس في ذلك الفراش، ليتميز نوم الأحياء من نوم الأموات.

ولكن يجب التعود على الاستيقاظ مبكراً بحيث تنهض قبل شروق الشمس، حتى تكون قد أديت فريضة الحق تعالى قبل الشروق، وكل من ينهض وقت طلوع الشمس يصير ضيق الرزق، لأن وقت الصلاة يكون قد فاته، فيدركه شؤم ذلك، فأنهض في البكور وأدِ فريضة الله، ثم ابدأ في أشغالك، وإن لم يكن لك شغل في الصباح وأردت أن تذهب للتنزه فيجوز أن تشتغل بالصيد واللهو.

في الصيد والطرد

اعلم يا بني أن ركوب الخيل والطرد عمل المحتشمين، وخاصة في الشباب، ولكن ينبغي أن يكون لكل أمر حد ومقدار، ولا يمكن الصيد كل يوم، والأسبوع سبعة أيام، فاخرج يومين للصيد، واشتغل ثلاثة أيام بالطاعة، ويومين بتدبير شأنك.

أما إذا ركبت فلا تركب الجواد الضئيل لأن الرجل وإن كان منظرانياً فإنه يبدو حقيراً فوق الجواد الصغير، وإذا كان (هنالك)[1] رجل حقير وركب جواداً فارها[2] بدا عظيماً.

ولا تركب الجواد الذلول إلا في السفر، لأنه إذا كان الجواد ذلولاً حط الرجل بنفسه عليه، وامتط الجواد السريع الوثاب في المدينة والحي، كيلا تغفل عن نفسك لسرعة الجواد، وأجلس منتصباً دائماً حتى لا تبدو قبيح الركاب، ولا تركض الجواد في الصيد عبثاً، فإن إركاض الجواد عبثاً عمل الصبيان والغلمان، ولا تطارد السباع المفترسة، إذ لا فائدة قط في صيدها، ولا يتأتى منه أبداً سوى الخطر على النفس، كما قد هلك ملكان عظيمان من أرومتنا في صيد السباع، أحدهما جد أبي الأمير وشمگير[3]، والآخر ابن عمي الأمير شرف المعالي[4]، فدع أتباعك ليطاردوها

---

(١) ليست في الأصل (المترجمان).

(٢) فارهاً أي حذقا.

(٣) هو ظهير الدولة أبو منصور وشمگير بن زيار، تولى حكم جرجان وآمل سنة ٣٢٣هـ، وورث الحكم بعد أخيه مرداويج. را: إبن الأثير، مج ٦، حوادث ٣٢٣ هـ. را أيضاً: زمباور، معجم الانساب، ص ٣١٩.

(٤) هو أبو كاليجار أنوشروان بن منوجهر. قا : معجم الأنساب، ص ٣٢٠.

اللهم إلا أمام الملوك العظام فهنالك يجوز لطلب الشهرة والظهور.

فإذا كنت تحب الصيد فاشتغل بالصيد بالباز والصقر والشاهين[5] والفهد والكلب، حتى تكون قد اصطدت ولا تكون أيضاً مخاطرة، ويفيدك ما تصطاده، لا كلحم السباع، فهي لا تصلح للأكل ولا يصلح جلدها للارتداء، فإذا اصطدت بالباز فإن الملوك يقومون به على وجهين، فملوك خراسان لا يطيرون الباز بأديهم، ورسم ملوك العراق أن يطيروه بأيديهم، وكلا الوجهين يجوز، وإذا لم تكن ملكاً فأعمل كما تشاء، وإذا كنت ملكاً وأردت أن تطيره بنفسك فجائز ولكن لا تطير أي باز أكثر من مرة، فإنه لا يجوز للملوك أن يطيروا بازياً مرتين؛ فطيره مرة، وانظر، فإذا قنص صيداً فحسناً، وإلا فخذ بازياً آخر وطيره.

ويجب أن يكون مقصود الملك من الصيد النزهة لا الطعمة، وإذا كان الملك يتصيد بالكلب فلا يليق به أن يمسك الكلب بل يجب أن يطلقه العبيد أمامه وهو يشاهد، ولا تركض الجواد خلف الصيد، وإذا كنت تصطاد بالفهد فلا تجعل الفهد على الجواد وراء ظهرك، لأنه قبيح بالملك أن يحرس الفهد كما لا يشترط أن يحمل السبع وراء الظهر ـ وخاصة للملوك ـ وهذا هو شرط تمام الصيد.

---

(٥) كلمة فارسية تطلق على طائر العقاب.

في لعب الصولجان(١)

اعلم يا بني أنك إذا كنت تنشط للعب الصولجان فلا تجعله عادة دائمة، فقد حل البلاء بأشخاص كثيرين من لعب الصولجان.

حكاية

هكذا يحكى أن عمراً بن الليث(٢) كان أعور، ولما صار أمير خراسان(٣) ذهب يوماً إلى الميدان ليضرب الكرة، وكان له إسفهسالار(٤) يقال له «أزهر خر»(٥) ويقال إن هذا قد جاء وأمسك بعنانه وقال: لا أدعك تضرب الكرة وتلعب الصولجان، فقال له عمرو بن الليث: كيف تضربون أنتم الكرة ولا تجيزون أن ألعب أنا الصولجان؟ قال: لأن لنا عينين، فإذا أصابت الكرة أعيننا(٦) عمينا بعين واحدة وتبقى عين نرى بها

(١) الترجمة الحرفية حكاية ضرب الصولجان. (اندر جوكان دون).

(٢) هو عمرو بن علي بن أحمد بن الليث البخاري الليثي (أبو مسلم) المحدث الحافظ وجامع الأحاديث، توفي في خوزستان سنة ٤٦٦ هـ، وفي رواية أخرى أنه توفي في الأهواز سنة ٤٦٨ هـ. ومن تصانيفه الجمع بين الصحيحين والمسند الصحيح. را: معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله، ج ٧، ص ٢٩٧. را أيضاً: هدية العارفين، للبغدادي، مح ١، ص ٧٨٢.

(٣) بلاد واسعة تمتد من العراق إلى الهند وتشتمل على نيسابور وهراة ومرو وبلخ، وهي بلاد عامرة انجبت العديد من العلماء والنقاد ورجال الدين، ويذكر أن عثمان بن عفان فتح تلك البلاد عنوة. را: معجم البلدان مح ٢، ص ٣٥٠. را أيضاً: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٣٦١.

(٤) اسفهسالار: أعلى رتبة عسكرية لحاكم المقاطعة، وهي كلمة فارسية مؤلفة من قسمين: سالار بمعنى أسير الجيش أو القائد أو الحاكم. وسپاه بمعنى الجيش والجند. را: المعجم الذهبي.

(٥) أي ازهر الحمار.

(٦) الترجمة الحرفية: وقعت الكرة في عيننا.

الدنيا، ولك عين واحدة، فإذا اتفق أن وقعت الكرة فجأة على عينك، وجب تـوديع إمارة خراسان، فقال عمرو بن الليث: مع كل الحمارية[٧] التي فيك فقد أصبت، وقبلت أن لا أضرب الكرة ما بقيت.

أما إذا نشطت إلى الصولجان مرة أو مرتين في السنة، فأجيـز ذلك، ولكن لا ينبغي كثرة الركوب فإنه مخاطرة، ويجب جملة أن لا يزيد جمع الفرسان عن ثمانية أشخاص، فيجوز أن تقف أنت على رأس الميدان، ويقف آخر في آخـر الميدان، وستة أشخاص في الوسط يضربون الكرة، وعندما تأتي الكرة نحـوك تعيدهـا أنت، واحمل الجواد على التقريب[٨]، ولا تكن في الكر والفـر لتأمن الصدمة، ويحصل مقصودك من التنزه أيضاً، وهذا هو طريق لعب الصولجان للمحتشمين.

---

(٧) يلاحظ أن كلمة أزهر الحمار هي اسم القائد.

(٨) نوع من العدْو (المترجمان).

في قتال الأعداء

حينما تكون في ميدان القتال لا يجوز التراخي والتريث هنالك، بل يجب قبل أن يتعشى بك العدو أن تكون أنت قد تغديت به، وإذا وقعت في وسط المعركة فلا تقصر قط، ولا ترحم نفسك، فإن من قدر له أن ينام في القبر لا ينام في البيت بأية حال، كما قلت أنا دوبيتاً[1] في هذا المعنى:

رباعي

إذا صار الأسد عدواً، سواء اكان ظاهراً أم خفياً
فإني سأخاطب الأسد بالسيف
فمن قدر له أن ينام في القبر بغير زوج
لا يستطيع أن ينام في بيته مع الزوج

ولا تتراجع خطوة في المعركة ما دمت تستطيع أن تتقدم خطوة، وإذا ابتليت في وسط الأعداء فلا تتقاعس عن الحرب، لأنه بالحرب يمكن القبض على الأعداء، وما داموا يرون دلائل التوفيق معك فإنهم يهابونك أيضاً، واجعل الموت شهياً إلى القلب في ذلك المكان، ولا تخش البتة، وكن مقداماً، فإن السيف القصير يصير بيد الشجعان طويلاً. ولا تقصر في المجاهدة بأي حال، لأنه إذا ظهر منك خوف وضعف، وكان لك ألف روح، فإنك لا تستطيع النجاة بواحدة منها، ويتغلب عليك أقل شخص، وعندئذ إما أن تقتل، وإما أن تسوء سمعتك، وإذا عرفت بين الرجال

(١) الدوبيت اصطلاح يطلق على نوع من الشعر يعرف بالرباعي وهذا الشعر يتكون من أربعة أشطار، تكون قافية الأشطار الأولى والثانية والرابعة واحدة، أما الثالثة فمخالفة، وتختلف عن الرباعي في الوزن.

بالجبن وتراخيت وتهاونت في مثل ذلك الموقف وتخلفت عن قرينك، تخجل بين إخوانك ورفاقك، ولا يبقى لك إسم ودلال، وتبقى خجلاً بين الأقران والخلان، ويكون الموت خيراً من تلك الحياة، والموت بالسمعة الطيبة أولى من حياة شائنة كتلك، ولكن لا تكن جريئاً على الدم الحرام.

ولا تستحل دم أي مسلم، إلا دماء الصعاليك، واللصوص، والنباشين[٢]، ودم شخص يكون سفك دمه واجباً في الشريعة، لأن بلاء الدارين منوط بالدم الحرام، فتلقى أولاً جزاء ذلك يوم القيامة، وتصير في الدنيا سيء السمعة، ولا يأمنك أي شخص دونك، وينقطع منك أمل خدمك، وينفر منك الخلق، ويضمرون لك العداء، ولا تكون كل العقوبة على الدم الحرام في الآخرة، فقد قرأت في الكتب وصار معلوماً بالتجربة أن جزاء السوء يصل إلى المرء في الدنيا أيضاً، فإذا كان قد اتفق لهذا الشخص طالع حسن، فلا بد وأن يصل لأولاده، فارحم نفسك وأبناءك، ولا ترق الدم الحرام، ولكن لا تقصر في دم الحق المنوط به الصلاح، لأن الفساد يتولد من التقصير.

(حكاية)

كما يحكى عن جدي شمس المعالي، أنه كان رجلاً مسرفاً في القتل، ولم يكن يطيق العفو عن جرم أي أحد، لأنه كان رجلاً شريراً. وحقد عليه الجند لشره، واتحدوا مع عمي فلك المعالي[٣]، فجاء وقبض على أبيه شمس المعالي اضطراراً، لأن الجند قالوا له: إذا لم تتحد معنا في هذا الأمر، فإننا نسلم هذا المُلك لغريب.

فلما علم أن الملك سيخرج من أسرتهم قام بهذا العمل ضرورة من أجل الملك، والمقصود أنه لما قام بهذا الأمر، وقبضوا عليه وقيدوه، ووضعوه في مهد، ووكلوا به الموكلين، وبعثوا به إلى قعلة چناشك[٤]، كان من جملة الموكلين به رجل يقال له

(٢) النباشين جمع نباش، والنباش هو الشخص الذي يبرز المستور ويكشف الشيء عن الشيء.

(٣) هو منوجهر بن شمس المعالي قابوس، تولى الحكم اثر تنازل والده عن الحكم قسراً سنة ٤٠٣ هـ. تزوج ابنة محمود الغزنوي ولقبه الخليفة القادر بالله العباسي بفلك المعالي. را: البداية النهاية، مج ١١ - ١٢، جزء ١١، ص ٣٥٠. را أيضاً: معجم الأنساب، ص ٣٢٠ وأيضاً: ابن الأثير، الكامل، مج ٧، ص ٢٦٦.

(٤) جناشك: قلعة معزولة هادئة آثر قابوس اللجوء إليها ليتفرغ للعبادة انظر: ابن الاثير، مج ٧ ص ٢٦٦.

عبد الله الجمازي، وبينما كانوا يسيرون في ذلك الطريق، قال شمس المعالي لهذا الرجل: يا عبد الله! ألا تعرف من عمل هذا العمل؟ وكيف كان هذا التدبير فجرى أمر بهذه الخطورة ولم أستطع أن أعرف؟ فقال عبد الله: قام بهذا العمل فلان وفلان ـ وذكر أسماء خمسة قواد قاموا بهذا العمل وخدعوا الجند ـ وكنت أنا نفسي عبد الله في هذا الشأن، وحلَّفت الجميع، وقد بلغت أنا بهذا الأمر إلى هذه الغاية، ولكن لا تر هذا الأمر مني، بل أره من نفسك، فقد وقع لك هذا الأمر من القتل الكثير، لا من انقلاب العسكر، فقال شمس المعالي: لقد أخطأت! فقد وقع لي هذا الأمر من عدم قتل الناس، فلو سار هذا الأمر على مقتضى العقل لكان ينبغي قتلك مع هؤلاء الخمسة، ولو كنت فعلت هذا لصار أمري إلى الصلاح، وكنت في السلامة.

وذكرت هذا لكيلا تقصر في العدل والسياسة، ولا تستسهل ما لا مفر منه، ولا تتعود الجب[٥] كذلك، فإن هذا مساوٍ للقتل، لأنك تنقص من العالم نسل مسلم من أجل شهوتك، ولا يكون جوراً أكبر من هذا، وإذا لزمك محبوب فاحصل على محبوب أصلاً، ليكون نفعه لك ووزره في عنق شخص آخر، وتكون قد كففت نفسك عن هذا الذنب.

أما في حديث القتال، فكن كما أمرت، ولا ترحم نفسك، إذ كيف تجعل اسمك اسم الأسود ما لم تجعل جسمك طعمة للكلاب؟ فجد حتى يتأتى لك الصيت والعيش، فإذا حصلت عليهما فاجتهد أن تجمع المال، وإذا جمعته فاحفظه وانفقه بمقدار.

(٥) الجب تعني: استئصال الخصية. والمقصود هنا: أن لا تتعود التنكيل والتعذيب.

في جمع المال

أي بني، لا تغفل عن جمع المال، ولكن لا تلق بنفسك في الخطر من أجله، واجتهد في أن يكون كل ما تحصله من خير وجه ليكون هنيئاً لك، وإذا حصلت عليه فاحفظه، ولا تدعه من يدك بكل باطل، فإن حفظه أصعب من جمعه، وحينما تضطر للإنفاق فاجتهد حتى تضع عوضه سريعاً في مكانه، لأنك إذا أخذت ولم تضع في مكانه العوض ثانياً، فإنه ينفد وأن يكن كنز قارون[1]، وكذلك لا تعلق به قلبك بحيث تعده أبدياً، حتى لا تبتئس وتغتم إذا ما نفد وقتاً، وإذا كان المال كثيراً فانفق منه بقدر ومقدار، لأن القليل بالتدبير خير من الكثير بغير توفير، وإذا تبقى بعدك مال كثير، فإنه أحب إليَّ من أن تكون محتاجاً، فقد قيل: **بقاء المال للأعداء خير من الاحتياج إلى الأصدقاء وصعوبة حفظه خير من صعوبة طلبه**. ومهما يكن المال زهيداً فاعلم أن المحافظة عليه واجبة، لأن كل من يحافظ على القليل يستطيع المحافظة على الكثير أيضاً.

واعلم أن عمل المرء لنفسه خير من عمل الناس له، وأنف من الكسل فإن الكسل تلميذ التعاسة، وكن حمولاً للتعب، لأن المال يتجمع بالتعب، وكما يزداد بالتعب يذهب من اليد بالكسل، فقد قال الحكماء: كن ساعياً لتكون عامراً، وكن راضياً لتكون غنياً، وكن متواضعاً لتكون كثير الأصدقاء، فكل ما يحصل عليه بالتعب والجهد، لا يكون التفريط فيه بالكسل والغفلة من عمل العقلاء، لأنك تندم في وقت

(١) هو قارون بن يصهر بن قاهت إبن عم موسى عليه السلام، يذكر عنه الطبري انه كان يحمل مفاتيح كنوزه على ظهر ستين بغلاً. را: تاريخ الطبري، مج ١، ص ٣١٢ - ٣١٤.

الحاجة دون جدوى، ولكن بما أنك تتعب نفسك فاجتهد أن تأكله بنفسك أيضاً.

ومهما يكن المال عزيزاً فلا تضن به على المستحقين، لأن الإنسان ـ على كل حال ـ لا يحمل المال إلى القبر، ولكن يجب أن يكون الإنفاق على قدر الدخل، حتى لا تصير محتاجاً، لأن الاحتياج لا يكون في بيوت الفقراء فحسب، بل يكون في كل البيوت، فإذا كان الدخل درهماً مثلاً، وأنفقت درهماً وحبة تظل محتاجاً دائماً، فينبغي إذا كان الدخل درهماً أن تنفق درهماً إلا حبة، حتى لا يكون في البيت عوز أبداً.

واقنع بما عندك فإن القناعة هي الغني الثاني، والرزق المقسوم لك يصل إليك، وكل عمل يتم بكلام الناس وشفاعتهم لا تبذل فيه المال، حتى لا يضيع درهمك عبثاً، لأنه لا قدر لعمل الرجل المعدم. واعلم أن العامة جميعاً يحبون الأغنياء لغير نفع ويعادون جميع الفقراء لغير ضر لأن الفاقة أسوأ حالات المرء، وكل خصلة تكون مدحاً للأغنياء، تكون بعينها ذماً للفقراء، واعلم أن زينة المرء في بذلة المال، واعرف قدر كل امرىء بمقدار تجمله.

ولكن أعلم أن الإسراف عدو الله، وكل ما يعاديه الله فهو شؤم على العباد، كما قال الله تعالى في كلامه المجيد **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**[٢] فالشي الذي لا يحبه الله تعالى لا تحببه أيضاً، ولكل آفة سبب، واعرف أن الإسراف سبب للفقر، وليس الإسراف كله في الإنفاق، بل لا ينبغي الإسراف في الأكل والقول والعمل وفي كل شغل يكون، لأن الإسراف يوهن البدن وينهك النفس ويميت العقل الحي، ألا ترى أن حياة السراج من الزيت، فإذا جعلته في السراج بغير حد ومقدار بحيث يسرى من طرف المسرجة إلى رأس الفتيلة فإنه يميت[٣] السراج في الحال ويكون نفس ذلك الزيت سبب الموت، ولو كان باعتدال لكان سبب حياته، فلما أسرف صار سبب مماته؟ فصار معلوماً أن السراج يحيا بالزيت وحينما يجاوز الاعتدال ويبدو الإسراف، يموت كذلك بذلك الزيت الذي يحيا به، والله تعالى لا يحب الإسراف لهذا السبب،

---

(٢) القرآن الكريم، سورة (الأنعام) آية ١٤١.

(٣) أي يطفىء. واستعمل المؤلف كلمة يميت وكلمة الموت في مقابل كلمة الحياة (المترجمان).

والحكماء أيضاً لم يرتضوا الإسراف في أي شأن لأن عاقبة الإسراف كله الضرر.

ولكن لا تجعل حياتك مُرة، ولا تسد على نفسك باب الرزق، وتعهد نفسك جيداً، ولا تقصر فيما يجب، لأن كل من يقصر في شأن نفسه، لا يجد الوفر من السعادة ويبقى محروماً من الأغراض، وانفق على نفسك ما تملكه ويكون لازماً لك، لأن المال وإن يكن عزيزاً فليس أعز من النفس على أي حال، وفي الجملة اجتهد في أن تستعمل كل ما تحصله في الصلاح، ولا تودع ما لك إلا بأيدي البخلاء، ولا تعتمد قط على المقامر وشارب الخمر، وظن كل شخص لصاً، ليكون مالك في أمان من اللصوص.

ولا تقصر في جمع المال لأن راحة البدن أولاً هي الألم آخراً، والألم أولاً هو راحة البدن آخراً بحيث تكون راحة اليوم تعب الغد، وتعب اليوم راحة الغد، وإذا حصل بيدك بعناء أو بغير عناء، فاجتهد حتى تجعل نفقة بيتك وعيالك دانقين من درهم، ولا تنفق أكثر من هذا ولو كان لازماً وكنت محتاجاً، وإذا انفقت هذين الدانقين، فادخر دانقين من أجل الضرورة وولهما ظهرك، ولا تذكرهما في كل خلل، واتركهما للورثة، ليكونا عونك لأيام الضعف وأوان الشيخوخة، واصرف ذينك الدانقين الآخرين الباقيين في تجمّل نفسك، وتجمَّل بما لا يفنى[٤] ويبلى، مثل الجواهر والأدوات الذهبية والفضية، والفولاذية والبرنزية، والنحاسية وأشباه هذه، وإذا زاد فاودعه التراب لأن كل ما تودعه التراب تجده ثانياً، ويكون المال دائماً في مكانه، وإذا تجملت فلا تبع تجمّل البيت في كل حاجة وضرورة تعرض لك، ولا تقل: الآن ضرورة، فأبيع وأشتري ثانياً في وقت آخر لأنه لا يجوز بيع تجمل البيت من أجل كل خلل بأمل الشراء عوضه ثانياً، فإنه لا يشتري ويخرج ذاك من اليد ويبقى البيت خالياً، فلا يمضي طويل حتى تكون أفلس المفلسين، ولا تقترض من أجل كل ضرورة تعرض لك ولا ترهن متاعك، ولا تعط البتة المال أو تأخذه بالربا، واعلم أن الاستدانة ذل كبير.

ولا تُقرض ما استطعت درهم فضة لأي إنسان وخاصة لأصدقائك، لأن مطالبة

---

(٤) الترجمة الحرفية: يموت

الصديق بالدين أكبر ألم، فإذا أقرضت فلا تعد ذلك الدرهم من مالك، واعتبره كذلك في نفسك قائلاً: إني وهبت هذا الدرهم لهذا الصديق، ولا تطلبه منه ما لم يرده، لأن الصداقة تنقطع بسبب المطالبة، فسرعان ما يمكن جعل الصديق عدواً أما جعل العدو صديقاً فصعب جداً، ذاك عمل الصبيان وهذا عمل الشيوخ. واجعل من كل ما يكون لك نصيباً للمستحق، ولا تطمع في مال الناس، لتكون خير الناس، واعتبر مالك من متاعك ومال الناس من متاع الناس، لتعرف بالأمانة ويعتمد الناس عليك، وتكون بهذا العمل غنياً دائماً.

في إيداع الأمانة

إذا استودعك شخص أمانة فلا تقبلها بأي حال، وإذا قبلتها فاحفظها، لأن قبول الأمانة قبول للبلاء إذ أن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء، وأن ترد إليه هذه الأمانة، كما أمر الله عز وعلا في محكم تنزيله[1] ﴿**وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ فإن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هي أن لا تقبل الأمانة وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالمة.

(حكاية)

سمعت أن رجلاً خرج من بيته في الظلام وقت السحر ليذهب إلى الحمام ورأى في الطريق صديقاً من أصدقائه فقال: أتوافقني على أن نذهب معاً إلى الحمام؟ فقال صديقه أرافقك حتى باب الحمام ولكن لا أستطيع الدخول لأن عندي عملاً.

وسار معه إلى قرب الحمام، فوصلا إلى مفترق[2] طريقين وعاد قبل أن يخبر ذلك الصديق، وسار في طريق آخر، واتفق أن كان طراراً[3] يسير وراء هذا الرجل ليذهب إلى الحمام للنشل، والتفت الرجل مصادفة فرأى الطرار، وكانت الدنيا ما تزال مظلمة فظن أنه صديقه وكان معه في كمه ماية دينار مصرورة في منديل، فأخرجها من كمه وأعطاها لذلك الطرار وقال: أي أخي! خذ هذه الأمانة حتى أخرج

---

(١) القرآن الكريم، سورة (النساء) آية ٥٨.

(٢) الترجمة الحرفية: رأس

(٣) الطرار: هو النشال.

من الحمام فتردها إلي، فأخذ الطرار منه المال وأقام هنالك، ولما خرج من الحمام، كانت الدنيا قد أضاءت، فارتدى ثيابه وذهب، فناداه الطرار وقال: أيها الفتى! استرد مالك وأمض. فإني قد تخلفت اليوم عن شغلي بسبب أمانتك، فقال: ما هذه الأمانة؟ ومن أنت؟ فقال الطرار: أنا طرار، وأنت أعطيتني هذا الذهب حتى تخرج من الحمام، فقال الرجل: إذا كنت طراراً فلم لم تسلبه مني؟ فقال الطرار: لو كنت سلبت هذا بصناعتي لأخذته ولو كان ألف دينار ولما كنت أرد منه شعيرة، ولكنك سلمته لي واستودعته مستأمناً، وليس من المروءة أن أخونك وقد جئت مستأمناً.

أما ما ذكرت من أن طراراً يرعى حرمة الأمانة لهذا الحد فهو من أجل أن تعلم أن قبول الأمانة أمر عظيم الخطر، لأنها إذا تلفت على يدك بغير إرادتك فإنه يحسن أن تشتري عوضها ثانياً وتؤديه، وإذا أضلك الشيطان الطريق وطمعت فيها، فإن ذلك سواد الوجه في الدنيا والآخرة، وإذا رددتها إلى صاحب الحق بعد أن تكون قد احتملت كل ذلك التعب لحفظها، فإن صاحب الأمانة لا يرى لك أية منة ويقول: إنه كان مالي ورده إلى، ويبقى كل تعبك ذاك غير مشكور، ويكون أجرك هو ذاك الصنيع الذي يبيض ثوبك.

أما إذا تلفت ولم تكن أنت قد فكرت ثمت في خيانة قط، فإن أحداً لا يقبل ذلك وتصبح خائناً عند كل الناس، وتذهب حرمتك بين أمثالك وأقرانك، ولا يعتمد عليك شخص آخر كذلك، وإذا بقيت معك حبة من ذلك المال تكون حراماً ويبقى في عنقك وبال عظيم، ولا تكون منعماً في هذه الدنيا وتحل بك عقوبة الحق تعالى في الآخرة.

فصل

أما إذا استودعت شخصاً وديعة فلا تستودعها خفية، بل تأخذ شاهدين عدلين، وخذ منه حجة بما تعطي لتستريح من التقاضي، فإذا أدى الأمر إلى التقاضي، فلا تجترىء عليه، لأن التجارؤ علامة الظلم، ولا تقسم ما استطعت كذباً أو صدقاً أبداً، ولا تجعل نفسك معروفاً بالحلف قط حتى إذا لزمك مرة أن تحلف وكانت هناك ضرورة، يعتبرك الناس صادقاً في ذلك القسم. ومهما تكن غنياً، فإنك إذا لم تكن

حسن السمعة وصادقا تكون من جملة الفقراء، إذ ليس لسيء السمعة والكذاب عاقبة غير الفقر، والتزم الأمانة فقد قيل: **الأمانة كيمياء**[٤] **الذهب**، وعش غنياً دائماً، يعني كن أميناً وصادقاً، لأن مال كل العالم للأمناء والصادقين، واجتهد أن لا تكون خادعاً واحذر أن تكون مخدوعاً وخاصة في المعاملات[٥] المرتبطة بالشهوة.

(٤) علم تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة.

(٥) الترجمة الحرفية: العطاء والأخذ.

شراء الرقيق

إذا أردت أن تشتري الرقيق فكن فطناً، لأن شراء الآدمي علم صعب، فكثيراً ما يكون العبد مليحاً، فإذا نظرت إليه عن علم يكون خلاف ذلك. وأكثر الخلق يظنون أن شراء الرقيق من جملة التجارات الأخرى، ولا يعرفون أن شراء الرقيق وعلم ذلك[1] من علوم الفلسفة، وكل من يشتري شيئاً لا يعرفه حق المعرفة يغبن فيه، وأصعب المعارف معرفة الآدمي، لأن عيوب الآدمي وفضائله كثيرة، فقد يكون عيب واحد يستر مائة ألف فضيلة، وتكون فضيلة واحدة تستر مائة ألف عيب، ولا يمكن معرفة الآدمي إلا بعلم الفراسة والتجربة، وتمام علم الفراسة علم النبوة، إذ لا يصل أحد إلى كماله إلا نبي مرسل يستطيع بالفراسة أن يعرف محاسن ومساوىء بواطن الناس، ولكني أذكر بقدر طاقتي شرطاً في شراء المماليك والعبيد، وما يكون من فضائلهم وعيوبهم حتى يصير معلوماً.

إعلم أن هنالك ثلاثة شروط في شراء المماليك:

أحدها معرفة عيوب وفضائل ظاهرهم وباطنهم بالفراسة، والوقوف على العلل الخفية والظاهرة بالعلامات، ثم معرفة الأجناس وعيوب وفضائل كل جنس.

أما أول شرط الفراسة فهو أنك إذا اشتريت عبداً ينبغي التأمل جيداً، لأن

(١) يُدخل قابوس تجارة الرقيق ضمن فلسفة الاخلاق والعلوم النظرية والتطبيقية، فهو لا يقتصر البحث في قضايا البيع والشراء وإنما يتطرق لقضايا أخلاقية كالفضيلة والخير والسعادة، ويتدخل عبر الاستبطان والتأمل والملاحظة في صميم النفس البشرية ليكشف أغوارها ومكانها ويرسم للانسان الفرد ما ينبغي أن يكون عليه في أخلاقه وسلوكه.

للعبيد مشترين من كل نوع، فقد ينظر شخص إلى الوجه ولا ينظر إلى الجسم والأطراف، وقد ينظر شخص إلى الشحم واللحم. أما كل من ينظر إلى العبد فيجب أولاً أن ينظر إلى الوجه، لأنه يمكنك أن ترى وجهه دائماً، وترى جسمه أحياناً، فانظر إلى العين والحاجب، ثم إلى الأنف والشفة والأسنان وبعد ذلك أنظر إلى شعره، لأن الله عز وجل أودع حسن كل الآدميين في العين والحاجب، والملاحة في الأنف، والحلاوة في الشفة والأسنان، والطراوة في الجلد، وصيَّر شعر الرأس مزيناً لهذه كلها، لأنه خلق الشعر من أجل الزينة، فينبغي كذلك أن تنظر فيها جميعاً فإذا كان في العين والحاجب حسن، وفي الأنف ملاحة وفي الشفة والأسنان حلاوة وفي الجلد طراوة فاشتر ذلك العبد ولا تنشغل بأطراف جسده، فإذا لم تكن هذه كلها، فيجب أن بكون مليحاً، لأن مليحاً بغير حسن خير في مذهبي من حسن بغير ملاحة، وقد قيل:

العبد يصلح لكل عمل، فينبغي أن يعرف بأية فراسة يجب أن يشترى وبأية علامة.

كل عبد تشتريه من أجل الخلوة والمعاشرة، يجب أن يكون معتدلاً في الطول والقصر، وفي السمن والنحافة، والبياض والحمرة، والغلظة والرقة، وجعودة الشعر واسترساله. فإذا رأيت غلاماً ناعم اللحم، ورقيق الجلد، ومستوى العظام، وخمري الشعر، وأسود الهدب، وأشهل العين، وفاحم الحاجب، وواسع العين، ومسحوب الأنف، ودقيق الخصر، ومدور الذقن وأحمر الشفة، وأبيض الأسنان، ومستوي الثنايا، وكل أعضائه متناسبة مع ما ذكرت، كل غلام يكون هكذا يكون جميلاً ومعاشراً وحسن الخلق ووفياً ولطيف الطبع ولائقاً.

وعلامة الغلام العاقل الموفق هي أن يكون منتصب القامة ومعتدل الشعر ومعتدل اللحم وعريض الكف وواسع ما بين الأصابع، عريض الجبهة، أحمر اللون، أشهل العين منبسط الوجه من غير ابتسام مثل هذا الغلام يكون أهلاً لتعلم العلم وتعهد الخزانة وكل عمل.

وعلامة الغلام الذي يليق للملاهي هي أن يكون ناعم اللحم وقليله وخاصة على الظهر، ودقيق الأصابع لا بالنحيل ولا بالسمين، وكل غلام منتفخ الوجه[٢] لا

(٢) الترجمة الحرفية: على وجهه لحم كثير.

يمكن أن يتعلم شيئاً، فينبغي أن يكون ناعم الكف وواسع ما بين الأصابع ووضيء الوجه، وضيق الإهاب لا يكون شعره طويلاً جداً ولا قصيرا جداً ولا أسود جداً، والأفضل أن يكون باطن كف قدمه مستوياً، مثل هذا الغلام يتعلم سريعاً كل حرفة دقيقة وخاصة الغناء.

وعلامة الغلام اللائق لحمل السلاح هي أن يكون غزير الشعر وتام القوام منتصب القامة، وقوي التركيب، ومكتنز اللحم وغليظ العظم وخشن الجلد، وقويم الجسم، شديد المفاصل مشدود العروق وجميع الأوردة والأعصاب ظاهرة على جسده ونافرة، وعريض الكتف وواسع الصدر. وغليظ العنق ومستدير الرأس، وإذا كان أصلع فهو أفضل، وضامر البطن ومجتمع العجيزة وتكون ساق رجله مبسوطة حين يمشي، ويجب أن يكون أسود العين، وكل غلام كهذا، يكون مبارزاً وشجاعاً وموفقاً.

وعلامة الغلام الذي يليق لخدمة الحريم(٣) أن يكون أسود البشرة وعابس الوجه وفظاً غليظاً ويابس الجسم وخفيف الشعر ورقيق الصوت ونحيل القدم وغليظ الشفة وأفطس الأنف، وقصير الأصابع. منحني القامة ونحيل العنق، مثل هذا الغلام يليق لخدمة الحريم. ولكن لا يجوز أن يكون أبيض البشرة وأحمر الوجنة، واحترز من الأشقر وخاصة من المتهدل الشعر، ولا يليق أن يكون في عينه رعونة وطراوة، فإن مثل هذا يكون إما ولوعاً بالنساء أو قواداً.

وعلامة الغلام الوقح الذي يليق للعونة(٤) وسياسة الدواب هي أن يكون مفتوح الحاجبين وواسع العينين وأجفان عينيه منقطة بالحمرة وطويل الشفة والأسنان وواسع الفم، مثل هذا الغلام يكون وقحاً جداً وجسوراً وغير مؤدب.

وعلامة الغلام الذي يليق للفراشة والطبخ هي أن يكون صافي الوجه ونقي البدن ومستدير الوجه ودقيق اليد والقدم وأشهل العين بحيث تضرب إلى الزرقة، وتام القوام وصموتاً وشعر رأسه خمرياً ومسبلاً، مثل هذا الغلام يليق لمثل هذه الأعمال.

(٣) الترجمة الحرفية: بيت النساء.

(٤) للخدمة والسخرة.

أما الشرط الذي قلنا انه يجب توافره وعيوب ومحاسن كل جنس التي يلزم معرفتها فسأذكرها:

اعلم أن الترك ليسوا جنساً واحداً، ولكل جنس منهم طبع وجوهر، والغز[٥] والقپچاق من بينهم أسوأ الجميع أخلاقاً، وأحسن الجميع خلقاً وأطوعهم الختني والخلخي والتبتي، وأجرأ الجميع وأشجعهم هو الترقائي، وأكثر الجميع احتمالاً للتعب ومقاساة للبلاء وأوفقهم التاتاري واليغمائي، وأضعف الجميع الچگلي، وحسنهم وقبحهم يتضح جملة، والهنود على النقيض، بحيث إذا نظرت إلى التركي تفصيلاً فالرأس كبير والوجه والعينان ضيقتان والأنف مفرطح والشفة والأسنان غير جميلة، فإذا نظرت إلى هذه تفصيلاً فإنه لا يكون جميلاً أما إذا نظرت إليها كلها وجمعت بينها فهو جميل.

وصورة الهندي بخلاف هذا، إذا نظرت إليها عضواً عضواً[٦] يبدو كل عضو منها جميلاً بذاته، ولكن إذا نظرت إليها جملة لا تبدو كصورة الا تراك، فللتركي قبل كل شيء[٧] رطوبة ذاتية وصفاء ليسا للهندي، وقد أحرز الأتراك في الطراوة السبق على جميع الأجناس، فلا جرم أن يكون كل ما هو حسن في الترك في غاية الحسن وما هو قبيح في غاية القبح، وأكثر عيوبهم إنهم بليدو الذهن وجهلاء ومتكبرون ومشاغبون وغير راضين، وغير منصفين ومثيرون للفتن بلا سبب وبذيئو اللسان، وهم في الليل جبناء، وتلك الشجاعة التي يبدونها نهاراً لا يستطيعون إبداءها ليلاً، أما ميزتهم فهي انهم شجعان وغير مرائين ظاهرو العداوة ومتعصبون لكل عمل تكله إليهم، ولا يوجد من أجل التجمل جنس أحسن منهم.

والصقلبي والروسي والألاني قريبون إلى طبع الأتراك، ولكنهم أكثر احتمالاً من الترك، أما الألانيون فأكثر شجاعة من الترك في الليل، وأكثر حباً لسيدهم، ولئن

---

(٥) هم قبائل تركمانية هاجرت من أقصى التركستان واستقرت في خراسان وما وراء النهر خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين، وعرفت هذه القبائل التركية بإسم السلاجقة نسبة إلى زعيمها سلجوق بن دقاق. را: الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٦) الترجمة الحرفية: واحداً واحداً يبدو جميلاً بذاته (المترجمان).

(٧) الترجمة الحرفية: أولاً.

كانوا في الفعل أقرب إلى الرومي فإنهم ممتازون كالأتـراك ولكن فيهم عدة عيـوب مثل السرقة والعصيان والتكلم خفية، وعدم الصبر والتباطؤ في العمل ورخاوة الطبع ومعاداة سيدهم والفرار.

أمـا فضـائلهم فهي انهم لينـو الـطبـاع ومـطبـوعـون وسـريعـو الفهم ومترووون في العمل، وقويمو اللسـان وشجعان وأدلاء، وصـالحون للتعليم. وعيب الرومي هو انه بذيء اللسان وسيء الطوية وضعيف الطبع وكسلان وسـريع الغضب وحريص ومحب للدنيا، وفضائلهم هي انهم صابرون وأوداء وحسنو الخلق وميالون للرئاسة وموفقون، وحافظون لألسنتهم. أما عيب الأرمني فهو انـه سيء الفعل ونتن الفم ولص ووقح وشرود وغير مطيع ومهذار وكذاب ومحب للكفر وعدو لسيده وهو من رأسه إلى قدمه أقرب إلى العيب ولكنه حاد الفهم وسريع التعلم.

وأما عيب الهندي فهو انه بذيء اللسان، ولا تأمن منه جارية في البيت، أما أجناس الهنود فليسوا كسائر الأقوام، لأن كـل الخلق مختلطون ببعضهم البعض إلا الهنود فإنهم من عهد آدم عليه السلام ما تزال عادتهم على أن لا يتصل أصحاب حرفة قط بخلاف بعضهم البعض، فيعطي البقالون بناتهم للبقالين والقصابون للقصـابين والخبـازون للخبازين والجنـدي للجندي، فهم كـل جنس منهم له طبـع آخر، ولا أستطيع شرح كل على حدة فيتحول الكتاب عن وضعه[٨]. أما خيرهم الذي يكون عطوفاً وشجاعاً وسيداً أيضاً، فهو البرهمي أو الـراوت أو الكرار؛ فـالبرهمي عـاقل والراوت شجاع والكرار سيد، وكـل جنس خير من جنس. أمـا النوبي[٩] والحبشي فأقل عيباً، والحبشي خير من النـوبي، لأن في مدح الحبشي شيئـاً كثيراً عن النبي ﷺ. هذا ما كان من معرفة الأجناس وفضل وعيب كل جنس.

والشرط الثالث الآن هو أن تحيط كلية بالعيوب الظاهرة والباطنة بـواسطة العلامات، وذلك بأن لا تغفل وقت الشراء ولا ترض بنظرة واحد فقد يكون حسناً

---

(٨) الترجمة الحرفية: حاله (المترجمان).

(٩) تعرف بدملقة، وهي مدينة على ساحل النيل الشرقي، والنوبة بلاد واسعة وعريضة في جنوبي مصر، كـان أغلب سكانهـا النصارى يبـاعون منـذ القدم رقيقـاً في مصر. را: معجم البلدان، مج ٢ ص ٣٥٠. را أيضاً: آثار البلاد واخبار العباد، ص ٢٥.

جداً في النظرة الأولى ما يتضح أنه قبيح، ويكون قبيحاً جداً ما يتضح أنه حسن، وفضلاً عن ذلك فإن بشرة الآدمي لا تكون دائماً بلونها الأصلي فنميل حينا إلى الحسن وحيناً إلى القبح، ويجب التأمل جيداً في كل أعضائه حتى لا يخفى عليك شيء، فقد تكون علل كثيرة خفية تتماثل للظهور(١٠) وما تزال غير ماثلة فتظهر في بضعة أيام، ولها علامات:

فإذا كانت في وجنتيه صفرة وكان لون شفتيه متغيرا وكانتا ذابلتين فذلك دليل البواسير، وإذا كانت جفون العينين متورمة دائماً فهو دليل الإستسقاء، واحمرار العين وامتلاء عروق الجبهة دليل الصرع، ونتف الشعر وتحريك الأهداب وعض الشفة دليل المالينخوليا، واعوجاج عظم الأنف وعدم استوائه دليل الناسور، والشعر الشديد السواد بحيث يكون أشد سواداً في موضع دون آخر دليل على أن شعره مصبوغ، وإذا رأيت كياً على الجسد في موضع لا يكون موضع كي، فانظر حتى لا يكون تحته برص، وصفار العين وامتقاع لون الوجه دليل اليرقان.

ولا بد للغلام وقت الشراء من أن تأخذه وتنيمه وتدلك كلا جانبيه وتنظر عن كثب أن لا يكون به أي ألم وورم، فإذا وجد فهو في الكبد والطحال.

فإذا تجسست هذه العلل الخفية، فتلمس الظاهرة أيضاً، من رائحة الفم والأنف وثقل السمع، وضعف النطق، وعدم استواء الكلام والإنحراف عن الجادة، وتضخم المفاصل، وصلابة أصول الأسنان، حتى لا يغدر بك.

ثم إذا كنت قد رأيت كل هذا الذي ذكرناه، وصار معلوماً لك، فاشتر من رجل صالح إذا اشتريت، ليكون في بيتك صالحاً كذلك، ولا تشتر ناطقاً بالعربية ما وجدت أعجمياً، لأنك تستطيع أن تربي الأعجي على خلقك، ولا تستطيع ذلك مع الناطق بالعربية، ولا تأت بجارية أمامك وقتما تكون الشهوة غالبة عليك، لأن غلبة الشهوة تحسن القبيح في عينك، فسكن الشهوة أولاً ثم باشر الشراء.

ولا تشتر العبد الذي كان معززاً في مكان آخر، لأنك إذا لم تعزه لا يرى لك

(١٠) الترجمة الحرفية: تقصد المجيء (المترجمان).

منة عليه، أو يأبق، أو يطلب البيع، أو يضمر لك العداوة، وإذا أعززته لا يعد ذلك منة منك، لأنه قد رأى مثل ذلك في مكان آخر، واشتر العبد من مكان قد أسيء إليه فيه[11]، حتى يشكرك على القليل من حسن رعايتك ويحبك، وهب للعبيد شيئاً من وقت لآخر ولا تدعهم محتاجين دائماً للدراهم فيذهبوا في طلب الدرهم بالضرورة. واشتر العبد القيم، لأن جوهر كل شخص بمقدار قيمته، ولا تشتر ذلك العبد الذي كان له سادة كثيرون، لأن المرأة الكثيرة الأزواج والعبد الكثير السادة لا يحمدان واشتر ما تشتريه مطرد النماء.

وإذا طلب العبد بيعه حقيقة فلا تعاند وبعه، بل بع وطلق كل عبد يطلب البيع وكل امرأة تطلب الطلاق، لأنك لا تهنأ بكليهما. وإذا تكاسل العبد وقصَّر في الخدمة عمداً لا سهواً وخطأً فلا تصلحه قهراً ولا تتوقع أن يصير نشطاً وصالحاً بأي حال، بعه سريعاً فإنه يمكن إيقاظ النائم بصيحة، ولا يمكن إيقاظ الميت بصوت مائة بوق وطبل، ولا تجمع حولك العيال غير الصالحين، فإن قلة العيال هي الغنى الثاني.

وتعهد الخادم بحيث لا يهرب، واحسن تعهد من تملك كما ينبغي لأنك إذا كفيت شخصاً واحداً فإنه يكون خيراً من شخصين محتاجين، ولا تدع عبدك يتآخى في البيت والجواري يتآخين مع العبيد، لأن آفة ذلك تكون عظيمة، وضع العبء على العبد والحر بقدر طاقتهما، حتى لا يعصيان من عدم الطاقة، وجمل نفسك بالإنصاف لتكون من المتجملين. ويجب أن يعتبر العبد سيده أخاه وأخته وأمه وأباه، ولا تشتر عبد النخاس الهرم، لأن العبد يخشى النخاس كما يخشى الحمار البيطار[12]، ولا تعوِّل على العبد الذي يطلب البيع في كل وقت وحال ولا يخشى من بيعه وشرائه، لأنك لا تلقى منه فلاحاً فاستبدله سريعاً بآخر، واطلب كما ذكرت، ليحصل المراد ولا تقع في العناء.

---

(١١) الترجمة الحرفية: في ذلك البيت.

(١٢) في نسختي نفيسي وهدايت (لأن العبد يجب أن يخشى النخاس . . . ولعل المقصود: ان العبد لا يخشى النخاس الهرم فيكون متمرداً غير مطيع، (المترجمان).

في شراء الدار والضياع

أي بني، اعلم أنه ينبغي أن تراعي حد الشرع إذا أردت أن تشتري ضيعة أو بيتاً أو أي شيء تريد، واشتر كل ما تشتريه في وقت الكساد وبع كل ما تبيع في وقت الرواج، واطلب الربح ولا تأنف فقد قيل: **يجب التدلل إذا أردت الشراء**، ولا تنس المماكسة[1] فإن المكاس نصف التجارة، أما ما تشتريه فيجب شراؤه بمقياس الربح والخسارة.

وإذا أردت أن لا تفلس فلا تنفق من الربح غير الحاصل، وإن شئت أن لا تضر بمالك فاحترز من الربح الذي عاقبته الخسران، وإذا رغبت في أن تكون ذا مال وفير وأن لا تفتقر فلا تكن حسوداً، واصبر في كل الأمور، فإن الإصطبار هو العقل الثاني.

ولا تغفل عن صلاح نفسك في كل الأمور، فإن الغفلة هي الحماقة الثانية، وإذا خفي عليك الأمر وانسدَّ عليك باب العمل، فسارع إلى الأخذ بالأسباب واصبر حتى يتبين وجه العمل، لأنه لا يجود عمل قط بالتسرع.

وإذا حضرت البيع والشراء وأردت أن تشتري بيتاً فاشتره في حي صالح أهله، ولا تشتره على حافة المدينة ولا تحت سورها، ولا تبتع بيتاً خرباً لرخصه، وانظر أولاً إلى الجار، فقد قيل: **الجار ثم الدار**. ويقول بزر جمهر: أربعة أشياء هي البلاء الكبير: الجار السوء، والعيال الكثير، والمرأة المخالفة، وضيق ذات اليد، ولا تشتر

(١) المماكسة في البيع يعني إنقاص الثمن.

بيتاً في جوار العلويين والفقهاء لأن رعاية حق حرمتهم شاقة، ولا تشتر في جيرة الخدم.

واجتهد في أن تبتاع الدار في حي لا يكونون أغنى منك، ولكن تخير الجار الصالح. وإذا اشتريت الدار فارع حق الجار وحرمته، فقد قيل: **الجار أحق**. واحسن العيش مع أهل الحي في محلتك، واذهب للسؤال عن المرضى، وعز أرباب العزاء، واحضر جنازة الناس، ووافق في كل شغل يكون للجار، فإذا كان فرح فافرح معه وأرسل هدية على قدر طاقتك لتكن أجلَّ أهل الحي، واسأل عن صغار الحي ولاطفهم، وسل عن شيوخ الحي واحترمهم، وأقم الجماعة في مسجد الناحية، ولا تقصر في إرسال الشمع والقنديل في شهر رمضان، فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذي يراعيه مع الناس[٢]، واعلم أن كل ما ينبغي للمرء من خير وشر يلقاه من فعله، فلا تعمل ما لا يليق عمله، ولا تقل ما لا يليق قوله، لأن كل من يعمل ما ينبغي عمله يرى ما لا تنبغي رؤياه.

واجعل موطنك ما استطعت في المدن الكبرى، وأقم في تلك المدينة التي تكون أكثر ملاءمة لك، واشتر البيت بحيث يكون سطحك أعلى من سطح الآخرين حتى لا تقع عيون الناس على بيتك، ولكن جنب الناس أذى نظراتك، وإذا اشتريت ضيعة فلا تشترها[٣] بغير جار ومعدن، واشتر كل ما تشتريه في عام الرخاء ولا تشتر الضيعة ما لم تكن مقومة وبغير شبهة، واعتبر الضيعة مالاً أميناً، أما إذا اشتريت الضيعة فكن دائماً في فكر عمارتها، واعمل في كل يوم عمارة جديدة، لتجد دخلاً جديداً في كل وقت، ولاتن البتة عن تعمير الضياع والعقار، لأن الضياع عزيزة بالدخل وإذا جاز أن تكون بغير دخل فاعتبر جميع البراري ضياعك لأن قيمة رب القرية بالقرية والضياع، وقيمة الضياع بالدخل ولا يمكن تحصيل الدخل بغير العمارة.

---

(٢) الترجمة الحرفية: فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذي يرعونه مع الناس والجملة بهذا الوضع غير واضحة ولا تتسق مع ما قبلها ولعل هذا راجع إلى خطأ في النسخ (المترجمان)

في شراء الخيل

أي بني، إذا اشتريت جواداً فكن فطناً حتى لا يجوز عليك الخطأ، فإن جوهر الخيل والإنسان سواء لأن كل قيمة تقدرها للجواد الكريم والرجل الكريم جائزة، كما وأنك تستطيع أن تذم ما شئت الحصان الرديء والرجل الرديء، وقد قيل: **أن الدنيا قائمة بالناس والناس بالحيوان**، وأكرم حيوان من الحيوانات هو الجواد لأن تعهده من الرياسة ومن المروءة أيضاً، وفي المثل: أحسن رعاية الجواد والثوب، ليحسنا رعايتك.

ومعرفة جيد الخيل ورديئها أصعب من معرفة جيد الناس ورديئهم، لأن معنى المرء موجود مع دعواه، ودعوى الحصان رؤيته، ولأجل أن تعرف المعنى انظر أولا إلى منظره، لأن للجواد الكريم غالباً صورة حسنة، وللرديء صورة رديئة، فينبغي أن تكون الأسنان متصلة ودقيقة وبيضاء والشفة السفلى أطول من الشفة العليا والأنف عالياً وواسعاً مسحوباً وأن يكون عريض الجبهة وأملس العذار[1] وطويل الأذن وطرف أذنه مدبباً ومرتفعاً، وما بين الأذنين واسعاً ومنتصب الرقبة ودقيق الخصر وأصل العنق والأذن غليظ أعلا القوائم، والقصبة العليا أقصر من السفلى، قصير الشعر، طويل الحافر وأسوده، مدور العقب، ومرتفع الظهر، قصير الخاصرة واسع الصدر مفتوح ما بين اليدين والرجلين، وذنبه كثيفاً وطويلاً، وطرف ذنبه دقيقاً وقصيراً، وأسود الخصية، والهدب والعين، فطناً في السير، صقيل المضرب، معلق العجيزة، عريض الكفل[2] والجانبان الداخليان للفخذ ممتلىء اللحم وناميين معاً،

(١) اللجام: أي لجام الفرس.

(٢) عظم العجز، أو الردف.

وإذا تحرك الرجل عليه فلا بد أن يتنبه لحركة الرجل.

وهذه المزايا التي ذكرتها ينبغي أن تكون في كل حصان[٣] على الإطلاق، وما يكون في حصان لا يكون في آخر، ويقال ان الكميت[٤] أفضل الألوان، والبلحي أيضاً جيد وصبور في الحر والقر[٥] وحمول للتعب، وإذا كانت الخصية، وبين الفخذين والدبر والذيل والقوائم والصدر والناصية سوداء فهو حسن، والجواد الأصفر أيضاً يستحسن أن يكون أصفر للغاية وبوجهه دويرات كالدراهم، وصدره وناصيته وذنبه وخصيته ودبره وما بين فخذيه وعينه وشفته، هذه كلها تكون سوداء، والجواد الضارب إلى الصفرة يجب أن يكون هكذا. والوردي اللون يجب أن يكون لوناً واحداً، ولا يضرب إلى البلقة[٦] أبداً، ويجب أن يكون الأدهم[٧] أسود وبراقاً، ولا يجوز أن يكون أحمر العين لأن أكثر الجياد الحمراء العين معيبة ومجنونة. والجواد الرمادي القاتم الأسود القوائم يحسن أن يكون بتلك الصفة التي ذكرتها للأصفر، والجواد الأبلق غير محمود وخير أن لا يقتني، ويكون في الأغلب سيء الطبع.

وما دمت عرفت محاسن الخيل فاعرف أيضاً عيوبها، قد يكون (بالحصان)[٨] عيب يضر بالعمل، ويقبح في النظر، ولكنه يكون صاحب نزو، ومن العيوب[٩] علل وخصال قبيحة يمكن إزالة بعض منها ولا يمكن أزالة البعض الآخر ولكل عيب وعلة اسم يمكن معرفتها به كما سنذكر:

اعلم أن إحدى علل الخيل هي أن يكون أبكم، والجواد الأبكم ثمنه زهيد

(٣) الترجمة الحرفية: واحد

(٤) لفظ يطلق على الخمرة التي فيها سواد وحمرة.

(٥) البرد الشديد.

(٦) لا يضرب إلى البياض والسواد. والأبلق هو الشيء الذي يجتمع فيه البياض والسواد، واطلق لفظ أبلق على السموأل بن عادي اليهودي الذي ضرب به المثل لوفائه، كما سمي الحصن الواقع بين الحجاز والشام بالأبلق لاختلاط اللون الأبيض والأحمر في حجارته. را: القزويني، ص ٧٣. ايضاً: القاموس المحيط، مج ٤، ص ٢٢٢.

(٧) الأدهم: الأسود، وقد اطلق هذا الإسم على فرس عنترة بن شداد العبسي را: القاموس المحيط، مج ٤، ص ١١٦.

(٨) ليست في الأصل (المترجمان).

(٩) الترجمة الحرفية: يكون عيب

جداً، وعلامته أنه إذا رأى فرساً لا يصهل ولو أدلى بـذكره، والجـواد الأعشى يعني الأعمى ليلاً، وعلامته أنه لا يخاف ليلاً من الشيء الذي تخاف منه الخيل ولا يجفل، ويذهب إلى كل مكان رديء تسوقه إليه ولا يحترز، والجواد الأصم رديء، وعلامته أنه لا يسمع صهيل الخيل ولا يرد الجواب ويهدل أذنيه دائماً، والجواد الأحول رديء ويخطىء كثيراً، وعلامته أنه إذا سحبته بدهليز يقدم رجله الإمامية اليسرى ولا يعرف السباحة.

والجواد الأعمش رديء، لأنه لايـرى نهاراً، وعـلامته أن حـدقة عينـه سوداء تضرب إلى الخضرة، وعينه مفتوحة دائماً بحيث لا تطرف أهدابه ويكون هذا في عين واحدة ويجوز أن يكون في العينين، ومهما يكن معيباً في الظاهر فإن العرب والعجم قد اتفقوا على أنه مبارك، وهكذا سمعت أن دلدل[١٠] كـان أحول يعني مـزور العين، والأرجل ما تكون رجل واحدة أو يد واحدة منه بيضاء فإذا كانت الرجل واليد اليسرى بيضاوين كان شؤماً. والأزرق إذا كان أزرق العينين فلا ضير وإذا كان أزرق بعين واحـدة فهو معيب خـاصة إذا كـانت اليسـرى. والمغـرب يعني الأبيض العين رديء، والحصان الكميت الأبلق رديء كذلك والأقود ـ يعني المستقيم الرقبة ـ رديء أيضاً ولا ينظر إلى مثل هذا الحصان. والحصان الحماري اللون أيضاً رديء لأن كلا رجليه معوجتان ويسمى بالفارسية ـ كمان پايه ـ أي مقوس الرجل ويقع كثيراً.

والحصان القالع وهو الذي له شعر بأعلى كفله وحول حافـره شؤم، وكذلـك المهقوع وهو الذي يكون حول حافرة وتحت إبطه شعر وإذا كان في كلا جنبيه فهو أشام، ويكون شؤماً أيضاً أن يكون له شعر حول الرجل أعلى الحافر، أما بالجانب الداخلي والخارجي فلا بأس. والاشدق يعني ملتوى الحافر ـ ويقال له أيضاً أحنف، رديء كذلك، والذي تكون يده أو رجله طويلة رديء أيضاً في الإنحدار والصعود، ويقال له الأفرق. والأعزل أيضـاً رديء، والمعقوف الـذنب ويقال لـه أيضاً الأكشف، يعني عورته ظاهرة، والكلبي الذنب رديئان[١١] كذلك. والحصان الأفجح وهـو الذي لا يستطيع وضع رجله على موضـع يده رديء أيضـاً، والأشهق وهو الـذي له علة في مفاصل يده رديء كذلك لأنه يعرج دائماً، وإذا كانت في مفاصل رجله يسمى الأفرن

(١٠) بغلة علي كرم الله وجهه

(١١) في الأصل بالمفرد (المترجمان).

وهو رديء كذلك. ومانع الركاب والجموح والعاض وكثير الصهيل والضراط والرامح الذي يبطىء في تبرز الروث والذي يدلى بـذكره، كلهـا رديئة، والحصـان الغرابي العين يكون أعشى.

(حكاية)

سمعت أن راعي قطيع أحمد فريغون ذهب إليه يـوم النوروز(١٢) بغيـر هديـة نوروزية وقال: أطال الله حياة مولاي لم آت بهدية النوروز لإن عندي بشارة خيراً من الهدية، فقال أحمد فريغون قل! فقال الراعي: لقد ولد قطيعك ليلة أمس ألف مهر غرابي العين، فأمر أحمد بضربة ماية عصا، وقال: أية بشارة هذه التي أتيت بها إلى قائلاً إنه ولد لي ألف مهر أعشى!

والآن مـا دمت قلت هذا وعـرفت علل الخيل فـاعلم أن لكل منهـا اسم مثل أسار، وكفان، ودجلس، وفنق، وعدن، وسقيق، وجهر، وحمع، وناموره، وحلام، وبرص، وسرطان، ونملة، وملح، ونفخة، وقندان، ونقاق، وتبق، ومهبا، وجان، ورنوم، ومقل، وعضاض، وسمل سفتنى، وريوم، وسمار، وسمه، وبره.

وهذه العلل التي ذكرتها، إذا فسرتها كلها تطول، وكل هذا الذي ذكرته عيب، وأسوأ هذه العيوب كلها الهرم، لأنه مع هذه العيوب التي ذكرتها يمكن إنجاز عمل، وأما مع الهرم فلا يمكن العمل. فاشتـر الجواد الهيكـل لأن الرجـل وإن كان بـديناً ومنظرانياً يبـدو ضئيلاً فـوق الحصان الحقيـر، واعلم أن عظام الأضـلاع تكون في الجانب الأيسر أكثر من الجانب الأيمن في العدد وإذا كان كـل منهما متسـاوياً مـع الآخر فاشتره بأكثر مما يساوى فإنه لا يكون حصان قط خيراً منه، وكل ما تشتري من ذوات الأربع والضياع فاشتره بحيث تصل إليك منافعة ما دمت حياً، وتأول من بعدك إلى أقرانك ووارثيك، وسيكون لك أخيراً من غير شك زوجة وأولاد، كما يقولون: **كل رجل زوجه إمرأة.**

(١٢) نوروز: كلمة فارسية تعني العهد الجديد أو اليوم الجديد، وهو مناسبة مهمة يحتفل الايرانيون فيها باستقبال السنة الجديدة بحسب التقويم الفارسي، ويصادف ذلك في أول الربيع في ٢١ آذار، فتولى الأعمال وتذكى بيوت النيران وتسك النقود.

في الزواج

أي بني ، إذا تزوجت المرأة فاحسن رعاية حرمتها ، وإن يكن المال عزيزاً فليس بأعز من المـرأة والولـد ، ولا تضن بالمـال على امرأتـك وولدك ، ولكن عن المـرأة الصالحة والولد المطيع ، وهذا أمر بيدك ، كما قلت في بيت :

لم تربي الولد ولم تقتني المرأة ، إذا لم يكن لك من كليهما نفع ؟

أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة وانظر في أمرهـا ولا تكن في قيد جمـال وجهها ، فإنما تتخذ المعشوقة بسبب جمال الوجه ، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت ، ومحبة لزوجها وحيية وتقية وقصيـرة اللسان واليـد ومحافـظة على المال لتكون صالحة ، فقد قيل : **إن المرأة الصالحة هي التي تكون متدبرة العواقب** ، ومهما تكن المرأة عطوفة وحسناء الوجه ومحمودة ، فـلا تسلم نفسك لهـا كلية ، ولا تكن تحت سلطانها ، فقد قيل للإسكندر : لم لا تتزوج إبنـة دارا وهي حسناء جـداً ؟ فقال : إنه لقبيح أن تتغلب علينا امرأة وقد تغلبنا على أهل الدنيا .

ولكن لا تتزوج امرأة أعلى منـك شأنـاً ، وينبغي أن تتزوج العـذراء ، حتى لا يكون في قلبها حب شخص آخر غير حبك وتتخيل أن كل الرجال على نمط واحد ، فلا يقع طمعها على رجل آخر ، وفر من يد المرأة السليـطة فقد قيـل : **يفر العريس سريعاً إذا لم تكن المرأة أمينة** ، ولا ينبغي أن تستولي على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكاً له ، فتصير أنت المرأة وهي الرجل ، وتزوج المرأة من أسرة صالحة ، فـالمرأة يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع ، إذ يمكن شراء الجواري بالسوق من أجل الشهوة حيث لا إنفاق ولا كثير عناء .

ويجب أن تكون الزوجة كاملة وبالغة وعاقلة، وقد رأت السيادة في بيت أمها وأبيها، فإذا وجدت امرأة كهذه فلا تقصر في طلبها وابذل الجهد حتى تتزوجها واجتهد أن لا تغيرها بأي وجه، فإن تغرها فخير أن لا تتزوج، لأن إغارة النساء تعليمهن الغواية، واعلم أن النساء كثيراً ما يهلكن الرجال غيرة ويقدمن أنفسهن فداء لأقل شخص ولا يخشين الغيرة والحمية، أما إذا لم تغر المرأة وأحسنت رعايتها ولم تضن عليها بما رزقك الحق تعالى فإنها تكون أشفق عليك من الأم والأب، فلا تحب نفسك أكثر منها، وإذا أغرتها فإنها تكون أعدى من ألف عدو، ويمكن الحذر من العدو الأجنبي ولا يمكن ذلك منها. وإذا تزوجت المرأة وشغفت بها فلا تضاجعها كل ليلة مهما كنت مولعاً بها، وضاجعها بين حين وآخر لتتخيل أن كل شخص هكذا، حتى إذا ما كان لك عذر وقتاً ما أو اتفق لك سفر تصبر هذه المرأة من أجلك، لأنك إذا اعتدت كل ليلة مثل هذه العادة فإنها ترغب كذلك ويعز عليها الصبر.

ولا تأمن المرأة على أي رجل مهما كان مسناً ودميماً، ولا تجعل لأي خادم سبيلاً إلى الحريم وإن يكن أسود وعجوزاً وقبيحاً، وارع شرط الغيرة ولا تعد الرجل الذي لا يغار رجلاً، لأن من لا غيرة له لا دين له، وإذا رعيت امرأتك على هذا النحو، إن رزقك الله عز وجل ولداً فاهتم بتربيته.

الباب السابع والعشرون

في تربية الولد

أي بني، إذا رزقت ولداً فيجب أولاً أن تضع له إسماً حسناً، لأن من جملة حق الأبناء على الآباء أن يسموهم بأسماء حسنة، وثانياً أن تستودع الولد المرضعات العاقلات العطوفات، وأن تختننه في وقت الختان، ويلزم أن تولم بحسب طاقتك وليمة ذات رونق وبهجة في ذلك الختان، ثم تعلمه القرآن ليكون حافظاً، وإذا كبر تعلمه علم السلاح والفروسية، وحفظ السلاح وطريقة ذلك ليعرف كيف ينبغي استعمال كل سلاح.

وإذا فرغ من السلاح فعلمه السباحة، كما انني عندما بلغت العاشرة كان لنا حاجب يقال له «منظر» وكان يعرف ترويض الخيل والفروسية جيداً، وكان لنا خادم حبشي اسمه «ريحان» وهو أيضاً كان يعرف الفنون جيداً، فاستودعني أبي إياهما حتى علماني الفروسية ورمي الحربة والرماية والطعان وعلماني ضرب الصولجان والطبطاب والرمي بالقوس وكل ما كان من أدب وفن. فذهب منظر الحاجب وريحان إلى الأمير وقال: أي مولانا! إن إبن مولانا تعلم كل ما كنا نعرف، فليأمر مولانا كي يعرضه عليه غداً في ساحة الصيد، فقال أبي: حسناً فليأت، فذهبت في اليوم التالي وعرضت عليه كل ما عرفت، فخلع أبي عليهما وقال: إن كل ما تعلمه ولدي هذا حسن، ولكن يوجد فن خير من هذا لم يتعلمه، قالا: أي فن ذاك؟ فقال أبي: كل ما يعرفه من هذه من معنى العلم والفضل، هذا كله مما إذا لم يستطعه يقوم به شخص آخر من أجله، أما ذلك الفن الذي يلزمه القيام به من أجل نفسه ولا يقوم به أي شخص من أجله ولا يستطيع عمله فلم تعلموه إياه،

وذلك هو السباحة التي لا يستطيع أحد غيره القيام بها من أجله فأمر بإحضار ملاحين نشيطين، وعهد بي إليهما حتى علماني السباحة كرهاً لا طبعاً، ولكني تعلمتها جيداً، إلى أن اتفق في تلك السنة التي كنت أذهب فيها للحج عن طريق الشام، أن قطع علينا الطريق على باب الموصل وسلبت القافلة، ولما كان العرب كثيرين لم تكن لنا بهم طاقة، وفي الجملة، جئت إلى الموصل عارياً، ولم أعرف أية وسيلة وركبت في سفينة بدجلة وذهبت إلى بغداد وحسن حالي هناك وأكرمني الله تعالى بالتوفيق للحج.

وغرضي أنه قبل الوصول إلى بغداد يوجد مكان مخوف ودوامة صعبة، ويلزم ملاح خبير ليعبر من هنالك، وإذا لم يكن يعرف كيف يعبر هنالك وكيف يجب العمل تودي السفينة، وكنا نحن بضعة أشخاص في تلك السفينة، فوصلنا هنالك ولم يكن الملاح ماهراً[1] ولم يعرف كيف يجب المسير، فألقى بالسفينة في وسط الدوامة خطأ، وأشرفت السفينة على الغرق، فألقينا أنا ونفر من البصريين وعبد لي اسمه «زيرك» بأنفسنا من السفينة في الماء، وخرجنا سابحين، وهلك الآخرون جميعاً، فازداد حب أبي في قلبي من بعد ذلك، وتصدقت من أجله، وترحمت عليه كثيراً، وعلمت أن ذلك الشيخ كان يرى مثل هذا اليوم من قبل فعلمني السباحة.

فينبغي أن تعلم أبناءك ما يكون جديراً بالتعلم من الفضل والفن، لتكون قد أديت حق الأبوة وشفقة الآباء، لأنه لا يمكن الأمان من حوادث الأيام، ولا يمكن معرفة ما يجري على رؤوس العباد من خير وشر، وكل فن وفضل ينفعه يوماً ما، فلا ينبغي أن يقصر المرء في فضل نفسه وتأديب أولاده. ويجب أن تكون حريصاً في تعلم العلم وكل علم تعلمه، وإذا ضرب المعلمون إبنك من أجل التعليم فلا تشفق عليه، ودعهم ليضربوه لأن الصبي يتعلم العلم والفضل والأدب بالعصا لا بالطبع، أما إذا تأتى من الصبي سوء أدب وغضبت منه فلا تضربه بيدك، وخوفه بالمعلمين وأمرهم ليؤدبوه، حتى لا يبقى في قلبه بغضك، أما أنت فكن دائماً مهاباً عنده لكيلا يحتقرك ويخشاك دائماً.

ولا تضن عليه بالقدر الذي يلزمه من المال حتى لا يطلب موتك

(١) الترجمة الحرفية «استاذ»

من أجل المال، ولا تقصرً في تعليمه الأدب بأنواعه. وإذا كان الولد تعساً وسيء الحظ ـ نعوذ بالله ـ تكون أنت قد أديت واجب الأبوة ولا تكون العهدة في عنقك، وإذا كان رشيداً سعيداً فيجب أن يتعلم ويجرب ويصل إلى الكمال بنفسه بنظر الفطانة وتجربة الأيام، لقد قيل: **من لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار**. ويقول آخر: **من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان**[٢] أما أنت فارغ شرط الأبوة، ويعيش هو كما يكون قد قدر عليه، لأن المرء حينما يأتي من العدم إلى الوجود، يوجد معه خلقه وسيرته. وإذ ينشأ وينمو يوماً فيوماً يتربى أيضاً خلقه وسيرته كلما كبر حتى يصل إلى الكمال فيكون قد ظهر تمام إقباله وإدباره، ولكن لا تضن عليه أنت بنصيبك، وليس لأبناء الخاصة ميراث خير من الفضل والأدب، وليس لأبناء العوام خير من الحرفة والأدب، ولو أن الحرفة أيضاً من عمل أبناء المحتشمين إلا أن الأدب شيء والحرفة شيء آخر، أما الحرفة عندنا فهي خير فضيلة على وجه التحقيق، وإذا كان لأبناء الخواص وذوي الأصل ماية حرفة ولا يتكسبون منها لا يكون ذلك عيباً، بل يكون فضلاً، والصنعة وممارسة الفن يثمران يوماً ما ولا يضيعان.

(حكاية)

لما غادر كشتاسف[٣] مقره، وتلك قصة طويلة أما المقصود فهو انه، نزل ببلاد الروم وذهب إلى مدينة القسطنطينية، ولم يكن معه من حطام الد نيا شيء وكان يأنف من السؤال وطلب الطعام من أحد ويعد ذلك عاراً، بيد أنه في صغره كان قد رأى في دار أبيه الحدادين يعملون السكاكين والسيوف والسنان،وبحكم الطالع كان قد وقع نظره على تلك الصناعة، فكان يحوم حولها كل يوم ويرى ويتعلم شيئاً منها.

واليوم الذي دخل فيه بلاد الروم، لم يكن يعرف حيلة قط، فذهب إلى دكان حداد وقال إنني أعرف شيئاً في هذه الصناعة فاستأجروه وأجروه بقدر ما كان يعرف فيها وكان ينفق ذلك في معاشه ولم يمد يد السؤال لإنسان حتى ذلك الوقت الذي

(٢) صفة مبالغة لملون، والملوان هو ذلك الشخص الذي لا يثبت على خلق واحد.

(٣) گشتاسف أو گشتاسب: هو أحد ملوك الإيرانيين القدامي قبل العهد الأخميني، عاصر زرادشت واعتنق ديانته طوال حكمه الذي دام مئة وعشرين سنة. را: تاريخ الطبري، مج ١، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

وصل فيه إلى وطنه، وعاد على رأس مملكته وعندئذ أمر بأن ينادى بأن لا يمنع شخص قط إبنه من تعلم الصناعة ولا يرى ذلك عيباً، ففي أوقات كثيرة لا ينفع الرجل الأبوة والشجاعة، وكل علم تتعلمه ينفع يوماً ما، وجرى بعد ذلك هذا الرسم في العجم، ولم يكن ثمت محتشم قط لا يعرف صنعة، فكان يعمل ذلك بالعادة ولو لم تكن له بها حاجة.

فتعلم كل ما يمكنك تعلمه، فإن منافعه تعود عليك، أما إذا بلغ الصبي فتأمله، فإذا كان صالحاً وله ميل للزواج وتعرف أنه يستطيع القيام بعمل ويمكنه الحصول منه على شيء،وتتوسم فيه الإقبال فدبر زواجه وزوجه لتكون قد أديت هذا الحق أيضاً، ولا تصاهر الأقارب واخطب من الغرباء، فإذا صاهرت أقرباءك فهم مثل لحمك، فاخطب من قبيلة أخرى حتى تكون قد جعلت الغريب قريباً، وتصير القوة الواحدة قوتين، ويكون لك أعوان من كلا الجانبين، وإذا عرفت أن ابنك لا يرغب في الزواج والسعادة فلا تلق بابنة مسلم في البلاء لأن كلا منهما يرى من الآخر العناء فدعه حتى يكبر ويفعل ما يشاء.

وإن تكن لك بنت فاعهد بها إلى المرضعات المشفقات، وأحسن تربيتها، وعندما تكبر سلمها للمعلم ليعلمها أحكام الشريعة وشرط الفرائض ولكن لا تعلمها الكتابة فتكون الآفة الكبرى، وإذا كبرت فاجتهد أن تزوجها سريعاً لأن البنت من الخير أن لا تكون، وإذا كانت فمن الخير أن تكون مع الزوج أو في القبر، كما قال صاحب الشريعة محمد المصطفى ﷺ «دفن البنات من المكرمات»(٣). أما ما دامت في بيتك فكن رحيماً بها لأن البنات أسيرات الآباء والأمهات، وإذا لم يكن للبنين أم وأب فإنهم ما داموا بنين يستطيعون رعاية أنفسهم والقيام بعمل من أي وجه يكون، أما البنت فمسكينة ولا تستطيع القيام بأي عمل فكل ما تستطيعه أجعله جهاز ابنتك وانجز عملها، وأربطها في عنق شخص لتتخلص من غمها، أما إذا كانت ابنتك بكراً فاطلب لها عريساً بكراً كذلك حتى يقيد الزوج قلبه بالزوجة كما تقيد الزوجة قلبها

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وإبن عدي في الكامل والقضاعي والبزاز عن إبن عباس أنه قال: لما عُزي رسول الله بابنته رُقية قال: «موت بدل دفن...» قارن: كشف الخفاء ومزيل الألباس مج ١، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

بالزوج ولا يرغب في أحد سواها، لأنه لا يكون قد عرف غيرها.

(حكاية)

هكـذا سمعت أنهم أتوا بـإبنة ملك العجم أسيـرة من بـلاد العجم إلى بـلاد العرب، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بـأن تباع، فلمـا حملوها إلى السـوق وصل هنالك أمير المؤمنين علي كرم الله وجه وقال: قال النبي ﷺ [٤] «ليس البيع على أبناء الملوك».

فلما ذكر هذا الخبر سقط البيع عن «شـهر بانو»[٥] وأقاموها عند سـلمان الفارسي[٦] ليزوجوها، فلما عرضوا عليها حديث الزواج قالت «شهر بانو»: ما لم أر الرجل بعيني فلا أريده، فاجلسوني على منظر ومرروا عليَّ سادات العرب، فمن يكن موضع اختياري فهو زوجي، فـأجلسوهـا على منظر بـدار سلمان الفـارسي وجلس سلمان عندها وكان يعرفها بهؤلاء القوم ويقول: هذا فلان وذاك فـلان، وكانت هي تقول عن كل شخص شيئاً ولا تقبله حتى مر عليها أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسألت من هذا؟ فقـالوا أميـر المؤمنين علي بن عم حضرة المصطفى ﷺ فقالت شهر بانو: ما أحسنه سيداً وكفـء إلى ولكن يعروني الخجل في الآخرة من فاطمة الزهراء فلا أريـده من هذا الـوجه.

ثم مـر الحسن بن علي، فلما علمت بنسبه وسيرته كذلك قالت إنه يليق بي ولكني سمعت أنه مـزواج، إلى أن مر الحسين بن علي فلما سألت عن حاله قالت: ينبغي أن يكون هو زوجي لأني لم أتزوج أبداً وهو لما يتزوج أيضاً فنحن يليق كل منا

---

(٤) غير موجود في الصحاح ولا في الجامع الصغير ويعتقد أنه من كلام العلماء.

(٥) كلمة فارسية معناها أميرة أو ملكة، وهي لقب احترام يُقال للسيدات.

(٦) من صحابة الرسول ومن أشهر الشخصيات الإسلامية، ويعتقد أنه كان إبن دهقان قـرية «أوجيان» الفارسية القريبة من أصبهان، استهوته النصرانية وهو بعد صبي فتبع راهباً نصرانياً، ثم رحل إلى الشام ثم إلى الجزيرة العربية طلباً للنبي ﷺ فغدر به بني كليب فباعوه بيع الرقيق إلى رجل يهودي. وقد شاهد سليمان علامات النبوة على محمد، فأسلم واشترى حريته من سيده اليهودي ويعتبـر سلمان من مؤسسي مذهب التصوف الإسلامي، وقد توفي سنة ٣٥ أو ٣٦ للهجرة. راجع. د. م. الاسلامية مج ١٢، ص ١٠٨ وما بعدها.

بالآخر، وفي الجملة زوجوها من الحسين بن علي .

ولكن يجب أن يكون العريس حسن الوجه لأن البنت الحسناء لا تعطي قلبها للزوج الدميم، ومن هنالك تحصل الفضيحة لأنها تعشق شخصاً آخر يكون وسيماً، ويحدث العار. فينبغي أن يكون العريس جميل الوجه، ديِّناً ومن أصل طاهر وصالح ومن سلالة الأكابر ويجب أن يكون صهرك أقل منك، ليفخر هو بك لا أنت به، وحتى تعيش ابنتك في راحة وجاه وفير، وإذا كان كما ذكرت، فلا تطلب منه شيئاً، ولا تكره بائع البنت فإنه هو نفسه لا يتخلى عن مروءته، فابذل ما تملك واجتهد أن لا تبقى البنت في بيتك وزوِّجها سريعاً، وخلِّص نفسك من المحنة بأسرع ما يكون، وأسدِ إلى جميع أصدقائك عين هذه النصيحة فإن فيها فوائد جمة .

في الصداقة واتخاذ الأصدقاء

اعلم يا بني أنه لا بد للناس من الأصدقاء ما داموا أحياء، لأنه إذا لم يكن للمرء أخ فذلك خير من أن يكون بغير صديق. سئل حكيم: الصديق خير أم الأخ؟ فقال: الأفضل أن يكون الأخ صديقاً أيضاً.

فتدبر أمر الأصدقاء بتجديد رسم المهاداة وإسداء المروءة، لأن كل من لا يبالي بالأصدقاء يبقى دائماً بغير صديق، فتعوَّد أن تصادق كل إنسان، إذ بالأصدقاء الكثيرين تستتر عيوب المرء وتظهر فضائله، وإذا اتخذت أصدقاء جدداً فلا تول الأصدقاء القدامى ظهرك لتكون دائماً كثير الأصدقاء، فقد قيل: **إن الصديق الكريم كنز عظيم**.

وفكر أيضاً في الناس الذين يسلكون معك طريق الصداقة ويكونون نصف أصدقاء، فعاملهم بالحسنى والوفاق، واتفق معهم وانسجم في كل سراء وضراء حتى إذا ما رأوا جميعاً منك المروءة صاروا أصدقاء مخلصين، لأنه لما سئل الإسكندر: بأية خصلة امتلكت هذه الممالك العديدة في هده الأيام القليلة؟ قال: بامتلاك الأعداء بالتلطف، وبجمع الأصدقاء بالتعهد. واحبب الأصدقاء الذين يحبون أصدقاءك، واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك، لأنه يحتمل أن تزيد صداقتهم لعدوك ذاك عن صداقتهم لك، فلا يخشون من الإساءة إليك من قبل عدوك، واحترز من الصديق الذي يجتنبك بغير عذر وحجة، فلا تعتمد على صداقته، ولا تحسبن في الدنيا شخصاً لا عيب فيه، ولكن التزم صداقة الصديق الفاضل لأن الفاضل قليل العيب، ولا تتخذ صديقاً غير فاضل فإن الفلاح لا يتأتى من الصديق غير الفاضل،

وعد أصدقاء الكأس من جملة الندماء لا من جملة الأصدقاء فإنهم أصدقاء كأسك لا أصدقاؤك.

وصادق الأخيار والأشرار، وكن صديقاً لكلا الفريقين، فكن مع فريق الأخيار صديقاً بقلبك واظهر الصداقة للأشرار بلسانك، لتحصل لك صداقة الفريقين، لأن حاجات الناس كلها ليست دائماً إلى الأخيار، فقد تقضي حيناً حاجة بواسطة الأشرار كذلك، إذ أن كل عمل لا يتأتى من يد كل شخص[1] ولو أن اتصالك بالأشرار لا يروق الأخيار، ولا يروق الأشرار اتصالك بالأخيار، ولكن عش مع كلا الفريقين بحيث لا تتأذى منك قلوب الفريق الآخر ولا تتصل اتصالاً كلياً بفريق واحد بحيث يعاديك الفريق الثاني واسلك طريق الحكمة والعلم وارع الجانب لتسلم، ولكن لا تصادق الحمقى أبداً، لأن الصديق الأحمق يعمل بجهله ما لا يعمله العدو العاقل. وصادق القوم الأفاضل طيبي العهد حسني المحضر، لتكون أنت أيضاً معروفاً وممدوحاً بتلك الفضائل التي يعرف ويمدح بها أولئك الأصدقاء، واعلم أن الوحدة خير من جليس السوء كما قيل.

رباعي

أيها القلب ذهبت كما يذهب الوحش في الصحراء
ما اغتممت من أجلي ولا من أجل نفسك
كنت جليس السوء وذهابك خير
الوحدة خير بكثير من جليس السوء

وينبغي أن لا تضيع حق الإخوان وحرمتهم عندك، لكيلا تستحق الملامة، فقد قيل: **فريقان من الناس يستحقان الملامة، أحدهما مضيع حق الإخوان والآخر الناكر للجميل.**

واعلم أنه يمكن معرفة أن المرء يليق بالصداقة أولاً بشيئين: أحدهما إذا صار صديقه ذا عسرة لا يضنُّ عليه بماله، ولا يتحول عنه قدر الطاقة في وقت العسر، وإذا ارتحل أحد أصدقائه عن الدنيا يتفقد أبناءه ويسأل عنهم ويكثر من الإشفاق عليهم

(١) الترجمة الحرفية «آخر».

ويذهب في كل وقت لزيارة تربة ذلك الصديق ولو أنها ليست تربة صديقه، لأن التربة قالب صديقه.

(حكاية)

هكذا سمعت أنهم كانوا قد ذهبوا بسقراط ليقتلوه، وكانوا يعذبونه قائلين اعبد الصنم، فكان سقراط يقول: معاذ الله أن أعبد صنع الصانع، وكان جماعة من تلاميذه يسيرون معه وينوحون، وسألوه قائلين: أيها الحكيم! الآن وقد وطنت قلبك على القتل فاوصنا أين ندفنك، فابتسم وقال: إذا كان الأمر بحيث تجدونني ثانياً فادفنوني حيث شئتم، يعني أنه لست أنا بل هو قالبي.

وفضلاً عن ذلك الزم القصد في صداقة الناس ولا تعلق أملاً على الأصدقاء، ولا تقل إن لي أصدقاء، وكن الصديق الخاص لنفسك، وانظر إلى خلفك وأمامك، ولا تغفل عن نفسك اعتمادا على الأصدقاء لأنه إذا كان لك ألف صديق فإنه لا يكون شخص أكثر صداقة منك لنفسك، وجرب الصديق في وقت الضيق لأن كل شخص يحبك وقت السعة، وكن مع الاصدقاء وقت العتاب كما تكون في وقت الرضا.

وفي الجملة أحبب من يحبك، ولا تفش للصديق شيئاً من أسرارك، لأنه إذا حدث بينكما في وقت ما خصام وانتهى بالعداوة فإنه يضرك ولا يفيد الندم بعد ذلك، وإذا كنت فقيراً فلا تطلب الصديق الغني لأنه لا يصادق الفقير أحد، وخاصة الأغنياء، فاختر الصديق في درجتك، وإذا كنت غنياً ولك صديق فقير فجائز، أما في صداقة الناس فثبت قلبك وكن مستقيماً في ذلك لتستقيم أمورك، وإذا انتزع صديق قلبه منك بغير جريرة وآذاك، فلا تنشغل باسترجاعه فإنه لا يستأهل هذا، ولا تعول على من هذه عادته، وابتعد عن الصديق الطامع لأنه يصادقك طمعاً، ولا تصادق الرجل الحقود أبداً فإنه لا يليق بالصداقة، لأن الحقد لا يفارق قلب الحقود أبداً ولما كان دائماً مؤذياً وحقودا فإن صداقتك لا تحل بقلبه.

وما دمت عرفت حال وحكم اتخاذ الصديق فاعرف الآن حال العدو وأمره واستمع جيداً وتذكر واعمل بذلك لتفلح.

في الحذر من العدو

اجتهد يا بني أن لا تعادي، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب، فكل من ليس له عدو يكون كما يشتهي العدو، ولكن لا تغفل عن عمله في الخفاء والعلن، ولا تأمن شره، واشتغل دائماً بتدبير المكربه والإساءة إليه ولا تأمن بأي حال من حيلته ومكره، واستطلع حال العدو ورأيه ونبه إليه سمعك وعقلك، لتكون قد سددت عليك باب الآفة والبلاء، ولا تظهر العداوة للعدو مالم يتبين وجه الأمر تماماً.

واظهر نفسك للعدو كبيراً والتزم الغيرة والحمية مهما تكن عاجزاً ولا تظهر نفسك من العاجزين، ولا تعتمد على كلام العدو الطيب وصنيعه الجميل ولا تثق بالعدو ولا تنزل البئر بِرسنه، وإذا لقيت السُكَر من العدو فعده سما، واخش العدو القوي دائماً فقد قيل: **يجب الحذر من شخصين، أحدهما العدو القوي والآخر الصديق الغدار**، ولا تحتقر في الظاهر العدو الحقير ولا تقل من يكون هو؟ وعاد العدو الضعيف كما تعادى العدو القوي.

(حكاية)

سمعت أنه كان بخراسان عيَّار اسمه «مهذب»، وكان محتشماً ورجلاً طيباً ومعروفاً، وذات يوم كان يسير في الطريق فوطئت رجله قشرة شمام فزلقت قدمه ووقع، فسل المدية وطعن بها قشرة الشمام، فقال له خدمه: أيها الرئيس! أنت رجل محتشم وعيار[1]، ألا يخجلك أن تطعن قشرة الشمام بالسكين؟ فأجاب مهذب: إن قشرة

(١) كثر المجيء والذهاب وكثير التطواف.

الشمام أوقعتني فهي عدو ولا يجوز احتقار العدو، وإن يكن حقيراً، فكل من يحتقر العدو سرعان ما يصير حقيراً.

فكن دائماً في تدبير هلاك العدو، من قبل أن يجتهد في هلاكك، أما الشخص الذي تعاديه فلا تحقره إذا قهرته، وحذار أن تظهر عدوك عاجزاً فلا يكون لك فخر كثير، ألا ترى أنه عندما يقوم ملك بفتح - فإنه وإن لم يكن الخصم عظيماً كما يتصور - فإن الكتّاب عندما يكتبون كتاب الفتح يسمون الخصم أولا قادراً ويشبهونه بأسد وتنين، ويطرون عساكر الخصم كثيراً، ويمدحون بكل ما يمكن من المدح فرسانه ومشاته، ونضال الجند وقلب وجناح قادة جيش العدو ثم يقولون: إن جيشاً بهذه العظمة عندما وصل الملك فلان هزمه كله بحملة واحدة وأباده، ليكونوا قد وصفوا مخدومهم وأظهروا قوة جيشه؟

(حكاية)

سمعت يا بني أنه كان بمدينة الرى في وقت ما امرأه عجوز، وكانت أبنة ملك وعفيفة وزاهدة وابنة عم أمي وزوجة فخر الدولة[٢]، ولما توفي فخر الدولة بقي له ولد صغير لقبوه بمجد الدولة[٣]، ونادوا به ملكاً وكانت أمه تسوس الملك، ولما كبر مجد الدولة، جاء بئس الخلف ولم يكن أهلاً للملك، وكان يلهو في البيت مع الجواري، وملكت أمه تسعاً وثلاثين سنة، ومقصودي من هذه الحكاية هو ان جدك السلطان محموداً[٤] أرسل إليها رسولاً وقال: يجب أن تجعلي الخطبة والسكة بإسمي وإلا

---

(٢) هو علي بن ركن الدولة بن بويه الديلمي، أحد ملوك البويهيين البارزين، تولى الحكم بعد أخيه مؤيد الدولة سنة ٤٧٤ هـ (٩٨٢م) وتوفي في الري سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) عن ست وأربعين عاماً حكم خلالها ثلاث عشرة سنة. را: البداية والنهاية مج ١١ - ١٢، ج ١١، ص ٣٢٢. الكامل في التاريخ، مح ٧ ص ١٨٥.

(٣) هو أبو طالب رستم مجد الدولة، ورث الحكم عن أبيه وعمره أربع سنين أجلسه الأمراء في الملك وكان ذلك عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) فحكمت أمه وكانت وصية عليه، واتخذ الري عاصمة حكمه، وعرف عنه أنه كان لاهياً ماجناً مستهتراً ولا يعبأ بمصالح العامة الأمر الذي هدد دولته وقوض دعائمها لا سيما بعد أن هاجمه السلطان محمود الغزنوي وسجنه سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٠ م). را: إبن الأثير، الكامل، مج ٧، ص ١٨٦ و ٣٣٥. را أيضاً: البداية والنهاية مج ١١ - ١٢، ص ٣٢٠.

(٤) هو محمود بن سبكتكين أبو القاسم الملقب بيمين الدولة، وجيشه سمي بالسامانية لأن أباه قد تملك

فأجيء وآخذ الري وأبيدك. فلما جاء الرسول وأدى الرسالة، قالت السيدة: قل للسلطان محمود إني كنت أفكر أنه مادام زوجي فخر الدولة حياً يتراءى لك أن تقصد الري، فلما تلقى أمر ربه، وصار إليَّ الأمر زال من خاطري هذا الفكر، وقلت إن السلطان محموداً ملك عاقل ويعرف أنه لا ينبغي لملك مثله المجيء لحرب امرأة، لأن الأسد يكون ذكر أو يكون أنثى أيضاً، وإن يأت فإن الحق تعالى عالم بأني لن أفر، وإني لصامدة للحرب، لأن الأمر لا يخرج عن وجهين، إما أن يكون لي الظفر أو تقع عليَّ الهزيمة، فإن يكن لي الظفر وأهزمك فإني أكتب لجميع العالم أني كسرت محموداً، ويكون لي الفخر وتكون أنت السلطان الذي كسر أكثر من مائة ملك وأهزمك أنا الآن، ويشيع في العالم ان امرأة قهرت السلطان محموداً وكسرته ويبطل اسمك، ولا يكون عار قط أسوأ لك من ذلك إذ يقولون إن امرأة كسرت السلطان محموداً، وإن يكن لك الظفر وتكسرني لن يكون لك فخر وصيت قط، ولا ينشدون شعر الفتح في هذا لأنه لا يحصل صيت وفخر من كسر امرأة.

فلما أبلغوا السلطان محموداً هذا الكلام وهذه الرسالة، لم يقصد الري مرة أخرى طول عمره، وتعطل ذلك العزم بهذه الكلمة الواحدة.

فلا تحقِّر عدوك كثيراً، ولا تكن آمناً منه بأي حال، وخف على الأكثر العدو الداخلي لأنه لا يتفق للأجنبي في أمرك ذلك الاطلاع والنظر اللذان يتفقان له، وعندما ينقطع عنك لا يخلو قلبه أبداً من الحقد عليك ويستفسر عن أحوالك، ولا يعرف العدو الخارجي ما يعرفه هو، فلا تصادق أي عدو صداقه خالصة، ولكن تظاهر بصداقة مجازية، فلعل المجازى يصير حقيقة، لأن الصداقة تنشأ من العداوة والعداوة تنشأ من الصداقة، واجتهد أن يكون أصدقاؤك أضعاف أعدائك، وكن كثير الصديق قليل العدو.

عليهم وتملك هو عليهم أيضاً بعد موت والده سنة ٣٣٧ هـ ملك بلاد غزنة وفتح الهند وقام بأعمال عمرانية عظيمة واشتهر بعدله وحلمه وحكمته، وكان تقياً ورعا على المذهب الحنفي في حداثته ثم صار شافعياً، أحب العلماء وأهل الصلاح وجالس المحدثين وأهل الدين وأحسن إليهم. نظمت في عهده الحركة الفكرية وكثر التأليف التصنيف، مرض نحواً من سنتين حتى مات وتوفي عام ٤٢١ هـ وله من العمر ستون سنة. را: البداية والنهاية، مح ١٢، ص ٢٩. أيضاً: إبن الأثير، الكامل فى التاريخ، مج ٧، ص ٢٤٦. أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، مج ١، ج ٢، ص ١٥٧.

ولا تغفل أيضاً عن عدو واحد بأمل ألف صديق، لأن الألف صديق يغفلون عن رعايتك ولا يغفل ذلك العدو عن عدواتك، ولا تبدأ العدو الأقوى منك بالعداوة ولا تتوان عن أن تشتد على من هو أضعف منك، ولكن إذا طلب عدو منك الأمان فآمنه ولو كان عدوا قاسياً وكان مسيئاً إليك، وعد ذلك غنيمة كبرى فقد قيل: **إن العدو المستأمن والعدو الهارب والعدو الميت سواء**، ولكن إذا وجدته ذليلاً فلا تقعد عنه كلية. وإذا هلك عدو على يديك يحق لك إذا ابتهجت، أما إذا مات حتف أنفه فلا تسر كثيراً، وابتهج حين تتحقق أنك لن تموت، ولو أن الحكماء قالوا: **إن كل من يعيش أكثر من عدوه بنفس واحد ينبغي أن يعتبر ذلك غنيمة**، أما إذا عرفنا أننا جمعاً سنموت فلا ينبغي أن نسر كثيراً كما قلت.

رباعي

إن يكن الموت اصعد من شانئك الدخان(٥).
فلم سررت سريعاً بذاك الدخان؟.
ولما كان الموت سبيلك أيضاً؟.
فلم يلزم أن تبتهج بموت الناس(٦)؟

(حكاية)

سمعت أن ذا القرنين(٧) طاف حول العالم وسخره كله له ورجع وقصد دياره،

---

(٥) أي أحرق.

(٦) گرمرگ بر آورد زبد خواه تودود — زآن دودچين شادچرا گشتي زود
جون مرك ترابيز بخواهد فرسود — ازمرگ كسي چه شادمان بايدبود.

(٧) هو الإسكندر بن فيليب بن هرمس بن رومي بن يونان، تعددت الأقوال حول اسمه ولقبه، فبعضهم قال: أنه سمي بذي القرنين لبلوغه أطرف الأرض وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الأسم، وبعضهم الآخر قال بأن الاسكندر من الملائكة. ويتفق المسعودي والبيروني على ذكر الأسطورة القائلة أن الإسكندر دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها أي بشرقها ومغربها. ويذكر عن الإسكندر أنه كان ملكاً عادلاً أستوزر الخضر وعينه قائداً لجيشه، ووسع حدود مملكته فأستولى على بلاد الفرس والصين وملك الروم والمغرب ومصر وأرمينية وعيرها. را: المسعودي، مروج الذهب، مج ١، ص ٦٥. البداية والنهاية، مج ١ -٢، ص ١٠٢ -١٠٤. البيروني الآثار الباقية، ص ٣٦ -٣٧.

فلما بلغ دامغان أوصى قائلاً: ضعوني في تابوت واجعلوا للتابوت ثقباً واخرجوا يدي من ذلك الثقب مبسوطتي الكفين واحملوني هكذا ليرى الناس أني امتلكت كل العالم وهأنذا أذهب صفر اليدين، ثم قال: قولوا لأمي إذا أردت أن ترضى عنك روحي فاحزني على مع من لم يكن مات له عزيز.

فيا بني! كل من ترميه بيدك اسحبه بقدمك(٨)، لأن الحبل ما دمت تفتله بحد ومقدار تندمج طياته الواحدة في الأخرى وعندما تزيد فتله يتقطع بعضه من بعض، فراع حد الأمور سواء أكان في الصداقة أو العداوة لأن الاعتدال جزء من العقل الكلي، وكن حمولاً مع السفهاء ولكن كن متمرداً مع المتمردين مراع طريق المروءة في كل أمر تكون، وأوجب على نفسك كظم الغيظ في وقت الغضب، واعرف قدر نفسك، واعتبر تحمل البارد والحار من الناس عاراً، لأن من لا يعرف قدر نفسه يكون في رجولته نقصان، وتحدث بأناه مع الصديق والعدو، وكن حلو الكلام فإن الكلام الحلو سحر ثان، وتوقع جواب كل ما تقول من خير وشر، ولا تسمع أحداً كل ما لا تريد أن تسمعه، وكل ما لا تستطيع قوله أمام الناس لا تقله من ورائهم، ولا تهدد الناس جزافاً، ولا تفاخر بعمل لم يعمل ولا تقل إني أعمل هكذا، فقد قلت:

رباعي

أيها الصنم اخرجت حبك من قلبي.
وجعلت جبل غمك ذاك كالصحراء.
لا أقول لك اليوم كيف سأعمل.
فغداً تعرف إذ أقول لك كيف فعلت.

واعرف العمل أكثر من الكلام، ولا تطيلن لسانك على من يستطيع أن يطلق عليك لسانه إذا أراد، ولا تكن أبداً ذا وجهين، وإبتعد عن ذوي الوجهين، ولا تخف

(٨) أي كل من أسأت إليه من ناحية أحسن إليه من ناحية أخرى.

(٩) يعني: أيها الحبيب! أخرجت حبك من قلبي وهدمت ما كان متراكماً فيه من تباريح العشق كالجبل وسويتة بالأرض (المترجمان).

من التنين النافث[١٠] وخف من النّمام، لأن ما يفتقه في ساعة لا يمكن رتقه في سنة، يقول الحكيم[١١] اعمل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة، أولاً لا تحارب شخصاً أقوى منك ولو كنت محتشماً وعظيماً ولا تلج مع من يكون حاد الطبع ولا تصحب البخلاء ولا تناظر الجهلاء ولا تشرب الخمر مع الغيور والمعربد كذلك، ولا تجالس النساء كثيراً، ولا تفش سرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريائك وحشمتك، وإذا أخذ عليك شخص عيباً، فاجتهد أن تبعده عن نفسك، ولا تحمل نفسك على التكلف حتى لا تهبط بغير تكلف، ولا تثن كثيراً على أي شخص بحيث إذا ما اقتضت حاجة أن تذمه وقتاً ما لا تستطيع الذم، ولا تذمه كثيراً أيضاً بحيث إذا اقتضت الحاجة أن تمدحه لاتستطيع المدح.

وكل من يتم له أمر بدونك لا تخوفه بغضبك وعتابك، لأن كل من يستغني عنك لا يخاف من غضبك وعتبك، وإذا خوفت من لا يخاف منك تكون قد هجوت نفسك، وكل من لا يتم له أمر بدونك لا تستذله كليه ولا تتجبَّر عليه ولا تضطهد الحسود، ولا تستعد عليه غضب الآخرين، وإذا أذنب فاصفح عنه ولا تتلمس الأخطاء لمن هم دونك، لتسود عليهم ولا ينفروا منك، واصلح من شأن أتباعك لأنهم ضياعك، فإذا عمرت ضياعك، صلح شانك، وإذا خربت الضياع تصير مملقاً معدماً، والخادم المطيع المخطىء خير من المصيب العاصي. وإذا أمرت بشغل، فلا تأمر به شخصين ليبتعد عنه الخلل، فقد قيل: **لا يغلي القدر بشخصين كما أن البيت لايكنس بسيدتين**، وقد قال الفرخي شعراً:

البيت الذي فيه سيدتان، ترى فيه التراب دائماً إلى الركبتين.

وإذا كنت في عمل فلا تطلب مساعداً وشريكاً حتى لا يدخله خلل ويحمر وجهك خجلاً أمام سيدك دائماً، وكن كريماً مع الصديق والعدو ولا تغضب بشدة لأخطاء الناس، ولا تلف كل كلمة على أصبعك[١٢]، ولا تصمم على العقوبة بكل حق وباطل وأرع طريق الكرم لتكون ممدوحاً في كل زمان.

---

(١٠) النافت معناها النافخ.

(١١) يعتقد أنه فيثاغوراس الفيلسوف اليوناني والرياضي الشهير.

(١٢) أي لا تأبه بكل ما يقال وتجعل لكل كلمة أهمية (المترجمان).

في العفو والعقوبة

أي بني، لا توجب على الناس العقوبة في كل ذنب، وإذا أذنب إنسان فالتمس لذنبه عذراً في قرارة نفسك، لأنه آدمى كذلك وأول ذنب ظهر في الوجود كان من أبينا آدم عليه السلام.

رباعي

إذا أقصيت يوماً عن حضرتك
ندم قلبي على ذلك مائة مرة أيها الحبيب
لا تعرض عن عبدك لذنب واحدٍ
فإني آدمي وأول من أذنب آدم

ولا تعاقب بالباطل حتى لا تصير مستوجب العقوبة بغير جريرة ولا تغضب لكل شيء، وتعود كظم الغيظ وقت الضجر، وإذا طلب منك العفو عن ذنب فاعف واوجب على نفسك العفو وإن يكن ذنباً فاحشاً، لأنه إذا لم يذنب العبد لا يظهر عفو الله، وإذا جازيت على جرم فأين فضلك حينذاك؟ وإذا أوجبت العفو فإنك لا تخلو من الشرف والعظمة، وإذا عفوت عن أحد فلا تؤنبه ولا تذكر ذلك الذنب لأن ذلك يكون بمثابة عدم العفو.

أما أنت فاجتهد أن لا تذنب فتدعوك الحاجة إلى طلب العفو، وإذا فعلت فلا تأنف من الاعتذار، لتنقطع الخصومة، أما إذا ارتكب شخص ذنباً يستوجب العقوبة فانظر إلى حد ذنبه ومر بالعقوبة على قدر الذنب، فإن أرباب الإنصاف قالوا: يجب توقيع العقوبة على قدر الذنب أما أنا فأقول: إذا ارتكب شخص ذنباً وصار بذاك

الذنب مستوجب العقوبة فلا تعاقبة على ذلك، واعف عنه لتكون قد سلكت طريق الحلم والرحمة، وإذا عاقبت ولم تر العفو لازماً، فاعمل على أي حال بحيث تأمر بنصف درهم من العقوبة لدرهم من الذنب لتكون من الكرام ومن الساسة أيضاً، ولا يليق أن يعمل الكرماء عمل غير الرحماء.

(حكاية)

سمعت أن قوماً كانوا قد أجرموا في أيام معاوية جرماً أوجب عليهم القتل، فأمر معاوية بضرب رقابهم أمامه، ففي تلك الساعة التي كانوا يقتلون فيها أتوا برجل أمامه ليقتلوه، فقال الرجل: كل ما تريد أن تفعل بنا فهو جزاؤنا ونحن مقرون بجرمنا، ولكن اسمع مني كلمتين لوجه الله تعالى وأجب، فقال معاوية: قل، فقال ذلك الرجل المجرم: لقد عرف كل العالم حلمك وكرمك، إذا كنا قد ارتكبنا هذا الجرم مع ملك لم يكن كريماً وحليماً مثلك فماذا كان يفعل بنا؟ فقال: كان يفعل ما أفعله، فقال الرجل: إذا فما يفيدنا حلمك وكرمك وأنت تفعل عين ما يفعله ذلك الغاشم؟ فقال معاوية :لو قال الرجل الأول هذا الكلام لعفوت عن الجميع، والآن قد عفوت عن هؤلاء الذين تبقوا جميعاً.

فإذا طلب المجرم المعذرة فيجب أن تجيبه ولا تر ذنباً قط يجل عن المعذرة، وإذا وقعت لمحتاج إليك حاجة من الممكنات التي لا تضر بالدين ولا ينجم عنها خلل في المهمات الدنيوية فلا توئس قلبه من أجل عرض الدنيا ولا ترده دون قضاء حاجته ولا تخيب ظنه فيك، لأن ذلك الرجل لا يطلب إليك حاجة مالم يظن بك خيراً، وهو أسيرك وقت عرض حاجته فقد، قيل: **الاحتياج أسر ثان**، ويجب الرفق بالأسرى فإن قتل الأسير ليس محموداً بل مذموماً، فلا تجز التقصير في هذا المعنى لتلقي محمدة كلا الدارين، وإن تكن بك حاجة إلى شخص فانظر أولاً، هل ذلك الرجل كريم أو لئيم، فإن يكن رجلاً كريماً فاسأل حاجتك ولكن ارتقب الفرصة، فلا تسأله وقتما يكون مهموماً ولا تسأله كذلك قبل الطعام على جوع ليكون هناك أمل في الإجابة، ولا تطلب غير الممكنات، وفكر جيداً في الكلام عند طلب الحاجة واحسن التمهيد له أولاً، ثم تحدث إليه بإيجاز وانصرف، وتلطف كثيراً في الحديث لأن التلطف في طلب الحاجة هو الشفيع الثاني، وإذا عرفت كيف تطلب الحاجة

فإنك لا تعود بأي حال دون قضائها، كما قلت دوبيتا:

رباعي

إذا أردت أيها القلب الوصول إلى الحبيب
وأن تصل بغير عناء إلى ذلك البدر التمام
فعش على مراده بأي حال أيها القلب
لأنك إذا عرفت طلب المراد بلغت المراد

وكن لكل من تحتاج إليه كأسيره وخادمه، إذ أننا نتعبد لله تعالى لأن بنا حاجة إليه، ولو لم تكن الحاجة لما اتجه أي إنسان نحو الطاعة، وإذا نلت الإجابة فاشكر على كل حال لأن الله تعالى يقول: [1]﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ والله تعالى يحب الشاكرين، والشكر على الحاجة أولاً وأمل إجابة الحاجة ثانياً، وإذا لم يقض حاجتك فاشك بختك ولا تشك منه لأنه لو كان يخشى شكواك لقضى حاجتك. وإذا كان الرجل بخيلاً ولئيما فلا تطلب منه أي شيء في حالة الصحو فإنه لا يعطيك، واسأله وقت السكر لأن اللئام والبخلاء يسخون وقت السكر ولو أنهم يندمون في اليوم التالي، وإذا وقعت لك حاجة إلى لئيم فاعرف أنك في موضع الرحمة، فقد قيل: **ثلاثة أشخاص في موضع الرحمة، أحدهم عاقل تحت يد أحمق، والآخر عظيم قد استولى عليه ضعيف، وكريم محتاج إلى لئيم**، واعلم أنه لما انتهيت من هذه الكلمات التي ذكرتها في المقدمة أوردت فصلاً من كل نوع حسب طاقتي وأردت أن أؤدي حق الكلام تماماً وأتكلم عن الحرف كذلك لتقرأها وتعرفها أيضاً، فلعله تمس الحاجة إليها، ولو كنت أعرف علم الأولين والآخرين لعلمته إياك وصيرته معلوماً لديك لكي أرحل عن هذه الدنيا وقت الموت أقل غماً، ولكن ماذا أعمل وأنا راجل في العلم، وإذا كنت أعرف شيئاً أيضاً فماذا يفيد قولي؟ وإذا سمعت مني كما سمعت أنا من أبي فلا لوم عليك لأني أنصف من نفسي، أما إذا سمعت أو لم تسمع فإني سأقول بضع كلمات في كل باب حتى لا أكون قد بخلت بالكلام وحتى أكون قد قلت ما يكون قد تجلى في طبعي.

---

(١) وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، القرآن الكريم، سورة (إبراهيم)، آية ٧.

في طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك

اعلم يا بني أني قلت في أول الكلام انني سأتحدث عن الحرف أيضاً، وليس الغرض من الحرفة عمل الدكان بل إن كل عمل يباشره المرء يكون من قبيل الحرفة إلا أنه يجب أن يعرف ممارسة ذلك العمل جيداً حتى يمكنه أن يطعم منه الثمرة، والآن كما أرى لا توجد أية حرفة أو عمل يطلبه ابن آدم وتكون تلك الحرفة مستغنية عن الشهرة والنظام والصدق، فلا بد لها جميعاً من الترتيب.

والحرف كثيرة ولا يمكن شرح كل واحدة على حدة لأن الكتاب يطول ويخرج عن طبيعة أصله، ولكنها مهما تكن لا تخرج عن ثلاثة وجوه: فهي إما علم يتعلق بالحرفة واما حرفة تتعلق بالعلم، وإما حرفة بذاتها[١].

أما العلم الذي يتعلق بالحرفة فمثل الهندسة والطب والمساحة والشعر وما أشبه هذا، **والحرفة التي تتعلق بالعلم** مثل الغناء والبيطرة والبناية وحفر القنوات وغير ذلك، ولكل منها أسباب ووسائل، وإذا لم تعرف رسمها وأسبابها فإنك تكون في ذلك الباب كالأسير مهما تكن أستاذاً. **والحرف الخالصة** معروفة بذاتها ولا حاجة لشرحها، ولكي أطلعك على أسباب كل واحدة بقدر ما يستطاع لأنها لا تخرج عن اثنتين، فإذا وقعت لك الحاجة من اتفاق الأيام وحوادث الزمان تكون عارفاً بأسرار كل منها في وقت الحاجة، وإذا لم تكن ثمت حاجة وكنت من السراة[٢] فإنه لا بد للسراة من معرفة علم الحرف.

---

(١) الترجمة الحرفية: برأسها (المترجمان).

(٢) السراة: العالمون الكاتمون للسر.

واعلم يا بني بأنه لا يمكنك أن تطعم ثمرة من أي علم إلا علم الآخرة وإذا أردت أن تطعم ثمرة من العلم الدنيوي فإنك لا تستطيع إلا بالحرفة التي تمزجها به مثل علم الشرع والقضاء والقسمة والخطابة والوعظ، ولا يصل إليها كل إنسان ومن يصل إليها فإن فائدة ذلك تكون كثيرة. وفي النجوم والتقويم والعرافة لا يصل إلى المنجم نفع دنيوي مالم يدخل فيها زخرف الجد والهزل، وما لم يدخل في الطب الجس والفحص والتمويه وإعطاء الإهليج(٣) بالصواب وغير الصواب، لا يحصل مراد الطبيب الدنيوي.

فأجل علم هو علم الدين لأن أصوله على الدوام التوحيد وفروعه أحكام الشرع وحرفته نفع الدنيا والآخرة، فيا بني درما استطعت حول علم الدين لتظفر بالدنيا والآخرة، وإذا وفقت فقوم أولاً أصول الدين ثم الفروع، لأن الفروع بغير الأصول تقليد.

فإذا كنت طالب علم من الحرف التي ذكرتها فكن متعففاً وقانعاً ومحباً للعلم وعدوا للدنيا وحمولاً وخفيف الروح، مساهراً ومبكراً وحريصاً في الكتابة والدراسة ومتواضعاً وغير ملول من العمل وحافظاً ومكرراً للكلام ومتفحصاً للسير ومتجسساً للأسرار ومحباً للعلماء ووقوراً ومحترماً، وكن في التعلم حريصاً وغير خجول وعارفاً لحق الأستاذ.

وينبغي أن يكون معك دائماً الكتب الوافرة، والقلم والمبراة والمقلمة والمحبرة والسكين والفرجار، وقلم الجدول والمسطرة وما أشبه هذه الأشياء، ولا ينشغل قلبك بشيء آخر غير هذه، وتعلم كل ما تسمعه وكن قليل الكلام بعيد التفكير ولا ترض بالتقليد وكل طالب علم بهذه الصفة سرعان ما يصير فريد العصر.

فصل

إذا كنت عالم فتوى فكن ديناً وكثير الدرس والحفظ ومتعبداً ومصلياً وصائماً،

(٣) نوع من التمر لونه أصفر أو أسود، يستخدم في علاج الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع. القاموس المحيط، مج ١، ص ٢٢٠.

ولا تتجاوز عن ذلك، وكن ورعاً وطاهر الثوب وحاضر الجواب، ولا تفت في أيه مسألة بغير حجة وما لم تفكر جيداً، ولا تقنع بتقليد أحد، واعتز برأيك ولا تقنع بالوجهين والقولين، ولا تعمل بغير قول الثقات ولا تعتبر كل كتاب وجزء، وإذا سمعت رواية فانظر إلى رواة الحديث، ولا تسمع الحديث المجهول من الراوي المعروف ولا تعتمد على خبر الآحاد اللهم إلا الرواة الثقات، ولا تتهرب من الخبر المتواتر وكن مجتهداً ولا تتعصب كثيراً ولا تتكلم عن تعصب، وإذا ناظرت فانظر إلى الخصم، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه في الكلام فتداخل في المسائل وإلا فتوقف عن الكلام ولا تقنع بمثال واحد ولا تقل بالحجة الواحدة طرداً وعكساً، واحفظ الكلام الأول حتى لا تفسد الكلام الأخير، وإذا كانت المناظر فقهية فقدم الآية على الخبر والخبر على القياس وتكلم بالممكنات، ولا يكون عيباً في المناظرة الأصولية جمع الموجبات وغير الموجبات والممكنات، واجتهد أن تصير الفرض معلوماً وقل الكلام مرتباً ولا تقله أبتر وكذلك لا تتكلم طويلاً وبغير جدوى.

فصل

إذا كنت مذكراً فكن حافظاً واحفظ كثيراً ولا تجادل وأنت على الكرسي، ولا تناظر ولو كنت تعرف أن الخصم ضعيف، وادع ما تشاء على الكرسي. وإن يكن هنالك سائل فلا خوف، واجعل لسانك فصيحاً واعتبر كذلك أن هؤلاء القوم الذين في مجلسك بهائم كلهم وقل كيفما تريد حتى لا تعجز في الكلام، ولكن إجعل بدنك وثوبك نظيفين واستحضر المريدين والمهللين بحيث يكونون جالسين دائماً في المجلس ليهللوا لكل نكتة تقولها ويجعلوا المجلس حامياً، وإذا بكى الناس فأبك أنت أيضاً من وقت لآخر، وإذا عجزت في القول فلا تخف، واشتغل بالصلوات والتهليل ولا تكن عابس الوجه حتى لا يكون أولئك الذين في مجلسك ثقال الروح عابسي الوجوه مثلك، لأنهم قالوا: **كل شيء من الثقيل ثقيل** وكن متحركاً في وقت الحديث ولا تكن سريع الوهن في أثناء الحماس، وانظر دائماً إلى المستمع فإذا أراد المستمع المضحكة فاضحكه وإذا أراد الخرافة فقص عليه الخرافة وقل كل ما يرغب فيه العامة(٤) وإذا وقع القبول فلا تخف وبع أسوأ الكلام كأحسن شيء، إذ انهم

(٤) الترجمة الحرفية: كل ما يكون العامة مشترين له (المترجمان).

يشترونه في وقت القبول ولكن كن حذراً في القبول، لأن خصم المذكرين يظهر في القبول.

ولا تقر في مكان لا تلقي فيه قبولاً، وكل سؤال يسألونه وأنت على الكرسي أجب عما تعرفه والذي لا تعرفه قل إن مثل هذه المسألة لا تسأل على الكرسي، تعال إلى البيت لأجيبك، فإنه لا يأتي إلى البيت أحد، وإذا تعنتوا وأكثروا الكتابة فمزق الرقعة وقل إن هذه مسألة الملاحدة والزنادقة وسائل هذه المسألة زنديق، فيقول الجميع لتكن اللعنة على الزنديق والملحد، فلا يجرؤ أحدأن يسأل منك مسألة بعد ذلك، وتذكر الكلام الذي قلته مره في المجلس حتى لا يتكرر مرة أخرى وكن ناضر الوجه في كل وقت.

ولا تقم كثيراً بالمدن لأن أرزاق المذكرين والعرافين في أقدامهم وقبولهم في وجوههم. وحافظ على نضارة التذكير وناموسه واجعل جسدك وثوبك نظيفين دائماً وحافظ جيداً كذلك على المعاملة الشرعية في الظاهر والباطن، واكثر من نوافل الصلاة والصوم وكن ذلق اللسان، ولا تكثر المقام في السوق لأن العوام يمرون به كثيراً، لتكون عزيزاً في أعين العامة، واحترز من قرين السوء وراع أدب الكرسي، وقد ذكرنا هذا الشرط في مكان آخر.

وابتعد عن التكبر والكذب والرشوة ومر الخلق بعمل ما تعمله أنت لتكون عالماً منصفاً، واعرف العلم جيداً، واستعمل ما عرفته بعبارة حسنة لئلا تخجل بالادعاء الباطل، وقل كل ما تقوله في الحديث والوعظ بالخوف والرجاء ولا توئس الخلق كلية من رحمة الله تعالى، ولا ترسل الناس كذلك بغير طاعة إلى الجنة جملة، وتحدث على الأكبر بما تكون ماهراً فيه ويكون معلوماً لك جيداً لأن ثمرة الدعوى بغير حجة الخجل.

وإذا بلغت في العلم درجة كبيرة وصرت قاضياً، فكن إذا نلت القضاء حمولاً ومتروياً وحاد الفهم وبارعاً وصاحب تدبير وبعيد النظر وعارفاً بالناس وصاحب سياسة وعالماً بعلم الدين وعارفاً طريقة كل طائفة، وكن خبيراً باحتيال كل جماعة وترتيب كل قوم وكل مذهب، وينبغي أن تكون حيل القضاة معلومة لك حتى إذا ما جاء مظلوم

للحكم وليس له شاهد وسيجري عليه ظلم ويبطل حق من حقوقه تغيث ذلك المظلوم وتبلغ بالتدبير والحلية ذلك المستحق إلى حقه.

حكاية

كذلك كان بطبرستان(٥) قاضي القضاة، وكان يقال له أبو العباس الروياني وكان رجلاً مشهوراً وعالماً وورعا وبعيد النظر ومدبراً، فجاء مرة رجل إلى مجلسه وادعى على شخص مائة دينار، فسأل القاضي الخصم فأنكر، فقال القاضي للمدعي، أعندك شاهد؟ قال لا، فقال القاضي: إذا أحلف الخصم، فبكى المدعي ضارعاً وقال: أيها القاضي! لا تحلفه لأنه يقسم كذباً ولا يخاف، فقال القاضي: أنا لا أستطيع الخروج عن الشريعة، فإما أن تلزمك البينة وإما أن أحلفه، فتمرغ المدعي أمام القاضي في التراب وقال: حذار! ليست لي بينة وهو يقسم كذباً وأبقى أنا مظلوماً فدبر أمري.

فلما رأى القاضي توسل ذلك الرجل على هذه الجملة، عرف أنه يقول الصدق فقال: أيها السيد! قص على قصة ذلك الدين بالحق لأعرف كيف كان أصل ذلك الأمر.

أيها القاضي! لقد كان هذا الرجل صديقي عدة سنوات، فاتفق أن عشق جارية، وكانت قيمة تلك الجارية مائة وخمسين ديناراً ولم يكن معه مال قط وكان يبكي ليل نهار كالوالهين وينوح، وذات يوم ذهبنا للتنزه، وكنت أنا وهو نتجول وحدنا بالصحراء وجلسنا زمنا، وكان هذا الرجل يتحدث عن الجارية ويبكي بحرقة، فرق له قلبي(٦) لأنه كان صديقي عشرين سنة، فقلت أيها الصديق! ليس لك مال وليس لدي ثمنها كاملاً وأنت لا تعرف أي شخص يغيثك في هذا المعنى، أما أنا فلي

---

(٥) طبرستان تعني أرض الطير وهي بلاد واسعة تقع بين الري وقومس والبحر، وبلاد الديلم والجبل، ومن مناطقها قوهستان وجرجان واستراباد وآمل، وتعرف طبرستان باسم مازندران، وهي بلاد كثيرة الينابيع كثيفة الأشجار سمي ملكها بالأصبهبذ را: د.م.أ. مج ١٥، ص ٦٢ - ٦٣. معجم البلدان، مج ٤، ص ١٣ - ١٥. الآثار الباقية، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٦) الترجمة الحرفية: إحترق قلبي عليه (المترجمان).

في كل ما أملك مائة دينار جمعتها في سنوات طوال، فأعطيك هذه المائة دينار ودبر أنت الباقي حتى تشتري الجارية وتنال منها مرادك شهراً وتبيعها بعد شهر وترد إلى مالي ذاك.

فتمرغ هذا الرجل أمامي في التراب وأقسم قائلاً: أملكها شهراً وأبيعها بعد ذلك إذا اشتروها بالخسارة أو الربح وأرد لك مالك، فحللت الذهب عن وسطي وأعطيته له وكنت أنا وهو والحق تعالى، والآن مر على ذلك أربعة شهور فلا أنا أرى المال ولا هو يبيع الجارية، فقال القاضي: وأين كنت جالساً في ذلك الوقت، الذي أعطيته فيه المال؟ قال: تحت شجرة فقال القاضي، ما دمت كنت تحت شجرة فلم قلت ليس عندي شاهد؟ ثم قال للخصم اجلس لدي، وقال للمدّعي: لا تشغل قلبك واذهب تحت تلك الشجرة وصل ركعتين أولاً وصل على النبي مائة مرة، ثم قل لتلك الشجرة إن القاضي يقول أن تعالي واشهدي، فتبسم الخصم، فلمحه القاضي وتغاضى وتغافل، فقال المدعي: أيها القاضي، إني لأخشى أن لا تأتي الشجرة بأمري، فقال القاضي: هذا خاتمي فاحمله وقل للشجرة إن هذا خاتم القاضي ويقول أن تعالى وأدي الشهادة التي عليك أمامي، فأخذ المدعي خاتم القاضي وذهب.

وجلس الخصم هناك عند القاضي، وانشغل القاضي بالأحكام الأخرى ولم يلتفت إلى هذا الرجل إلى أن التفت مرة بغتة إلى ذلك الرجل في أثناء حكم كان يحكم به وقال: أيكون فلان قد وصل هناك؟ فقال: لم يصل بعد أيها القاضي، وانشغل القاضي بالحكم، فعرض الرجل خاتم القاضي على الشجرة وقال: القاضي يدعوك، فلما جلس زمنا عرف أنه لن يسمع جواباً من الشجرة، فعاد مغموماً وجاء أمام القاضي وقال: أيها القاضي! ذهبت وعرضت الخاتم فلم تأت، فقال القاضي: أنت مخطىء فقد جاءت الشجرة وشهدت، والتفت إلى الخصم وقال: أدِ مال هذا الرجل! فقال الرجل: مذ جلست هنا لم تأت شجرة قط ولم تشهد، فقال القاضي: إذا كنت لم تأخذ هذا المال منه تحت تلك الشجرة فلم قلت حينما سألتك أيكون هذا الرجل قد وصل إلى الشجرة «لا بعد» لأن المسافة من هنا إلى هناك بعيدة؟ ولم لم تقل أية شجرة؟ وأنا لا أعرف شجرة قط أخذت منه تحتها مالاً وأنا لا أعلم أين ذهب؟

فألزم ذلك الرجل الحجة وأخذ منه المال وأعطاه لصاحبه.

فالأحكام لا تؤخذ كلها من الكتاب ويجب أن يستنبطوا بأنفسهم مثل هذه الاستنباطات ويدبروا التدابير، وكذلك ينبغي أن تكون في بيتك متواضعاً جداً، أما في مجلس الحكم فكلما كنت أكثر هيبة وعبوساً وأقل ابتساما كان أفضل لتكون ذا جاه وحشمة، وكن وقوراً قليل الكلام ولا تمل البتة استماع الكلام والحكم، ولا تبد من نفسك الضجر واصبر ولا تعتمد على رأيك في مسألة تعرض واستشر المفتين أيضاً ونور رأيك على الدوام ولا تخل أبداً من درس المسائل والمذهب واحفظ التجارب كذلك كما ذكرت، لأن رأي القاضي في الشريعة مساوٍ لرأي الشرع، وكثيراً ما يكون إذا جاء الحكم ثقيلا على رأي الشرع أن يخففه القاضي، ويجوز ذلك عندما يكون القاضي مجتهداً.

فيجب أن يكون القاضي زاهداً ومتقياً وورعاً ومجتهداً وأن لا يحكم في عدة أوقات، أحدها عند الجوع والعطش وثانيها وقت الخروج من الحمام وثالثها وقت الكدر والمشاغل الدنيوية التي تعرض له، ويجب أن يكون له وكلاء نشطون ولا يسمح في وقت الحكم بأن تقص لديه القصص والحكايات وتشرح الأحوال، لأن على القاضي إجراء الحكم لا التفحص، إذ كثيراً ما يكون عدم التفحص خيراً من التفحص، وأن يوجز الكلام ويحيل فوراً على الشاهد واليمين، وحيثما يعرف أن المال كثير والناس غير متقين يجري كل تجربة وتجسس يعرفهما ولا يقصر قط ولا يتساهل ويجعل معه على الدوام المعدلين الأخيار، ولا ينقض الحكم المبرم أبداً ويجعل أمره قوياً ومحكماً ولا يكتب بيده قبالة ومنشوراً أبداً إلا أن تكون ضرورة، ويجعل خطه عزيزاً ويسجل كلامه، وخير فضيلة للقاضي العلم والورع، فإذا لم تزاول هذه الصناعة أيضاً ولم تجد هذا التوفيق ولم تحترف الجندية كذلك فاسلك عندئذ طريق التجارة فلعلك تلقي منها النفع، لأن ما يكون من التجارة حلال مستحسن عند كل إنسان كذلك.

في التجارة

أي بني، ولو أن التجاره ليست بحرفة يمكن أن يقال لها صناعة مطلقة إلا أنه إذا نظرت إليها بعين الحقيقة فإن رسومها مثل رسوم المحترفين، ويقول الأذكياء إن أصل التجارة مبني على الجهل وفروعها على العقل، كما قالوا: **لولا الجهال لهلك الرجال**، يعني لو لم يكن الجهال لفسدت الدنيا، والمقصود من هذا الكلام إن التجار طمعاً في زيادة المال، يحملون الأشياء من الشرق إلى الغرب، ويخاطرون بأرواحهم في الجبال والبحار ولا يخشون اللص والصعلوك، ولا يخافون الحيوان المفترس للناس، ولا عدم أمن الطريق، ويوصلون لأهل المغرب نعمة المشرق، ولأهل المشرق نعمة المغرب، ليكون بهم تدبير عمران الدنيا، وهذا لا يكون بغير التجارة ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطرة من كانت عين عقلة مغمضة.

والتجارة نوعان، وكلاهما مخاطرة، أحدهما المعاملة والآخر المسافرة، والمعاملة للمقيمين الذين يشترون المتاع الكاسد طمعاً في الزيادة، وهذه مخاطرة بالمال ويلزم لذلك رجل جريء وبعيد النظر يخوله قلبه أن يشتري شيئاً كاسداً طمعاً في الزياد.

وقد ذكرت ما هي المسافرة، وعلى كلا الوجهين يجب أن يكون التاجر جريئاً غير وجل على المال والنفس وينبغي أن يكون أميناً، ولا يرغب في إضرار الناس من أجل نفعه ولا يعرض نفسه لملامة الخلق طمعاً في ربحه؛ ويعامل من هم دونه، فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذي أمانة وديانة، ومروءة، ويحترز من المخادعين، ولا يتعامل مع من لاخبرة له في البضاعة حتى يأمن دق الباب، ولا يتعامل مع قليلي البضاعة والسفية ولا يعامل الأصدقاء الحميمين؛ وإذا فعل فليقطع

الطمع من الربح حتى لا تفسد الصداقة، فما أكثر ما فسدت الصداقة بسبب قليل من الربح والخسارة، ولا يتعامل بالنسيئة طمعاً في الزيادة، إذ كثيراً ما تثمر الزيادة النقصان، ولا يدقق في التَوَافِهْ لأن التدقيق في التوافه ضرر بليغ، كما أقول:

رباعي

قلت إذا ابتعدت عنه.
فلعل قلبي لا يقاسي بعد ذلك صداعه.
فمنذ ابتعدت عنه وأنا بعيد عن النوم والطعام.
وكثيراً ما يكون الضرر من التدقيق في التوافه.

وأصل فساد التجارة في التبذير، فما لم يتحصل شيء من الربح لا ينبغي الأكل من رأس المال، لأن أكبر ضرر للتاجر يتأتى من أكل رأس المال، وأعلم أن خير المتاع ما يشتري بالمن والرطل ويباع بوزن الدرهم، وأسوأ المتاع ما يكون على خلاف هذا؛ واحترز من شراء الغلة بأمل الربح، لأن كل من يبيع الغلة يكون دائماً سيء السمعة والنية؛ وأكمل الناس ديناً من لا يكذب على المبيع[1] لأن الكذب على المبيع[1] غير مستحسن عند الكافر والمسلم، كما قلت بيتين في هذا المعنى:

نظم

يا من ألقى عشقك في قلبي النور وألقى اهتمامي بك على عنقي النير!
لقد ابتعت عشقك بروحي وقلبي، وأنت تعرف أنه لا يكذب على المبيع[1]

ويجب أن لا يسلم شيئاً قط قبل إتمام البيع، وأن لا يخجل في المعاملة، فقد قال الأذكياء: **الحياء يقل الرزق**. ولا يعتاد الحيطة من الزيادة ولكن لا يقل المروءة كذلك في طريقته، فقد قال متصرفو هذه الصناعة: إن أصل التجارة التصرف والمروءة، التصرف يحفظ المال والمروءة تحفظ الجاه.

(١) في الأصل (المشتري) وأخترنا كلمة المبيع للمناسبة. وباع من الأضداد كذلك وتؤدي معنى البيع والشراء (المترجمان).

(حكاية)

كذلك سمعت في حكاية أن تاجراً تعامل يوماً بألف دينار في دكان بياع، فلما تمت الصفقة وقع خلاف بين التاجر والبياع في الحساب على قيراط من الذهب، فقال البياع: لك عليَّ دينار ذهب، فقال التاجر: دينار وقيراط، واستمر الكلام في هذا الحساب من الصباح حتى صلاة الظهر، وكان التاجر يصدع البياع ويصيح ولم يتحول عن قوله قط إلى أن ضجر البياع وأعطاه ديناراً وقيراطاً، فأخذ التاجر المال وذهب، وكل من كان يرى هذا كان يلوم ذلك التاجر، ولما ذهب التاجر جرى خلفه صبي البياع وقال: أيها السيد! أعطني الحلوان[2] فأعطاه التاجر هذا الدينار والقيراط، وعاد الصبي، فقال البياع: أيها الصبي! إن هذا الرجل كان يتعب نفسه من الصباح إلى منتصف النهار من أجل قيراط ولم يخجل وسط الجمع، فهل طمعت أنت أن يعطيك شيئاً؟ فأظهر الصبي الذهب، وحار[3] الرجل وقال لنفسه: إن هذا الصبي ليس وسيماً وهو صغير جداً ولا يمكن إساءة الظن به، فلم فعل هذا الرجل هكذا مع هذا البخل؟ وبعد ذلك رأى البياع ذاك التاجر وقال: أيها السيد! رأيت منك شيئاً عجيباً، إنك أتعبتني يوماً بين جماعة من الصباح حتى صلاة الظهر من أجل قيراط ذهب ثم وهبته كله لصبي فلم كان ذاك الصداع، وما هذا السخاء؟ فقال: لا تعجب أيها السيد مني، فأنا رجل تاجر، وفي شرط التجارة إنه إذا غبن شخص في درهم وقت البيع والشراء والتصرف يكون كمن قد غبن في نصف عمره، وإذا ظهرت النذالة من شخص في وقت المروءة، يكون ذلك كما لو أنه قد شهد على دنس أصله، فلم أرد غبن العمر ولا دنس الأصل.

أما التاجر القليل البضاعة فينبغي أن يحترز من المشاركة، وإذا فعل فليكن مع شخص ذي مروءة وغنى وحياء، حتى لا يحيف عليه في وقت القسمة، ولا يشتري في حداثة رأس ماله متاعاً يستنفد منه واحداً في المائة وتصير له نفقات كثيرة، ولا يبتاع شيئاً يطرأ عليه التغيير ولا يشتري مال الميت والمفلس ولا يجرب

(٢) شاكر دانه. (المترجمان).

(٣) الترجمة الحرفية: عجز (المترجمان)

الحظ في رأس المال، إلا أن يعلم أنه إذا صارت خسارة لا تكون أكثر من نصف رأس المال، وإذا أعطوه كتاباً قائلين أوصله إلى المكان الفلاني، يقرأ الكتاب أولاً ثم يأخذه، إذ أن في الكتاب المقفل بلايا كثيرة، ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال، أما رسائل المحتاجين فلا يغدر فيها، ولا يخبر عن سوء في كل مدينة يدخلها.

وإذا دخل من طريق فلا ينعي أحداً ولا يقصر في خبر التهنئة، ولا يسير في الطريق الخارجي بغير رفيق، وينزل بين الجمع في القافلة ويضع القماش في المكان المزدحم، ولا يذهب أو يجلس بين المسلحين لأن الصعلوك يقصد المسلح أولاً، وإذا كان راجلاً لا يصحب الراكب، ولا يسأل الطريق من الغرباء، إلا من شخص يتوسم فيه الصلاح، فكثيراً ما يكون رجل خبيث يضلل الناس الطريق، ويأتي من خلفهم ويسلب البضاعة، وإذا اعترض الطريق شخص يسلم عليه بوجه طلق، ولا يظهر له نفسه في اضطراب وعجز، ولا يخون الحراس، ولكن لا يقصر في خداعهم بالجرأة والكلام الطيب، ولا يخرج إلى الطريق بغير زاد ومؤونة، ولا يذهب في الصيف ما لم يصحب معه ملابس الشتاء، ولو كان الطريق عامراً جداً، ويرضي المكاري، وإذا نزل بمكان لا يعرفه ويخشاه، يتخير بياعاً أميناً.

وينبغي أن يصاحب ثلاث طوائف من الناس، الفتيان والعيارين، والأغنياء وذوي المروءة، والأدلاء والعارفين بالبلاد، واجتهد أن تعتاد البرد والحر والجوع والعطش، ولا تسرف في الراحة، حتى إذا ما أصابك في وقت ما بحكم الضرورة نصب يكون أيسر عليك، وكل عمل تستطيع أن تعمله أعمله بنفسك ولا تأمن لأحد، لأن الدنيا سريعة الخداع.

أما رأس مال التجارة فالصدق، وكن نشطاً في البيع والشراء وثقة وصادقاً، وكثير الشراء فالبيع، ولا تتعامل ما استطعت بالنسيئة، فإذا فعلت فلا تتعامل مع بضعة أصناف من الناس: مع الفقهاء والعلويين، ومع حديثي النعمة وقليلي المال ووكلاء القاضي الخواص والصبيان والخدم، لا تتعامل مع هؤلاء القوم قط بالنسيئة، وكل من يفعل ذلك لا ينجو من الصداع والندم، ولا تأمن المحرومين

على أموالك ولا تعتمد على غير المجربين، ولا تمتحن **المجربين في كل وقت**، ولا تستبدل غير المجرب بالمجرب، **إذ يلزم وقت طويل حتى يحصل على مجرب** ومعتمد، وفي المثل: **الشيطان المجرب خير من الإنسان غير المجرب**.

وامتحن الناس بالناس ثم بنفسك لأن كل من لا يليق لنفسه لا يليق لغيره قط، وجرب الناس بالعمل لا بالقول، وعصفور باليد خير من طاوس بالنسيئة، وما دمت تربح نصفاً من كل عشرة في سفر البر فلا تسافر في البحر طمعاً في ربح خمسة عشر في كل عشرة، لأن ربح سفر البحر إلى الكعب وخسارته إلى العنق، ولا ينبغي أن تسلم للريح أصل رأس المال الكبير طمعاً في ربح صغير، وإذا وقعت في البر واقعة وذهب المال، فلعل الروح تبقى، وفي البحر يكون الخطر على كليهما، وللمال عوض أما الروح فلا عوض لها، وقد مثلوا أيضاً عمل البحر بعمل السلطان يأتي جملة ويذهب جملة، ولكن إذا ركبت البحر مرة لمشاهدة الآثار العجيبة فجائز عند القدرة، لأن النبي ﷺ قال: «إركبوا البحر مرة وانظروا إلى آثار عظمة الله سبحانه وتعالى»(٤).

وماكس في وقت المعاملة، ولا تماكس بعد البيع، ولا تدع أمرك جملة في أيدي الناس، فقد قيل: **ينبغي مسك الحية بأيدي الناس، وترك الشوك لأقدامهم**، واحسب ربحك وخسارتك جميعاً واكتبها بخطك لتأمن السهو والخطأ، وحاسب غلمانك وأهلك دائماً ولا توجب على نفسك أي شيء بيدك حتى إذا ما أردت أن تنكره استطعت.

وتفقد شؤونك دائماً واطلع عليها من ربح وخسارة ونقص وزيادة في المعاملة حتى لا تعجز عن معرفة ربحك وخسارتك واجتنب الخيانة، لأن كل من يخون الناس، يجب أن يعلم أنه كأنما قد ارتكب تلك الخيانة مع نفسه.

(حكاية)

سمعت أن شخصاً كان له غنم وقطعان كثيرة، وكان له راعٍ ورع وصالح

(٤) معناه صحيح، لكنه غير موجود في كتب الأحاديث الصحيحة ولا في الجامع الصغير ويعتقد أنه من كلام العلماء.

يجمع كل يوم لبن الأغنام مهما كان ويحمله إلى صاحبها، وكان ذلك الرجل يخلط ما كان من اللبن بما يساويه من الماء ويعطيه الراعي ويقول: إذهب وبعه وكان الراعي ينصح الرجل ويعظه قائلاً: أيها السيد! لا تخن المسلمين، لأن كل من يخون الناس لا تحمد عاقبته، فلم يسمع الرجل كلام الراعي وظل يفعل ذلك إلى أن اتفق ذات ليلة أن أرقد الراعي الأغنام في مسيل النهر وذهب هو نفسه فوق مرتفع ونام، وكان فصل الربيع، وللقضاء الإلهي هطلت على الجبل أمطار عزيرة وسالت وسقطت في هذا المسيل وأهلكت الأغنام، وفي اليوم التالي جاء الراعي إلى المدينة وذهب إلى صاحب الغنم بغير لبن، فسأله الرجل لِمَ لَمْ تحضر اللبن؟ فقال الراعي: أيها السيد! لقد قلت لك أن لا تمزج الماء باللبن لأن ذلك خيانة، فلم تطعني، فالآن تجمعت كل تلك المياه التي كنت أعطيتها للناس بسعر اللبن وهجمت ليلة أمس وذهبت بغنمك.

فتجنَّب ما استطعت الخيانة لأن كل من خان مرة لا يعتمد عليه أحد من بعد، واستشعر الصدق لأن الصدق أكبر طراز، وكن طيب المعاملة وحسن الأخذ والعطاء، ولا تعد أحداً، وإذا وعدت فلا تخلف، ولا تكثر الكلام، وإذا تكلمت فقل الصدق ليبارك الحق تعالى في معاملتك، وكن يقظاً في أخذ الحجة وتسليمها في المعاملة.

وإذا أردت اعطاء حجة فلا تسلم الحجة ما لم تتسلم حقك أولاً، وحينما تذهب فاطلب صديقاً، وإذا كنت تاجراً ولم تذهب قط إلى مدينة، فاذهب إليها بكتاب محتشم لتكون معروفاً بتعريفه. وصانع النَاس، ولا تسافر مع غير الموافقين والجهال والحمقى والكسالى وتاركي الصلاة والمتهورين؛ فقد قيل: **الرفيق ثم الطريق** ولا تكذب فيك ظن كل من يأتمنك، ولا تشتر أي شيء تشتريه غير مرئي وغير معروض، واعرف أولاً سعر ما تريد بيعه، وبعه بالشرط والميثاق، لتسلم آخر الأمر من التقاضي والجدل.

وراعِ طريق التدبير لأن تدبير البيت أعظم تجارة ويجب أن لا تبدد ذخيرة بيتك، وأن تشتري حوائج البيت جملة في كل سنة وقت توافرها، واشتر من كل ما يلزمك بقدر ما يكفي في العام، وكن خبيراً بالسعر، وعندما يرتفع السعر بع

النصف من كل شيء مما تكون قد اشتريته، لتكون قد أكلت في تلك السنة بالمجان، وليس في ذلك إثم ولا سوء سمعة، ولا ينسبك أحد في هذا المعنى إلى البخل، لأن هذا من جملة تدبير البيت، وإذا رأيت خللاً في شئونك فدبره لتزيد دخلك، حتى لا يتطرق ذلك الخلل إلى تدبير بيتك، فإذا لم تستطع زيادة الدخل فقلل الخرج ليكون ذلك كما لو تكون قد دبرت الزيارة، فإذا لم تستحسن التجارة وأردت أن تكون عالماً شريفاً فليس بعد علم الدين قط أشرف وأنفع من علم الطب، فقد قال رسول الله ﷺ(٥): «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان».

(٥) ذكره السيوطي في خطبة كتاب الطب النبوي وورد هذا الحديث على لسان الإمام الشافعي. قا: العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، مج ٢، ص ٨٩.

الباب الثالث والثلاثون

في علم الطب

أي بني، إذا كنت طبيباً فينبغي أن تعرف أصول علم الطب، سواء الأقسام العلمية أو الأقسام العملية، واعلم أن كل ما هو موجود في الجسم الآدمي إما أن يكون من الطبيعة أو خارجاً عن الطبيعة.

والطبيعي ثلاثة أقسام: فالقسم الأول، ما يكون به ثبات البدن وقوامه، والقسم الثاني هو توابع تلك الأشياء التي بها ثبات البدن وقوامه، والقسم الثالث هو ما يحوِّل البدن من حال إلى حال وذاك الخارج عن الطبيعة إما أن يؤدي بالفعل إلى المضرة بالواسطة أو غير الواسطة أو يكون هو نفس ضرر الفعل.

أما ذلك **القسم الذي به ثبات البدن وقوامه**، فإما أن يكون من جنس المادة أو من جنس الصورة.

فذاك الذي من جنس المادة، إما أن يكون بعيداً جداً مثل الأستقصات(١)، وعددها أربعة وهي: الهواء والنار والتراب والماء، أما أن يكون أقرب من الاستقصات مثل الأمزجة وعددها تسعة: واحد معتدل وثمانية غير معتدلة، أربعة مفردة وأربعة مركبة، وإما أن يكون أقرب من الأمزجة مثل الأخلاط وعددها أربعة: الصفراء والسوداء والبلغم والدم، وإما أن يكون أقرب من الأخلاط مثل الأعضاء وعددها عند جماعة أربعة وعند البعض اثنان. ومعنى هذا الكلام

---

(١) تكتب اسطقسات، وهو علم العناصر الأربعة المكونة للأشياء. قا: دستور العلماء، مج ١، ص ٨٧.

الذي قلته هو ان تركيب الأعضاء من الأخلاط وتركيب الأخلاط من المزاج وتركيب المزاج من الاستقصات، وهي أبعد مادة.

وما هو من جنس الصورة على ثلاثة أقسام: القوى والأفعال والأرواح، والقوى على ثلاثة أقسام: نفسانية وحيوانية وطبيعية، أما النفسانية وهي الحواس الخمس: البصر والذوق والسمع والشم واللمس، وقوة الحركة وعدد أقسامها على حسب أقسام الأعضاء التي لها حركة، والقوة المدركة الباطنية وهذه ثلاثة أقسام: التخيل والفكر والذكر، والحيوانية على قسمين: الفاعلة والمنفعلة، والطبيعية على ثلاثة أقسام: المولدة والمربية والغاذية، والأفعال على عدد القوى النفسانية والحيوانية والطبيعية، لأن الروح خادم القوة، والقوة مبدأ الفعل، والفعل تأثيره القوة، فالأفعال قائمة على عدد القوى.

وتلك التي هي توابع للأشياء التي بها ثبات وقوام البدن مثل السمن التابع لبرودة المزاج، ومثل النحافة التابعة لحرارة المزاج، ومثل حمرة الوجنة التابعة للدم، ومثل الصفرة التابعة للصفراء، ومثل حركة النبض التابعة للقوة الفاعلة الحيوانية، ومثل الغضب التابع للقوة المنفعلة الحيوانية، ومثل الشجاعة التابعة لاعتدال القوة الحيوانية، ومثل العفة التابعة لاعتدال القوة الشهوانية ، ومثل الحكمة التابعة لاعتدال النفس الناطقة، ومثل جملة الأعراض والكيفيات التي تكون تابعة للمادة أو تابعة للصورة.

وتلك التي تحول البدن من حال إلى حال يقال لها الأسباب الضرورية، وهذه ستة أقسام: أولها الهواء وثانيها الطعام وثالثها الحركة والسكون، ورابعها النوم واليقظة، وخامسها انبساط الطبيعة وانقباضها وسادسها الأحداث النفسانية مثل الغم والغضب والخوف وما شاكلها ، ويقال لهذه ضرورية لأنه لا حيلة للإنسان في أية واحدة منها، ولكل واحدة منها تأثير في جسم الإنسان، فعندما تكون كل واحدة منها في حال الإعتدال يكون استعمال الناس لها أتم وأصوب وعلى وجه الاعتدال، وعندما يحدث تغير لبعض منها أو يكون استعمال الإنسان لبعضها على وجه الخطأ، يظهر المرض والعلة بموجب الإفراط الذي يكون قد حدث[٢].

(٢) الترجمة الحرفية: ذهب (المترجمان).

وذاك الخارج عن الطبيعة ثلاثة أقسام: سبب ومرض وعرض.

والسبب على ثلاثة أقسام: إما أن يكون سبب مرض الأعضاء الآلية المتشابهة أو يكون سبب المرض الحار، وهذا على خمسة أقسام، أو سبب المرض البارد وذلك على ثمانية أوجه، أو سبب المرض الرطب، أو سبب المرض الجاف وكل واحد من هذين على أربعة أقسام.

وسبب مرض الأعضاء الآلية، أو سبب المرض الذي يقع في الخلقة أو في المقدار أو في الوضع أو في العدد. وسبب أمراض الخلقة إما أن يكون سبب مرض الشكل أو سبب مرض التقعير والتجويف، وذلك على سبعة أقسام أو يكون سبب الخشونة وذلك على قسمين، أو يكون سبب الملاسة وهذا على قسمين. وسبب أمراض المقدار على ثلاثة أنواع، وسبب أمراض الوضع وسبب أمراض العدد كل واحد منها نوعان، وسبب تفرق الاتصال الذي يقال له المرض المشترك، يقع في الأعضاء المتشابهة وكذلك في الأعضاء الآلية، ومرض الأعضاء المتشابهة على ثمانية أقسام: أربعة مفردة، حار وبارد ورطب ويابس، وأربعة مركبة، حار رطب، وحار يابس، وبارد رطب، وبارد يابس.

وأمراض الأعضاء الآلية على أربعة أنواع: الأمراض التي تقع في الخلقة وفي المقدار وفي الوضع وفي العدد، وأمراض الخلقة أربعة أقسام: ذاك الذي يقع في الشكل وفي التقعير، وذاك الذي يقع على طريق الخشونة، وذاك الذي يكون على طريق الملاسة.

وأمراض المقدار على نوعين: ذاك الذي يقع من طريق الزيادة وذلك الذي من طريق النقصان. وأمراض الوضع أيضاً على نوعين: إما أن يزول العضو من مكانه أو يؤدي إلى الفساد بالاتصال بالأعضاء الأخرى.

وأمراض العدد على نوعين كذلك: إما أن تكون على طريق الزيادة أو على طريق النقصان، وتفرق الاتصال إما أن يقع في الأعضاء المتشابهة أو في الأعضاء الآلية أو في كليهما.

والعرض على ثلاثة أقسام: إما أعراض تتعلق بالأفعال أو بأحوال الجسم أو

تظهر في الإستفراغات، وما يتعلق بالأفعال على ثلاثة أقسام، وما يتعلق بالأحوال على أربعة أقسام، وما يتعلق بالاستفراغات على ثلاثة أقسام.

وينبغي أن تعرف بأن الطب على قسمين علم وعمل. أما القسم العلمي فهو هذا الذي شرحته لك، وأقول الآن من أين يجب عليك طلب كل علم مما ذكرت، لتعرف كلا منها بشرح واستقصاء، فإن تلك العلوم التي ذكرناها بالشرح والاستقصاء يذكر جالينوس(٣) أغلبها في الستة عشر والبعض خارج الستة عشر.

أما علم الاستقصات، فاطلب ذلك المقدار الذي ينفع الطبيب في كتاب الاستقصات من جملة الستة عشر، واطلب علم المزاج في كتاب المزاج من جملة الستة عشر، واطلب علم الأخلاط من المقالة الثانية من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر أيضاً، واطلب علم الأعضاء المتشابهة من التشريح الصغير من الستة عشر كذلك، واطلب علم الأعضاء الآلية من التشريح الكبير الذي هو خارج الستة عشر، واطلب علم قوى الطبيعة من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر، واطلب كذلك القوى الحيوانية من كتاب النبض من جملة الستة عشر أيضاً، واطلب القوى النفسانية من آراء أبقراط وأفلاطون، وهذا الكتاب تصنيف جالينوس خارج الستة عشر.

وإذا أردت أن تكون متبحراً وأن تتجاوز مرتبة الطلب، فاطلب علم الاستقصات وعلم المزاج من كتاب الكون والفساد ومن كتاب السماء والعالم، وعلم القوى والأفعال من كتاب النفس وكتاب الحس والمحسوس، وعلم الأعضاء من كتاب الحيوانات، واطلب أقسام الأمراض من المقالة الأولى من كتاب العلل

(٣) اشهر الأطباء القدمى، ولد في برغامون بآسيا الصغرى سنة ١٢٨ م وتوفي بروما حوالي ١٩٩ م. كان وعالماً وطبيباً ممارساً، وصيدلانياً، وعرف كفيلسوف أيضاً، نسب إليه مائة وعشرون كتاباً وقد هضم العرب مؤلفاته الطبية وقدروها كل التقدير وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من معارفهم الطبية، برع جالينوس بتشريح القلب والدماغ ومزج العلم بشيء من الخيال، ولم يتقيد بمذهب واحد في معالجاته الطبية، را: د.م. الاسلامية، مج ١٠، ص ٤٢٢.

(٤) هو ابقراط مقليدس بن ابقراط، أول حكيم يوناني وضع كتباً في الطب ودون علماً، انه المرجع الأصل في المعرفة. أشهر كتبه الطبيه: كتاب الفصول، وكتاب الجنين، وكتاب الغذاء، وكتاب أوجاع النساء وكتاب الأزمنة والأهوية. راجع، تاريخ اليعقوبي، مج ١، ص ٩٥.

والأمراض من جملة الستة عشر، وأسباب الأمراض من المقالة الثانية من هذا الكتاب الذي ذكرته، واطلب أقسام الأعراض من المقالة الثالثة من الكتاب أيضاً، واطلب أسباب الأمراض من المقالات الرابعة والخامسة والسادسة من هذا الكتاب الذي ذكرته كذلك.

وحيث أني ذكرت القسم العلمي فلا بد من أن أذكر شيئاً من القسم العملي ولو أن الكلام يطول، لأن العلم والعمل مثل الجسم والروح معاً، فلا يتم «وجود» الجسم بغير روح ولا الروح بغير جسم.

إذا أردت المعالجة فتدبر أغذية الشيوخ والأطفال، لأن علاج المرضى على نوعين، ويجب على المعالج ألا يبدأ بأية معالجة ما لم يعرف أولاً قوة المرض ونوع العلة وسببها، ومزاج المريض وسنه وصنعته وكلامه وطبعه، وطبع المكان وحال المزاج.

فصل

ينبغي أن يعرف الماء والمجس والجنس والعرض الظاهر والعلامات الحسنة والعلامات السيئة وأنواع الرسوب وعلامات الأمراض التي تقع في الباطن وعلامات البحران المضطربة، ويبين أجناس الحميات وعلى أي وجه يكون تدبير الأمراض الحادة، ويكون ماهراً في تركيب الأدوية بتدبير مذهب أصحاب القياس وقوانين المعالجة. وإذا شرحت هذه كلاً على حدة تطول القصة، ولكني أقول من أي كتاب ينبغي طلب علم كل واحد منها ليكون معلوماً لك فتطلبه في وقت الحاجة.

أما حفظ الصحة فاطلبه من تدبير الأصحاء من جملة الستة عشر، ومعالجة المرضى وقوانين العلاج من حيلة البرء من جملة الستة عشر، واطلب العلامات الحسنة والسيئة من تقدمة المعرفة ومن فصول ابقراط، وعلم النبض من علم النبض الكبير ومن النبض الصغير واطلب علم البول من المقالة الأولى من كتاب البحران من جملة الستة عشر، ومن كتاب البول لجالينوس خارج الستة عشر، وينبغي طلب علامات الأمراض التي في باطن الجسم من الأعضاء الآلية، وعلم البحران من

(٥) ليست في الأصل (المترجمان).

كتاب البحران من الستة عشر، وعلم الحميات من كتاب الحميات من الستة عشر أيضاً، وينبغي طلب تدبير الأمراض الحادة من كتاب ماء الشعير من جملة تصانيف ابقراط ومن كتب الأدوية التي يكون جالينوس قد صنفها.

ويجب على المعالج أن يقوم بتجارب كثيرة، ولا يعمل التجربة على أناس معروفين ومشهورين، ويجب أن يكون قد خدم في البيمارستانات(٦) ورأى مرضى كثيرين وعالج كثيراً حتى لا تشكل عليه العلل الغريبة، ولا تخفى عليه علل الأحشاء، ويرى برأي العين ما يكون قد قرأه في الكتاب، ولا يعجز في العلاج، ويجب أن يكون قد قرأ وصايا أبقراط حتى يستطيع أن يؤدي شرط الأمانة والصدق في معالجة المرضى، وأن يجعل جسمه وثيابه نظيفين دائماً وأن يكون مطيباً ومعطراً.

وعندما يذهب إلى المريض يكون ناضر الوجه ومبتهجاً وعذب الحديث ويبعث الأمل في المرضى لأن تقوية الطبيب للمريض تزيد قوة الحرارة الغريزية. وإن يكن مريض تظنه نائماً ويجيب عندما تناديه ولكنه لا يعرفك ويفتح عينيه وينام ثانياً فهذه علامة سيئة، وإذا رأيته مدهوشاً ويضرب بيديه ورجليه بكل مكان ويثير نفسه فتلك علامة سيئة، وإذا كان مدهوشاً أيضاً ويصيح من آن لآخر ويأخذ بيده وأصابعه ويضغطها فهي علامة سيئة أيضاً، وإذا كان بياض عين المريض أشد بياضاً من المعتاد والسواد أشد سواداً، ويدير اللسان حول الفم ويسحب النفس من صدره فهي علامة سيئة، وإذا كان مريضاً من الغيرة أو من الغم الشديد أو ضيق النفس يكون سيئاً، وإذا كان المريض يتقايأ باستمرار قيئاً ملوناً أحمر وأصفر وأسود وأبيض أو لا يتوقف القيء يكون مخوفاً أيضاً، وإذا كان بالمريض هزال وسعال، يأخذ بصاقه على خرقة ويجففها ثم يغسل الخرقة، فإذا بقي أثر فهو علامة سيئة أيضاً. ولا تداوِ كل هؤلاء الذين ذكرتهم قط، فالمعالجة لا تجدي ذلك المريض نفعاً ما دامت فيه هذه العلامات، فيا بني إذا عدت المريض ولم يكن شيء من هذه العلامات يجب أن تكون أكثر أملاً.

(٦) البيمارستان: المستشفى.

فصل

فعندئذٍ ضع يدك على مجس المريض فإذا نبض وجرى تحت الأصبع فاعلم أن الدم غالب وإذا نبض تحت الأصبع رقيقاً هيناً وأكثر بطئاً فالرطوبة غالبة، وإذا نبض تحت الأصبع بطيئاً وغليظاً وضعيفاً فالسوداء غالبة، فإذا كان مخالفاً، فاجعل حكمه على ذلك الجانب الذي ترى ميله إلى ناحيته أكثر فإذا تبينت حال المجلس فانظر إلى القارورة(٧).

فإذا رأيت الماء أبيض غير وضيء، يكون الرجل مريضاً من الغم، وإذا كان أبيض وضيئاً تكون العلة من الريح الخام والرطوبة غير الملائمة، وإذا كان صافياً كالماء يكون مريضاً من الكراهية، وإذا كان بلون الأترج وفيه ذرات، فالمرض من الإسهال.

إذا رأيت الماء مثل الزيت ويتراءى في قاع البول خط تكون العلة قريبة العهد، وإذا رأيته بلون الزعفران فاعلم أنه مصاب بحمى الصفراء وأن الدم مصاحب للصفراء أيضاً، وإذا كان على سطح الماء صفرة وأسفل الماء مسوداً تكون علته من البلغم الأخضر فلا تداوه، وكذلك إذا كان على سطح الماء سواد وإذا كان قاع البول يضرب إلى الصفرة أو يتحول سريعاً إلى الخضرة. وإذا كان المريض يهذي والماء أحمر ضارباً إلى السواد، يكون البلغم الأسود مخلوطاً بالدم وقد ذهب لهبه إلى الرأس، فاحترز منه أيضاً، وإذا كان أسود وقد استقر على سطحه شيء شبيه بالدم فودعه، وإذا كان أسود وبه شيء شبيه بالنخالة أو استقر فوقه ما يشبه الدم فلا تعد ذلك المريض، وإذا كان الماء أصفر ويبدو لامعاً كالشمس أو تكون هناك صفرة ضاربة إلى الحمرة فالعلة من الدم ويجب الفصد ليصح على الفور.

وإن يكن أصفر وفيه خطوط بيضاء يطول المرض أكثر، وإذا كان أخضر اللون فالعلة من الطحال، وإذا كان فيه خضرة وسواد فهي من الالتهاب، وإذا رأيته أبيض وفيه شيء مثل ديدان القبل والدبر فذلك ريح البواسير ولا يستطيع الجماع.

---

(٧) البول.

فإذا رأيت الماء والمجس فابحث عندئذ عن جنس العلة لأن أجناس العلل ليس نوعاً واحداً.

فصل

وإذا عرفت الجنس فلا تمعن في الدواء والضماد ما دام يكتفى بالغذاء، وما دام يكتفى بالسفوف والطلي فلا تمعن في الحب والمطبوخ، وإياك أن تجترىء على المداواة، فما دام الأمر يتم بالتسكين واللطف فلا تسرف في الاستفراغ، وإذا كان الأمر سيخرج عن الحد فاشتغل بالدواء المحض ولا تشتغل بالتسكين، ولا تتهم المريض أبداً، ولا تكتب تعهداً ولا تحكم على المريض النهم[٨] فإنه لا يقبل، ولكن أدفع مضرات تلك الأشياء التي يكون قد أكلها، وخير شيء للطبيب معرفة الدواء ومعرفة الداء. وقد تكلمت كثيراً في هذا الباب لأني أحب علم الطب إذ أنه علم معتبر، وتحدثت عنه كثيراً لأن كل من يحب شيئاً يكثر الحديث عنه، أما إذا لم يتفق لك هذا العلم، فعلم النجوم علم شريف، فاجتهد في تعلمه لأنه علم عظيم جداً، ولذلك السبب كان معجزة النبي المرسل، فهذا علم النبوة من غير شك، ولو أنه في هذا الوقت منسوخ بحكم شريعة محمد رسول الله ﷺ.

(٨) الترجمة الحرفية: عبد البطن.

في علم النجوم والهندسة

إذا كنت منجماً فاجتهد أن تبذل أكثر الجهد في العلم الرياضي، إذ أن علم أحكام النجوم علم وافر لا يمكن أداء حقه تماماً بغير خطأ، لأنه لا يوجد قط شخص مصيب بحيث لا يجوز عليه الخطأ، ولكن ثمرة النجوم على كل حال هي الأحكام[1]،

وإذا عملت تقويماً فالفائدة من التقويم هي الأحكام، فإذا لم يكن من الأحكام بد فاجتهد حتى تعرف أصولها جيداً، وتكون قادراً على التقويم، لأن أصل الحكم يصح عندما يكون تقويم النجوم صحيحاً ويصح الطالع، وانظر فلا تعتمد على الطالع التخميني إلا بالاستقصاء الشديد الذي تمهد له بالحساب والنيرنجات[2]، وإذا صح الحساب والنيرنجات يصح عندئذ الحكم الذي تبنيه عليها، ولا تأخذ بكل حكم تعمله مولوداً وضميراً ما لم تتعرف حالات الكواكب.

ولا تغفل عن الطالع ودرجة الطالع وصاحب الطالع والقمر وبروج القمر وصاحب برج القمر وكيفية مزاج الكواكب التي في كل برج وصاحب خانة الحاجة وتلك الكواكب التي يكون قد عاد منها القمر، وذلك الكوكب الذي سيتصل به القمر وذلك الكوكب الذي يكون مستولياً على درجة الطالع،وخانة ذلك الكوكب المستولي على درجة سير الكواكب ولا عن تلك الكواكب الثابتة التي تكون قد وصلت إلى سير البدو، ودرجة المنيرة والمسعودة، ودرجة المظلمة ودرجة الآثار،

(١) الأحكام هنا معناها تنبؤات المنجم.

(٢) في الأصل «نمو دارت» وهي الحيل التي يلجأ إليها المنجم في تحقيق الطالع (المترجمان).

ودرجة المحترقة التي في جرم الشمس من صاعدة وهابطة والأسهم الإثنا عشريات والدريجان[٣] وأرباب المثلثات والحد والشرف والهبوط وخانة الوبال والفرح والافه والأوج والحضيض.

ثم انظر في حالات القمر والكواكب، مثل الخير والشر والنظر والمقارنة والاتصال والانصراف، وبعيد الاتصال وخالي السير والوحشي، ودفع القوة والمكافآة والقبول والتشريق والتغريب الاجتماعي والاستقبالي ومعرفة الهيلاج[٤]؛ والسيد والعطاء ونقص وزيادة العمر وسوق التسييرات الخماسية، فإذا عرفت هذه كلها فتكلم عندئذ ليأتي حكمك صحيحاً، واعمل الحكم من تقويم معتمد بحيث يكون حل ذلك التقويم قد عمل من الزيج المعروف بالخطى، ونظر في أوساطه وشوهد جيداً مجموعة ومبسوطة وتؤمل في تعديلاته، واحترز مع كل هذا من السهو والغلط حتى لا يقع خطأ، فإذا كنت قد عملت هذا الاحتياط فينبغي أن تطمئن وتقول بأن كل ما تنبأت به سيكون كذلك، وإذا لم تعتمد على ذلك القول فلا يقع أي صواب، والمسألة التي تسأل عنها يمكن قول ضمير كل ما تقول بحيث يأتي صواباً في الأغلب.

أما حديث المواليد فهكذا سمعت من استأذى أن مولود المرء ليس في الحقيقة أن ينفصل الولد من الأم، لأن المولود الأصلي هو طالع الزرع وقت مسقط النطفة حيث يسقط ماء الرجل في رحم المرأة ويتقبله، فذاك الطالع منوط به أصل الخير والشر جميعاً، أما تلك الساعة التي ينفصل فيها عن الأم فذاك الطالع يقال له التحويل الأكبر، وتحويل العام الذي يقع يقال له التحويل الأوسط، ويقال لتحويل الشهور التحويل الأصغر، ويجري على الناس ما يكون في طالع مسقط النطفة ودليل هذا الكلام خبر الرسول ﷺ حيث قال[٥]: «السعيد من سعد في بطن أمه

---

(٣) قانون في علم الهيئة قسموا فيه الصور والأشكال الفلكية إلى ثلاث طبقات، وهذه الكلمة من اصطلاحات حكماء الهنود الذين قسموا كل برج إلى ثلاثة أقسام (المترجمان).

(٤) حساب للمنجمين يعرفون به أحوال المولود وعمره.

(٥) الحديث الموجود في الصحاح هو: «السعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه» وقد رواه مسلم عن ابن مسعود، وكذا العسكري في الأمثال، واخرجه البيهقي في المدخل، كما اخرجه=

والشقي من شقي في بطن أمه». وكلام النبي له نفس المعنى الذي قلته.

أما طالع الزرع فليس لك فيه كلام لأن ذلك لم ينسج على قامة من هو مثلك(٦)، وأما هذا الذي تذكره عن طالع التحويل الأكبر، فحافظ فيه على طريقة الأساتذة الماضين، واعمل في كل حكم تعمله كما قلت قبل هذا، فإذا سألوك مرة عن مسألة، فانظر أولاً في طالع الوقت ثم في القمر وبرج صاحبه وفي ذلك الكوكب الذي سيتصل به القمر وفي ذلك الكوكب الذي قد عاد منه القمر وفي ذلك الكوكب الذي تجده في الطالع أو في وتد، وإذ وجدت في الوتد أكثر من كوكب فانظر أيا منها المستولي ولأيها تكون الشهادة أكثر، فتحدث عن ذلك الكوكب لتكون مصيباً.

فصل

أما ما كان شرط الأحكام فهو هذا الذي ذكرته. والآن إذا كنت مهندساً ومساحاً فكن قديراً في الحساب، وإياك أن تكون ساعة غير مكرر للحساب، لأن علم الحساب علم وحشي، فإذا مسحت أرضاً فاعرف الزوايا أولاً ولا تستهن بالأشكال المختلفة الأضلاع ولا تقل إني أعمل هذا بالمساحة والباقي بالتخمين، لأن حساب المساحة يتفاوت كثيراً.

واجتهد حتى تعرف الزاويا جيداً فإن استاذي كان يقول لي دائماً: إياك وأن تغفل عن الزاويا في الحساب، فكثيراً ما تكون في ذوات الأضلاع زاوية قوسية على هذا المثال < أو على هذا كـ، وكثيراً ما تكون حادة شبيهة بالمنفرجة، وهناك يكون موضع لحدوث تفاوت كبير، وإذا كان ثمت شكل صعب فلا تعمل مساحته بالتخمين بل أعمله كله مثلثات أو مربعات، فإنه لا يوجد

= الطبري في الصغير بلفظ: «السعيد من سعد في بطن أمه» قارن: الجامع الصحيح، مج ٤، ج ٨، ص ٤٥. كشف الخفاء ومزيل الالباس، مج ١، ص ٥٤٨. المعجم المفهرس لالفاظ الحديث، مج ٣، ص ١٦٤. الجامع الصغير، مج ٢، ص ٦٨.

(٦) أي لان هذا فوق قدرك وليس لك أن تخوض فيه.

شكل قط لا يخرج على هذا النحو، وعندئذ أمسح كل واحد منها على حدة ليكون صحيحاً.

وإذا تكلمت في هـذا الباب على هـذا النحو لأمكن القـول كثيراً، ولكن الكتاب يتحول عن وضعه، ولم يكن بد عن هذا القدر من الكلام لأني كنت قد تكلمت عن النجوم فأردت أن أتكلم بضع كلمات عن هذا الباب أيضاً لتكون ذا حظ من كل علم.

في رسم الشعر

إذا كنت شاعراً فاجتهد أن يكون كلامك سهلاً ممتنعاً، وتحاش الكلام الغامض ولا تقل ما تعرَفه أنت ولا يعرفه سواك فيحتاج إلى الشرح، لأنهم يقرضون الشعر من أجل الناس لا من أجل أنفسهم، ولا تقنع بالوزن والقوافي الفارغة، ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب، لأن الشعر المجرد من الصناعة لا يكون جميلاً وينبغي أن يكون ذا صنعة وحركة، ويجب أن يكون في الشعر والإيقاع والصوت تطريب ليلذ للناس أو تكون في رسم الشعر صناعة مثل المجانس والمطابق والمتضاد والمتشاكل والمتشابه والمستعار والمكرر والمردف والمزدوج والموازن والمضمن والمضمر والمسلسل والمسجع والمستوى والمُوَشح والموصل والمقطع والمخلع[1] والمسمط[2]، والمستحيل ذي القافيتين والرجز والمتقارب والمقلوب.

أما إذا أردت أن يكون كلامك عالياً وخالداً فأكثر الكلام المستعار وقل الإستعارة على الممكنات واستعملها في المدح، وإذا نظمت الغزل والترانيم فأنظمها سهلة ولطيفة وفي القوافي المعروفة ولا تقل الكلمات العربية الباردة والغريبة وأنظم (في) الحالات الغرامية والكلام اللطيف واستخدم الأمثال الطريفة

---

(١) المخلع: هو نوع من الشعر على البحر البسيط قطع مستفعلن في عروضه وضروبه ونقل إلى مفعولن. القاموس المحيط، مج ٣، ص ١٩.

(٢) الشعر المسمط: هو نوع من الشعر يجمع أبياته قافية واحدة كقول امريء القيس:

ومُستلئم كشفت بالرمح ذيله ... أقمت بعضب ذي سفاسق ميلهُ

فجعتُ به في ملتقى الحي خيلهُ ... تركتُ عتاق الطير تحجلُ حولهُ

را: القاموس المحيط، مج ٢، ص ٣٨٠.

بحيث تلذ الخاص والعام، ولا تقل الشعر العروضي والثقيل، فإنما يدور حول العروض والأوزان ذو طبع سقيم وعاجز عن اللفظ الحسن والمعنى الظريف، أما إذا طلبوا فعندئذ قل فإنه جائز.

واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر، حتى إذا ما وقعت مناظرة بين الشعراء أو كاشفك[٣] شخص أو امتحنوك لا تعجز. وهذه هي البحور السبعة عشر التي تنشأ من دوائر العروض الفارسي، فاعرف أسماء هذه الدوائر وأسماء هذه البحور السبعة عشر مثل الهزج والرجز والرمل والهزج المكفوف والهزج الأخرب والرجز المطوي الرمل المخبون والمنسرح والخفيف والمضارع والمضارع الأخرب والمقتضب والسريع والمجتث والمتقارب والقريب الأخرب والطويل، والأوزان العربية مثل البسيط والمديد والكامل والوافر وما أشبه ذلك أعرفها جملة.

وما تقوله من الشعر في الزهد والمدح والغزل والهجاء والرثاء، أدِّ فيه حق الكلام تماماً ولا تقل الكلام الناقص أبداً، ولا تقل في النظم كل ما يقال في النثر، لأن النثر مثل الرعية والنظم مثل الملك، فما يليق بالملك لا يجوز للرعية.

وقل الغزل والترانيم بروية، وكن في المدح قوياً وجريئاً وعالي الهمة، وأعرف ما يليق بكل إنسان واجعل المدح الذي تقوله مناسباً للممدوح، ولا تقل لمن لم يشدد على وسطه مدية قط، إن سيفك يصرع الأسد، وإنك تقتلع بالرمح جبل بيستون[٤]، وتفلق الشعرة بالسهم، وذاك الذي لم يركب حماراً قط لا تشبه حصانه بدلدل[٥] والبراق[٦] والرخش[٧] وشبديز[٨] وأعرف ما ينبغي أن يقال لكل إنسان.

ويجب على الشاعر أن يكون عارفاً بطبع الممدوح ويعلم ما يروقه، لأنك ما

---

(٣) خاصمك.

(٤) هو جبل قرب كرمانشاه في إيران.

(٥) بغلة علي كرم الله وجهه.

(٦) بغلة النبي وفرسة جناح وحمارة يعفور.

(٧) حصان رستم البطل الإيراني (المترجمان).

(٨) حصان كسرى برويز. (المترجمان).

لم تقل ما يريد فإنه لا يعطيك ما يليق بك، ولا تكن حقير الهمة ولا تدع نفسك في القصيدة بالعبد والخادم إلا في المدح الذي يكون فيه الممدوح أهلاً لذلك، ولا تعتد الهجاء لأن الجرة لا تخرج دائماً من الماء سالمة(٩)، أما إذا كنت قادراً على الشعر في الزهد والتوحيد فلا تقصِّر، فإنه حسن في الدارين، ولا تتجاوز الحد في الكذب في الشعر ولو أن المبالغة في الشعر فن، ورثاء الأصدقاء والمحتشمين واجب أيضاً.

وإذا أردت أن تهجو فقل على عكس ما تمدح به شخصاً في المدح، لأن كل ما يكون ضد المدح هجاء وكذلك في الغزل والرثاء.

ولكن قل كل ما تقوله من جعبتك، ولا تحم حول أقوال الناس ليتفتح طبعك، ويتسع أمامك ميدان الشعر، ولا تبقى على تلك القاعدة التي تكون قد دخلت بها الشعر في البداية. أما إذا صرت قديراً في الشعر وتفتح طبعك وبرعت، فإن تسمع معنى غريباً في موضع وراقك وأردت أن تأخذه وتستعمله في موضع آخر فلا تكابر ولا تستعمل نفس اللفظ بعينه، فإذا كان ذلك المعنى في المدح فاستعمله في الهجاء، وإذا كان في الهجاء فاستعمله في المديح، وإذا سمعته في الغزل، فاستعمله في الرثاء، وإذا سمعته في الرثاء فاستعمله في الغزل، حتى لا يعرف أحد من أين هو، وإذا طلبت الممدوح وحمت حول السوق فلا تكن مدبر الوجه قذر الثياب، وكن دائماً ناضر الوجه وباسماً، واحفظ الحكايات ونوادر الكلام والمضحكات الكثيرة وقلها أمام الممدوح لأنه لا بد للشاعر من هذا.

---

(٩) المثل العربي: لا تسلم الجرة في كل مرة.

في الغناء

أي بني، إذا كنت مغنياً فكن حسن الطبع خفيف الروح، واجعل نفسك دائماً نظيف الثياب ومطيباً ومعطراً، وكن ذلق اللسان، وإذا دخلت في دار للغناء فلا تكن عابس الوجه منقبضاً، ولا تعزف كل الطرق الثقيلة، وكذلك لا تعزف كل الطرق الخفيفة، فليس شرطاً أن يكون الضرب من نوع واحد في كل وقت، لأن كل الناس ليسوا على نمط[1] واحد.

كما أن الخلق مختلف فالخلق مختلف كذلك، ولهذا السبب فقد وضع أساتذة الملاهي ترتيباً لهذه الصناعة، فقد أعدوا أولاً عزف اللحن الخسرواني لمجلس الملوك، ووضعوا من بعد ذلك الألحان بالوزن الثقيل، بحيث يمكن الإنشاد بها، وسموها طريقة، وتلك طريقة قريبة من طبع الشيوخ وأصحاب الجد، فهذه الطرائق الثقيلة قد أعدت من أجل هؤلاء القوم، لكنهم لما رأوا أن الخلق ليسوا كلهم شيوخاً وأهل جد، قالوا قد وضعنا طريقة من أجل الشيوخ ونضع كذلك طريقة من أجل الشبان، ثم بحثوا وطبقوا الأشعار التي كانت أخف في الوزن على الطرق الخفيفة، وسموها الخفيف ليضربوا من هذا الخفيف بعد كل طريقة ثقيلة، حتى يكون للشيوخ نصيب في نوبة الطرب وللشبان كذلك، ولئلا يحرم الصغار والنساء والرجال الألطف طبعاً صنفوا الترانيم من أجلهم ليستمع هؤلاء القوم أيضاً، لأنه لا يوجد قط وزن من الأوزان ألطف من وزن الترانيم.

فلا تضرب ولا تغن الكل من نوع واحد، وغن حسبما ذكرت ليحظى كل

(١) في الأصل طبع. (المترجمان).

شخص بسماعك، وانظر في المجلس الذي تجلس فيه، فإذا كان المستمع أحمر الوجه ودموياً فأكثر الضرب على الب(٢)، وإذا كان أصفر الوجه وصفراوياً فأكثر الضرب على الزير(٣)، وإذا كان أبيض البشرة وسميناً ومرطوباً فأكثر الضرب على البم، وإذا كان آدم الوجه ونحيفاً وسوداوياً فأكثر الضرب على المثلث(٤) لأن هذه الأوتار أعدت على طبائع الناس الأربع.

ولو أن هذا الذي ذكرته ليس من شروط الغناء، فإني أردت أن أطلعك على هذا المعنى ليكون معلوماً لك، واجتهد فضلاً عن ذلك أن تكون محاكياً، لتستريح على مقدار الحكاية والمطايبة والممازحة حتى يخف عناء غنائك، وإذا كنت مغنياً وتعرف قرض الشعر كذلك، فلا تكن مغرماً بشعرك، ولا تجعل كل الرواية منه، إذ كما يروقك شعرك قد لا يروق أولئك القوم، ولأن المغنين رواة الشعر لا رواة شعرهم.

ثم إذا كنت لاعب نرد ودعيت للغناء وكان هناك شخصان يلعبان النرد معاً فلا تبطل غناءك وتجلس لتعليم النرد أو تنشغل بالنرد والشطرنج، لأنك قد دعيت للغناء لا للمقامرة، وراع الذوق أيضاً في الغناء الذي تتعلمه ولا تغن ولا تتعلم الغزل واللحن غير الموزون، إذ ليس من المستحسن أن يكون نشيدك في واد ولحنك(٥) في واد آخر، وإذا كنت عاشقاً لشخص فلا تبث شجونك كل يوم، لأنه مهما يطب لك هذا فإنه لا يطيب للآخرين، واجعل أغانيك في شتى المعاني. وأكثر من حفظ الشعر والغزل في الفراق والوصال والتوبيخ والملامة والعتاب والرد والمنع والقبول والوفاء والجفاء والإحسان والعطاء وكل الوجدانيات الوقتية والفصلية، مثل الأغاني الربيعية والخريفية والشتوية والصيفية، ويجب أن تعرف ما

(٢) الوتر الغليظ من أوتار المزهر. القاموس المحيط، مج ٤، ص ٨٣.

(٣) هو الدنْ.

(٤) في الفارسية «سه تاره» والمثلث بكسر الميم وسكون التاء وفتح اللام، ما كان على ثلاث قوى من الأوتار، أو ثلاثة أركان. ثالث أوتار العود.

(٥) الترجمة الحرفية: مضرابك، والمضرب هو الآلة التي يضرب ويعزف بها على الأوتار. (المترجمان).

ينبغي أن يقال في كل وقت، فلا ينبغي أن تغني الخريفية في الربيع والربيعية في الخريف والشتوية في الصيف والصيفية في الشتاء، ويجب أن تعرف وقت كل أغنية.

وانظر في حال الحرفاء[٦] وان تكن استاذاً بلا نظير، فإذا كان القوم من الخواص والشيوخ العقلاء الذين يعرفون حرفة الغناء فغن كثيراً واعزف الألحان اللطيفة، ولكن أكثر من الغناء في الشيخوخة ومذمة الدنيا، وإذا كان القوم شباناً وصبياناً فأكثر من ضرب الطرائق الخفيفة وغن الأغاني التي تكون قد قيلت في وصف النساء أو في مدح النبيذ وشاربي النبيذ، وإذا رأيت القوم عسكريين وعيارين، فغن دوبيتات[٧] ما رواه النهر وفي الحرب وإراقة الدماء ومدح العيارية.

ولا تكن كئيباً، ولا تضرب كل الألحان الخسروانية، ولا تقل إن هذا هو شرط الطرب. فإضرب أولاً شيئاً في نغمة الراست ثم غن على الرسم[٨] بكل نغمة مثل نغمة العراق، ونغمة العشاق، ونغمة الزيرافكن، ونغمة البوسليك، ونغمة اصفهان، ونغمة النوا، ونغمة البسته، ونغمة الحسيني، ونغمة الباخرز، لتؤدي شرط الطرب، ثم تذهب عندئذ إلى مقام الترانة، حتى إذا ما وفيت شرط الطرب يكون الحرفاء قد ثملوا وراحوا، ولكن انظر أية طريقة يحبها كل شخص، وعندما يصل القدح إليه قل ما يريد، ليعطيك هو ما تريده أنت، لأن أكبر مزية للمغنى أن يساير طبع المستمع.

ولا تسبق إلى تعاطي الخمر وطلب السيكي الكبير في المجلس الذي تكون فيه، وقلل من شرب النبيذ إلى أن تحصل على المال، وإذا نلت مقصودك وحصلت على المال، فعندئذ اسلم نفسك للنبيذ، وفي الغناء، لا تعاند السكارى في الأغنية التي يطلبونها، وإن يكون محال فلا تفكر فيه ودعهم ليقولوا.

وإذا شربت النبيذ وسكر الناس، فلا تدخل في المناظرة والمحاكاة مع

---

(٦) حرفاء: مفردها حرِّيف. والحريف هو الذي يجيد صنعته وحرفته.

(٧) دوبيتات: جمع دوبيتي. وهي كلمة فارسية الأصل. عرفنا بها من قبل.

(٨) حسب التقليد المتبع.

أقرانك، لأن المال لا يحصل من المناظرة، وتكون قد أضجرت الناس فحسب، وراع أن لا تعربد مع مطرب آخر فيضيع أجر الغناء بسبب عربدتك وتعود إلى البيت مهشم الرأس والوجه وممزق الثياب ومحطم الآلات، إذا أن المغنين أجراء السكارى، وأنت تعلم أنهم لا يأجرون الأجير المعربد، وإذا مدحك شخص في المجلس فتواضع له وغن ما يريد ليثني عليك الآخرون، فالثناء يكون أولاً بغير مال في حالة الصحو، فإذا سكر يأتي المال بعد ذلك الثناء، وإذا أصر السكارى على طريقة أو أغنية كما هي عادتهم، فينبغي أن لا تمل حتى يحصل عندئذ غرضك من ذلك لأن أحسن فضيلة للمطربين هي الصبر الذي يبدونه مع السكارى، وإذا لم يصبروا يبقون محرومين دائماً، وقد قالوا كذلك، إن المطرب يجب أن يكون أصم وأعمى وأبكم، فلا يصغي إلى ما لا ينبغي أن يصغي إليه، ولا ينظر إلى ما لا ينبغي له النظر إليه، وحيثما يذهب لا يذكر شيئاً يكون قد رآه أو سمعه في المجلس في مكان آخر. فإن مطرباً كهذا يكون دائماً المضيف.

في خدمة الملوك

إذا اتفق أن تكون من جملة حاشية الملك وتتصل بخدمته فمهما مكنك الملك لديه فلا تغتر بقربه وتباعد، ولكن لا تهرب من الخدمة، إذ من قرب الملك ينشأ البعد، ومن خدمته يحصل القرب، وإذا آمنك يوماً من نفسه فكن غير آمن ذلك اليوم، لأن كل من يسمن على يد شخص يجب أن يتوقع منه الإسراع في ذبحه.

ومهما تكن عزيزاً فلا تغفل عن معرفة نفسك، ولا تقل أي كلام إلا على مراد الملك ولا تلج معه، فقد قيل في المثل: **إن كل من يلج مع الملك يموت قبل الأجل والضرب بالقبضة على المخراز حمق،** ولا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير، وإذا علمته السوء يسيء إليك.

حكاية

في أيام فضلون بن مملان(١) أبي الأسوار(٢) الذي كان ملك گنجه وأران(٣)، كان ديلمى محتشم مشيراً له، وكان كل شخص من محتشمي المملكة

(١) ورد في الترجمة ماماان، وفضلون بن مملان هو فضلون بن الفضل الشدادي الذي خرج على أبيه وتولى الحكم سنة ٤٦٦ هـ. وفي عهده ضُمت أران إلى ملك السلاجقة. را: معجم الإنساب والاسراة الحاكمة في التاريخ، ص ٢٨٢. را: الأصل الفارسي طبعة نفيسي، ص ١٤٤.

(٢) لم ترد في الأصل الفارسي. را: طبعة نفيسي، ص ١٤٤، كتاب فروشي حافظ، ص ١٦٨.

(٣) آرانّ اسم اعجمي لولاية واسعة تسمى گنجه، وآران قلعة مشهورة من نواحي قزوين، تقع بين اذربيجان وارمينية. را: معجم البلدان، مج ١، ص ١٣٦. را أيضاً: آثار البلاد واخبار العباد، ص ٤٩٣.

يرتكب جرماً يستوجب عليه القيد والحبس يأخذه فضلون ويزجه في السجن، وكان هذا الديلمي ـ المشير له ـ يقول للأمير: لا تؤذ الحر فإذا آذيته فأقتله، وكان قد هلك نفر من المحتشمين بمشورة الديلمي واتفق أن أذنب هذا الديلمي، فأمر الأمير بأن يؤخذ ويودع في السجن، فأرسل الديلمي شخصاً يقول: إني أدفع كذا وكذا من المال فلا تقتلني، فقال فضلون بن مملان إني تعلمت منك **لا تؤذ الحر وإذا آذيته فأضرب عنقه**، فأودي الديلمي بنفسه في سبيل تعليم السوء.

وإذا ذممت من أجل الخير فهو أحب عندي من أن تمدح من أجل الشر، وأعرف أن نهاية كل الأماني النقصان(٤) ولا تغتر بالجاه، وأطلب من عمل السلطان الحشمة لا النعمة، لأن النعمة تأتي جارية من وراء الحشمة، وعز خدمة السلطان من الغنى، ومهما تسمن في عمل الملك فأظهر نفسك نحيلاً لتكون آمناً، ألا ترى أن الخروف ما دام هزيلاً يأمن الذبح ولا يسعى أحد في ذبحه، فإذا سمن يطمع الكل في ذبحه؟.

ولا تبع سيدك من أجل الدرهم، لأن درهم عمل السلطان مثل الورد والسمن(٥) الذي يجعل نفسه في يوم واحد جميلاً وعطراً وعزيزاً ولكنه قصير العمر كالورد، وحيث أن منافع عمل السلطان مثل الورد لا يمكن إخفاؤه، وكل درهم يجمع في عمل السلطان أكثر تطايراً من غبار العالم، وحشمة خدمة الملوك خير رأس مال، والدرهم الذي يجمع منها هو الربح، فلا تدع رأس المال من يدك من أجل الربح، لأنه ما دام رأس المال باقياً يدوم أمل الربح، وإذا ذهب رأس المال من اليد لا يمكن الوصول إلى الربح، وكل من يجعل الدرهم أعز من نفسه يهوي من العز إلى الذلة، واعلم أن الرغبة في جمع المال هي هلاك العز وعزل الأعزاء، إلا أن تجمع بحد ومقدار وتعطي الخلق نصيباً لتنعقل ألسنتهم.

وإذا صرت عظيماً في خدمة السلطان وأحرزت مرتبة فلا تخن سيدك أبداً،

---

(٤) البيت العربي:

(لكل شيء إذا ما تم نقصان　　فلا يغر بطيب العيش إنسان)

(٥) زهر طيب الرائحة شبيه بالياسمين ويذهب البعض إلى أن السمن هو الياسمين (المترجمان).

فإنك إن تفعل يكن ذلك بقلم الشقاء[٦] لأنه عندما يرفع كبير صغيراً ويكافىء هو ذاك الولي النعمة بالخيانة يكون ذلك دليلاً على أن الله تعالى يريد أن يسترد منه هذه الرفعة، لأنه لو لم يصل سوء الحظ إلى ذلك الرجل لما جزى إحسان سيده بالإساءة.

حكاية

وكذلك عندما أرسل الأمير فضلون أبو السوار أبا البشير الحاجب إلى بردع[٧] للقيادة، قال أبو البشير لا أذهب ما لم يحل الشتاء لأن مناخ بردع سيء جداً خاصة في الصيف، وطال الكلام في هذا المعنى، فقال الأمير فضلون: لم يلزم أن تعتقد مثل هذا الأعتقاد؟ إنه لا يموت أحد قط بغير أجل، قال أبوالبشير: هو كما يقول مولاي، لا يموت شخص قط بغير أجل ولكن ما لم يكن قد حان أجل امرىء فإنه لا يذهب إلى بردع.

ثم لا تكن غافلاً عن عمل الصديق والعدو ليصل نفعك وضرك إلى الصديق والعدو، وتطيب العظمة بأن تكافىء الصديق والعدو بالإحسان والإساءة، ولا ينبغي للرجل الذي صار محتشماً أن يكون شجرة بغير ثمر، ويطلب الغنى من العظمة، والشخص الذي لا نفع منه ولا ضر مثل اليهودي الذي له مائة ألف دينار وليس له إعتبار، لأن نفعه وضره لا يصلان إلى الناس، فأعلم أن منافعك من نعمة قضاء الحاجات، ولا تمنع المعروف عن الناس، فإن حضرة النبي ﷺ قال[٨]: «خير

---

(٦) أي يكون قد كتب عليك الشقاء (المترجمان).

(٧) بردع أو برذعة تعريب «برده دار» ومعناها بالفارسية: موضع السبي، وبـرذعه بلد تقـع في أقصى أذربيجان، وحكايتها أن أحد ملوك الفرس سبى جماعة من وراء أرمينية وانزلهم فيها. وذكر ابن الفقيه أن برذعة في مدينة أرّان الـواقعة عند حدود اذربيجان، وقد أنشأها قباذ الملك. را: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١.

(٧) أي أن قضاء مصالح الناس على يديك من نعم الله عليك ونفع ذلك عائد إليك.

(٨) معناه صحيح ويشهد له ما رواه القضاعي عن جابر كما في الجامع الصغير بلفظ «خير الناس انفعهم للناس» كما يشهد له الحديث الصحيح «الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». قارن: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، مج ١، ص ٤٧٢، الجامع الصغير، مج ١، ص ٦٢٣.

الناس من ينفع الناس» ولا تطلب خدمة السيد الذي قد بلغت دولته الغاية، لأنها تكون موشكة على الهبوط، ولا تحم حول الدولة التي قد شاخت، لأنه مهما يطل عمر الشيخ فإن الناس يرونه أقرب إلى الموت من الشبان، وكذلك قلما يكون هنالك شيخ تفي له الأيام.

وإذا أردت أن تبقى في خدمة ملك، فكن كما قال العباس(٩) عم النبي ﷺ لابنه عبد الله(١٠): إعلم يا بني أن هذا الرجل - يعني أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه - قد استعملك لديه واعتمد عليك من بين الخلق، والآن إذا أردت أن لا يتغلب عليك الأعداء فارع خمس خصال لتكون آمناً: أولاً يجب أن لا يسمع منك الكذب قط، ثانياً لا تغتب أحداً عنده، ثالثاً لا تخنه أبداً، رابعاً لا تخالف أمره، خامساً لا تفش سره لأي إنسان، لأنه يمكن بهذه الأشياء الخمسة حصول المقصود من خدمة المخلوق. وكذلك لا تقصر في خدمة ولي نعمتك، وإذا وقع تقصير فلا تظهر نفسك له مقصراً، كيلا يعرف أنك فعلته قصداً، ويعد ذلك التقصير في الخدمة منك جهلاً لا قلة أدب وعصياناً، لأن الجهل لا يؤخذ ذنباً عليك، ويعدون قلة الأدب وعدم الطاعة ذنباً، وكن دائماً مشغولاً بالخدمة قبل أن يأمرك، وكل ما يريد عمله شخص آخر اجتهد أن تعمله أنت، وكن بحيث كلما يراك، يراك في خدمة من خدماته، وكن دائماً حاضراً في البلاط بحيث كلما طلب أحداً يجدك، لأن همة الملوك أن يكونوا دائماً في تجربة أتباعهم، فإذا طلبك مرة ومرتين وعشر مرات ووجدك كل مرة في خدمة، ورآك مقيماً في بلاطه يعتمد عليك في الأعمال العظيمة، كما يقول قمري الجرجاني(١١).

---

(٩) هو العباس بن عبد المطلب بن عبد مناف أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام وجد الخلفاء العباسيين، كان محسناً لقومه سديد الرأي واسع العقل، كارهاً للرق، ويذكر عن شدة هيبته ووقاره أنه إذا مرَّ بعمر بن الخطاب ترجل عمر بن الخطاب اجلالاً وقد مات في المدينة المنورة.
را: الزركلي، معجم الإعلام، مج ٣، ص ٢٦٢.

(١٠) عبد الله بن العباس ٣ ق.هـ - ٦٨ هـ (٦١٩ - ٦٨٧ م) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القريشي أبو العباس الصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة. را. الزركلي، مج ٤ ص ٩٥.

(١١) شاعر فارسي، وصاحب الملحمة المبدعة «ويس ورامين» التي ألفها نزولاً عند رغبة أبي الفتح=

شعر

كلامنا لديك مخاطرة، وبالمخاطرة يستخرج الجوهر من قاع البحر.

وما لم تتحمل عناء الضعة لا تصل إلى راحة الرفعة، ألا ترى أنه ما لم يتفتت ورق النيل لا يصير وسمة(١٢)، وأن الحق جل جلاله خلق الملك بحيث يكون كل خلق العالم محتاجين إلى خدمته وعبوديته؟ ولا تظهر نفسك لدى الملك حسوداً، لأنك إذا ذكرت بعد ذلك عنده كلاماً عن شخص محسود لا يسمعه ويعده من جملة الحسد وإن يكن حقاً، واخش دائماً غضب الملك، إذ لا يجوز الاستهانة أبداً بشيئين: أولهما غضب الملك، وثانيهما نصيحة الحكماء، لأن كل من يستهين بهذين الشيئين يصير ذليلاً.

هذه هي شروط خدمة الملك، فإذا كان الأمر بحيث تجاوزت هذه الدرجة وبلغت مقاماً أسمى ووصلت إلى منادمة الملك فينبغي أن يعلم لك شرط منادمة الملك، وسأذكر ذلك أيضاً.

= المظفر. ومن المرجح أن قمري الجرجاني الشاعر عاش منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.
را: د.م الإسلامية، مج ٦، ص ٣٣٤.

(١٢) خصاب.

في آداب المنادمة

إذا أسند إليك الملك المنادمة، فلا تقبل ما لم تكن عندك آلة منادمته، فإن كل من ينادم الملك ينبغي أن تكون فيه بضع خصال، بحيث إذا لم يكن لمجلس الملك منه زين فلا يكون على الأقل شين. فيجب أولاً أن يكون كل حواسه الخمس طوع أمره، ثم يجب أن يكون ذا منظر لا يكره الناس رؤيته حتى لا يمل مرآه ولي نعمته أيضاً، وكذلك يجب أن يعرف الكتابة بالعربية[1] والفارسية، فإذا ما وقعت للملك حاجة إلى قراءة وكتابة شيء في وقت بالخلوة ولا يكون الكاتب حاضراً ويأمرك الملك بقراءة أو كتابة كتاب لا تبقى عاجزاً، ثم ينبغي أن يعرف النديم رديء الشعر وجيده وإن لم يكن شاعراً، ولا يخفى عليه النظم وأن يحفظ الأشعار الفارسية والعربية حتى إذا ما وقعت للملك حاجة إلى بيت من وقت لآخر، لا يلزم طلب شاعر، فيقوله بنفسه أو يرويه عن شخص، كما يجب أن يعرف شيئاً من الطب والنجوم، حتى إذا ما جرى حديث عن هاتين الصناعتين أو وقعت حاجة في هذا الباب تقول ما تعرفه إلى أن يأتي الطبيب والمنجم لتكون قد أديت شرط المنادمة فيعتمد عليك الملك ويكون أكثر رغبة في خدمتك ومنادمتك له.

ويجب أن يكون للنديم باع في الملاهي، وأن يعرف عزف شيء حتى إذا ما صارت للملك خلوة لا يكون للمطرب فيها موضع، تطيِّب وقته بما تعرفه ليكون

(١) شاع استخدام اللغة العربية في أوساط الارستقراطيين والمثقفين في القرن الخامس الهجري، وعرفت بلغة الصالونات انذاك وكان الناس يباهون بمعرفتهم بالعربية مثل ما يباهي الناس في الوقت الحاضر بمعرفتهم باللغات الأوروبية.

مشفقاً عليك لهذا السبب، ويزيد العناية بك. ويجب أيضاً أن تكون محاكياً وتحفظ حكايات ومضحكات كثيرة ونوادر بديعة، لأن المنادمة بغير الحكايات والنوادر تكون ناقصة، ويجب كذلك أن يعرف لعب النرد والشطرنج من غير أن يكون مقامراً، فإنك لا تليق بالمنادمة عندما تكون مقامراً بطبعك. ويجب مع كل هذا الذي ذكرته أن تحفظ القرآن أيضاً وأن تعرف شيئاً من التفسير كذلك وشيئاً من أخبار الرسول ﷺ وأن تكون في الفقه وعلم الشريعة ملماً بطرف من كل باب حتى إذا ما جرى في مجلس الملك حديث في هذا المعنى عرفت الإجابة، فلا يتحتم الذهاب في طلب القاضي أو الفقيه، وينبغي كذلك أن تكون قد قرأت كثيراً سير الملوك لتحكي عند مولاك خصال الملوك الماضين فتؤثر في قلب الملك ويكون لعباد الحق تعالى في ذلك نفع وتفريح، ويجب أن يكون فيك جد وهزل كذلك، وينبغي أن تعرف في أي وقت يكون استعمالهما، فلا تقل الهزل في وقت الجد، ولا تقل الجد في وقت الهزل، لأن كل علم تعرفه ولا تعرف استعماله يكون العلم والجهل به سيان.

ويجب أن يكون فيك مع كل هذا الذي ذكرته فروسية ورجولة، لأن الملك لا يشتغل كل وقت باللهو والطرب، فإذا لزم إبداء الرجولة في وقت ما فابدها، ولتكن قادراً على أن تقاوم رجلاً أو رجلين، وإذا دبر شخص ـ والعياذ بالله ـ خيانة ضد الملك اثناء اللهو في الخلوة ووقعت حادثة من جملة الحوادث، تؤدي أنت ما يكون من شرط الرجولة، ليجد ولي النعمة الخلاص بسببك، فإذا قتلت تكون قد أديت حق نعمته وذهبت بسمعة طيبة، ويكون حق أبنائك قد وجب على ذلك الملك، وإذا نجوت تكون قد أحرزت بذلك السمعة الطيبة والعيش الحسن ما حييت، فإذا توافر فيك هذا الذي ذكرته تكون جديراً بمنادمة الملك.

وإذا كنت ترى أن الغرض من المنادمة هو أكل الطعام وتناول الشراب وقول الهزل فحسب، فتلك ليست منادمة بل لؤماً، فأشتغل بالمنادمة العامة حتى لا تصير تلك الخدمة وبالاً عليك، وكذلك لا تغفل عن مولاك ما بقيت، ولا تنظر في مجلس الملك إلى غلمانه، وإذا أعطاك الساقي القدح فلا تنظر إلى وجهه، وأطرق برأسك إذ تأخذ النبيذ وأشرب ورد القدح بحيث لا تنظر إليه حتى لا يرتاب الملك

فيـك، واحفظ نفسك حتى لا تقـع منك خيـانة كمـا وقع للقـاضي عبد الملك العبكري.

حكاية

سمعت أن الخليفة المأمون أسند للقاضي عبد الملك منادمته الخاصة، إذ كان عبد الملك مدمناً للنبيذ وعزل من القضاء لهذا السبب، وذات يوم قدَّم غلام النبيذ إلى هذا القاضي في مجلس الشراب فلما أخذه نظر إلى الغلام وأشار إليه بعينه، فنظر المأمون وأبصره، فعرف عبد الملك أن المأمون رأى تلك الإشارة، فأبقي عينه نصف مفتوحة كذلك، فسأله المأمون بعد ساعـة عمداً قـائلاً: أيهـا القـاضي ماذا حـدث لعينك؟ فقـال عبد الملك: لا أدري، أغمضت في هـذه الساعة، فلم يفتح ما عاش بعد ذلك عينه تماماً أبداً في السفر والحضر وفي الخلا والملا حتى زال ذلك الغبار من قلب المأمون. فينبغي أن يكون لمن ينادم الملك مثل هذه الكفاية.

في الكتابة والإنشاء

إذا كنت كاتباً فينبغي أن تكون قوي البيان[1] وذا خط حسن وأن لا تعتاد التجاوز في العبارة وأن تتعود كثرة الكتابة لتصير ماهراً.

حكاية

سمعت أن الصاحب إسماعيل بن عباد كان يوم السبت بالديوان يكتب شيئاً، فالتفت إلى الكتاب وقال: إني كل يوم سبت أرى في كتابتي نقصاناً لأني لم أكن يوم الجمعة قد أتيت إلى الديوان، ولم أكتب شيئاً.

فأشتغل دائماً بالكتابة بخط واضح مبين مستقيم وعبارة منسجمة محكمة، وينبغي كتابة الرسالة بحيث تستخدم الأغراض والمعاني الكثيرة في عبارة موجزة قصيرة كما قيل:

الكتاب المليء بالمعاني في حديث مختصر   نكتة قد خرجت من فم الدهر

وزين كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية. وإذا كان كتاباً فارسياً فلا تكتبه بالفارسية المطلقة لأنها غير مستحسنة وخاصة الفارسية الدرية إذ أنها غير معروفة، فينبغي أن لا يكتب ذلك بأي حال والأولى أن لا يقال، وتكلفات الكتاب العربي معروف كيف يجب أن تكون، والسجع في الرسالة العربية براعة وحسن جداً ويستملح، ولكنه يقبح في الرسائل الفارسية، فإذا لم تقله أفضل، ولكن قل كل كلام تتحدث به عالياً ومستعاراً وعذباً ومختصراً،

(١) الترجمة الحرفية: قادراً على الكلام (المترجمان).

وينبغي أن يكون الكاتب دراكاً وأن يعرف أسرار الكتابة ويفهم العبارات المرموزة.

حكاية

هكذا سمعت أن جدك السلطان محموداً رحمه الله كتب كتاباً إلى خليفة بغداد القادر بالله وقال: يجب أن تمنحني ما وراء النهر[٢] وتعطيني منشوراً بذلك لأعرض المنشور على الولاية، فإما أن آخذ الولاية بالسيف وإما أن تطيعني الرعية بأمرك ومنشورك، فقال الخليفة: ليس في كل ولايات الإسلام أحد أطوع منهم، معاذ الله أن أعمل هذا العمل، وإذا قصدتهم بغير أمري أثير العالم عليك، فغضب السلطان محمود من هذا الكلام وقال للرسول: قل للخليفة ماذا تقول؟ هل أنا أقل من أبي مسلم؟ لقد وقع لي هذا الأمر معك، هأنذا قادم بألف فيل لأخرب دار الخلافة بأقدام الفيلة وآتي بترابها على ظهور الفيلة إلى غزنة، وهدد تهديداً عظيماً.

فذهب الرسول وعاد بعد ذلك بمدة، فجلس السلطان محمود واصطف الحجاب وغلمان السراي وأقيمت الفيلة على باب القصر وعُبيء الجند، وأذن للرسول فدخل ووضع أمام السلطان محمود كتاباً يقرب من ربطة من الورق المنصوري بقطع متصل وملفوف ومختوم وقال: إن أمير المؤمنين يقول: قرأنا كتابك وسمعنا تهديدك وهذا هو جواب كتابك وتهديدك مكتوب كله في هذا الكتاب.

فمد الخواجه[١] أبو النصر مشكان ـ الذي كان عميد ديوان الرسائل ـ يده ورفع الكتاب وفضه ليقرأه، وكان هذا مكتوباً في أول الكتاب: **بسم الله الرحمن الرحيم**، ثم وضع سطر هكذا (**الم**) وآخر الكتاب **الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين**. ولم يكن مكتوباً شيء آخر.

فوقع السلطان محمود مع كل الكتاب في حيرة قائلين: ما هذا الكلام

(١) ما وراء نهر جيحون، وهي منطقة خصبة وعامرة ومعتدلة المناخ وهي تضم بلاد بخارى وسمرقند وجند. را: اثار البلاد واخبار العباد، ص ٥٥٧

(٢) تنطق بالفارسية خاجة.

المرموز؟ وقرأوا كل آية في القرآن كانت (الم) وفسروها فلم تكن قط جواب محمود، وآخر الأمر، كان الخواجة أبو بكر القهستاني[٣] شاباً، ولم يكن له بعد درجة الجلوس، وكان واقفاً بين الندماء الذين كانوا وقوفاً فقال: يا مولاي إن الخليفة لم يكتب ألف ولام وميم بل إن السلطان كان قد هدده بالفيلة وقال إني آتي بدار الخلافة على ظهور الفيلة إلى غزنة، وقد كتب جواب السلطان ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾[٤] يرد جواب فيلة السلطان.

سمعت أن السلطان محموداً غشي عليه ولم يفق إلى مدة طويلة، وبكي كثيراً وناح حسبما تقتضي ديانة ذلك الملك، وطلب من الخليفة المعذرة. وتلك قصة طويلة، وأمر لأبي بكر القهستاني بخلعة ثمينة وأجاز له أن يجلس بين الندماء، ونال بهذه الكلمة الواحدة درجة عظيمة.

حكاية

وكذلك سمعت أيضاً أنه في أيام السامانيين[٥]، كان الأمير أبو علي سيمجور[٦] الذي كان بنيسابور[٧] يقول: إني مطيع لقائد وأمير خراسان، ولكن

---

(٣) هو علي بن الحسن القهستاني، عرف بعلمه وفضله واشتهر بالأدب وكان يميل إلى علوم الأوائل ويحب الفلسفة واللهو والمزاح. را: معجم الأدباء، مج ١٣ ـ ١٤، ج ١٣، ص ٢١ ـ ٢٤.

(٤) القرآن الكريم، سورة (الفيل) آية ١.

(٥) اسرة فارسية عريقة حكمت بلاد ما رواء النهر وبلاد طبرستان والري وقزوين، تألق نجم هذه العائلة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مؤسس هذه الدولة سامان خداه ـ أي سيد قرية سامان في منطقة بلخ ـ وهو فارسي اعتنق الإسلام أيام هشام بن عبد الملك، وقد عين الخليفة المأمون أولاد سامان الأربعة حكاماً على سمرقند وفرغانه والشاش وهراة عام ٨١٩ م. راجع: إيران والعراق في العصر السلجوقي، عبد المنعم محمد حسنين، ص ٧ ـ ٨. را أيضاً: القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ص ٢٦٨.

(٦) هو إبراهيم سيمجور، عينه الأمير نوح بن منصور الساماني على نيسابور سنة ٣٣٣ هـ واستمر حكمه حتى سنة ٣٧٢ هـ فخلفه ابنه أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور. را: ابن الأثير، مج ٦، ص ٣١٢، معجم الأنساب، ص ٣١٠.

(٧) نيسابور: سميت بهذا الاسم لأن سابور مرَّ بها، وتسمى أيضاً ايرانشهر وتقع هذه المنطقة ما بين جيحون والقادسية، فتحها المسلمون أيام عثمان بن عفان وقيل أنها فتحت أيام عمر. خرج من نيسابور أئمة العلم كأبي علي الحسين بن داود بن يزيد النيسابوري الصائغ. ويذكر القزويني عن

لم يكن يذهب إلى البلاط، وكان ذلك آخر عهد السامانيين ودولتهم، ولم يكونوا من القوة بحيث يأخذون أبا علي بالعنف، فكانوا يرضون منه مضطرين بالخطبة والسكة والهدية، وكان عبد الجبار الخوجاني - الذي كان خطيب خوجان -[8] يعرف القصة جيداً وأديباً وكاتباً نشطاً وبارعاً وكامل الرأي وكفئاً لكل عمل، فأحضره الأمير أبو علي من خوجان، وأسند إليه الكتابة في حضرته وأمر له بكامل التمكين ولم يكن يعمل أي عمل بغير مشورته[9] لأنه كان رجلاً ذا كفاية، وكان أحمد بن رافع اليعقوبي كاتب حضرة أمير خراسان، وكان رجلاً فاضلاً جداً ومحتشماً وكانت أعمال ما وراء النهر تحت تصرفه[10]، وكان لأحمد بن رافع صداقة مع عبد الجبار - بغير سابق ممالحة[11] وملاقاة بينهما - ولكنهما بمناسبة الفضل، كانا يتصادقان مع أحدهما الآخر بالمكاتبة. وذات يوم قال أمير خراسان للأمراء: لو لم يكن عبد الجابر الخوجاني كاتباً لأبي علي سيمجور لكان من الممكن إخضاع أبي علي، فإن كل فتنة أبي علي هذه من كفاية وتدبير عبد الجبار، فيجب كتابة كتاب لأبي علي والقول له: إذا كنت مطيعاً لنا، وعبداً لنا، فينبغي عندما يصلك هذا الكتاب أن تفصل رأس عبد الجبار عن جسده في الحال وتضعها في المخلاة وترسلها بيد هذا القاصد إلى الدرگاه[12] حتى نعلم أنك في طاعتنا، ومعلوم لنا أن كل ما تفعله إنما تعمله بمشورته، وإلا فإني أنا أمير خراسان أسير إليك بنفسي فأستعد للحرب! فلما دبروا هذا التدبير قالوا ينبغي أن لا يكون هذا الكتاب بخط أحمد بن رافع بأي حال، لأن أحمد بن رافع صديق عبد الجبار فلا بد وأن يرسل شخصاً ويطلعه على هذي الحال ويفر عبد الجبار، فدعا أمير

نيسابور أنها مدينة جامعة لأنواع المسرات، وأنها كانت مجمع العلماء ومعدن الفضلاء. را: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٧٣. وأيضاً: معجم البلدان، مج ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٣.

(٨) خوجان: ناحية من نواحي نيسابور، ينتسب إليها جماعة وافرة من العلماء. را: معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٩٩.

(٩) الترجمة الحرفية: ولم يكن في أي شغل بغير مشورته.

(١٠) الترجمة الحرفية: تحت قلمه (المترجمان).

(١١) أكل عيش وملح كما نقول.

(١٢) البلاط أو قصر الأمير، وهذا الحرف «گـ» ينطق كالجيم المصرية أو حرف «g» (المترجمان).

خراسان أحمد بن رافع وأمره بأن يكتب كتاباً لأبي علي في هذا الباب وقال: إذا كتبت الكتاب فإني لا أريد أن تخرج من هذه السراي ثلاثة أيام بلياليها ولا يراك في هذه الأيام الثلاثة أي واحد من خاصتك أو من أتباعي، لأن عبد الجبار صديقك، فإذا لم يقبض عليه أعرف أنك قد أخبرته وأرشدته.

ولم يستطع أحمد بن رافع أن يقول شيئاً، فكان يبكي ويقول لنفسه، يا ليتني لم أكن كاتباً أبداً حتى لم يكن صديق بكل هذا العلم والفضل يقتل بخطي، ولا أعرف أي تدبير لهذا الأمر، وأخيراً تذكر هذه الآية: ﴿أن يقتلوا أويصلبوا﴾(١٣) فقال لنفسه: ولو أنه لا يعرف هذا الرمز ولا يقف على سر هذا المرموز فإني أؤدي ما يكون من شرط الصداقة. فلما كتب الكتاب عنونه وكتب على حافة الكتاب «ألفاً» بقلم رفيع وعلى الجانب الآخر«نوناً» يعني «أن يقتلوا»، وعرض الكتاب على أمير خراسان ولم يلتفت أحد إلى العنوان، فلما قرأوا الكتاب ختموه وأعطوه للجمازي(١٤) الخاص ولم يطلعوا الجمازي على هذي الحال، وقالوا له أذهب وسلم هذا الكتاب للأمير أبي علي سيمجور وخذ ما يعطيه لك وأت به، واعتقلوا أحمد بن رافع ثلاثة أيام بلياليها فذهب إلى بيته بعد ثلاثة أيام بقلب دام.

ووصل الجمازي إلى نيسابور وذهب إلى الأمير أبي علي وسلمه الكتاب، فرفع أبو علي الكتاب وقبله حسب الرسم وسأل عن حال سلامة أمير خراسان، وكان عبد الجبار الخطيب جالساً فسلمه الكتاب وقال: فض الخاتم وأعرض الأمر، فأخذ عبد الجبار الكتاب ونظر إلى العنوان، وقبل أن يفض الختم رأى الفاً مكتوبة على حافة وعلى الحافة الأخرى نونا، فتذكر في الحال هذه الآية ﴿أن يقتلوا﴾(١٥) فعرف أن الكتاب في باب قتله. فوضع الكتاب من يده كما هو بالختم ووضع يده على أنفه يعني: حدث لي رعاف، وقال أذهب وأغسله وأعود، وهكذا ذهب من عند أبي علي ويده موضوعة على أنفه وخرج من الباب وتوارى بمكان، وانتظروه زماناً، فقال أبو علي: ادعوا الخواجة(١٦) فطلبوه في كل

(١٣) القرآن الكريم، سورة (المائدة)، آية ٣٣.

(١٤) راكب الجماز، والجماز هو الوثاب السريع العدو كالحمار أو البعير أو الفرس وسمي فرس عبد الله بن حنتم بالجمَّاز. القاموس المحيط، ٢٤٠، ص ١٧٦.

(١٥) «أن يقتلوا أو يصلبوا» القرآن، سورة المائدة، آية ٣٣.

(١٦) هذه الكلمة تعني السيد وتستخدم أيضاً بمعنى الوزير أو القاضي.

مكان ولم يجدوه، فقالوا إنه لم يركب جواداً وذهب ماشياً ولم يذهب إلى البيت ولا يعرف أحد أين هو، فقال أبو علي ادعوا كاتباً غيره، فجاء وقرأ الكتاب أمام الجمازي، فلما علم الحال تعجب الخلق جميعاً قائلين: من أخبره بما كتب في هذا الكتاب؟ فأظهر الأمير أبو علي بعض الضجر في حضور الجمازي ولو أنه كان مسروراً بذلك، ونادوا في المدينة، وأرسل عبد الجبار شخصاً في الخفاء قائلاً إني قد تواريت في المكان الفلاني، فسر أبو علي بذلك وشكر الحق تعالى وأمره قائلاً ابق بنفس المكان الذي أنت فيه، فلما انقضت بضعة أيام أعطى المجمز خلعة حسنة وكتب جواب الرسالة قائلاً: كان الحال على هذا المنوال واقسم الأيمان قائلاً إني لم يكن لي خبر بهذا والجمازي شاهد على هذه الحال، فلما وصل الجمازي وعلم الأمر حار أمير خراسان في ذلك وأرسل بخطه وختمه قائلاً: إني عفوت عنه بشرط أن يقول بماذا عرف ما كان مكتوباً في ذلك الكتاب، فقال أحمد بن رافع: أعطني الأمان على حياتي حتى أقول، فقال أعطيتك فقل! فحدثه أحمد بن رافع عن ذلك الرمز، فعفى أمير خراسان عن عبد الجبار وطلب استرداد كتابه ليرى ذلك الرمز، فردوا الكتاب فكان كما قال أحمد بن رافع فعجز كل الخلق عن إدراك ذلك.

ومن شرائط الكتابة أيضاً أن تكون ملازماً الحضرة على الدوام، وكن سباقاً إلى العمل وذكياً ومثقفاً وذكوراً للأعمال ومدققاً في كل الأمور، واحتفظ بتذكرة بما تؤمر به، وكن واقفاً على حال كل أهل الديوان واطلع على معاملات كل العمال وتجسس وتعرف بجميع أنواع الأعمال، فإذا لم تنفعك في الحال فقد تنفع في وقت ما، ولا تفش هذا السر لأحد إلا وقت الضرورة. ولا تفحص في الظاهر شغل الوزير ولكن اطلع على كل الأمور في الخفاء، وكن قديراً في الحساب ولا تفرغ ساعة واحدة من التصرف والتدبير وكتابة كتب المعاملات، لأن هذه كلها فضائل في الكتاب، وخير فضيلة للكتّاب حفظ اللسان وعدم إفشاء سر ولي النعمة وإحاطة مولاهم بكل الأشغال وعدم الفضول.

أما إذا كنت قديراً في الخط وتقلد(١٧) كل خط تراه، فهذا فن حسن جداً ولكن لا توقف عليه أي إنسان، حتى لا تصير معروفاً بالتزوير فتزول عنك النعمة، وإذا ارتكب شخص آخر تزويراً ولم يعرفوا من عمله يلصقونه بك، ولا تزوِّر من أجل أمر حقير،

---

(١٧) الترجمة الحرفية ـ تكتب (المترجمان).

لكي يفيدك يوماً ما ويكون النفع عظيماً وإذا فعلت لا يرتاب فيك أحد، فقد أهلكوا كثيراً من الكتاب الأفاضل والمحتشمين والوزراء العلماء بسبب الخط المزور.

(حكاية)

كان الربيع بن المطهر القصري كاتباً فاضلاً ومحتشماً وكان يزور في ديوان الصاحب، فبلغ هذا الخبر سمع الصاحب، وحار الصاحب، ولم يكن يستطيع إهلاك هذا الرجل لفضله كما لا يستطيع إطلاعه على هذا الكلام، فكان يفكر ماذا يفعل معه، فاتفق أن عرضت للصاحب عارضة وكان الناس يذهبون لعيادته، فدخل الربيع إبن المطهر ليعوده وجلس عنده وسأل الصاحب حسب الرسم قائلاً: ما ألم بك وأي دواء[١٨] تشرب؟ فقال الدواء[١٩] الفلاني، فقال: أي طعام تأكل؟ قال ما تفعله أنت يعني «مزور»[٢٠]، فعرف الكاتب أن الصاحب قد علم بذلك، فقال يا مولاي! بحياتك ورأسك لا أفعل بعد ذلك، فقال الصاحب: إذا تبت فإني لا أعاقبك على ما فعلت وعفوت عنك.

فاعلم أن التزوير أمر خطير فاجتنبه، ولا أستطيع أن أؤدي ما على من حق الكلام في كل حرفة وكل عمل تماماً، لأن الكلام يطول وأتخلف عن المقصود، ولا أستطيع أن أتركه كذلك من غير أن يقال، فعليه أقول بضع كلمات تفيدك من كل باب ليصير معلوماً لك، فقد ذكرت لك طرفاً من كل نوع، فإذا أصغيت بسمع القلب حصل لك من هذا فوائد واستنتاجات[٢١] إذ يمكن إضاءة مصابيح كثيرة من مصباح واحد، فإذا من الله تعالى عليك ووصلت من درجة الكتابة إلى درجة الوزارة فينبغي أن تعرف شروط الوزارة أيضاً.

(١٨ - ١٩) في الأصل شراب وشربت ووضع في مقابلهما كلمة دواء لمناسبة المرض (المترجمان).

(٢٠) اسم حساء وفي ذلك تورية.

(٢١) في الأصل: استخراجات (المترجمان).

في شرائط الوزارة

أي بني، إذا اتفق لك أن تكون وزيراً كن محاسباً وأعرف المعاملة جيداً واستشعر الصدق مع مولاك، وانصف ولي نعمتك، ولا تطلب الكل لنفسك، فإنك لا تعطي الكل، وإذا أعطوك في الحال فإنهم يطلبونه من بعد ذلك، وإذا تركوه أولاً فإنهم لا يتركونه آخراً، فاحفظ مال الملك، وإذا أكلت منه فكله بأصبعين حتى لا يتوقف في حلقك[1]، ولكن لا تغل يد العمال مرة واحدة، لأنك إذا ضننت بالدسم على النار يبقى الكباب نيئاً، وما لم تدع دانقاً للآخرين لا تستطيع أكل درهم، وإذا أكلت لا يسكت المحرومون ولا يدعونه يبقى خافياً، وكما تكون منصفاً مع ولي نعمتك كن منصفاً مع الجند والرعية أيضاً، ولا تعمل التوفيرات الحقيرة، فإن استخراج اللحم من تحت الأسنان بالخلال وأكله لا يشبع، وتكون بذلك القدر الضئيل من التوفير قد جعلت العسكر أعداء وصيرت الرعية عدواً لمولاك، وإذا أردت الكفاية فجدَّ في العمارة والزراعة وحصِّل منها، وعمر خرائب المملكة، ليكون التوفير عشرة أمثال ولا تكون قد أعجزت خلق الله.

(حكاية)

هكذا سمعت[2] أن ملكاً من ملوك فارس غضب على وزيره وعزله وقال له: اختر مكاناً آخر لأهبه لك لتذهب هنالك بنعمتك وحشمتك ويكن هناك مقامك فقال

(١) أي التزم القناعة حتى لا تغص (المترجمان).

(٢) ورد في كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص ١٨٥ حكاية بهذا المعنى تحكي قصة أنوشروان العادل الذي أنفذ إلى أنحاء مملكته الرسل للبحث عن أمكنة خربة فلم يجدوا.

الوزير: لا أريد نعمة ووهبت كل ما أملك للملك، ولا أطلب أن يهب لي أي مكان عامر قط، فإذا ترفق بي فليهب لي من ملكه قرية خربة بحق الملك لألبس مرقعاً وأعمر ذلك المكان وأقيم فيه، فأمر الملك قائلاً: أعطوه قرى خربة بقدر ما يريد، فطافوا في كل مملكة الملك فلم يجدوا شبر أرض خراباً ليعطوه له، فأخبروا الملك، فقال الوزير: أيها الملك! إني كنت أعرف أنه لا يوجد بعملي خراب قط في جميع الولايات والأماكن التي في تصرفك، والآن وقد أخذت الولاية مني فاعطها لمن إذا استرجعتها منه يردها كما سلمتها، فلما علم هذا الحال اعتذر الملك لذلك الوزير المعزول وخلع عليه وقلده الوزارة مرة ثانية.

والمقصود هو أن تكون في الوزارة معماراً وعادلاً لتكون كلمتك دائماً نافذة، وتكون حياتك آمنة، وإذا شغب عليك الجند فلا مناص للملك من وجوب كف يدك حتى لا يكفوا يد مولاك، ولا تكون قد جرت ذلك الجور على الجند، بل تكون قد جرت على نفسك وعلى مولاك كذلك، ويصير ذلك التوفير تقصيراً في عملك، فرغِّب الملك في الإحسان إلى الجند والرعية فإن ثبات الملك بالجند وعمار القرية بالدهقان[3] فاجتهد دائماً في العمارة، ودبر الملك، واعلم حقاً أنه يمكن تدبير الملك بالجند، ويمكن امتلاك الجند بالمال، ويحصل على المال بالعمارة، وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف.

فكن منصفاً وعادلاً، واخش الملك مهما تكن صائناً وأميناً، فإنه لا يجب على شخص الخوف من الملك كما يجب على الوزير، وإذا كان الملك صغيراً فلا تعده صغيراً لأن مثل أبناء الملوك كمثل صغار البط، فإنه لا يلزم تعليم صغار البط السباحة، فلا يمضي زمن طويل حتى يعرف محاسنك ومساوئك، وإذا كان الملك بالغاً ورشيداً لا يخرج عن اثنتين: إما أن يكون عاقلا أو جاهلاً، فإن يكن عاقلاً لا يرضى بخيانتك فيكف يدك عن العمل على الوجه الأحسن، وإذا كان ـ نعوذ بالله ـ

(٣) تعريب دهقان جمعها دهاقين، والدهقان هو الرجل القوي القادر على التصرف من غير قيود، والتاجر، وزعيم فلاحي العجم ورئيس الإقليم. المعجم المحيط، مج ٤، ص ٢٢٦.

غير عاقل وجاهلاً يعزلك على أسوأ وجه، وربما تنجو بحياتك من العاقل ولا خلاص من الجـاهل بأي وجه.

ثم إنـه لا تفارق الملك حيثما يـذهب ولا تـدعـه وحيـداً حتى لا يجـد أعداؤك في غيابك فرصة للوشاية بك عنده، ويحولوه عن حاله(٤) ولا تغفل عن حال الملك بأي حال، فاعمل بحيث يكون مقربوه جـواسيسك ليـطلعوك على كـل نفس يتنفسه وتكون مدبراً لكل كلمة قولاً وتعمل لكل سم تريـاقاً، وكن أيضـاً على الدوام متنبهاً لملوك الأطراف والنواحي، ويلزم كذلك أن لا يشرب أي صديق أو عدو لمليكك شربة ماء من غيـر أن يطلعـك عليها عيـونك وتكـون عارفـاً بحال مملكتـه كمملكة مولاك.

(حكاية)

سمعت أن وزير فخر الـدولة الشهيـر الصاحب إسمـاعيل بن عبـاد لم يحضر يومين إلى الديوان ولم يأذن لأحـد، فأطلع المنهى فخـر الدولـة على تلك الحال، فأرسل فخر الدولة شخصاً إلى الصاحب وقال: سمعت بخبر تكدرك فانشغل قلبي، ولا أعرف سبب ذلك، فـإذا كان في المملكـة سبب لإنشغال القلب فـاطلعني عليه لأتولى أنا أيضاً مصلحة ذلك الأمر، وإذا كان مني تقصير في حقك فاذكره لأعتذر، فقال الصاحب: معاذ الله أن يكون لعبدك تكدر من مولاه»أو بالمملكة قصور(٥)،بل إن أمر المملكة منتظم، فينبغي أن يكون الملك مشغولاً بمسراته لأن كدر عبده هذا يزول سريعاً.

وفي اليوم الثالث جاء إلى سراي الملك في مكانه راضي القلب كما كان، فسأله فخـر الدولـة قائـلاً: لأي سبب كنت مشغول القلب؟ فقـال الصاحب: كـان أصحاب أخباري(٦) قد كتبوا إلي من كاشغر(٧): أنه في اليوم الفلاني قال الخاقان(٨)

---

(٤) أي يغيرونه عليك.

(٥) أن يكون بالمملكة خلل أو نقص.

(٦) منهيان من قبلي.

للقائد الفلاني كلاماً ولم نستطع أن نعرف ماذا قال، فلم ينزل الطعام من حلقي من ذلك الغم، إذ كيف ينبغي أن يقول خاقان التركستان(٩) كلاماً بكشغر لا أعرفه هنا! واليوم وصلت رسالة(١٠) وصار معلوماً أي حديث كان ذاك فطاب قلبي.

فينبغي أن تكون ذا دراية بأحوال كل الملوك، وتعرض الأحوال على مولاك، ليكون على علم بالصديق والعدو ويعلم للملك حال كفايتك وذكائك، واعط كل عمل تأمر به للجدير بالعمل ولا تضع الدنيا في أيدي الجاهلين والظلمة من أجل الطمع، ولا تسند العمل الكبير إلى العمال الوضيعين والسفلة فقد سألوا بزرجمهر قائلين: لما كنت في شغل وعمل آل ساسان(١١)، لم إضطربوا؟ فقال: لأنهم استعانوا بالعمال الأصاغر في الأمور الكبيرة والعظيمة حتى انتهى أمرهم إلى تلك الغاية.

ولا تسند العمل إلى المفلس والمملق وخاصة العمل الكبير، لأنه لا ينشغل بحاجاتك ما لم يوفر أسباب العيش لنفسه، ولكن إذا كان ذا سعة لا ينشغل بنفسه كل

---

(٧) مدينة تقع في وسط بلاد الترك، يُسافر إليها من سمرقند، وينتسب إلى هذه المدينة العديد من العلماء والفقهاء أمثال أبو المعالي طغرل محمد بن الحسن بن هاشم القاشغري. را. معجم البلدان، مج ٤، ص ٤٣٠.

(٨) خاقان: كلمة فارسية، وهي لقب لملوك الصين والترك را: د. م. الاسلامية..

(٩) اسم جميع بلاد الترك. ويحد تركستان الصين والتيبت والغز وفاراب، وتضم مقاطعة التركستان ست عشرة مدينة، أهلها من البدو الذين لهم في أنفسهم شأن عظيم ونكاية في الأعداء. را: معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٣ ـ ٢٤. را أيضاً: القزويني، ص ٥١٤.

(١٠) في الأصل، ملاطفه.

(١١) تنحدر الأسرة الساسانية من صلب رجل يدعى ساسان، وآل ساسان هم الأكاسرة الذين حكموا بلاد فارس وإيران منذ عام ٢٠٨ م وحتى ٦٥١ م. أي ان حكمهم استمر حتى الفتح الاسلامي. ونسب هذه الاسرة يرد إلى أقدم من هذا التاريخ أي منذ عهد دارا وحتى اسرة ايران الملكية. ويذكر الطبري أن بابك أبا أزدشير ابن ساسان كان يتولى منصباً كهنوتياً في اصطخر. راجع: د. م. أ. مج ١١، ص ٤٧. را أيضاً: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٥١. ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٣٢١.

الإنشغال ويؤدي عملك على أسرع وجه. وكذلك إذا رويت المزارع والمخضرات فإن مسقاة المزرعة والمخضرة إذا كانت رطبة مروية توصل الماء سريعاً إلى المزرعة والمخضرة، وإذا كانت أرض تلك المسقاة جافة وقد مضت مدة طويلة لم يجر فيها ماء، فإنه عندما يجرون بها الماء لا توصله إلى المزرعة والمخضرة ما لم تترطب وتتشبع بالماء أولا، فالعامل المعوز كالساقية، الجافة ويدبر حوائجه أولاً ثم حوائجك، وفضلاً عن ذلك عظم أوامرك ولا تدع شخصاً يجرؤ على مخالفة أمرك.

حكاية

هكذا سمعت أن أبا الفضل البلعمي(١٢) أسند إلى سهل الخجندي رياسة ديوان سمرقند(١٣)، ووقع فرمانه وخلع عليه، وذهب سهل إلى سراي الوزير للوداع وطلب الفرمان في اليوم الذي أراد فيه الذهاب، فلما أدى خدمة الوداع لم يقل علناً ما أراد أن يقول، فطلب الخلوة، فاخلى الوزير الدار، فقال سهل: أطال الله بقاء مولاي! عندما أصل إلى عملي لا بد وأن تصدر من هنا الأوامر، فليعط مولاي علامة لعبده أن أي أمر يجب تنفيذه وأيها لا يجب تنفيذه، ليعرف عبدك ويعمل كما يأمره مولاه، فقال أبو الفضل البلعمي: يا سهل! حسناً قلت، أعلم أنك فكرت في هذا أياماً طويلة، ويلزمنا أن نفكر أيضاً لأن أمراً كهذا لا يمكن الإجابة عليه في التو، فتوقف بضعة أيام.

فذهب سهل الخجندي إلى بيته، وأسندت رياسة ديوان سمرقند في الحال إلى سليمان الجفاني وأرسلوه مع الخلعة والمنشور، وأمر بأن يقال لسهل بأنه يجب أن لا يبرح البيت مدة عام، فأقام سهل سجيناً في بيته سنة، وبعد سنة استدعاه مولاه إليه وقال: يا سهل! أي وقت رأيتنا عملنا بمنشورين أحدهما صدق

---

(١٢) هو الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمي. را. سير اعلام النبلاء، مج ١٤، ص ٣٨.

(١٣) يقال لها بالعربية سُمران، بناها شمر أبو كرب، فسميت شمر كنت، فعربت فقيل سرقند، وقد فتحها من العرب سعيد بن عثمان ويطلق عليها اسم المدينة المحفوظة. را: معجم البلدان مج ٣، ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

والآخر كذب ونحن نعلّم أكابر الدنيا الطاعة بالسيف؟ أي حماقة رأيت فينا حتى نعلم مرؤوسينا العصيان ونقول لهم لا تعملوا بأمرنا؟ إن أمرنا واحد ما نريد عمله نأمر به وما لا نريد لا نأمر به، إذ ليس لنا رهبة وخشية من أحد وكذلك لسنا عاجزين في العمل، وهذا الظن الذي ظننته بنا هو شأن العاجزين، وكما اعتبرتنا راجلين [١٥] في العمل فنحن أيضاً اعتبرناك راجلاً فيه حتى لا تذهب إلى عملك وأنت تعتقد أن شخصاً يجرؤ على مخالفة ذلك الفرمان.

فلا توقع بالكذب ما حييت، وإذا لم يعمل عامل بأمرك فعاقبه عقوبة بالغة. لتجعل توقيعك في حياتك معظماً ونافذاً، لأنه لا يعمل أحد بتوقيعك من بعدك، كما لا يعملون الآن بتوقيعات الوزراء الماضيين.

فيجب أن يكون للملوك والوزراء فرمان واحد وأمر قاطع، لتدوم الحشمة وتكون الأعمال نافذة، ولا تشرب النبيذ لأن الغفلة والرعونة والإثم تنشأ من شرب النبيذ، نعوذ بالله من الوزير المدمن للنبيذ ومن العامل الأرعن، وكذلك عندما يكون الملك مشغولاً بشرب النبيذ يظهر الخلل في المملكة، فاحفظ نفسك وكن كما ذكرت، لأن الوزير حارس المملكة ومن القبيح جداً أن يلزم للحارس حارس آخر، فإذا اتفق أن صار عملك من الوزارة إلى القيادة فينبغي أن تعرف شرائط القيادة ليكون[١٦] كل يوم في ارتقاء.

---

(١٥) أي عملك.

في نظام القيادة

أي بني، إذا كنت قائداً فكن محسناً إلى العسكر والرعية، إعمل الخير من جانبك واطلب الخير كذلك من مولاك وكن يقظاً دائماً، واعرف جيداً طريقة قيادة الجند وإعداد الحملة، وفي اليوم الذي تقع فيه المعركة إبعث إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحروب وخبروا الدنيا، وأقم أشجع القواد مع خير طائفة في الجناح، لأن هؤلاء القوم الذين في الجناح هم ظهر الجند ومهما يكن الخصم ضعيفاً فلا تره ضعيفاً، واحتط في أمر ذلك الضعيف كما تحتاط في أمر القوي، ولا تتهور في الحرب حتى لا تبدد شمل الجيش[1]، وكذلك لا تكن كثير الجبن والخور[2] فتهزم جيشك بجبنك وخورك، ولا تغفل عن إرسال الجواسيس واستطلاع حال العدو.

ولا تقصر في إرسال الطلائع ليل نهار، وكن باشا يوم المعركة عندما تلقى بنظرك على عسكر العدو ويلتقي الجمعان وجهاً لوجه، وقل لجندك من يكون هؤلاء وما أصلهم؟ لندمرنهم هذه الساعة! ولا تزحف بالجيش إلباً واحداً وابعث الفرسان لواء لواء[3] وفوجاً فوجاً، وعين قائداً قائداً ورئيساً رئيساً قائلاً: يا فلان إذهب أنت إلى الجهة الفلانية مع فرقتك واحتفظ عندك بمن يليق بحملة الأمير، وكل من يحسن القتال ويصرع شخصاً أو يجرحه أو يأسر فارساً أو يأتي بفرس أو يقوم بخدمة مرضية، فراعه بأضعاف تلك الخدمة، من خلعة وزيادة معاش، ولا تقتصد في المال في ذلك

(١) الترجمة الحرفية: حتى لا تسلم الجند للريح (المترجمان).

(٢) الضعف.

(٣) الترجمة الحرفية: علامة علامة (المترجمان).

الوقت.

ولا تكن أيضاً وضيع الهمة حتى يحصل غرضك سريعاً، لأنهم حينما يرون مثل هذا تثور رغبة الحرب في كل الجنود ولا يقصر أي شخص في القتال، ويتم النصر وفق مرادك، فإذا تحقق مقصودك على هذه الجملة فبهاءً ونعماً، لا تتسرع وابق في مكانك ولا تبذل أي جهد، وإذا صارت نوبة الحرب إلى كبار القواد وتحرَّج الموقف وجاء دورك في القتال فانتهز الفرصة ولا تفكر في الهزيمة وصارع الموت لأن كل من يستعذب الموت ويستطيع انتزاع حب الحياة من قلبه لا يمكن زحزحته بأي باطل عن موضعه، وإذا ظفرت فلا تطارد المنهزمين كثيراً إذ يقع كثير من الخطأ في الرجعة ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال.

ولم يكن الأمير الكبير أبي رحمه الله يطارد المهزومين وكان يقول: إن المنهزم إذا عجز نهض من أجل روحه وصمد، وإذا كر فلا ينبغي الإشتباك معه لكيلا يقع خطأ، وإذا ذهبت إلى الحرب فلا بد من أن تنظر في الباطن طريق الخروج بعين قلبك كما ترى في الظاهر طريق الولوج بعين رأسك، فربما لا يكون الأمر كما تريد، ثم لا تنس هذه الكلمة، ولو أني قد ذكرتها في موضع آخر، فإني أكررها مرة أخرى، متى ما وقعت الحرب إذا كان موقفك حرجاً مثلاً وكان وراءك متسع بمقدار خطوة فحذار أن تتقهقر تلك الخطوة لأنك إذا تقهقرت شبراً يهزمونك في الحال، فاجتهد دائماً أن تتقدم عن موضعك ولا تتقهقر خطوة أبداً، كما يجب أن يقسم جندك في كل وقت بحياتك ورأسك.

وكن سخياً مع العكسر، فإذا لم تستطع أن تزيد عن ذي قبل في الخلعة والصلة فلا تقصِّر في كلامك على الأقل، ولا تأكل لقمة خبز ولا تشرب قدح نبيذ إلا مع جندك، فإن ما تفعله لقمة الخبز لا يفعله الذهب والفضة والخلعة، واجعل جندك دائماً راضين، وإذا أردت أن لا يضنوا عليك بالروح فلا تضن عليهم بالخبز، ولو أن كل الأمور منوطة بتقدير الله جل جلاله، أما أنت فاعمل ما يوجبه التدبير على وجه الصواب وما قدر يكون.

فإذا مَنَّ الله تعالى عليك مثلاً وأبلغك الملك فارع شروط الملك وكن عالي الهمة على هذه الجملة.

في آداب المَلك

أي بني، إذا صرت ملكاً يوماً ما فكن ورعاً، وكف عينك ويدك عن حرم المسلمين، وكن طاهر الإزار[1] لأن طهارة الإزار من الدين[2]، واجعل رأيك مطيعاً للعقل في كل أمر، وشاور عقلك أولاً في كل عمل تريد أن تعمله لأن وزير وزراء الملك هو العقل، ولا تتسرع ما دمت ترى وجهاً للتأني وتدبر أولاً طريق الخروج من كل أمر تريد الولوج فيه، ولا تر الأول ما لم ترَ الآخر، وراع المداراة في كل الأمور، وكل أمر يتم بالمداراة لا تنجزه بغير مداراة، ولا ترض الجور، وانظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين العدل حتى تستطيع أن ترى الحق والباطل في كل الأمور، لأن الملك إذا لم يفتح عين العدل والعقل، يستغلق عليه طريق الحق والباطل.

وكن صادق القول على الدوام، ولكن كن قليل الكلام والضحك حتى لا يجترىء عليك من دونك فقد قيل: أسوأ الأمور للملك اجتراء الرعية وعصيان الحاشية وأن لا يصل إلى المستحقين العطاء الذي يأتي منه، وكن عزيز اللقاء حتى لا تصير حقيراً في أعين الجند والرعية، وحذار أن تحقر نفسك، وكن رحيماً بعباد الحق تعالى ولكن لا ترحم من لا يرحمون.

وكن ذا سياسة وخاصة مع وزيرك ولا تظهر نفسك البتة بسلامة القلب معه، ولا تفتقر كلية إلى رأيه، واستمع إلى كل كلام يقوله الوزير بشأن[3] أحد أو طريق يبينه

(١) الترجمة الحرفية: طاهر السروال. أي ذو عفة. (المترجمان).

(٢) في نسخة نفيسى (پاك ديني است) أي: طهارة الدين، في نسخة هدايت (ازپاك دينى بود) أي: من طهارة الدين. (المترجمان).

(٣) الترجمة الحرفية: باب.

ولكن لا تجب في الحال، وقل: حتى ننظر! وحينئذ نأمر بما يجب، وبعد ذلـك مر بتفحص تلك الحال لترى ما إذا كان يطلب في ذلك الأمر صلاحك أو نفع نفسه، فإذا عرفت ذلك فأجب حسبما رأيته صواباً، لكيلا يعدك أسير رأيه، واتخذ وزيرك شيخاً سواء أكنت شيخاً أم شاباً ولا تقلد الشاب الوزارة قيل:

بيت

لا كان قائد الجيش سوى الشيخ   الشاب شاب كذلك مهما يكن أستاذاً

وفضلا عن ذلك إذا كنت شيخاً فإنه أمر قبيح أن يكون شاب مدبـراً وسائسـاً لشيخ، وإذا كنت شاباً والوزير شاباً، تلتئم نار شبابك مع نار شباب الوزيـر وتحترق المملكة بكلا النارين، ثم يجب أن يكون الوزير بهي الوجه وشيخاً أو كهلاً معتـدل القامة وقوي التركيب وكبيـر البطن، لأنـه لا أبهة قط للنحيف وقصيـر القامـة وأسود اللحية، فينبغي أن يكون الوزير عظيم اللحية.

(حكاية)

كذلك أراد السلطان طغرل بك(٤) أن يسند الوزارة لواحد من فضلاءخراسـان فاختار الفارابي العالم، وكان لهذا العـالم لحية طـويلة وعريضـة جدا تبلغ سـرته، فأحضروه وسلموه رسالة السلطان حيث يقول: إننا اخترناك لوزارتنا فيجب أن تتولى تدبير أمورنا لأننا لا نعرف شخصاً أجدر منك بهذا الأمر، فقال العالم: قولوا لمولاي السلطان: أبقاك الله ألف عام، الوزارة مهنة يلزمها آلات كثيرة وليس لهذا الخادم من كل الآلات شيء آخر غير اللحية، فـلا يغتر مـولاي بلحيتي، وليأمـر بهذه الخـدمة لشخص آخر.

وكل من أسندت إليه الوزارة مكنـه فيها تمـام التمكين حتى لا تستغلق شئون مملكتك وأشغالها، وأحسن إلى أقربائه والمتصلين بـه، كيلا يقـع تقصير في تـأدية

(٤) السلطان طغرل بك (٤٢٦ - ٤٥٥ هـ/١٠٣٥ - ١٠٦٣ م) هو ركن الدولة أبو طالب محمد بن ميكائيل أول سلاطين السلاجقة، وكلمة طغرل تعني الطائر بلغة الترك، وبك تعنى الأمير. أعلن طغرل قيام دولة السلاجقة بعد أن احتل طوس ونيسابور وخراسان إثر وفاة السلطان محمود الغزنـوي فأيـده الخليفة العباسي القائم بأمر الله وكاتبه عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م). راجع: وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٦٣ - ٦٨. را. أيضاً: د. م. أ. مج ١٥، ص ٢٣٠.

المعاش وعمل الخير، ولكن لا تأمر بأي عمل لأقارب الوزير والمتصلين بـه لأنه لا يمكن تسليم الإلية جملة للقطة، إذ أنه لا يحاسب ذويه بالحق بأي حال، ولا يؤذي أقاربه من أجل مالك، وفضلاً عن ذلك فإن أقارب الوزير بانتسابهم إليه يرتكبون من الجور على المسلمين ما لا يرتكب الغرباء منه واحداً في المائة، ولا ترحم اللص ولا تجز العفو عنه ولا تعف عن القاتل، واحتط في أمر القـاتل، لأنـه إذا كان مستحقـاً للقصاص وعفوت عنه تكون أنت أيضاً يوم القيامة شريكاً له في ذلك الدم وتؤخذ به، ولكن إرحم غلمانك لأن الملك كالراعي والرعية كالقطيـع، فإذا كـان الراعي غيـر رحيم بقطيعه ولم يحفظه مـن السباع يهلك (القطيع)[٥] سريعاً، وكـل من عينت له قسطاً لا تعتمد على ما تكون قد عينت له.

ومر لكل شخص بعمل ولا تضن عليهم بالشغل لأن ذلك النفع الذي يجدونه من الشغل يضيفونه إلى قسطهم ويعيشـون مستكفين، وتكون أنت أقـل انشغالاً من أجلهم لأن الغلمان يقتنون من أجل العمل، ولكن عندما تعطي الغلمان عملاً تأمـل جيداً واعط العمل للجدير به ولا تأمر بعمل لمن لا يليق به، فمن يليق بالفراشة لا تعطه السقاية، ومن يليق بالسقاية لا تعطه الخزانة ومن يليق بالخزانة لا تعطه الحجابة إذ لا يمكن إعطاء كل عمل لكل إنسان، كما قيل: **لكل عمل رجال ولكل مكان مقال** حتى لا يطول عليك لسـان الطاعنين، ولا يـظهر الخلل في عملك، لأنـه إذا أمرت لخادم بعمل ولا يعرفه، فإنه من أجل منفعته لا يقول بأي حال إني لا أعرفه، ويعمله ولكن العمل يكون فاسداً، فاعط العمل للخبير به لتستريح من وجـع الرأس، كمـا يقول الشاعر:

ولكن أرجو من إلهك التوفيق لأن تعطي المناصب للخبيرين بها

فإذا كنت ذا عناية بشخص وأردت أن تصيره محتشماً، فإنك تستطيع أن تعطيه النعمة والحشمة بغير عمل ومن غير أن تأمر له بشغل بغير موجب، حتى لا تكون قد أشهدت على جهلك، ولا تدع شخصاً يستهين بأمرك في مملكتك، لأن ذلك يكون كما لو قد استهان بك في ملكك إذ أن راحة الملك ولذته في إصدار الأوامر، وإلا فإن

---

(٥) ليست في الأصل.

الملك يكون مساوياً للرعية في الصورة، والفرق بين الملك والرعية هو أن يكون الملك آمراً والرعية طائعة.

(حكاية)

سمعت أنه كان في أيام جدك السلطان محمود عامل يقال له أبو الفرج البستي عهد إليه بأعمال نسا(٦) وباورد(٧)، فقبض على رجل في نسا واغتصب منه أموالاً طائلة، وصادر ضياعه وأودعه السجن، وبعد مدة احتال الرجل وفر من السجن وذهب إلى غزنة، ودخل على السلطان وطلب النصفة، فأمر السلطان أن يكتب له كتاب من الديوان، فأخذ الرجل الكتاب وجاء حتى وصل إلى نسا وعرض الكتاب ففكر العامل أن كيف يذهب هذا الرجل مرة أخرى إلى غزنة ويرى السلطان، فلم يرد إليه ضياعه ولم يعمل بذلك الكتاب قط، فأخذ الرجل المظلوم طريق غزنة مرة أخرى وسار حتى وصل إلى غزنة وكان يذهب كل يوم إلى باب سراي السلطان محمود، إلى أن كان السلطان محمود ذات يوم خارجاً من البستان فصاح الرجل واستغاث كثيراً من العامل.

فأمر له السلطان بكتاب مرة أخرى، فقال: إني حملت مرة كتاباً ورجعت، ولا يجدي الكتاب نفعاً في نسا، إلا أن السلطان كان متكدراً في تلك الساعة لسبب من الأسباب فأجاب الرجل قائلاً: عليَّ إصدار الأمر فإذا لم يعمل بالكتاب فماذا أعمل؟ إذهب واحث التراب على رأسك! فقال الرجل: أيها الملك! إن غلامك لا يعمل بأمرك فهل يجب عليَّ أنا أن أحثو التراب على رأسي؟ فقال السلطان محمود لا أيها السيد، إنني أخطأت يجب عليَّ أنا أن أحثو التراب على رأسي، وعين له في الحال غلامين من سرايه فذهبا إلى نسا، وأحضرا شحنة(٨) تلك النواحي، وعلقوا ذلك

---

(٦) هو اسم أعجمي لمدينة في بلاد فارس، ونسا مدينة بخراسان، تكثر فيها الامراض والاوبئة في فصل الصيف ويكثر في هذه المدينة العرق المديني. را: معجم البلدان مج ٥، ص ٥٨٢. القزويني، ص ٤٦٥.

(٧) باورد مدينة بخراسان، تقع بين سرخس، ونسا، را. معجم البلدان، مج ١، ص ٣٣٣.

(٨) شحنة: هو موظف كفء يعينه السلطان لضبط الامن في المدينة وهو بمثابة قائد الشرطة في وقتنا الحاضر.

الكتاب في عنقه وصلبوه، ونودي بأن هذا جزاء من لا يعمل بأمر الملك، وبعد ذلك لم يكن لأي شخص جرأة على أن لا يعمل بأمر الملك، وصارت الأوامر نافذة واستراح الناس.

حكاية

وكذلك يا بني في أيام خالك السلطان الشهيد مسعود لما تولى الملك كان يعرف طريق الشجاعة والمروءة جيداً، ولكنه لم يكن يعرف قط طريق تدبير الملك، واختار من الملك عشرة الجواري، فلما رأى الجند والعمال بأي الأعمال يشتغل، أخذوا طريق العصيان، وتعطلت أشغال الناس وتجرأ الجند والرعية، إلى أن جاءت امرأة عجوز مظلومة ذات يوم من رباط فراوة(٩) واستغاثت من عمال الولاية، فأمر لها السلطان مسعود بكتاب فلم يعمل به العامل، وقال في نفسه إن هذه المرأة العجوز لا تذهب إلى غزنة(١٠) مرة ثانية، فعادت العجوز مرة أخرى وسارت إلى غزنة وذهبت إلى دار المظالم وطلبت النصفة، فأمر السلطان مرة أخرى بكتاب فقالت العجوز: حملت مرة كتاباً ولم يجدِ، فقال مسعود: ماذا أعمل؟ فقالت أيها الملك إن تدبير هذا سهل، تول الولاية بحيث يعمل بكتابك، وإلا فدعها ليتولاها شخص آخر يعملون بكتابه وابق أنت كذلك في لهوك حتى لا يبتلى عباد الله تعالى ببلاء الظلم، فخجل مسعود وأمر فأدوا حق تلك المرأة العجوز وعلقوا ذلك العامل على باب فراوة، وأفاق بعد ذلك من نوم الغفلة ولم تكن لأحد جرأة على أن يقصر في أمره.

فالملك الذي لا يكون أمره نافذاً، أي فرق بينه وبين سائر الناس؟ يجب أن يعرف أن نظام المُلك في نفاذ الأمر فإذا لم يكن نفاذ للأمر يظهر الخلل في الملك

(٩) فراوة بالفتح، هي بليدة من أعمال نسا، تقع بين نسا ودهستان وخوارزم، تعرف برباط فراوة، بناها عبد الله بن طاهر في عهد الخليفة العباسي المأمون ومن هذه القرية خرج جماعة من أهل العلم والفضل والتقوى. راجع: معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٤٥.

(١٠) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، تشكل الحدود الفاصلة بين الهند وخراسان، وهي أرض جبلية باردة في الشتاء وحارة في الصيف، استولى عليهاوملكها السلطان محمود الغزنوي. را: معجم البدان مج ٤، ص ٢٠١. آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٥٨.

ونفاذ الأمر لا يجوز بغير السياسة فلا ينبغي التقصير في إجراء السياسة لتكون الأوامر نافذة.

ثم يجب أن لا يسلط الجند على رؤوس الرعايا لأن المملكة لا تعمر، وكما تراعي مصلحة الجند أرع كذلك مصلحة الرعية، لأن الملك كالشمس لا يجوز أن تضيء على واحد ولا تضيء على آخر، وكذلك إذا كان يمكن جعل الرعايا مطيعين بالجند فإنه يمكن أيضاً امتلاك الجند بالرعية، وبالرعية تعمر الولاية لأن من الرعية يحصل الدخل وبالعدل تستقر الرعية وتعمر، فلا تجعل للظلم سبيلا إلى قلبك فإن بيوت الملوك العادلين تبقى ويطول عهدها، وبيوت الظالمين تزول سريعاً، لأن العدل هو العمران، والظلم هو الخراب، وبما ان التعمير يقتضي وقتاً أطول فإنه يبقى أكثر، وبما أن التخريب يمكن القيام به سريعاً فإنه يزول سريعاً، وقد قال الحكماء: إن الملك العادل ينبوع العمار والبهجة في العالم، والملك الظالم أصل خراب العالم وبؤسه.

ولا تصبر على آلام عباد الله تعالى، ولا تشتغل دائماً بالخلوة لأنك إذا نفرت من الجند والناس ينفر الجند منك أيضاً، ولا تقصر في حسن رعاية الجند والرعية وإذا قصرت كان في ذلك التقصير تمكين للأعداء ولكن لا تجعل الجند جميعاً من جنس واحد، فإذا كان جند الملك من جنس واحد يكون دائماً أسيراً لجنده وعاجزاً على الدوام، لأن الجنس الواحد يتفق ولا يمكن سحقهم بأحدهم الآخر، فإذا كانوا من كل جنس يسحق هذا الجنس بذاك وذاك بهذا فلا يستطيع أولئك القوم من خوف هؤلاء وهؤلاء من خوف اولئك أن يعصوا،ويكون أمرك نافذاً على جندك. وكان لجدك السلطان محمود أربعة آلاف غلام تركي من غلمان السراي، واربعة الآف روات هندي للسراي، وكان دائماً يخوف الهنود بالأتراك والأتراك بالهنود فكان كلا الجنسين مطيعين له من خوف أحدهما الآخر.

وفضلاً عن ذلك أدع في كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبيذك، وأحسن إليهم بالخلعة والصلة والآمال، وتعود إظهار التودد، ولكن إذا أردت إعطاء صلة لأحد فلا تعلنها على الملأ بلسانك إذا كانت قليلة، وأسر بها لشخص فتكون حكماً وأمراً حتى لا تكون قد ارتكبت خسة بذلك الشيء الذي لا يليق بهمة الملوك، ثم لا تكون صيرت نفسك معروفاً للناس بالخسة.

حكاية

كنت ثماني سنوات نديماً للسلطان مودود[11] بغزنة فلم أر منه قط ثلاثة أشياء: أولها ان كل صلة كانت تقل عن مائتي دينار لم يكن يعلنها على رأس الملأ، بل كان يأمر بها سراً، وثانيها إنه لم يكن يضحك بحيث تظهر ثناياه، وثالثها إنه لم يكن يشتم شخصاً أبداً إذا كان غاضباً، وهذه العادة كانت حسنة جداً. وسمعت أن ملوك الروم لهم مثل هذه العادة ولكن لهم رسم آخر ليس لملوك العرب والعجم، وهو انه إذا كان الملك قد ضرب شخصاً بيده لا يستطيع أي إنسان بعد ذلك أن يضرب ذلك الرجل ويقولون ما دام حياً، إن الملك قد ضربه فينبغي أن يضربه ملك كذلك.

والآن قد عدنا إلى كلامنا الأول، أما في حديث السخاء، فإني لا أستطيع أن أقول لك كن سخياً على رغمك، وعلى كل فلا تكن وضيع الهمة وإذا لم تستطع أن ترتدع عن جبلتك فلا أقل من أن لا تظهر خستك للناس على الملأ كما ذكرت، لأنك إذا لم تسخ يصير كل الخلق أعداءك فإذا لم يستطيعوا أن يقولوا لك شيئاً في الحال فإنهم لا يجعلون أرواحهم فداء لك إذا ما ظهر عدو، ويكونون أصدقاء عدوك؛ ولكن اجتهد في أن لا تكون ثملاً بشراب الملك، ولا تقصر في المحافظة على ست خصال: الهيبة والعدل والعطاء والحفاظ والوقار والصدق، فإذا لم تكن في المَلك واحدة من هذه الست فإنه يكون إلى سكرة الملك أقرب، وكل ملك يكون ثملاً بالملك يفيق عند ذهاب ملكه، ولا تكن في ملكك غافلاً عن معرفة أحوال العالم، ويجب أن تكون بحيث لا يتنفس أي ملك من غير أن تعرف، فإني سمعت من أبي الأمير الراحل.

حكاية

أن فخر الدولة فر من أخيه عضد الدولة[12] ولم يستطيع الإقامة بأي مكان،

---

(١١) هو شهاب الدولة مودود بن مسعود الغزنوي (٤٠١ - ٤٤١هـ) تزوج ابنه جفري بك داود السلجوقي، حكم تسع سنوات وكان من أبرز وزرائه عبد الرزاق الميمندي. را: الكامل في التاريخ، مج٨، ص ٥٢. معجم الانساب، ص ٤١٦ - ٤١٧.

(١٢) فناخسرو بن ركن الدولة، حسن بن بويه الديلمي أبو شجاع أول من سمي بشاهنشاه أو ملك

فجاء إلى بلاط جدي قابوس بن وشمگير مستأمناً، وآمنه جدي وأكرمه وزوجه عمتي، وأنفق في زواجه مالاً يفوق الحد، وذلك لأن جدتي كانت خالة فخر الدولة وكان أبي وفخر الدولة كلاهما ولدي ابنة حسن بن فيروزان فأرسل عضد الدولة رسولاً إلى شمس المعالي، وجاء الرسول وسلم الكتاب وقال: إن عضد الدولة يسلم كثيراً ويقول: إن أخي الأمير علي جاء إليكم، وأنت تعلم أن بيننا صداقة وأخوة وبيت كلينا واحد، وأخي هذا عدوي، فيجب أن تقبض عليه وترسله إلي، حتى أدع لك أي ناحية تعينها من ولايتي مكافأة على ذلك وتتأكد صداقتنا، وإذا لم ترد أن تلحق بنفسك هذا العار فناوله السم هنالك ليتحقق غرضي ولا يكون عار عليك، وتلك الناحية التي تريدها تعطي لك أيضاً.

فقال شمس المعالي: سبحان الله! ماذا يدعو مثل ذلك المحتشم إلى مخاطبة مثلي بمثل هذا الكلام، حيث لا يمكن لي أبداً القيام بمثل هذا العمل الذي يكون فيه عاري إلى يوم القيامة؟ فقال الرسول: أيها الملك! لا تفرط في عضد الدولة من أجل الأمير علي لأن مليكنا يحبك أكثر من أخ شقيق له، وأقسم بكذا وكذا قائلاً: إنه في هذا اليوم الذي حملني (الرسالة)[13] وسيرني (إليك)[1] كان يقول أثناء الحديث، يعلم الله أني أحب شمس المعالي جداً، إلى حد أنه في يوم السبت الفلاني وقد أنقضت بضعة أيام من الشهر الفلاني، ذهب شمس المعالي إلى الحمام وأنزلقت قدمه في البيت الأوسط وسقط فأغتممت وقلت هل أدركته الشيخوخة في سن السابعة والأربعين وانحطت قوته؟ وكان غرض ذلك الرسول أن يقول: إعلم كيف أن مليكي مطلع على أحوالك، وكان ذلك تعليم عضد الدولة.

الملوك، مات عن سبع وأربعين عاماً سنة، وعرف عنه أنه كان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة شديد الهيبة، أحب العلم وكرم العلماء وأهل الفكر والنظر، وعندما توفي سنة ٣٧٢ هـ اجتمع القواد والامراء وبايعوا ولده كاليجار المرزبان ولقبوه بصمام الدولة. راجع: أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، مج ١، ص ١٢٢ ـ ١٢٣. البداية والنهاية، مج ١١، ح ١١، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠، ابن الاثير، مج ٧، ص ١١٣.

(١٣) ليستا في الأصل. (المترجمان).

فقال شمس المعالي : دام بقاؤه! شكراً له[١٤] على هذه الشفقة التي أبداها، ولكن عرِّفه كذلك باغتمامي، لأنه في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني الذي أوفدك في غده، شرب السيكي تلك الليلة في المجلس الفلاني ونام في المكان الفلاني وكان مع نوشتكين الساقي، فقام في نصف الليل وذهب إلى الحريم وصعد إلى السطح بحجرة الخيزران العوادة واجتمع بها ولما رجع زلت قدمه وهو ينزل من السطح، وسقط من درجتين من السلم وانشغل قلبي من جهته أيضاً وقلت هل حدث نقصان في عقله في سن الثانية والأربعين؟ لم يشرب الرجل وهو ملك في سن الثانية والأربعين هذا القدر من الشراب بحيث لا يستطيع النزول من السطح؟ ولم يلزم الانتقال من فراشه في نصف الليل حتى تقع مثل تلك الحادثة؟ وأخبر ذلك الرسول بعلمه بأحوالهم.

وكما تعرف أحوال العالم والملوك يجب كذلك أن تكون واقفاً على شؤون ولايتك وحال رعيتك وجيشك لأنك إذا لم تعرف حال بلدك تكون أقل معرفة ببلاد الأجانب.

حكاية

اعلم يا بني أنه في أيام ابن خالك السلطان مودود بن مسعود جئت إلى غزنة فأعزني وأكرمني كثيراً، ولما انقضت مدة ورآني وجربني أسند إلى منادمته الخاصة، والنديم الخاص هو الذي لا يغيب عن مجلسه أبداً، فكان يتحتم عليَّ أن أكون دائماً حاضراً عند الطعام والشراب، سواء أكان الندماء الآخرون موجودين أم لا، وذات يوم في الصباح الباكر كان قد أقام الصبوح، وكذلك أذن للجند في أثناء شرب النبيذ، فدخل الخلق وخدموا وعادوا، وكان الخواجة الكبير عبد الرزاق أحمد بن حسن الميمندي[١٥] وزيراً له، فأستبقى الخواجة في مجلس الشراب، فلما مكث برهة

(١٤) الترجمة الحرفية: قبلت المنة (المترجمان).

(١٥) الملقب بشمس الكفاة، عمل وزيراً في الدولة الغزنوية خلال عهود السلطان محمود، ومسعود، ومودود. وتوفي سنة ٤٢٤ هـ. (١٠٣٢ م). را: دستور الوزراء، ص ١٣٩ ـ ١٤٠. را. أيضاً: ابن الاثير، مج ٨، ص ٥٢.

دخل مشرف البلاط، وسلم علياً بن ربيع الخادم رسالة[١٦]، فقدمها عليٌّ الخادم إلى السلطان، وكان السلطان يشرب النبيذ ويقرأ الرسالة فالتفت إلى الوزير وقال: أدب هذا المنهي[١٧] بضربه خمسمائة عصاً، حتى يفصِّل الإنهاء مرة أخرى، إذ كتب في هذا الخط[١٨] قائلاً: إنه ليلة أمس طبخ في غزنـة حساء السمـاق في إثنى عشر ألف بيت، وما دمت لا أعرف بأي بيت وحي كان ذلك فأشهد كما تريد، فقـال الوزيـر: أطال الله بقاء الملك! إنه قال هذا من أجل تخفيف الجمع، لأنه إذا تكلم بالتفصيل لكان كتاباً، ولما كنت تستطيع قراءته في يوم، لأنه لمَّا قال حساء السماق، كان يلزم أن يذكر الألوان الأخرى، فإذا عفا الملك وجعل هذا التأديب رحمة حتى أقول إنه بعد هذا لا يقول شيئاً بالإجمال، فيذكر البيت وصاحب البيت بالإسم، ويوضح أن فلان وفلان أكل كذا وكذا بالمحل الفلاني في المحلة الفلانيـة، فقال السلطان: عفـوت هذه المرة وبعد هذا يجب أن يقول كما يقول السيد.

فينبغي أن لا تكون غافلاً عن حال مملكتك وعن حال رعيتك وجندك، وخاصة عن حال وزيرك، ويجب أن لا يشرب وزيرك شربة ماء[١٩] دون أن تعرف، لأنك قد استودعته روحك ومالك، فإذا غفلت عنه تكون قد غفلت عن روحك ومالك لا عن عمل وحال وزيرك **وإذا كنت صديقاً لملوك أطراف** العالم الذين هم أنـداد لك، **فلا تكن نصف صديق**؛ وإذا كنت عدواً فكن عدواً في الظاهر لتستطيع إظهار العداوة علناً، ولا تعاد في الخفاء من هم على شاكلتك.

حكاية

سمعت أن الإسكندر كان يسير لحرب عدو فقيل له: أيها الملك! إن عدونا هذا رجل غـافل فيجب الاغارة عليه ليـلاً، فقال الإسكنـدر: إن الذي ينـال الظفـر باللصوصية لا يكون ملكاً، وتعود عظائم الأمور في الملك، لأن الملك أكبر من كل

(١٦) في الاصل ملاطفة.

(١٧) ناقل الاخبار أو الرسول.

(١٨) هذا الكتاب أو هذه الرسالة.

(١٩) الترجمة الحرفية: الماء (المترجمان).

إنسان، فيجب أن يأتي الأمور من فعل وقول بعظمة لينال الذكر الحسن، كما أن فرعون عليه اللعنة لو لم يكن تكلم بتلك العظمة كيف كان الخالق جل جلاله يروي حديثه حيث قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [٢٠] وتتلى هذه الآية إلى يوم القيامة ويذكر اسمه بالعظمة ولو أنه قبيح وملعون ولا يقصد بهذا الكلام مدحه؟.

فكن كما ذكرت، لأنه لا يرتفع ذكر للملك القليل الهمة، وعظِّم توقيعك أيضاً، ولا توقع من أجل كل أمر حقير، إلا بولاية كبرى أو إقطاع كبير تمنحه، وإذا وقّعت فلا تخالف توقيعك إلا بعذر واضح، لأن الخلف ليس مقبولاً من كل إنسان وخاصة من الملك. هذا هو شرط الملك، ولو أن هذه مهنة عزيزة ولا يصل إليها كل شخص، ولكني ذكرتها كما هو شرط الكتاب وإذا اتفق لك صناعة أخرى، كالفلاحة أو حرفة من حرف السوق فارع ما يكون من شروطها ليكون عملك ذا رونق دائماً.

(٢٠) القرآن الكريم، سورة (النازعات) آية ٢٤.

في الزراعة والصناعة

إذا كنت زارعاً فأعرف أوقات أعمال الزراعة، وكذلك لا تدع شيئاً يجب القيام به حتى يفوت وقته، وإذا زرعت قبل الوقت بعشرة أيام فخير من (أن تزرع) بعد الأوان بيومين، وأجعل الآت الزراعة والحراثة معدة وحاضرة، ومر بأن يشتروا البقر الجيد ويحسنوا رعايته بالعلف، واحتفظ دائماً بزوج من البقر مستريحاً على حدة، حتى إذا ما أصابت بقرة من تلك الابقار علة لا تتعطل عن العمل، ولا يفوتك وقت الزرع، وفي غير وقت الزرع والحصاد لا تغفل عن فلح الأرض بلا انقطاع، ودبر هذا العام زراعة العام القادم، وازرع دائماً الأرض التي تكسو نفسها لأن كل أرض لا تستطيع أن تكسو نفسها لا تستطيع أن تكسوها أيضاً.

وكذلك يجب أن تكون دائماً مشغولاً بالعمارة لتحصل على معاشك من الفلاحة، وكن من بين جميع محترفي السوق سريع العمل محموداً في أية حرفة تحترفها ليكثر مريدوك، وأدِ كل عمل تؤديه خيراً مما يؤديه زملاؤك، واقنع بالربح القليل، وإلى أن تجعل العشرة أحد عشرة، مرة تستطيع أن تجعلها عشرة ونصفاً مرتين، وفضلاً عن ذلك لا تنفر العملاء بالمماكسة واللجاج الكثير لتكون مرزوقاً في عملك ويتعامل الناس معك أكثر.

واجتهد عندما تبيع شيئاً في إظهار التواضع وقولك يا حبيبي ويا روحي ويا أخي ولا تتكلم ما استطعت بعنف ووقاحة ليخجل المشتري من المماكسة للطفك ويحصل مقصودك، وإذا فعلت هكذا تكون كثير العملاء وتكون بالضرورة محسوداً من ذوي الحرف الآخرين وتصير معروفاً ومشهوراً بالسوق وتعود قول الصدق في البيع والشراء

وتجنب البخل، ولكن استعمل التصرف، واعطف على من دونك، وتواضع لمن هو أعلى منك.

ولا ترهق العاجز، ولا تغل الثمن في المعاملات على الأطفال والنساء والأصدقاء، ولا تطلب زيادة من الغرباء، ولا تخجل في التجارة فكثيراً ما يكون الخجل ضاراً بك، وساعد الخجول الذي لا يكثر المكاس واحسن إلى المستحق وكن سوقياً مع السوقة بالوزن والميزان الصحيح، ولا تكن ذا قلبين[1] وذا كيسين[2] مع عيالك.

ولا تخن الشركاء، ولا تعمل ما تصنعه رديئاً ومزوراً واجعل عملك مع الخبير وغير الخبير سواء، وكن ورعاً، وإن تكن لك مكنة فأعتبر الإقراض غنيمة ولا تحلف كذباً ولا تراب ولا تكن صعب المعاملة، وإذا كان لك مال على صديق فلا تلحف[3] في المطالبة إذا علمت أنه غير قادر، وكن طيب القلب حتى ترى الخير، ويبارك الله تعالى في أخذك وعطائك، وكل محترف على هذه الجملة التي ذكرت يكون أكثر المحترفين مروءة، ولكل قوم من الصناع طريق في المروءة في تلك الصناعة التي يكونون بها.

---

(١) ذو وجهين مراء.

(٢) مستأثر وضنين بالمال.

(٣) تلح في المطالبة.

في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة

أي بني إذا زوالت المروءة فأعرف أولا ما هي المروءة ومم تنشأ.

اعلم يا بني أن من صفات الناس ثلاثة أشياء لا تجد آدمياً قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست فيه، والعالم والجاهل راض من الله تعالى بهذه الأشياء الثلاثة، ولو أن الله تعالى في الحقيقة قد أعطى هذه الأشياء الثلاثة لقليل من الناس، وكل شخص فيه هذه الأشياء الثلاثة فهو من جملة أصفياء الله.

وأول هذه الأشياء الثلاثة العقل وثانيها الصدق وثالثها المروءة، وإذا نظرت في الحقيقة إلى ادعاء الخلق فإن أي إنسان لا يدعي العقل والمروءة والصدق كذباً، لأنه لا يوجد أي جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاثة، ولكن كلال الآلة وظلمة الطريق يسدان أصل هذه الباب على أغلب الخلق، فالله تعالى قد جمع جسم الإنسان من كل المتفرقات حتى إذا ما دعوته العالم الكلي أو العالم الجزئي فكلاهما جائز، كما أن ما في الجسد الآدمي من الطبائع والأفلاك والأنجم والعنصر والهيولى والصورة والنفس والعقل الكلي، هذه كل واحد منها على حدة عالم في المراتب لا في التركيب، والإنسان مركب ومجموع من هذه العوالم، فالخالق أقام هذا الجمع بالروابط والصلات لأنه ليست لها نسبة إلى بعضها البعض كما ترى في هذا العالم الكبير من رابطة الأفلاك والطبائع المتعلقة ببعضها البعض بالجنسية ولو أنها مختلفة في الجوهر، مثل النار والماء الذين كل منهما ضد للآخر في كل صفة، والتراب والهواء المضاد كل منهما للآخر، فالتراب صار واسطة، ووقع اتصال بين النار

والماء، وصارت للتراب مع النار باليبوسة ومع الماء بالبرودة، وللماء مع التراب بالبرودة ومع الهواء بالليونة، وللهواء بالإشعاع مع الشمس التي هي ملكة الأنجم والأفلاك، وللشمس مع الهيولي بالجوهرية بقبولها لإشعاع الهيولي الذي هو جوهر للشمس من العنصر الخامس، وللهيولى بالنفس روابط بالفيض العلوي وللنفس بالعقل.

وكذلك حصل للمطبوعات صلة بالطبائع بمادة القوة والغذاء، وإذا لم تجد المطبوعات القوة من الطبائع بالرابطة المرتبطة بها فإنها تفسد، وقس أيضاً على هذا، الطبائع من الفلك والفلك من الهيولى والهيولى من النفس والنفس من العقل، وكذلك كل ما في الجسم الآدمي من ظلمة وكثافة ويتكون من تركيب الطبائع، وتتكون الصورة والشحنة والحياة والقوة والحركات من الفلك، وتتكون الحواس الخمس الجسمانية كالسمع والشم والذوق، واللمس والنظر من الهيولى، والحواس الروحانية كالحفظ والتفكر والتخيل والنطق والتدبر تتكون من النفس.

وأشرف ما في الجسد الآدمي هو الشيء الذي ليس له معدن ظاهر ولا يمكن الإشارة إلى موضعه، مثل المروءة والعلم والكمال والشرف، لأن مصدر هذه كلها هو العقل، والعقل حل في الجسد من فيض العقل الكلي، فجسدنا هذا حي بالروح والروح بالنفس والنفس بالعقل وكل شخص ترى له جسداً متحركاً فلا بد له من الروح، وكل من ترى له نفساً ناطقة فلا بد له من النفس، وكل من ترى له نفساً باحثة فلا بد له من العقل وهذه موجودة في كل آدمي، ولكن عندما يصير المرض حجاباً بين الجسد والروح تضعف رابطة الأعتدال ولا تصل المادة الكاملة من الروح إلى الجسد، يعني الحواس الخمس، وكل من يصير الجهل والظلمة وعدم المعرفة حجاباً بين نفسه وعقله فإن مادة العقل لا تصل إلى نفسه، يعني الفكر والتدبير والمروءة والصدق، ففي الحقيقة لا يوجد جسد بلا عقل ومروءة، ولكن عندما يكون المنفذ الروحاني للفيض العلوي فإنك تجد دعوى ولا معنى.

وعلى هذا لا يوجد شخص قط في الدنيا لا يدّعي المروءة ولكن اجتهد أنت يا بني أن لا تكون كالآخرين وأن لا تدعي دعوى بغير معنى، وأن تجعل المنفذ

الروحاني للفيض العلوي مفتوحاً بالتعليم والتفهيم، ليكون لك كل المعنى بغير دعوى.

واعلم يا بني أن الحكماء قد جعلوا من المروءة والعقل صورة بالألفاظ لا بالجسد، لتكون تلك الصورة جسداً وروحاً وحواس ومعاني مثل الإنسان، وقدقالوا: إن جسد تلك الصورة هو المروءة وروحها الصدق وحواسها العلم ومعانيها صفاتها، ثم إنهم قسموا هذه الصورة على الخلق، فأصاب قوماً الجسد ولا شيء آخر، وقوماً الجسد والروح، وقوماً الجسد والروح والحواس وقوماً الجسد والروح والحواس والمعاني.

أما أولئك القوم الذين صار الجسد نصيبهم، فهم جماعة العيارين والجنود، فإن لهم مروءة على قدر حالهم، وقد سموا مروءتهم فتوة. وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح هم أرباب معرفة الظاهر والباطن وفقراء التصوف الذين سموا مروءتهم الورع والمعرفة. وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس هم الحكماء والأنبياء والأولياء الذين سموا مروءتهم العلم والفيض. وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس والمعاني هم الروحانيون والأنبياء المرسلون.

فاسع يا بني واجتهد حتى ترقي بقدر ما في وسعك واستطاعتك، وقد قال الحكماء إن أصل المروءة ثلاثة أشياء: أحدها أن تعمل ما تقول، وثانيها أن تراعي الصدق في القول والفعل وثالثها أن تستشعر الصبر، لأن كل صفة تتعلق بالمروءة تنضوي تحت هذه الأشياء الثلاثة، فإذا استعصى عليك الأمر يا بني فإني أعذرك، وسأبين هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء القوم ودرجة كل واحدة ومقدارها، لتصير معلومة لك .

اعلم يا بني أن أكثر الناس مروءة هو من كان له عدة فضائل متنوعة، وذلك[1] بأن يكون شجاعاً وذا رجولة وصابراً في كل الأمور وصادق الوعد وحصوراً[2] وطاهر القلب، ولا يطلب ضرر أحد لنفعه، ولكنه يجيز ضرر نفسه من أجل نفع الأصدقاء

(١) الترجمة الحرفية: واحدة.

(٢) الترجمة الحرفية: طاهر العورة (المترجمان).

(٣) الترجمة الحرفية: لا يطيل يده (المترجمان)

ولا يكون قاسياً على الضعفاء ولا يعتدي(٣) على الأسرى، ويعين المساكين ويدفع الشر عن المظلومين، وكما يقول الصدق يصغي إلى الحق وينصف من نفسه ولا يسيء إلى السفرة التي يكون قد أكل عليها العيش والملح، ولا يجزي الإحسان بالإساءة، ويستخزي من الرياء ولا يضيق بالبلاء وإذا أمعنت النظر فإن جميع هذه الفضائل التي ذكرناها تتعلق بهذه الأشياء الثلاثة التي ذكرت من قبل.

حكاية

في الحديث أنه ذات يوم كان العيارون جالسين معاً في الجبل فأقبل رجل وسلم وقال: إني رسول إليكم من قبل عياري المدينة وهم يقرئونكم السلام ويقولون: إن هناك ثلاث مسائل فاسمعوها مني، وإذا أجبتم عنها فإننا نرضى بتبعيتكم وإن لم تجيبوا فأقروا بسيادتنا، قالو هاتها! فقال: ما هي المروءة؟ وما الفرق بين المروءة واللؤم؟ وإذا كان فتى جالساً على قارعة الطريق ويمر عليه رجل وعندما تمضي ساعة يتعقبه رجل بالسيف قاصداً قتله، وحينما يصل الرجل إلى هذا الشاب ويسأله: أرأيت أن فلان مر من هنا؟ بم يجيبه هذا الشاب؟ إذا قال مر يكون غمزاً وإذا قال لم يمر يكون قد كذب، وكلا هذين لا يجوز، وكلاهما لؤم في المروءة، فلما سمع عيارو الجبل هذه المسائل نظروا إلى بعضهم البعض، وكان من بينهم رجل يقال له أبو الفضل الهمذاني(٤) فقال: أنا أجيب على هذه الأسئلة، فقالوا قل (حتى) نرى ما تقول. قال: إن أصل المروءة أن تفعل كل ما تقول، والفرق بين المروءة واللؤم هو الصبر، وجواب ذلك العيار الذي كان جالساً على قارعة الطريق هو أن يجلس في الحال على بعد قدم من تلك الناحية ويقول: مذ جلست هنا لم يمر أحد ليكون قد قال الصدق.

فإذا عرفت هذا الكلام فإنه يتحقق لك ما هو أصل المروءة فهذه المروءة التي ذكرتها في العيارين إذا طلبتها من الجنود فجائز، إذ يشترط في الجنود أن يكونوا على

---

(٤) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني الاديب الفاضل وصاحب المقامات، نسج على منوال الحريري في المقامات واقتفى أثره، كما أخذ اللغة عن ابن فارس واشتهر بعلمه وسعة اطلاعه وانتاجه الادبي وتوفي سنة ٣٩٨ هـ. راجع: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٨٧ - ٤٨٨. را. ابن الاثير، مج ٧، ص ٢٤١. البداية والنهاية، مج ١١ - ١٢، ج ١١، ص ٣٤٠.

هـذا الرسم أيضـاً لأن تمام العيـارية في الجنـدية ، ولكن يجب أن يكـون الكـرم والتضييف والسخاء وعرفان الحقوق وطهارة الثوب وكثرة التسلح في رجال الجنـدية أكثر، أما التدقيق في الكلام وحب الذات والخدمة والحياء فإنها فضيلة في الجندية، وعيب في العيارية.

وأما مروءة أهل السوق فلها أيضاً شـرط ولكني ذكرب هـذا الفصل في بـاب الاحتراف ولا حاجة لتكراره.

أما أولئك القوم الذين وصلهم من صورة المروءة الجسد والروح فقد قلت إنهم أرباب المعرفة والدين وفقـراء التصوف، الـذين سمينا مـروءتهم المعرفـة والورع، ولهؤلاء القوم مروءة أكثر من كل الأقـوام، لأن المروءة جسـد الصورة والصـدق هو الـروح، ولهؤلاء الروح يعني الصـدق، فمن حق الأدب أن هؤلاء القوم هم أربـاب معرفة الدين كالعلماء، والرجل هو من تكون فيه هذه الصفات وهي أن يكون ورعاً في الكلام وصادقاً في القول والعمل وثابتاً في دينه وبعيداً عن الرياء وبريئـاً من البخل ومتعصباً في الدين ولا يجعل نفسه متهماً بالحسـد ولا ينافق ولا يمـزق ستر إنسـان لحاجة في نفسه ولا يفتي الفتاوى السخيفة الضعيفة حتى لا يجرؤ الناس بفتاواه تلك على الحلف والطلاق ولا يشدد كذلك على الخلق في الفتـوى، وإذا وقع لمسكين سهو في الشرع ويستطيع علاجه لا يبخل، ويعلم بغير طمع، ولا يعرض زهده على الخلق ويكون معروفـاً بحسن السمعة، ولا يلوم الفـاسق على الفسق وخاصـة أمام الخلق وإذا أراد أن يوبخ أحداً فإنه يفعل ذلك في خفية عن الخلق، لأن إسداء النصح للناس أمام الخلق ملامة وجفاء، ولا يجتريء على ذم أحداً أبداً ولا يفتي ولو علم أن ذلك الشخص مستوجب القتل، لأنه يمكن تلافي الفتوى الخطأ إلا في القتل، لأن الميت لا يحيا، ولا يرمي أحداً بالكفر تعصباً للمذهب لأن الكفر مخـالفة الـدين لا مخالفة المذهب، ولا ينكر كتاباً وعلماً غريباً إذ ليس لك ما لا يعرفه كفراً، ولا يشجع العامة على الإثم ولا يوئس أي شخص من رحمة الله عز وجل، وكل فقيه ومتعبد على هذه الصفة يكون رجلاً وذا مروءة أيضاً.

(٥) الترجمة الحرفية واحدة.

أما آداب الفتوة والمروءة في طريق التصوف فقد ذكرها الأساتذة القدامي في رسائلهم وخاصة أستاذنا أبو القاسم القشيري[٦] رحمه الله، فقد ذكرها في كتاب رسائل آداب التصوف» وذكرها الشيخ الإمام أبو الحسن المقدسي في«بيان الصفا»، وأبو منصور الدمشقي في كتاب «عظمة الله» وعلي الواحدي[٧] في كتاب «البيان في كشف العيان»، لا أستطيع أن أذكر شروط هذه الطريقة بتمامها في هذا الكتاب، كما ذكروها عن المشايخ في الكتب الأخرى، بحكم أن غرضي في هذا الكتاب إسداء النصح إليك وطلب إسعادك.

ولكني أؤدي شرط التنبيه حتى إذا ما اتفق لك مجالسة هؤلاء القوم لا تثقل عليهم ولا يثقلون عليك، وسأشرح شرط مروءة هؤلاء القوم لأنه لا يصل إلى أية طائفة من العناء في الحياة بحق وحرمة كما يصل إلى هذه الطائفة التي ترى نفسها أسمى من كل الخلق، وسمعت أن أول من كشف أصل هذا الطريق كان عزيز النبي، حتى بلغ في صفاء الوقت من المكانة أن كان اليهود يقولون إنه ابن الله، وسمعت أنه كان في أيام الرسول صلوات الله عليه إثنا عشر شخصاً كان يقال لهم أصحاب الصفة، وكان الرسول عليه السلام يجالسهم كثيراً في الخلوة، وكان يحب هؤلاء القوم، فشأن هذه الطريقة واصطناع مروءة هذه الطائفة ـ لهذا السبب ـ أصعب من تلك الطائفة الأخرى، والأدب والمروءة في هؤلاء القوم على نوعين: أحدهما خاص بدراويش التصوف والآخر خاص بالمحبين، وإني سأذكر كليهما.

واعلم أن تمام الدروشة أن يكون المرء مجرداً دائماً لأن التجريد والوحدة عين التصوف.

---

(٦) أحد الأئمة المسلمين وأبرز أركان المله وأعلام السنة، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي سنة ٤٦٥ هـ وهو صاحب الرسالة القشيرية، ينتسب إلى مدينة نيسابور، ومن مآثره أنه عرف الاصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي وكان كثير العلم والورع، وقد كرمه الملوك والسلاطين والوزراء، ويُحكى أن نظام الملك كان يجله ويحترمه ويجلسه مكانه إذا دخل عليه. راجع: السبكي، طبقات الشافعية، مج ٣، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤. ابن عساكر، تبين كذب المفتري، ص ٢٧١ ـ٢٧٣. آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٧٤. ابن الخطيب القسنطيني، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ص ٢٥٢.

(٧) علي الواحدي: هو أبو الحسن علي بن أحمد بن متويه الواحدي مفسر وعالم أدب، وكان فقيهاً وإماماً في النمور واللغة، ولد في نيسابور وتوفي سنة ٤٦٨ هـ. قارن: ابن خلكان، وفيات الاعيان، مج ٢، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦. القسنطيني، كتاب الوفيات ص ٢٥٣.

(حكاية)

هكذا سمعت أن اثنين من الصوفية كانا يسيران معاً ذات مرة وكان أحدهما مجرداً والآخر معه خمسة دنانير، وكان هذا المجرد يسير بلا خوف ولم يكن يطلب أي رفيق وكان يجلس وينام ويستريح ولا يخشى أي شخص في أي مكان يصل إليه سواء أكان مأموناً أو مخوفاً، وذاك الذي كان معه خمسة دنانير كان يوافقه ولكنه كان دائماً في خوف، إلى أن وصلا في وقت ما إلى رأس بئر، وكان المكان مخوفاً ومعدناً للصوص والصعاليك، فشرب الرجل المجرد من تلك العين ووضع رأسه وراح في النوم ولم يكن صاحب الدنانير الخمسة يستطيع النوم، وكان يقول لنفسه سراً ماذا أعمل ماذا أعمل لآمن القضاء؟ فاستيقظ المجرد فجأة وسمعه فقال: أي فلان! ماذا أصابك حتى تكثر ترديد ماذا أعمل ماذا أعمل؟ فقال الرجل: يا أخي معي خمسة دنانير وهذا المكان مخوف، وأنت نمت هنا وأنا لا أستطيع النوم ولا أستطيع الذهاب، فقال ذلك الصوفي المجرد: أعطني تلك الدنانير الخمسة لأدبر أمرك، فأعطاه الرجل الخمسة دناينر، فأخذها الصوفي المجرد وألقى بها في البئر وقال: قد نجوت من ماذا أعمل ، فاجلس الآن آمناً ونم لأن الافلاس قلعة فولاذية.

فحقيقة التصوف بإجماع كل المشايخ ثلاثة أشياء: التجريد والتسليم والتصديق، فإذا كان لك واحد من هذه وكنت بعيداً عن الآفة ومتمتعاً بكليتك بغير عيب فلك عين هذه الطريقة. فالدرويش يلتزم التسليم ولا يكاشف[8] أي أخ أبداً إلا في حق الأخ، ويجب أن تكون غبطته دائماً في أن يقول: لم لا يكون أخي أحسن مني؟ ويخرج الأنانية من رأسه ولا يكون صاحب غرض، ويترك الغرض ويدع جانبه، وينظر بصدق وتجريد، ولا ينظر إلى أي شيء بنظرين، ويقطع نظر الغرور والخلاف، لأن نظرة كل من كان صادقاً وغير مغرور لا يخالفها أحد، إذ أن عين الحقيقة نفي الإثنينية وعين الصدق نفي الخلاف.

واعلم يا بني بأنه إذا وضع شخص قدمه على الماء بالصدق يجمد الماء تحت قدمه، وإذا حكى لك شخص عن كرامات الأولياء وكانت تلك الحكاية والمعنى

(٨) يخاصم.

بعيدين من طريق العقل فلا تنكر إذا عرفت حقيقة الأمر وإن بدا لك ذلك غير ممكن، فإن في الصداق أثراً لا يمكن إحلاله في القلب، لا بالعقل ولا بالتكلف بل بفضل الحق تعالى وعطائه وجبلة النفس.

فالدرويش هو من ينظر إلى الشيء بعين الصدق ولا يستوحش، ويكون ظاهره وباطنه سواء، ولا يخلى قلبه من التفكر في التوحيد، ويجب أن يختار السكينة والأناة في التفكير حتى لا يحترق في نار التفكر، لأن أرباب هذه الطريقة قد رأوا التفكر ناراً ماؤها التسلي، فجعلوا اللهو والرقص والسماع شركا للتسلي، وكل درويش لا يرغب في السماع والقول، يحترق دائماً بنار التفكر، وذاك الذي ليس له تفكر في التوحيد محال عليه السماع والقول، لأن الظلمة تزداد بالظلمة، ومنع الشيخ أخي الزنكاني السماع في آخر عمره وقال: السماع ماء ويجب أن يكون الماء حيث لا تكون النار، لأن صب الماء على النار يجلب الظلمة والوحل، وإذا كان لواحد في قوم عدتهم خمسون رجلاً نار، فإنه لا يجوز تكدير أولئك التسعة والأربعين لأجل واحد لأنه لا يمكن طلب السكينة من ذلك الواحد كما يمكن الصدق من هؤلاء الآخرين، أما إذا كان هناك درويش ليس له أدب باطني ومعرفة روحانية فيجب أن يكون له أدب ظاهر ليتحلى بإحدى الصورتين.

فينبغي أن يكون الدرويش ثقة، ذلق اللسان وسليماً ومستور الفسق، ظاهر الورع طاهر الجسد وطاهر الثوب، ومزوداً بآلات السفر والحضر كالعصا وإبريق الطهارة[٩] والمئزر والوطاء والسجادة والزورقي[١٠] والمشط والمسواك والإبرة ومقلمة الأظافر، ويجب أن يستغني عن الخياط وغسال الملابس ويخدم الإخوان في هذين الشيئين؛ ويحب السفر ولا يسير وحده لأن الآفة تنشأ من الوحدة، وإذا دخل الخانقاه[١١] لا يكون مانع الخير يعني لا يمنع شخصاً من التقرب، ويحل أولاً حذاء القدم اليمنى ويلبس حذاء القدم اليسرى أولاً، ولا يسير بين القوم مشدود الوسط ويجلس حيث يجعلون زاويته ويستأذن عندما يجلس،

---

(٩) ترجمة (كوزه طهارت) وهي آنية الماء المصنوعة من الفخار أو الخزف.

(١٠) الزورقي قلنسوة على هيئة الزورق يلبسها بعض الصوفية (برهان قاطع).

(١١) خانقاه تكتب بالفارسية خانگاه. وهو بيت ومسكن الدراويش حيث يجرون مراسم تصوفهم.

ويصلي ركعتين باستئذان ويسلم في كل وقت يدخل أو يذهب، وإذا لم يفعل فجائز. أما في الصباح فلا يقصر ويتكلم مع الناس بالحنى ويتحاشى المتهمين، وإذا لم يكن له معاملة طامات فلا يذكر أحاديث الطمطمات[١٢] ولا يدخل منزلاً أو خانقاً حتى يكون عزيز[١٣].

ولا يطلب صحبة أحد قهراً ولكن يحسن رعاية الحرم لأن رعاية الحرمة فريضة والصحبة ليست فريضة، ويعمل كل الأمور بحكم الجمع ورضاهم، وإذا أنكر عليه جماعة «أمراً» فلا يخالف الجماعة وإن يكن بريئاً بل يستغفر ويؤدي الغرامة ويحتمل الجور، ولا يتشدد في التدقيق على الخلق، ويقل الغياب عن السجادة، ولا يذهب إلى السوق قصداً، وإذا أراد القيام من أجل حاجة بأن يريد أداء عمل من أعماله، كأن يلبس ثوباً أو يخلعه مثلاً يستأذن من الجمع أو من شيخ الجماعة.

ولا يجلس متربعاً على السجادة ولا يخيط الخرقة خفية عن القوم، ولا يأكل شيئاً في الخفاء، وإن يكن لوزة واحدة، لأنهم يستقبحون ذلك، ولا يكثر الكلام أمام الجمع، وإذا وضعوا[١٤] الخرقة يوافقهم وكذلك في خلعها، ولا يمزق ما استطاع خرقة أحد، ولا يقوم بتفرقة الطعام لأن في ذلك شروطاً لا يستطيع أداءها كل شخص، ولكن يعد صب الماء على الأيدي غنيمة ولا يضع قدمه على خرق الناس وسجاجيدهم ولا يمشي حثيثاً بين الجماعة ولا يمر كثيراً أمام الجمع، ولا يجلس مكان الآخرين ولا يكتئب.

وفي الوقت الذي يشتغلون فيه بالسماع أو يمزقون الخرق، لا يقوم ولا يقول شيئاً ولا يرقص عبثاً ما لم يجارهم الشيخ، ولا يولي أحداً

---

(١٢) الطامات والطمطمات هي الكلام غير المفهوم الذي يتفوه به المريدون في حلقات الذكر في حالة الانجذاب والوجد (المترجمان).

(١٣) ترجمة العبارة الواردة في نسخة هدايت (ولا يطيل المكث «دير نباشد» في . . ألخ) المترجمان.

(١٤) أي ليسوا. (المترجمان).

ظهره في الرقص وإذا مزق الثياب على جسده لا يخلعها في الحال ولا يضعها أمام الشيخ.

وإذا مدحه درويش أو ذمة يشكره ويقدم له شيئاً، وإذا أعطاه درويش خرقة لا يقول لا آخذها بل يأخذها ويزيد عليها ويردها إليه، وإذا أدى لدرويش عملاً أو خاط له ثوباً أو غسله لا يعيده إليه بغير شكر، وإذا قام بعمل يحصل منه إساءة لدرويش يكفر عنه سريعاً، وإن أصابته راحة يشكر، وينصف من نفسه ولا يطلب ما استطاع الإنصاف من أحد.

أما دراويش أصفهان[١٤] فيطلبون ويعطون، وقوم خراسان لا يطلبون ولا يعطون وقوم طبرستان يطلبون ولا يعطون، وقوم يعطون ولا يطلبون وسمعت أن التصوف ظهر أولاً في فارس.

ويجب أن يعد الدرويش عناء نفسه كنزاً، ويختار الأناة في الشيخوخة ولا يغيب عن السفرة وقت تناول الطعام حتى لا ينتظره القوم ولا يمده إلى الزاد قبل الجماعة، ولا يكف يده عن الطعام إلا مع القوم، ولا يتطلع إلى زيادة في التفرقة، ولا يؤثر أحداً بنصيبه بغير إذن، وإذا لم يستطع تناول الطعام لعلة يقدم العذر قبل وضع السفرة ولا يقول شيئاً على السفرة، وإذا كان صائماً لا يخبر أحداً بصومه ويفطر ويوافق ولا يتطهر بغير تمييز، ويقصر الثياب للطهارة ولا يتوضأ تارة على الطريقة الخوارزمية وتارة على الطريقة العراقية. وحينما يتوضأ لا يجلس مبتل القدم على السجادة، ولا يدخلها في الحذاء ولا يضعها على الأرض وإن تكن طاهرة، لأن ذلك ليس من النظافة، وهذا هو شرط المروءة وآداب التصوف.

أما شرط المحب فهو أن لا يكون منكراً على طمطمات الصوفيين ولا يسأل عن تفسير الطامات ويرى عيبهم فضلاً، ويعد كفرهم ـ مثلاً ـ إيماناً ويكفِّر عن الكلام غير

(١٤) مدينة عظيمة من نواحي الجبل، واسم لإقليم بأسره، عاصمتها حبًّا ثم صارت اليهودية. وأصبهان اسم مركب من «أصب» أي البلد، «وهان» أي الفارس، وكان يقال لها بلاد الفرسان ومناخ هذا الاقليم معتدل صحيح الهواء وخالٍ من الهوام. والى أصبهان ينتمي صاحب الأغاني أبو الفرج الاصبهاني. را: معجم البلدان، مج ١، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧. القزويني، ص ٢٩٦.

(١٥) النقار: الداهية.

المقبول، ويحفظ ثوبه طاهراً أمامهم ويجلس في مكانه باحترام، وأن يحترم خرقتهم التي تكون من نصيبه ويقبلها ويضعها على رأسه ولا يضعها على الأرض ولا يستعملها في الأعمال الوضيعة ولا يكون خلواً من الخير ما استطاع، وإذا رأى الصوفيين قد وضعوا الخرقة يضعها هو أيضاً، وإذا كانوا بحيث قد خلعوا تلك الخرقة من أجل اللهو في دعوة أو طعام يشتريها ثانياً ويرفعها ويقبلها ويضعها على رأسه ويردها لأصحابها، وإذا كانت تلك الخرقة قد سقطت بسبب النقار فلا ينشغل بذلك البتة ويتركها ثانياً للشيخ.

لا يتدخل في نقار الصوفيين ما استطاع، وإذا حدث ذلك في وقت ما يقف في مكانه ولا يتكلم قط حتى يصلحوا شأنهم بأنفسهم مرة أخرى، ولا يكون وكيلاً لله بين الصوفية كأن يقول حان وقت الصلاة أو يقول فلنقم لنصلي، ولا يكون باعثاً على الطاعة لأنهم مستغنون عن أمر شخص لهم بالطاعة، ولا يضحك بينهم كثيراً، وكذلك لا يكون ثقيل الروح وعابس الوجه لأنهم يسمون مثل هذا الشخص (حذاء) حتى يذهب، وإذا وجد مرة طعاماً حلوا وإن يكن قليلاً يحمله إليهم ويعتذر قائلاً: ولو أنه قليل فإني لم أرد أن أعمل قبيحاً لأن الحلوي بالصوفية أولى، ودليل كلامي هذا بيتان:

رباعي

أنا صوفي يا من وجهك بين الحسان فرد
وكل الناس شيباً وشباباً ونساء ورجالاً
يعرفون أن شفتك الحمراء من الحلاوة حلوى
وفي مذهب الصوفية يجب عمل الحلوى

فإذا فعلت هكذا تكون قد أديت تمام صدق المحبين ومروءتهم، لأن ما ذكرته هو شرط صدق ومروءة المريدين والمحبين.

أما ذلك الفريق الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس يعني المروءة والصدق والعلم فأولئك هم الأنبياء، لأن كل جسد تتجمع في هذه

---

(١٦) الترجمة الحرفية: عمل.

الخصال الثلاث لا بد وأن يكون نبياً مرسلاً أو وصياً حكيماً، لأن فيه كلا الفضيلتين الجسمانية والروحانية، والفضيلة الجسمانية هي الصدق والمعرفة والفضيلة الروحانية هي العلم، وإذا خفي عليك أن لماذا أحلوا العلم فوق المعرفة، فاعلم أن الإسم الفارسي للمعرفة هو (شناختن) وحقيقة شناختن هي أن تأتي بالشيء من حد الغرابة إلى حد المعرفة والإسم الفارسي للعلم هو (دانش) وحقيقة (دانش) هي أن تعرف المعروف والغريب في حالتي المعرفة والغرابة تماماً لتعرف الدرجات الحسنة والدرجات السيئة.

واعلم كذلك أن تمام العلم في كل شيء خمسة أنواع: الأيشية والكمية والكيفية والسببية واللمئية يعني (المصادر من): أي شيء؟ وكم؟ وكيف؟ وما سبب؟ ولم؟

فالأيشية هي أن تقول إني أعرف فلان أي شيء هو ومن هو، وهذه هي المعرفة، والبهائم مشاركة للآدمي، في هذا المعنى لأنها تعرف غذاءها وصغارها وكذلك الآدمي، ولكن لمَّا زاد العلم في الآدمي عرف الأيشية مع الكيفية والكمية والسببية واللمئية، ألا ترى أنك إذا وضعت للبهائم النار في مذودها فإنها لا تبتعد ما لم تدخل فيه رأسها ويصبها ألم النار وتحترق؟ لأنها تعرف النار بالأيشية لا بالكيفية، والآدمي يعرف الأيشية والكيفية، فصار حقاً أن العلم فوق المعرفة، وأن كل من له كمال العلم يليق بالنبوة لهذا السبب، لأن للأنبياء علينا من الشرف والزيادة بقدر ما لنا على البهائم، ولأن للبهائم معرفة الأيشية وحسب وللآدمي الكيفية وللأنبياء الكيفية والكمية والسببية واللمئية، والبهائم تعرف أن النار تحرق وكفى، والآدمي يعرف أنها تحرق وكيف تحرق ولأي سبب تحرق، أما كمال الآدمي فهو الإنسانية، يعني أن يكون له كمال المروءة، وكما المروءة هو أن يكون له كمال العلم، وتلك هي النبوة، وكمال النبوة هو الروحانية لأنه لا توجد في درجة الآدمية منزلة أعلى من النبوة، فأولئك القوم الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس والمعاني ليسوا سوى الأنبياء حقاً.

والشخص الذي أصابه نصيب كامل من الصورة الإنسانية لا يمكن أن يوصف إلا على مقتضى الصفاء وهو أسمى من الوهم وتكون معرفته بالمعاملة لا بالقول،

وتجربة ذلك الشخص الذي له صفاء تكون منه وحده ويكون منه العلم كذلك وصفاؤه بغير سلف وقصده بغير غرض وبغير طلب وهو بريء من الوحشة ومنزه عن الأنانية وبعيد عن السبب وبقاؤه في الفناء، وصافي الصفة في الصفات، ويرى نفسه في غيره وينظر إلى العين بعين غير العينية، فإذا سمت منزلة هؤلاء القوم وصارت محط الأنظار فجائز.

فاجتهد يا بني أن تكون بعيد النظر في كل صفة تكون وقريناً للمروءة لتكون من المصطفين وإذا أردت أن تسلك طريق المروءة في أية طائفة تكون فلا تكن مستهتراً وكف على الدوام ثلاثة (عن ثلاثة)[1]: العين عما لا ينبغي رؤياه، واللسان عما لا يليق قوله، واليد عما لا يحل أخذه، وافتح للصديق ثلاثة أشياء: باب البيت والسفرة، ورباط الكيس على قدر طاقتك. ولا تكذب لأن كل اللئام يتميزون بالكذب، وكل اللؤم في قول الكذب، وإذا اعتقد شخص في مروءتك، وإن كان قد قتل أعز الناس عليك وكان ألد أعدائك، ما دام أسلمك نفسه وأقر بعجزه واعتمد على مروءتك من دون كل الخلق، إذا كانت روحك ستذهب فى هذا الأمر فدعها تذهب ولا تخش، وجاهد من أجله بروحك لتتحقق فيك المروءة[2].

وحذار أن تنشغل بالانتقام لما مضى وتفكر في الخيانة لأن الخيانة ليست من شراط المروءة، واعلم يا بني أن هذا الطريق طويل، وإذا بينت مروءة كل طائفة فإن كلامي سيطول في كيفية ولمئية هذا الطريق ولكني أختصر الكلام لأن كل هذا الذي قلته فيه فصل الخطاب.

أعلم أن أتم المروءة هو أن تعد ما هو لك من متاعك، وتقطع الطمع عما للخلق وإذا كان لك شيء تجعل منه نصيباً للناس، ولا تطمع في مال الناس ولا تأخذ ما لم تكن قد وضعته وإذا استطعت إسداء المعروف إلى الناس تفعل، وإذا لم تستطع

---

(١٧) ليست في الأصل. (المترجمان).

(١٨) الترجمة الحرفية: لتصل إليك المروءة (المترجمان).

عمل الخير فلا أقل من تكف شرك عن الخلق فإن أجل الناس من يعيش في العالم كما ذكرت، فتكون له الدنيا والآخرة أيضاً.

واعلم يا بني أني تحدثت عن القناعة في هذا الكتاب في عدة مواضع وأكرر ذلك مرة أخرى، فإذا أردت أن لا تكون حرج القلب على الدوام فكن قنوعاً ولا تكن حسوداً، ليطيب وقتك دائماً، لأن أصل الغم هو الحسد، واعلم أن تأثير الفلك من خير وشر يصيب الناس دائماً، وكان استأذي يقول: يجب أن يشرئب[١٩] المرء بعنقه ويفغر فاه أمام الفلك على الدوام حتى إذا ما وقعت شدة تلقاها بعنقه أو لقمة بفمه، كما يقول الله تعالى: ﴿**فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين**﴾[٢٠] لأن تأثير الفلك لا يعدو هذين، وإذا سلكت الطريق[٢١]وتعودت القناعة فإن جسدك الحر لا يكون عبداً لشخص.

ولا تجعل للطمع مكاناً في قلبك وأرض بالخير والشر على تلك الحال التي قد اتفقت لك، واعلم أن الناس جميعاً من أية طائفة كانوا، عبيد لرب واحد وكلهم أولاد آدم، وكل فرد يكون أقل من آخر بسبب الحاجة والطمع، فإذا أخرج المرء الطمع من قلبه واتخذ القناعة شعاراً يستغنى عن كل العالمين فأكثر الناس إحتشاماً في الدنيا من لا تكون له حاجة إلى أحد، وأحقر وأخس شخص في العالم من كان ذا طمع واحتياج، إذ أن الناس يجعلون أنفسهم عبيداً لأمثالهم بسبب الطمع والحاجة.

(حكاية)

دخل الشبلي[٢٢] رحمة الله عليه مسجداً ليصلي ركعتين ويستريح بعض

---

(١٩) يشرئب: يمد عنقه ويرفعه.

(٢٠) القرآن الكريم، سورة (الاعراف) آية ١٤٤.

(٢١) الترجمة الحرفية: وإذا أخذت الطريق على يدك والمقصود بالطريق طريق الصوفية.

(٢٢) أبو بكر دلف بن جحدر، هو صوفي سني ولد عام ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ببغداد في أسرة أصلها من بلاد ما وراء النهر، عمل والياً على دومالد، وانصرف في الأربعين من عمره إلى الزهد، وسار في حياته سيره غريبة الأطوار سواء في سلوكه العملي أو النظري، فاعتقل في سجن المجانين ببغداد وتوفي سنة ٣٣٤ هـ. راجع: د. م. أ، مج ١٣، ص ١٦٥ ـ ١٦٦. معجم الاعلام، مج ٢، ص ٣٤١.

الوقت وكان في ذلك المسجد صبيان كتاب والوقت وقت طعامهم، فكانوا يأكلون، واتفق أن كان طفلان جالسان أمام الشبلي أحدهما ابن غني والآخر ابن فقير، وفي زنبيل[23] ابن الغني حلوى، وفي زنبيل ابن الفقير خبز يابس، وكان ابن الغني يأكل الحلوى وابن الفقير يطلب منه فقال له: إذا أردت أن أعطيك حلوى فكن كلبي، فقال هذا الصبي أنا كلبك، فقال ابن الغني: أنبح نباح الكلب، فاثنى ابن الفقير المسكين وأخذ ينبح نباح الكلب حتى أعطاه قطعة حلوى، والشبلي ينظر إليهما ويبكي، فسأله المريدون أن ماذا حدث يا شيخ فبكيت؟ فقال: أنظروا إلام يصل الطمع بالناس! لو أن ذلك الصبي قنع بخبزه القفار ولم يطمع في الحلوى لما لزم أن يكون كلباً لمثله.

فإن تكن زاهداً أو فاسقاً فكن قانعاً ومحمود الفعال لتكون في الدنيا أجل الناس وأقلهم خشية.

اعلم يا بني أني ذكرت في هذا الكتاب أربعة وأربعين باباً، وفي كل باب تحدثت إليك عن كل معنى عرفته بقدر ما واتاني الطبع، وذكرت كل ما كان من عظة ونصيحة إلا في باب العقل لأني لا أستطيع أن أقول قط كن عاقلاً وأريباً بالعسف، إذ لا يمكن أن يكون المرء عاقلاً قسراً، أعلم أن العقل نوعان، عقل غريزي وعقل كسبي، أما ذلك الغريزي فيقال له في الفارسية «خرد» وذلك الكسبي يقال له «دانش» أما ما يكون كسبياً فيمكن تعلمه ولكن العقل الغريزي هدية الله ولا يمكن تعلمه من المعلم بالتعليم فإذا كان الحق تعالى قد أعطاك العقل الغريزي فاجتهد في الكسبي وتعلم وأقرن الكسبي بالغريزي ليصل إلى درجة الكمال وتكون بديع الزمان، وإذا لم يكن عقل غريزي لا نستطيع أنا وأنت عمل شيء فلا تقصر في الكسبي على أي حال وتعلم بقدر ما تستطيع حتى إذا لم تكن من جماعة العقلاء لا تكون أيضاً من جملة الجهلاء ويحصل لك واحد من الإثنين فقد قيل: **إذا لم يكن الأب فلا أفضل من الأم.**

فالآن إذا أردت أن تكون عاقلاً فتعلم الحكمة فإنه يمكن تعلم العقل

---

(٢٣) زنبيل: قفة أو جراب.

بالحكمة، كما سألوا أرسطاطا ليس أن من أي شيء تكون قوة العقل؟ فقال قوة كل إنسان من الغذاء، وغذاء العقل من الحكمة.

* * *

فاعرف الآن يا بني أني ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلاً في كل باب وكل ما كان من عادتي جعلته جملة كتاباً في أربعة وأربعين باباً من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائماً عادتي من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة، وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائه(٢٤)، فإذا أعطاني الله تعالى عمراً بعد هذا أكون كذلك على تلك القاعدة، ما حييت، وما استحسنته لنفسي لك أيضاً، وإذا رأيت خصلة وعادة أفضل من هذه بحيث تكون أفضل لك فاعملها وإلا فاسمع وصاياي هذه بمسمع القلب واعمل بها، وإذا لم تسمع ولم تقبل فلا ضير عليك ومن يكن الله تعالى قد خلقه سعيداً يقرأها ويتقبلها ويعمل بها لأن كل ما قلته علامة السعداء في الدارين، فليرحمني الله تعالى وإياك ويبلغك رضائي في الدارين بمنه وفضله وكرمه والحمد رب العالمين.

---

(٢٤) تجمع معظم المصادر التاريخية على أن وفاة قابوس بن اسكندر كان سنة ٤٦٢ هـ، وهذا ينفي ما جاء في النص الفارسي من أن الكاتب ألف كتابه سنة ٤٧٥ هـ، فالارجح أن يكون قابوس قد ألفه سنة ٤٥٧ هـ وأن الخطأ من الناسخ.

الفهارس

فهرست الآيات القرآنية

فهرست الأحاديث النبويّة

قال النبي المصطفى ﷺ:

فهرست الأقوال والحكم والأمثال

فهرست الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

- ق -

- ك -

- م -

فهرست الأماكن والمدن

فهرست المصادر والمراجع

- آثار البلاد واخبار العباد للقزويني، دار صادر بيروت، د. ت.
- الأحكام السلطانية للماوردي، دار الكتب العلمية بيروت، د. ت.
- احياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة بيروت، د. ت.
- آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، تحقيق البير نادر، دار الشروق بيروت، ط ٣، د.ت.
- الاشارة إلى أدب الامارة للمرادي، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة بيروت، ط ١، ١٩٨١.
- الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام، لعبد الرحمن بدوي، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٤.
- الاغاني لابي فرج الأصفهاني، دار صعب، نقلاً عن طبعة بولاق، بيروت د. ت.
- أفلاطون في الاسلام لعبد الرحمن بدوي، دار الاندلس بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.
- إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني بيروت ط ١، ١٩٨٢.
- إيران والعراق في عهد الساسانيين لكرستنس، تعريب يحيى الخشاب، لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٥٧.
- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ ١ - ١٤.

ـ التاج في اخلاق الملوك للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب بيروت، د. ت.
ـ تاريخ ابن خلدون، مؤسسة الاعلمي بيروت، د. ت. ١ ـ ٧.
ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي، حسن إبراهيم حسن، دار الاندلس بيروت، ط ٤، ١٩٦٤. ١ ـ ٤.
ـ تاريخ الحضارة الاسلامية، عبد المنعم ماجد، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ط ٤، ١٩٧٨.
ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ادم متز، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٤، ١٩٦٧، ١ ـ ٢.
ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، دار مروان، بيروت ١٩٦٩.
ـ تاريخ الطبري، مؤسسة الاعلمي، بيروت ط ٤، ١٩٨٣. ١ ـ ٨.
ـ التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي، تحقيق محمد دمج، المركز الاسلامي للبحوث، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.
ـ التربية في الاسلام للاهواني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
ـ التربية وعلم نفس الولد في الذات العربية لعلي زيعور، دار الاندلس، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.
ـ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، د. ت. ١ ـ ٢.
ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق لمسكويه، مكتبة الحياة، ط ٢، ١٩٧٨.
ـ الجمهورية لافلاطون، تعريب حنا خباز، دار احياء التراب العربي، بيروت ١٩٦٩.
ـ الحكمة الخالدة لمسكويه، تحقيق بدوي، دار الاندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.

- دارسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية لجواتيياين، تعريب عطية القوصي، الكويت ط ١، ١٩٨٠.
- راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي، تعريب إبراهيم الشواربي، دار العلم القاهرة، ١٩٥١.
- رسائل اخوان الصفاء، دار صادر بيروت، د. ت ١ ـ ٤.
- رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الاندلس بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.
- رسالة ايها الولد للغزالي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية ١٩٥١.
- الرسالة الجامعة لاخوان الصفاء، تحقيق مصطفى غالب، دار الاندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤.
- رسالة في السياسة الاهلية لابن سينا، نشرة مجلة المرشد، بغداد ١٩٢٩.
- رسالة في السياسة الفارابي، نشرة الاب لويس شيخو اليسوعي، بيروت ١٩٠١.
- رياض الصالحين للنووي، تحقيق عبد الله أبو زينه، المكتبة العصرية بيروت، د. ت.
- سراج الملوك للطرطوشي، المكتبة الوطنية بالاسكندرية، مصر ١٢٨٩ هـ.
- سر الاسرار لتأسيس السياسة وترتيب الرياسة، اخوان الصفاء، تحقيق احمد التريكي، دار الكلمة بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- سرح العيون لابن نباتة المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦.
- سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي، القاهرة ١٢٧٨ هـ.
- سلوك المالك في تدبير الممالك لابن أبي الربيع، تحقيق ناجي التكريتي، دار الاندلس بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.
- سلاجقة ايران والعراق لعبد المنعم حسنين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط ١، ١٩٥٩.

- سياست نامهْ لنظام الملك، تعريب يوسف بكار، دار القدس بيـروت، ط ١، د. ت.
- الشفاء (الإلهيات) لابن سينا، تحقيق إبراهيم مدكور القاهرة، د. ت.
- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، دار المعرفة بيروت. ط ٢، د. ت. ١ ـ ٦.
- عيون الاخبار لابن قتيبة، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٧٣، ١ ـ ٤.
- العقد الفريد لابن عبد ربه، دار الاندلس بيروت، ط ١، ١٩٨٨، ١ ـ ٥.
- العهود اليونانية لاحمد ابن الداية: ضمن الفلسفة السياسية عنـد العرب لعمـر المالكي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط ٢، ١٩٨٠.
- غرر اخبار ملوك الفرس للثعالبي، طهران ١٩٦٣.
- الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقا، دار بيروت، ١٩٨٠.
- الفكر السياسي الاسلامي الوسيط لمنتغومري واط، تعريب صبحي الحديدي، دار الحداثة بيروت، ط ١، ١٩٨١.
- قابوس نامهْ، تعريب صادق نشأت، مطبعة الانجلو المصرية ١٩٥٨.
- قابوس نامهْ، نشرة كتابفروسي حافظ، طهران ١٣١٧ ش.
- قابوس نامهْ، نشرة سعيد نفيسي، طهران ١٣١٢ ش.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي، دار الجيل بيروت، د. ت.
- قوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي، تحقيق رضوان السيـد، دار الطليعـة بيروت ١٩٧٩.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ١ ـ ١٠.
- كتاب بروسن في تدبير المنزل، نشرة مارت بلسنر، هيدلبرغ ١٩٢٨.
- كتاب السياسة لارسطاطاليس، تعريب اوغسطين البولسي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.
- كتاب السياسة المدينة للفارابي، تحقيق فوزي نجار، بيروت ١٩٦٤.
- كتاب السياسة للوزير المغربي، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٤٨.

كتاب الوفيات لابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق بيروت، ط ٤، ١٩٨٣.

- كشف الخفاء ومزيل الالباس للعجلوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥، ١ - ٢.

- مجلة الفكر العربي، السنة الثالثة، العدد ٢٢، ١٩٨١.

- المحاسن والأضداد للجاحظ، نشر المكتبة الشعبية بيروت، د. ت.

- المختصر في اخبار البشر لابي الفداء، دار المعرفة، بيروت، د. ت. ١ - ٢.

- مروج الذهب للمسعودي، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية مصر، ط ٤، ١٩٦٤، ١ - ٤.

- معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ لزامباور، اخراج زكي محمد حسنين، مطبعة جامعة فؤاد الأول القاهرة، ١٩٥١.

- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.

- المعجم الذهبي (فارسي عربي) تأليف محمد التونجي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩.

- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث، مطبعة بريل في ليدن، ١٩٦٩.

- ميزان العمل للغزالي، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ط ١، ١٩٦٤.

- النجاة لابن سينا، تحقيق ماجد فخري، دار الآفاق بيروت، ط ١، ١٩٨٥.

- النظم الاسلامية لحسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٦٢.

- النهج المسلوك في سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله، مطبعة الظاهر، القاهرة.

- الوزارة في عهد السلاجقة لعباس اقبال، تعريب أحمد كمال الدين حلمي، مطبوعات جامعة الكويت، د. ت.

- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصرية ١٩٤٨.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

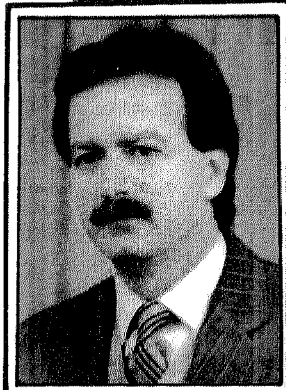
الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الكتاب الثاني

سلسلة الفلسفة السياسية العملية في الإسلام



مرايا الأمراء

«مرايا الأمراء» نموذج من كتب الحكمة السياسية وفلسفة الأخلاق والتعامل، وعينةٌ من الفكر الفلسفي السياسي الإسلامي الذي يترجم الواقع، ويرتبط بحياة الناس اليومية، وبالقضايا التي تمس الإنسان الفرد في سلوكه وأخلاقه ومتصرفاته.

إنه الصورة المثلى لتجربة الأمة الإسلامية في سياقها التاريخي السياسي والإجتماعي، والترجمة الفعلية لواقع المجتمع العربي الإسلامي خلال العصور الوسيطة.

يتناول الكتاب آداب السلوك الإجتماعي، ويكشف عن حياة الإرستقراطيين وأشكال الحكومات، ونظم الاجتماع والاقتصاد، ويحدد للحكام والقادة، المناهج والمسالك التي تمكنهم من الإمساك بمقاليد الحكم لأطول مدة ممكنة، كما يعلِّم الإنسان القيّم والأخلاق الرشيدة، ويعرِّفه بالمهن والصنائع وبالعلوم والفنون والحرف، معتمداً أسلوب الوعظ والنصح والتوجيه، ومسترشداً بالحكايات والمأثورات والمضحكات؛ المستلهمة من التاريخ العربي الإسلامي، ومن حضارات الهند والفرس واليونان والرومان، ناهيك عن الأمثال والأقوال والحِكَمْ، الداعية إلى حسن التصرف والأداء.

والكتاب جزء حيّ من ذلك اللون الأدبي المعروف بأدب الملوك، أو أدب الوصايا والنصائح، نقدمه هدية للمتخصصين والباحثين والمثقفين وطلاب الجامعات، وللقراء العرب المهتمين بالفكر الفلسفي، وبالتاريخ العربي الإسلامي المجيد.

الناشر

مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع
منشورات بحسون الثقافية ـ دار المنال
سجل تجاري ١٠٩٥٤ - بولفار سليم سلام - بناية سوق الروشة
تلفون: ٣٠٥٦٢٢-٣١٩١٤٧ - ص.ب ١١/٨٥٠٥ - بيروت - لبنان